KELLY JAMES CLARK

ABRAHAM'S CHILDREN

كيلي چيمس كلارك

أبناء إبراهيم



ترجمة: إسلام سعد - علي رضا - سلمى العشماوي

العنوان : أبناء إبراهيم
تحرير : كيلي جيمس كلارك
ترجمة : إسلام سعد – علي رضا – سلمى العشماوي
الطبعة : الأولى 2019

الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع
22 ب شارع الجمهورية – وسط البلد – عابدين – القاهرة
تليفون +2 02 23915978
masrelarabia@hotmail.com

الإيداع :2019/1651
I.S.B.N : 978-977-428-137-2
الغلاف : عبد الرحمن الصواف

الآراء الواردة بهذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر عن وجهة نظر أو توجهات دار مصر العربية للنشر والتوزيع أو العاملين بها أو المترجمين الذين أوكلت إليهم مهمة ترجمة الكتاب.

نسخة الكتاب باللغة الإنجليزية صادرة عن جامعة يال في الولايات المتحدة الأمريكية
Yale University Press - USA

أبناء إبراهيم

تحرير

كيلي جيمس كلارك

ترجمة وتحرير الطبعة العربية : إسلام سعد
ترجمة : علي رضا – سلمى العشماوي

2019

مصر العربية للنشر والتوزيع

المحتويات

يلزم توجيه الشكر لكلٍ من الأستاذ/ أشرف البولاقي، والصديقتين العزيزتين: أسماء ياسين وأسماء العصاميصي لدعمهم المستمر الذي أثمر عن خروج هذا العمل في أفضل صورة ممكنة.

إسلام سعد.

مقدمة الترجمة العربية

كيلي جيمس كلارك

ترجمة: إسلام سعد.

في أكتوبر 2018، تشرفت بإعطاء محاضرتين بعد دعوة وجّهتها لي جامعة الأزهر بالقاهرة، مصر. ويقال إن جامعة الأزهر هي الأكثر رونقًا وتأثيرًا من بين الجامعات الإسلامية، وقد كانت كذلك قرابة الألف عام. طُلِبَ مني أن أتحدث عن موضوع: "غرباء، جيران، أصدقاء: تأملات فكرية مسلمة ومسيحية حول التعاطف والسلام" لجمهور حماسي يقترب من مائتي طالب بالإضافة إلى أساتذة الجامعة.

كانت لديَّ بعض المخاوف بالطبع. فباعتباري مواطنًا من الولايات المتحدة، أبيض، ذكرًا، تم تلقيني بواسطة الإعلام تصورات عن العرب/المسلمين باعتبارهم أشخاصًا غاضبين، إرهابيين يكرهون الولايات المتحدة، وهي التصورات التي تُغَذِّي تحيُّزاتنا ومخاوفنا الراسخة بسهولة شديدة. لكنني كنت أعمل بشكل مباشر مع مسلمين لأجل السلام لفترة تتجاوز عقدًا من الزمان وعرفت أن مخاوفي لم تتأسس على الواقع.

عرفت، على الأقل فكريًا، أن 99.9% من المسلمين يريدون أن يحيوا في سلام وتوافق مع الناس حول العالَم. كما عرفت أنه لا يلزم على الرؤية التي تُمثِّلها نسبة أقل من 1%، من الذين يُطْلَق عليهم لقب المتطرفين الإسلاميين، الهيمنة على رؤيتي عن الإسلام.

لكنني بشر، ويُغَذِّي الإعلام والإرهابيون كُلَّ مخاوفي الإنسانية، وهي المخاوف التي يَطْلب مني ديني (المسيحية) مواجهتها والتغلُّبَ عليها باسم الحب والسلام. فكما يَرِد في سفر يوحنا الأول، الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرُدُ الْخَوْفَ خَارِجًا.

وبفضل مَحبَّتي المنقوصة، لا زلت أخاف؛ ويعتمل داخلي خوف يسعى أحيانًا للهيمنة على رغباتي لأجل السلام. لست بطبيعتي شخصًا مُجَامِلًا ومُتَعَاطِفًا. أحتاج للتعلُّم كي أصبح طيبًا ومتعاطفًا، من خلال مواجهة مخاوفي وأشكال غضبي وكراهيتي، وليس هذا بالأمر السهل. فأنا، كأغلب البشر، أتعلم ببطء، وربما أنت أيضًا كذلك.

وبينما كانت محاضرتي التي تتعلق بالتأملات الفكرية المسلمة والمسيحية حول التعاطف والسلام مُنْعَقِدَة، تَحَدَّثْتُ في الغالب عن وإلى أعضاء ينتمون لمجتمعي المسيحي، مُسْتَهْدِفًا ما أعرفه ومن أعرفهم.

أظن أنه من المهم أن ندع المنتمين للتقاليد الأخرى يتحدثون عن أنفسهم. وتكمن وظيفتنا في الاستماع لهم والتعلُّم منهم. ولذا استمعت لأُخْواني المسلمين وأخواتي المسلمات الذين يسعون للسلام والتعاطف ويتحدثون عنهما بكل ما في عقلهم من فكر وبكل ما في قلبهم من نبضٍ. لقد تعلمت، على النقيض من بعض السياسيين المعاصرين وأصحاب الأحكام المسبقة، أن الإسلام ليس بِشَرٍ، وأن المسلمين لا يكرهوننا، وأن القرآن ليس وثيقة للدمار. لقد تعلمت، عوضًا عن ذلك، أن القرآن يُحَرِّم الإكراه في الدين، ويُعَزِّز التعددية الدينية (ويراها باعتبارها إلهامًا للخير، لا للشر). ولقد التقيت مسلمين بدءًا من عبد الكريم سروش Abdolkarim Soroush لرنا الحسيني Rana Husseini فهموا أن الإسلام يُعارض القمع، والظلم، والعنف، وتعصُّب الذكور ضِدَّ الإناث. يمكنك أن تستمع لهما [عبد الكريم سروش ورنا الحسيني] في هذا الكتاب، وأن تتعلم.

وبينما كنت في جامعة الأزهر، التقت مخاوفي بعطف فوري ومستمر وصداقات تمتد لي دون مقابل. وفي ضيافتهم تشاركنا الشاي والوجبات والحديث عن حيواتنا. استمع الجمهور بهدوء وانتباه لي. بعد أن فرغت من المحاضرة سُئلت أسئلة صعبة لكنها صادقة، وتعاملوا معي بإنصاف حين أجبت بشكل متردد. كان حماس الطلبة طاغيًا على المشهد ـ وتلقيت عددًا لا يُحصى من الطلبات لالتقاط صور معي وأحضان ونُسَخ من كتبي. وكنت سعيدًا للغاية بفعل ذلك. التقيت، في نفس اليوم المثير والمدهش، أناسًا مثلي وليسوا مثلي

سعوا للسلام والتعاطف في عالمنا العسير لغاية (أينما وُجدا، في محاولة مني لمحاكاة حديث إسلامي ولو قليلًا؛ [اطلبوا العلم ولو في الصين]).

لقد عقدت صداقات، كما آمل، ستستمر مدى الحياة وسأعود قريبًا لأبدأ العمل على مشاريع — كمسلمين ومسيحيين سويًا — مع زملائي في الأزهر.

لقد تعلمت بشكل مباشر هناك ما أكتبه في فصلي بهذا الكتاب عن التسامح. من جهة أننا جميعًا نميل طبيعيًا للخوف، وأن نضع أنفسنا على مسافة مُعْتَبَرَة من "الآخر"، وربما نؤذيه ـ أشخاص نختلف معهم في ما يتعلق بأمور جادة حول الأخلاقية والدين. بالتالي، يُشَكِّل "الآخر" تهديدًا لامتلاكنا الحقيقة ولخيرنا، وهي حقائق أقمنا عليها حيواتنا، وأقام عليها الآخرون حيواتهم في مجتمعاتنا المؤمنة. ويلزم مقاومة التهديدات.

لكن يسوع، الذي أزعم أنني أتَّبعه، يطلب مني التوبة ـ أن أقاوم مخاوفي الدافعة للكراهية وأن أغرس بدلًا منها التعاطف والسلام. بالتالي، تتطلب المسيحية، تغييرًا كاملًا للقلب من رغبتنا الطبيعية للغاية والمتعلقة بوضع مسافة بيننا [وبين الآخرين] لنرحب بهؤلاء المختلفين عنَّا ونعززهم. لا يُمَثِّل حب القرابة والقبيلة مشكلة لنا، نحن المخلوقات الأنانية للغاية والساعية لمصلحتها الخاصة، [بينما] يكون حُبُّ الغريبِ، بل حتى العدو، أمرًا يُقارب حدود المستحيل. ومع ذلك، مطلوب مني أن أحب الغريب والعدو، وأن أعمل لأجعلهم أصدقائي.

يلزم عليَّ القول بأن ملاقاة الغريب تصبح أسهل بشكل ملحوظ عندما يلاقي المرء، كما حدث في الأزهر، غرباء مضاييف، وودودين وعُطُفًا (كما فعلت بينما أسافر حول العالم المسمى بالعالم الإسلامي). أينما ذهبت، أجد الأيادي تمتد لي بعطف (حسنًا، وأجد بعض الأيادي الأخرى الساعية للحصول على صدقة). وكما حاولت أن أتعلم التغلب على تحيزاتي ومخاوفي الخاصة، التقيت بغرباء يتوقون للصداقة معي عبر فيسبوك Facebook، وهو ما يجعل من حُبِّ الغريب أمرًا أسهل بكثير.

ولذا، أتوجه بالشكر لأصدقائي في الأزهر، ولأصدقائي المسلمين على امتداد الشرق الأوسط وتركيا وإندونيسيا، وذلك لأنهم خففوا عني عبء تقدمي الأخلاقي والروحي في مسيرتي صوب التعاطف والتسامح والسلام.

لكن، ليس بمقدور كل مواطن أمريكي السفر للشرق الأوسط ولا يستطيع كل مسلم عربي السفر للولايات المتحدة. لذا نحتاج لخلق مساحات يمكن للمسلمين والمسيحيين واليهود الطامحين للسلام الالتقاء فيها. ولقد حاولت أن أخلق جزءًا صغيرًا من هذه المساحة عبر هذا الكتاب. لو أنك مسلم، دعني أقدم لك نوريت بيليد إلهانان[1] Nurit Peled-Elhanan ونيكولاس ولترستورف Nicholas Wolterstorff؛ ولو أنك يهودي، دعني أقدم لك عبد الرحمن وحيد Abdurrham Wahid وميروسلاف فولف Miroslav Volf؛ ولو أنك مسيحي، دعني أقدم لك عبد الكريم سروش وليا شاكديل Leah Shakdiel.

أتمنى أن تتعرف/ تتعرفي عليهم، وأن تضع أحكامك المسبقة ومخاوفك جانبًا وتتوقف قليلًا لتنصت لهم.

وببطء، تحبهم.

---

(1) إنني أتفهم الحساسيات في العالم العربي فيما يتعلق بمعاملة إسرائيل للفلسطينيين. إلا أنني أعتقد في حاجتنا لسماع كل أبناء إبراهيم، حتى أبناء الله اليهود، ولسببين. أولًا، وهو السبب الأهم، فاليهود، مثل المسيحيين والمسلمين (والهندوس والملحدين، في هذه النقطة بالتحديد) أبناء الله، وبما أنهم كذلك، فهم قيِّمون بشكل غير محدود ويستحقون الاحترام. ثانيًا، اليهود، مثل المسيحيين والمسلمين، أبناء إبراهيم. يمكنني إضافة أسباب قرآنية كذلك ـ فالله يُثَمِّن التعددية: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات: 13)، وأن الخلاص متاح لليهود: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة: 62). لكن، وكما أوضحت، سأدع المسلمين يتحدثون بالأصالة عن الإسلام. أخيرًا، لا أظن أن هناك سببًا لافتراض أن دولةَ إسرائيل العلمانية السليلةُ التاريخية للشعب اليهودي؛ لأن إسرائيل، وأعني إسرائيل المعاصرة ليست، ولا يجب أن تكون، مُمَثِّلَة لليهودية. وبالتالي، لا يجب على غضب المرء من أشكال الظلم الحادثة في إسرائيل أن يؤثر على سلوكه سلبيًا تجاه اليهود واليهودية.

نداء إلى أبناء إبراهيم

كيلي جيمس كلارك
ترجمة: إسلام سعد.

"إن التاريخ مليء بالحروب الدينية، لكن، يجب أن نهتم بملاحظة أن تعدد الأديان لم يُنتِج هذه الحروب، وإنما الروح غير المتسامِحَة هي التي حَرَّكَت ذلك الذي اعتقد أنه يمتلك سلطة الحكم".

بارون دي مونتسكيو Baron de Montesquieu.

كاريكاتيرات عن التَّعَصُّب الديني

هناك سردية شائعة عن العنف المحَفَّز دينيًّا، تدَّعي وجود سلسلة طويلة، متصلة منذ القِدَمِ إلى الحاضر عن عدم التسامح الذي تمارسه الجماعات الدينية، بالأخص الأديان الإبراهيمية تجاه أعضاء المجموعات الدينية الأخرى. إنها سردية عن العنف، والقمع، والتعذيب، والحرب. تتجاهل هذه السردية الانتقائية للغاية أشكال الخير التي أتت بها الأديان للعالم، ومُشَوَّهة بشكل مبالغ فيه، ولذا، يجب إعادة سردها، وإعادة أخذها في الاعتبار، وإعادة تقييمها.

كاريكاتير رقم 1: بأوامر محددة من الله، قام العبرانيون الأوائل بسحق مدن مكرسة لآلهة منافِسَة، ليقتلوا النساء والأطفال على قدمٍ سواء. والقمع اللاحق الذي لاقوه تقريبًا من كل جماعة دينية أخرى، وإجبارهم على الإقامة المؤقتة من وطن إلى آخر معروف. ويُعتبر الهولوكوست بالطبع واحدًا من أبشع الأعمال الشريرة في كل التاريخ البشري. ولكن منذ عودتهم إلى إسرائيل، صار المقموعون هم الذين يمارسون القمع – تم إقصاء الفلسطينيين بالقوة من الأرض التي كانت وطنهم لمدة 2000 عام، وتتم معاملتهم باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية.

وكل غير يهودي يجرؤ على أن يسائل السياسات الإسرائيلية يتم اتهامه بأنه عدو إسرائيل ومُعادٍ للسامية. بينما يكون اليهود الذين تأتيهم الجرأة على مسائلة السياسات الإسرائيلية [أو بالأحرى، يتم النظر إليهم باعتبارهم] مشمئزين من أنفسهم وكارهين لها.

كاريكاتير رقم 2: بينما تُعَلِّم النصوص المسيحية أن الحبَّ لا حدود له، وضع المسيحيون خلال التاريخ حدودًا ضيقة لمحبتهم. لقد خانوا أعمق عهودهم، غالبًا باسم إلههم وضد الممارسين للأديان الأخرى. وضعت مأسسة المسيحية من قِبل الإمبراطورية الرومانية ديانةً مناهضة للعنف على طريق للعنف. فشل الصليبيون في مسعاهم، بعد دفع ثمن بشري ثقيل، للتخلص من المسلمين "الكُفَّار" في الأراضي المقدسة. إن البشاعات والحروب الدينية للإصلاح، التي تورطت فيها كل الأطراف، تسببت في جعل نهر السين Seine يجري بلون الدماء الأحمر. تم تشتيت وتدمير السكان الأصليين لأمريكا تحت راية الله. جلب كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus الإنجيل والجراثيم للعالم الجديد، عائدًا بالعبيد والذهب. ولقد شهدنا في يومنا هذا زيادات في عدد الأصوليين دينيًا، الذين يقتلون باسم الله أو دفاعًا عن الفتاوى. وقد تلاعب القادة الأمريكيون بالعهود المسيحية لدفع الأمة نحو حروب مقدسة جديدة في العراق وأفغانستان مع عدم اكتراث مُستَهْتِر بمصلحة الإنسان.

كاريكاتير رقم 3 (وهو كاريكاتير رائج منذ 9-11): الإسلام بطبيعته دين الغزو؛ فبينما كان الرسول محمد يطالب بحسن ضيافة الغرباء داخل خيمة المسلم، حَكَم - خارج الخيمة - السلبُ والنهبُ الأرضَ. انتشر الإسلام بالسيف من واحة المدينة الصغيرة إلى سائر الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا وإسبانيا ليخلق إمبراطورية دنيوية ضخمة. بعد يوم الحادي عشر من سبتمبر 11/9، صار مصطلح "مسلم" مرادفًا، عمليًا، لكلمة "إرهابي". يخشى يهود إسرائيل من انعدام الثقة في جيرانهم المسلمين لأنهم مستعدون لتدمير أمتهم. لا تدفع الهجمات الصاروخية المتتالية الآتية من قطاع غزة على حدود إسرائيل باتجاه الثقة.

هناك الكثير من اللغط الذي يلزم الاختلاف معه في ما يتعلق بهذه السرديات

الانتقائية للغاية والجائرة في آنٍ. لقد حَثَّت الاعتقادات اليهودية، والمسلمة، والمسيحية على الخير العميق والدائم، بل ربما حَثَّت عليه أكثر من الشر (سنأتي لهذه النقطة لاحقًا). ولكن، بالفعل، تم إقحامهم في شرٍ مزعج وعميق الأثر – شرٌ بات من الصعب شرحه في ضوء توجههم بامتثال نحو إله كليّ الرحمة. ولكن، كما يتهم البعض، ليس من الصعب شرح العنف المحَفَّز دينيًّا عندما يفهم المرء بشكل كامل إيمان أبناء إبراهيم.

تحدي الإلحاد الجديد

في الفيلم الوثائقي "جِذْرُ كل الشرور؟"، يزعم أستاذ علم الأحياء في أكسفورد ريتشارد دوكينز Richard Dawkins، (رغم وجود علامة الاستفهام في عنوان الفيلم الوثائقي)، أن الدين (تقريبًا) هو أصل كل الشرور. إن ذلك الإيمان الديني الذي يظهر مُقَدَّسًا، مُعتدِلاً بل وحتى مسالماً هو الذي يدفع الشاب الصغير والمؤمن الملتزِم نحو الطريق الحتمي؛ أي الرجم والتفجيرات الانتحارية. بحسب دوكينز، ليس المؤمن النموذجي، كما يظن البعض، غاندي أو القديس فرنسيس أو الأم تيريزا، إنما هو ذلك الإرهابي الأصولي الذي اتَّبَع المعتقد الديني حتى [وصل لـ] نتيجته المنطقية – بلا شك مساندة إله غاضب في الاستئصال العادل للممارسات والعقائد الباطلة (باضطهاد غير الأتقياء وتدمير أوثانهم). بنبرة تَحَدٍ، يتهم دوكينز الأديان نفسها بأنها المحَفِّزَة للعنف والتَّعَصُّب الذي نجده في العالم. يزعم أيضًا أن العنف المحَفَّز دينيًّا، والتَّعَصُّب، أمران حتميان بناءً على الصفات الأساسية التي يشترك فيها كل أبناء ابراهيم – اليهود، والمسيحيين، والمسلمين "حين يملؤون العالم بأديان تنتمي للنسق الإبراهيمي"، كما يكتب دوكينز، "فكأنهم يملؤون الشوارع ببنادق محشوة. فلا تندهش إذا استُخدِمت"[1]. بإعادة صياغة اللحن المسيحي الشهير "إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون، والمسلمون واليهود."

(1) "Religion's Misguided Missiles," in The Guardian, September 15, 2001.

دوكينز ليس وحده في زعمه أن الدين يدفع الناس بالأخص نحو التَّعَصُّب العنيف. لقد اتهمت مجموعة معروفة من الكُتَّاب ذوي التأثير الضخم يُشار إليهم بشكل شائع بـ "الملحدين الجدد" كلَّ الأديان بأنها غير متسامحة بشكل أصيل، وتقود بشكل حتمي إلى الاضطهاد الديني والعنف. وبحسب كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens: "يخطط أهل الإيمان بطرقهم الخاصة لدمارك ودماري. يُسَمِّمُ الدين كل شيء"[1]. ضاربًا على وترٍ مشابهٍ، قال سام هاريس Sam Harris إن أولئك الذين يؤمنون بأديان إلهية يبدو أنهم يتفقون جميعًا على شيء واحد: ليس احترام العقائد الأخرى، وآراء غير المؤمنين، شيئًا يؤيده الله. ويكتب:

"بينما تأثرت العقائد بشكل أو آخر بروح المسكونية، تظل العقيدة المركزية لكل تقليد ديني هو أن كل الآخرين ليسوا إلا قابعين في الخطأ، أو في أفضل الأحوال، غير مكتملين لدرجة خطيرة. لذلك فإن عدم التسامح جزء من كل دستور إيمان. حينما يؤمن الشخص — حينما يؤمن بحق — بأفكار محددة قد تقود إلى السعاد الأبدية، أو نقيضها، فلن يستطيع التسامح مع إمكانية أن الناس الذين يحبهم قد يضلون بفضل تدليس غير المؤمنين"[2]. أولئك الكُتّاب يرون أن الدفاعات العلمانية عن التسامح الديني لن تحل مشكلات العنف الديني والتَّعَصُّب. فكما يرون، المشكلة في الدين ذاته.

استهل دوكينز نقده للدين بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر على مركز التجارة العالمي. كانت تلك الهجمات، بالنسبة لدوكينز، القشة الأخيرة "لقد اختفت آخر ذرة تعاطف واحترام لمقولة "ارفعوا أيديكم عن الدين" في دخان وغبار الحادي عشر من سبتمبر 2001، تبعها اليوم الوطني للصلاة الذي تَقَدَّم فيه الرؤساء الدينيون والرعاة محاولين تقمُّص مارتن لوثر كينج Marin Luther King بصورة سيئة ليحثوا الناس من الأديان المختلفة على الإمساك بأيدي بعضهم البعض، متحدين في إجلالٍ للقوة نفسها التي أدت إلى المشكلة في

(1) Christopher Hitchens, God is Not Great: How Religion Poisons Everything (Boston: Twelve Books, 2009), p. 13;.

(2) Sam Harris, The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason (New York: W. W. Norton, 2005), p. 13.

المقام الأول"[1]. إذًا، ما الذي تسبب في تلك القوة التي لا تقاوَم في المقام الأول؟ بحسب دوكينز، فإن الإيمان غير القابل لإعمال الفكر فيه، والتكريس المضلِّل لنوع من الوهم – ألوهة متعصبة مهووسة بذاتها، التي ليهوه "إله العهد القديم على الأرجح هو أبشع شخصية في كل روايات الخرافة، أناني وفخور بذلك، ظالم، غير متسامح ومهووس بالتحكم، انتقامي، متعطش للدماء، مطهر عرقي، كاره للنساء ومثليي الجنس، عنصري، قتّال للأطفال، مرتكب مذابح، قتّال للأبناء، مؤذٍ بخطورة، مهووس بداء العظمة، سادي مازوخي، مُشتَأسِد بحسب نزواته العنيفة"[2]. لا عجب إذًا، إن كانت هذه طبيعة الله، أن يحرض يهوه المؤمنين على الإتيان بكل هذه المآسي المرعبة وغير العادية.

من بين ما كتبه أولئك الكُتّاب، يظهر زعمان مهمان. الدين، كما يزعمون، ليس قوة للخير، وإنما للعنف والتَّعَصُّب. تقوم المزاعم الدينية الحصرية، على الأخص الاعتقاد في الخلاص والحياة الأخرى، بتحفيز السلوك المتَعَصِّب، بل وتجعل منه أمرًا ضروريًا. مرة أخرى، يحاجج دوكينز بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ببضعة أيام كما يلي:

"إذا كان الموت هو النهاية، فإن الإنسان العاقل يُتوقَّع منه أن يُقَدِّرَ حياته بشكل كبير، ويكون حذرًا من أن يغامر بها. إن ذلك الأمر يجعل العالم مكانًا أكثر أمنًا، تمامًا مثل كون الطائرة أكثر أمنًا إذا كان مختطفها يريد النجاة. على الجانب الآخر من التطرف، إذا كانت هناك مجموعة من الناس أقنعوا أنفسهم، أو تم إقناعهم بواسطة كهنتهم، أن موت الشهيد مكافئ لضغطة زر الفراغ الفوقي hyperspace ليعبر من خلال ثقب دودي نحو كون آخر، فإن ذلك الأمر يجعل العالم مكانًا شديد الخطورة. خاصةً حينما يؤمنون كذلك بأن هذا العالم الآخر هو مهرب فردوسي من مِحَنِ العالم الواقعي. أضف لذلك حقيقة أن المؤمنين بإخلاص، إن كانوا محتقرين للمرأة (ويتمتعون بالسخافة [في التفكير])، بالوعود الجنسية، فهل من المدهش إذًا أن السذج والمحبَطين من الشباب يلهثون

(1) Richard Dawkins, The God Delusion (New York: Mariner Books, 2006), p. 157.

(2) The God Delusion; p. 31.

من أجل أن يتم اختيارهم لتنفيذ المهام الانتحارية؟"[1].

بحسب كريستوفر هيتشنز، فإن الدين "لا يمتلك الثقة فيما يبشر به ليسمح بالتعايش بين العقائد المختلفة"[2].

يقدم الملحدون الجدد أيضًا تهمة ثانية تتجاوز الزعم بأن العقائد الأصولية للدين غير متسامحة وتُحَفِّزُ السلوك المؤذي. وبينما يوجد بالتأكيد متطرفون دينيون، إلا أن أغلب المؤمنين المتدينين هم جيرانك والمواطنون الذين يُظهرون الاحترام والتسامح مع رؤى الآخرين. "إن الوسطية الدينية"، كما يقول سام هاريس "نتاج المعرفة العلمانية والجهل الديني"[3]. لذا، يوضح الادعاء الثاني أن الوسطية الدينية ليست نتاج الاعتقاد الديني، وإنما هي نتاج علمنة المؤمن. وبحسب هاريس أيضًا، فإن الوسطية الدينية "لا يميزها شيء غير كونها تجاهُل غير مُعترَف به للقانون الإلهي (وحَرفيّته)"[4]. يمكن أن يكون الشخص معتدلاً دينيًّا فقط بتجاهل الكثير من النصوص المقدسة بحسب اعتقاده. ولذلك، فإن اتخاذ الشخص لإيمانه الإبراهيمي على محمل الجد يجعل من غير المحتَمَل أن يؤدي به إلى التسامح أو الاحترام للعقائد الأخرى. يمكن تحقيق الوسطية فقط من خلال العلمنة، وليس من خلال الدين الذي تمَّ فهمه بشكل سليم واتّباعه.

لأن هاريس يعتقد أن الوسطية يمكن تحقيقها فقط بقبول الأنسنة العلمانية، فإنه يرى أن المعتدل دينيًّا لا يمتلك أساسًا عنده، يحاجج انطلاقًا منه الأصوليين الدينيين. ف "من منظور أولئك الذين يسعون للحياة بحَرفيَّة النصوص، ليس المعتدل دينيًّا أكثر من أصولي فاشل. لا نستطيع القول إن الأصوليين مجانين، لأنهم ببساطة يمارسون حريتهم في الاعتقاد، لا نستطيع حتى القول إنهم مخطئون، بالمفهوم الديني، لأن معرفتهم بالكتب المقدسة سليمة بشكل منقطع النظير، وبوجه عام"[5]. وبحسب كلمات هيتشنز، فإن الوسطية الدينية والتسامح "مجاملة

---

(1) “Religion’s Misguided Missiles.”

(2) God is Not Great: p. 17.

(3) The End of Faith: p. 21.

(4) The End of Faith: p. 18.

(5) The End of Faith: p. 20.

لمذهب الإنسانية humanism، وليس للدين"[1]. فهو يرى أن الإنسانية العلمانية، وليس الوحي الإلهي، يمكنها تحفيز التسامح واحترام الأديان الأخرى.

إن الطريق نحو السلام، بالتالي، لا يتطلب دعم التسامح واحترام الأديان الأخرى، وإنما يتطلب إزالة الاعتقاد الديني نفسه. يمكن للسلام أن يتحقق، كما يزعمون، إذا أقنعنا الناس بنبذ معتقداتهم الإيمانية. ومن أجل إنهاء عدم التسامح الديني والعنف الذي نجده في العالم اليوم، فإن الأمر يتطلب أن ينبذ الناس آراءهم الخاطئة والحصرية الخاصة، وتَبَنِّي الرؤية العلمانية الإنسانية. من أجل مستقبل الإنسانية، يلزم التخلي عن الاعتقاد الديني، بالأخص نظام التوحيد الخاص بأبناء إبراهيم.

الدين: قوة للخير أم للشر؟

يرى الملحدون الجدد أنه وعلى الرغم من مزاعم الدين عن الحب والسلام، إلا أنه، بحق، قوة للشر في العالم. قد تكون الجماعات الدينية قد شيَّدت، مستشفى ما أو دار أيتام ما، وقد تكون زارت سجينًا وأرملة (بالرغم من أن الملحدين الجدد يُسَلِّمون، إن حدث ذلك، بالقليل من إيجابيات الدين). ولكن، كما يدَّعي الملحدون الجدد، فإن الدين، في مجمله يؤجج ويدفع على الأرجح نحو إنتاج الكراهية، والاضطهاد، والعنف والموت، وبالفعل، لقد أجَّجَ وأنتج كل ذلك. والنتيجة هي وجود طلاح مُحَفَّز دينيًّا أكثر من الخير الذي يجلبه الدين.

كيف للمرء أن يحدد إن كان الدين في المجمل قوة للخير أو الشر في العالم؟ كيف يمكن للمرء إحصاء الخير المحَفَّز دينيًّا ثم يقوم بطَرحِ الشر المحفَّز دينيًّا منه؟ كيف يمكن لأي شخص أن يحدد إذا ما كان الدين، في نهاية المطاف، هو المحَفِّز، مثلاً، للحملات الصليبية أو محاكم التفتيش أو 11/9، وليست الرغبة غير الدينية في الاستحواذ على السلطان الأرضي، أو القوة، أو المكانة العليا أو الثراء؟ لا نستطيع أن نَلُجَ داخل القلب البشري، وبالتالي لا نعرف بالتحديد إن كان العنف المرْتَكَب مُحَفَّزًا من خلال الإيمان بإله سماوي أو بواسطة الأنانية

(1) God is Not Great: p. 27.

البشرية الدنيوية (في ثياب الدين الحق). بحسب كريس هيدجيز Chris Hedges، وهو مُراسِل مُتَمَرِّسٌ في الصراعات الخارجية بصحيفة نيويورك تايمز New York Times، تُعَدّ الفكرة القائلة بأن الدين هو مصدر الحرب خرافة:

ليست الصراعات العرقية وأعمال التمرد في وقتنا هذا، سواء كانت بين الصرب والمسلمين أو الهوتو والتوتسي، حروبًا دينية. إنها كذلك ليست صدامات بين ثقافات أو حضارات، وليست نتيجة كراهيات إثنية قديمة. إنها حروب مُصْطَنَعَة، مولودة من رحم انهيار مجتمعات مدنية، مليئة بالخوف، والجشع، وجنون الشك والاضطهاد، مُدارَة بواسطة عصابات آتية من قاع مجتمعاتهم ليرهبوا الجميع، بما فيهم من يدّعون أنهم يحمون الآخرين[1].

وفي حين أن الدين ليس هو سبب الحرب، قد يكون الدين نفسه هو الحل. بحسب هيدجيز، يمكن لبذل الذات، والاهتمام بالآخر والوداعة فقط، مع التزام ديني عميق، أقول يمكن لكل ذلك أن يواجه الدوافع البشرية نحو الحرب.

لقد أظهرت دراسة حديثة أن القناعة الدينية تسبق الدوافع غير الدينية نحو الأخلاق، وأثبتت جدارتها، بشكل تجريبي، في الدفع نحو السلوك الأخلاقي. بينما تُمَرِّر المعتقدات الدينية العنف والتَّعَصُّب في بعض الأحيان؛ فهي بطبعها أكثر تأثيرًا على مستوى ترويض وإخضاع الطبيعة العنيفة الأنانية من أي بدائل علمانية. بينما تُعَد الصحة وطول العمر من مكاسب المجتمعات الدينية، إلا أن المكاسب الأخلاقية للدين يمكن أيضًا التصديق عليها بنفس الدرجة. آرثر بروكس Arthur Brooks، الأستاذ على كرسي لويس أ. بانتل في سياسة الحكومة بمدرسة ماكسويل للمواطنة والشئون العامة بجامعة سيراكيوز، يستنتج أن المؤمنين المتدينين الممارسين أكرم بشكل ملحوظ من غير المؤمنين.[2]

---

(1) Chris Hedges, War Is a Force That Gives Us Meaning (New York: Public Affairs, 2002), p. 20.

(2) يستنتج بروكس ذلك من خلال فحص البيانات الآتية من المكتب القومي للبحوث الاقتصادية لعام 2005، واستطلاع بينشمارك "جماعة رأس المال الاجتماعي" لعام 2000، والاستطلاع الاجتماعي العام بين 1996-2004، والبرنامج الدولي للاستطلاع الاجتماعي 1998-2001، وبيانات أخرى كثيرة.

في كتابه "من يهتم حقًا؟ — Who really cares؟"، يقدم بروكس اختلافًا أخلاقيًّا مدهشًا بين الأمريكيين المتدينين والعلمانيين: المتدين أكثر احتمالاً من العلماني في التطوُّع، أو التبرُّع بالدم، أو إعطاء المال للأصدقاء والأسرة (بل وأن يفعل ذلك بسخاء أكبر). وتقريبًا، على أي مقياس للكرم، يفوق الشخصُ المتدينُ العلمانيَ. يستخلص بروكس من ذلك أن "المتدينين أكثر سخاءً على كل المقاييس غير الدينية، وبما يتضمن التبرعات العلمانية، والعطايا غير الرسمية، وإظهار اللطف والأمانة، أكثر من العلمانيين"[1].

يتجاهل الملحدون الجدد، الذين يعرضون أمورًا رهيبة مثل الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر وختان الإناث، تمامًا أيَّ خيرٍ آتٍ من الدين. بالإضافة إلى الكرم والأمانة، أنتج المعتقد الديني الكثير من الخيرات الأخرى. ماذا عن دور الدين في القضاء على وأد الأطفال، ألعاب المصارعة الوحشية، والعبودية؟ أو ماذا عن التقشُّف ذي الدوافع الدينية وتحرير المرأة، أو اللطف الذي تُظهره المؤمنة تجاه أبنائها، أو جيرانها، أو حتى الغريبة (فضلًا عن الأرامل، والأيتام والمساجين)؟

الكثير من المؤسسات، كالمستشفيات، والجامعات، ودور الأيتام، يدينون بإنشائهم لمؤمنين متدينين. ظهرت الحقوق الطبيعية والمساواة، ومن ثمّ الديمقراطية، في ثقافات أكَّدَت على المساواة بين كل أبناء الله. تأصلت الكرامة الإنسانية من عقيدة الخَلْقِ على صورة الله.

أيضًا، من أجل إثبات وجهة نظرهم ضد الدين ومع العلمانية، يتجاهل الملحدون الجدد أو يحاولون دحض فظائع العلمانية بعيدًا. في قرننا وحده، تكافئ الهولوكوست، وحقول المجازر الكمبودية، والمذابح الشيوعية كلَّ الفظائعِ الدينية المزعومة مُجتَمِعَة على مدار التاريخ البشري. حتى وإذا اتخذنا أكبر التقديرات للقتلى في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش — 150 ألف و50 ألف على الترتيب– فإن تلك الشرور الدينية ليست أكثر من كسور بسيطة مقارنة

(1) Arthur Brooks, Who Really Cares: The Surprising Truth About Compassionate Conservatism (New York: Basic Books, 2006), p. 38.

بالملايين، قد تبلغ أكثر من مائة مليون، الذين قتلوا على يد جوزيف ستالين Josef Stalin وماو تسي تونج Mao Zedong. إذا ما أضفنا معتقلات الموت التي لهتلر في الحرب العالمية الثانية، وما نجم عن نظام بول بوت Pol Pot الإجرامي في كامبوديا، فإن الهوة قد تزداد بشكل كبير (حتى ولو أضفنا، على الجانب الآخر، 3000 إنسان قُتلوا في هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية، وكل جريمة قتل دينية). وبمقارنة الشر الإلحادي بالشر الديني، تكون الغلبة للشر ذي الدافع الإلحادي بسهولة.

إن الفوز في ذلك السباق لا يؤدي إلى الحصول على أي جائزة. سواء أمكن للعقائد الإبراهيمية أن تهزم العلمانية في منافسة الخير/ الشر، إلا أنه مع ذلك يوجد كثير من العنف حدث باسم الدين، فبلا شك (حتى لو كان مثل ذلك العنف المحفَّز بواسطة إيمان أصيل أمرًا محل جدال) وحتى بواسطة مؤمنين مخلصين تحركوا بدافع إيمانهم. وبإلقاء نظرة سريعة على مناطق الصراع الساخنة في العالم نجد أزمات تبدو مزمنة ومستعصية تُوضّح أن التَّعَصُّب الديني جزء من المشكلة، إذ يقوم بإذكاء لهيب الصراع. إن إسرائيل وفلسطين، وإيرلندا الشمالية، والسودان، والبلقان، وكشمير، وباكستان، والهند، وسريلانكا والقوقاز (وكل ذلك غيض من فيض) يوفرون أمثلة على صراع متواصل، متفاقم جزئيًا، على الأقل، بفعل الاعتقاد الديني، إن لم يكن الأخير هو السبب فيه.

ليست الحاجة الملحة إلى قدر أكبر من التسامح الديني وحماية الحرية الدينية للجميع قاصرة فقط على المناطق ذات الأزمات المزمنة أو العالم "النامي". مع زيادة عدد المهاجرين إلى بريطانيا العظمى وغرب أوروبا، أظهرت القارة صَدًّا للمهاجرين المسلمين، بل وحتى المواطنين المسلمين. شهد صيف العام 2010 عديد التعبيرات المتقدة والمضطربة، في آنٍ، المضادة للإسلام؛ فقد اتخذت دول أوروبية عديدة إجراءات تشريعية تستهدف حرية التعبير الديني لمواطنيها المسلمين. لقد صارت بلجيكا أول دولة أوروبية تحظر ارتداء البرقع في المناطق العامة. تلاها بشهور قليلة تمرير حظر مماثل في فرنسا، أضاف للتشريع السابق حظرًا لارتداء الحجاب والرموز الدينية الأخرى في المدرسة. حظر مشابه أيضًا تم إسقاطه بشكل محدود في إسبانيا، بينما توجد أجزاء من ألمانيا، وبلجيكا

وهولندا قامت سابقًا بحظر ارتداء المدَرِّسَات للحجاب في المدارس. سبق ذلك بعام [أي 2009] تمرير سويسرا لقرار حظر بناء مآذن الجوامع. يقول مشروع الديموغرافيين إن الشعوب الإسلامية ستنمو بضعف سرعة الشعوب غير الإسلامية في العشرين سنة المقبلة، وأن نسبة مسلمي أوروبا ستتزايد بشكل كبير. وهنا بات الخوف من أسلمة أوروبا ملموسًا. كما قاد الخوف من الأسلمة مذبحة المدنيين عام 2010 في النرويج.

بات التوجس والخوف من ازدياد المسلمين في الولايات المتحدة حاضرًا أيضًا، وفي تزايد. تجلى ذلك في صيف 2010 حينما أثارت الجهود لبناء مركز إسلامي اجتماعي على بعد مبنيين من "الجراوند زيرو" – وهو الموقع السابق لمركز التجارة العالمي – اهتمامًا قوميًّا. بوصفه عبر الإعلام ومثقفي الجناح اليميني على أنه "المسجد المنشأ على الجراوند زيرو"، لم يكن – وهو الأمر المثير للسخرية – مسجدًا بالأساس، ولا على أرض الجراوند زيرو. تم ربط أحد قادة فكرة بناء المركز، فيصل عبد الرؤوف Feisal Abdul Rauf، بالجماعات الإرهابية المتشددة، بحسب بعض مصادر الإعلام. حازت تلك المزاعم غير المبررة على مصداقية بتكرارها مرارًا، على نطاق واسع. كل ذلك بالرغم من كون رؤوف قد تم اختياره بواسطة الحكومة الأمريكية، في إدارة كل من بوش وأوباما كي يجول الشرق الأوسط ليتكلم عن التسامح الديني والحاجة إلى حوار الأديان.

بمتابعة التغطية المحلية، التي يغذيها غضب مناوئ للإسلام، وسيل من الإحساس الملَقَّن المعادي للإسلام، بالإضافة إلى روح التخريب الموجهة للمسلمين، تم طعن سائق تاكسي مسلم في نيويورك أكثر من مرة بعد أن سأله الراكب إن كان مسلمًا، بينما هدَّدَ واعظٌ في فلوريدا بحرق نسخ من القرآن بواسطة أتباعه.

يبدو كل ذلك التَّعَصُّب الديني، الذي هو نفسه "التَّعَصُّب المبني على الإيمان" متناقضًا على المستوى الاصطلاحي. إن كان للمؤمنين قابلية للانخراط في عمليات التكريس والتحول من خلال الكتابات الموحى بها إلهيًا، أو النعمة الإلهية، أو الطقوس الإلهية، أو المعونة الإلهية، يمكننا حينئذ أن نجد سلوكًا مغايرًا. وبسبب التأثيرات المدمرة للخطيئة، فإننا لا نتوقع كمالاً بالطبع، ولكن يمكننا

توقع التحسُّن الروحي والأخلاقي بالتأكيد. لذلك يبقى توتر مزعج بين الوصية الإبراهيمية لإظهار الرحمة نحو الغريب والعنف المحَفَّز دينيًّا الذي نشهده في عالمنا المعاصر وعبر التاريخ أيضًا.

التسامح المؤسَّس على الاعتقاد

أتتني فكرة كتاب "أبناء إبراهيم" بعد أن أكملت مُسَوّدَة كتابي "دحض فكرة الله؟ -Explaining God Away?" والذي كتبته ردًا على دوكينز والملحدين الجدد. في هذا الكتاب، أخاطب حججهم الفلسفية التي هي ضد الاعتقاد الديني العقلاني. إنني ألتفت إلى ادعاءاتهم عن التَّعَصُّب الديني بشكل مُختصَر لأنها (أي هذه الادعاءات) لا تتناسب والنقاش الفلسفي الذي أوليته اهتمامي. لكن، أزعجتني مقولاتهم المِلحَّة عن التَّعَصُّب الديني والعنف للغاية. أو بالأحرى، أزعجني التَّعَصُّب والعنف المحَفَّزان دينيًّا للغاية.

استوعبت مزاعم الملحدين الجدد باعتبارها تحديًا للمؤمنين لبذل كل ما في وسعهم لمنع تحوُّل هذه الادعاءات لحقيقة. أي: يجب على المؤمنين بذل كل السعي المتعلق بقوتهم المحفَّزة إلهيًا لكي يوضحوا الأمر تمامًا؛ وهو أن الدين قوة للخير. يتعين على المؤمنين فعل ذلك لأن الإيمان الحَقَّ بالله يحثُّ على الطيبة والشفقة والحرية، من داخل نسقهم الاعتقادي. لو لم يعمل المؤمنون بشكل دؤوب ولو لم يعملوا معًا، قد يتغلب الشر المستَحَث دينيًّا على الخير المستَحَث دينيًّا. بدون أن يبذل المؤمنون كل ما في طاقاتهم لتحقيق السلام والتآلف لعالمنا المنكَسِر، من الممكن أن يكون الدين هو موتنا جميعًا.

وبدلاً عن محاولات الشرعنة الكونية، الغربية، للتسامح المؤسَّس على العقل المتَجَرِّد، قمت بدعوة دفاعات محدَّدَة دينيًّا عن التسامح تبدأ بالكتابات المقدسة واعتقادات الأديان الإبراهيمية الرئيسية المتعددة. طُلِبَ من كل كاتب أن يكتب بشكل مقنِع، وبشغف، وبطريقة جذابة من داخل تقليده الديني الخاص. وبدلاً عن تشويه سمعة التقليد مراعاةً لـ "العقل المحض"، فإننا نحتفي بالتقليد ونسعى وراء دفاعات عن التسامح من قلب هذه التقاليد اللاهوتية الإبراهيمية. طُلبَ من

المؤلفين استخدام الوثيقة المقدسة، واللاهوت، والسردية لفهم وتأسيس الحرية والتسامح. ومع تنوع التجارب الشخصية والاعتقادات الدينية لكل مؤلف والسرديات المختلفة، قبلوا بذلك، أحيانًا لإظهار أو تفسير الحقائق التاريخية نفسها، يمكن للقارئ أن يتوقع ملاقاة تعدد في الآراء داخل هذا الكتاب. تمثِّلُ كل مقالة مزيجًا خاصًا بها من الرأي التجريبي، والفلسفي والسياسي، مما يجعل من هذه المجموعة من المقالات كُلاً a whole متناقضًا أو منطويًّا على تناقضات ظاهرية. أكملت مخطَّط كتاب "أبناء إبراهيم" بينما كنت أحضر ندوة في جامعة أوكسفورد عن الأصول السيكولوجية للاعتقاد الديني. نحن، هكذا يبدو، ننزع إلى الاعتقاد الديني. يَكْمُن الاعتقاد الديني في عظامنا وأمخاخنا. لذا، وعلى الرغم من أمل الإلحاد الجديد، فمن غير المحتمل أن يذوي الاعتقاد الديني، يبدو التأكيد على تأسيس الحرية والتسامح على مذهب إنساني غير ديني باطلاً؛ لكن، من غير المحتمل للتبريرات الغربية، العلمانية، الليبرالية، العقلانية للحرية والتسامح أن تستميل المؤمنين المحافظين الجادّين. لا يأخذ المؤمنون الثقافة والقيم ("الإمبريالية"، "العقلانية"، "الملحدة"، "الاستعمارية"، "اللا أخلاقية" ... إلخ) الغربية كمصدرهم للسلطة. إنهم يأخذون الوثيقة المقدسة والتقليد الديني الخاصين بهم باعتبارهما السلطة [التي يذعنون لها]. إن وصف مثل هؤلاء للمؤمنين بـ "جُهلاء" ما لم يؤيدوا الحجج العلمانية، الليبرالية الغربية من غير المحتمل أن يفعل أكثر من جعل صاحب التسمية أعلى شأنًا من المؤمنين "المغرقين في الجهل" وأن يجعل هؤلاء المؤمنين أكثر تشبثًا بإيمانهم. تبدو نتيجة كل ذلك مضادة للحرية والتسامح.

لنفترض أن الملحدين الجدد على حق: يشجع الدين، بالأخص الدين المنتمي للتوحيدية الإبراهيمية، التَّعَصُّب والعنف كذلك. دعني أوضح، بشكل تام، أنني لا أُقرُّ بأنهم على حق . يميل هؤلاء البشر المعنيون للتَّعَصُّب والعنف. إن التَّعَصُّب مشكلة إنسانية أساسية. إنه ليس رذيلة خاصة بالديني. ويمكن له أن يمتلك عديد التجسيدات — الانتماء للعِرق أو الجنسية أو الوضع السوسيو-اقتصادي أو الجغرافي أو السياسي وأحيانًا الدين. البشر، بما هم بشر، يجدون صعوبة كبيرة في التسامح مع الآخرين الذين ليسوا نحن [أي أنهم "آخر"]، مع هؤلاء الذين ليسوا جزءًا من الأقارب أو الجماعة. بهذه البساطة. لكن افترض معي أنني محق أيضًا: لن يضمحل

الدين. كيف يمكن للمؤمنين مقاومة الإغراء الديني تجاه التَّعَصُّب ليجدوا طريقهم للسلام المشترك، الحرية غير المساوِمَة، والتسامح المؤسَّس؟

ما هو التسامح؟

لقد استغرقنا في الحديث بشكل عام عن التسامح والتَّعَصُّب، لكننا لم نفهم هذين المصطلحين بشكل دقيق. دعونا نتوقف قليلاً لفعل ذلك. على الرغم من أن الناس أصحاب القناعات الأخلاقية أو الدينية المخلِصَة العميقة غالبًا ما يكونون متعصبّين، إلا أن القناعات الأخلاقية أو الدينية المخلِصَة العميقة يمكنها توفير الشروط المسبقة اللازمة للتسامح. دون إحساس قوي باستصواب العقائد الدينية أو الممارسات الأخلاقية، لن يكون التسامح ممكنًا ببساطة. يأتي مصطلح التسامح من كلمة tolerate اللاتينية "أي: أن تتحمل أو تطيق"، وتشير ضمنًا لتحمُّل وزن أو عبء ما. للوهلة الأولى، يكون التسامح بمثابة نزوع لإطاقة أو تحمُّل ممارسات الناس واعتقاداتهم، والتي يعتبرها المرء إما زائفة أو غير أخلاقية. يفترض التسامح أن بعض الاعتقادات والممارسات صحيحة أو صائبة، كما أن البعض الآخر زائف أو خاطئ. ليست الاعتقادات والممارسات التي يجدها المرء صحيحة وصائبة بشاقة، لكن يلزم أن تكون بعض الاعتقادات والممارسات شاقة، وذلك لكي يصبح التسامح ممكنًا بأي شكل. فقط حينما أكون حائزًا لأحكامي الأخلاقية والدينية بشكل راسخ، يمكنني التسامح مع الناس الذين يحوزون اعتقادات وممارسات مختلفة.

إن الاختلاف وحده، مع ذلك، ليس شرطًا مسبقًا لازمًا للتسامح. يختلف الناس بشكل دوري فيما يتعلق بأمور يأخذونها على أنها سخيفة أو غير مهمة، وهذا النوع من الاختلاف لا يتطلب التسامح. إنني أفضِّلُ الآيس كريم بنكهة الفانيلا بينما تفضِّل أنت الشوكولاتة. أنا لا أتسامح تجاه تفضيلك للشوكولاتة لأنني لا آبه لتفضيلاتك المتعلقة بالآيس كريم. يتطلب التسامح، بجانب الاختلاف، عنصر الاهتمام الذي عادة ما يكون متجذرًا في التزام عميق للاعتقاد أو الممارسة محل السؤال. يجب أن يكون نوع الاهتمام المناسب

للتسامح عميقًا بما يكفي ليشكّل عبئًا، ولهذا السبب، يبزغ التسامح، في العادة، مرتبطًا بأمور ذات اهتمام إنساني أساسي.

بسبب عمق الاهتمام بخصوص أمور ذات اهتمام إنساني أساسي، من السهل أن نفهم لماذا يبدو البشر، بشكل طبيعي، ميالين إلى التَّعَصُّب. إننا نستثمر ذواتنا في الأشياء التي نهتم بها، وهؤلاء الذين يختلفون معنا ينكرون أن اهتماماتنا جديرة بمثل هذا الاهتمام والاستثمار. عندما نجد أن ما يهتم به الآخرون عبءٌ علينا، فإننا، بشكل طبيعي، نرغب في أن نُبقي على اهتماماتنا واستثماراتنا الخاصة بنا. يقود هذا الأمر عادة إلى طرد، أو إبعاد، أو حتى اضطهاد الآخرين ذوي الاعتقادات والممارسات المختلفة.

في التسامح، يُحَطُّ المرءُ من قيمة اعتقادات وممارسات الآخر بدون أن يحطَّ من قيمة الشخص الذي يتبنى هذه الاعتقادات. يختار الشخص المتسامح معاملة الشخص صاحب الاعتقادات والممارسات المختلفة بشكل ملحوظ باعتباره ذا قيمة جوهريًا، على الرغم من رفض هذا الشخص لاهتماماته الإنسانية الأساسية. إن التسامح هو الاستعداد لإخماد نزوعنا الطبيعي لرفض، أو اضطهاد، أو وضع مسافة بيننا وبين الآخرين الذين تختلف اعتقاداتهم وممارساتهم عن اعتقاداتنا وممارساتنا. إن الشخص المتسامِح، بالأحرى، ميَّال إلى احترام الآخر على الرغم من هذه الاختلافات. يقول الشخص المتسامح، في الحقيقة، "إن اختلافنا الأساسي لا يُنْقِص تقديري لقيمتك باعتبارك كائنًا بشريًّا، ولذلك، وعلى الرغم من أنني أختلف مع اعتقاداتك أو ممارساتك، إلا أنني ما زلت سأطيقها". يشجع التَّعَصُّب، على الجانب الآخر، ومستجيًا للميل الطبيعي للحطِّ من قيمة الآخر، رفضَ الشخص (والذي قد يبرز في هيئة أذى ما). التسامح، إذًا، فضيلة يلزم صقلها لترويض نزوعنا الطبيعي لرفض وعدم احترام هؤلاء الذين يختلفون عنّا.

في أمريكا المعاصرة، يتم النظر إلى التسامح في بعض الأوقات باعتباره رذيلة أكثر من اعتباره فضيلة. لا يريد أحد أن يحدث التسامح تجاهه - إنهم يريدون أن يتم احترامهم وتوقيرهم وأن يكونوا مُقَدَّرين. إنهم لا يريدون من الآخرين أن يمسكوا بأنوفهم بينما يتحمّلون معتقداتهم النتنة وسلوكياتهم البغيضة. يخون هذا الأمر سوءَ فهمٍ عميق بخصوص التسامح: إننا لا نريد أن نتسامح مع الناس،

نحن نحترمهم ونوقِّرهم ونُقَدِّرهم. نحن نتسامح مع السلوكيات والاعتقادات.

وبينما يحمل التسامح مثل هذه الدلالات السلبية (مَن، في النهاية، يريد أن يطيقه [أي يتحمله] أحد؟)، سيكون التسامح نفسه بمثابة تطور هائل في أغلب بقاع العالم الأخرى. في الأماكن حيث يتم قتل هؤلاء الذين يتحولون من دين لدين، وحيث يتم منع اليهودِ من دخولها، حيث لا يمكن بناء الكنائس ولا المساجد، حيث يتم إيداع المؤمنين في السجون، وحيث لا يُسْمَح للناس بعمل أي تحديد شخصي/ذاتي ديني أو غيره، في خضم كل ما سبق، يتوسل المؤمنون أن يتم تحمّلهم. وحيثما يكون الخيار الحالي هو القتل، والاضطهاد، والتمييز، والإعراض، فأن يتم تحمُّل المرء لهو أمر يُمَثِّل خطوة إيجابية للأمام. لذا، بينما يشوه هؤلاء الموجودون في الغرب سمعةَ التسامح، يُعَدّ التسامح نفسه هو الخطوة التي يلزم أخذها في دول لا تتسامح مع اعتقادات وممارسات الآخرين الدينية (وبصراحة، يجب أن تكون فضيلة مُثَمَّنَة للغربيين كذلك).

ومع ذلك، فإن التحمل أو الإطاقة ليس جوهر فضيلة التسامح. في التقليد اليهودي-المسيحي-الإسلامي، يجب أن يتم تجذير التسامح في الاحترام، وهذا الاحترام يجب تجذيره في كرامة وقيمة كل الكائنات البشرية، والتي، بالمقابل، تتجذر في صورة الله.

يمكن أن يكون الاضطهاد والتسامح قديمين قِدَم الدين ذاته (من المحتمل حتى أن يكونا أقدم من الدين) وليس من المحتمل أن يذوي التهديد المتمثل في العنف المحَفَز أو المشَكَّل أو المركَّز دينيًّا في أي وقت قريب. في الواقع، من المحتمل تزايد التوترات بين مختلف الجماعات الدينية بما أن العالم يصبح أكثر ترابطًا، ويصبح تصدير التَّعَصُّب والعنف حول العالم أسهل. تستجلب العولمة وعيًا متزايدًا وتواصلًا مع الاختلافات الأخلاقية والدينية، بالإضافة إلى كل المخاوف، والغضب، والإحباط الذي يتم زرعه تدريجيًّا. لو أننا نرغب في تجنُّب سوء الفهم والعنف، سيصبح التسامح والاحترام من البضائع ذات القيم الآخذة في التزايد. ودعونا نأمل ونُصَلِّي أن لا يصبحا من البضائع النادرة.

دفاعات دينية عن التسامح

إن المؤمنين هنا [في هذا العالَم] ليبقوا؛ لذا يكون التسامح فضيلة أساسية قطعًا. لكن عديدَ المؤمنين متشككون في الدفاعات الليبرالية عن التسامح الديني الذي يتجاهل أو يقوم بإقصاء قناعاتهم الدينية. يلزم على المؤمنين، بالتالي، أن يجدوا من داخل تراثهم الخاص المكونات الرئيسية للتسامح والحرية. بالنسبة لهم، تكون الدفاعات الليبرالية "المتجَرِّدة" عن التسامح الديني التي أخذناها بعين الاعتبار سابقًا غير جذابة وتنقصها السلطة [التي تجعل المؤمنين يخضعون لها أو يوافقون عليها]. سواء كانوا ينشدون الخير أو الشر، يرفض الكثير من المؤمنين العقلَ العلماني الغربي الليبرالي. يجب على القادة والمفكرين الدينين أن يتحدثوا بوضوح وأن يُظهِروا لماذا وكيف يمكن الدفاع عن التسامح من داخل تراثهم الخاص. إن هذا المنظور منشود بشدة، وأيضًا، بما أن بعض المتشددين الدينيين يقتبسون بكل شغف الوثيقة المقدسة دفاعًا عن التَّعَصُّب والعنف.

تدَّعي تقاليد الاعتقاد الإبراهيمي (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) أن اعتقاداتها وممارساتها المحدَّدَة أساسية للخلاص الفردي. ومع هذه الادعاءات الحصرية، يحاجج الملحدون الجُدد بأن هذه الأديان تعزِّزُ الخصومة مع غير المؤمن، كما تخلق بيئة تُفضي إلى العنف الديني والاضطهاد. وبما أن الاعتقادات والممارسات الدينية يُنظَرُ لها على أنها ذات أهمية قصوى، وبما أنهم يعتقدون أنها تحوز الحقيقة الواحدة لا سواها، فإن ذلك يستتبع (وهكذا يستمر الاتهام) أن المؤمنين المخلِصين غير قادرين على الحوار والاحترام. إن المشكلة، كما يرونها، هي أن الإيمان الذي لا يتزعزع عند المؤمنين في اعتقاداتهم، وثقتهم غير المقَيَّدَة يعوقان تقدير اعتقادات شخص آخر. أيضًا، لا يتم احترام ولا تقدير الشخص الذي يؤمن باعتقادات مخالِفة لهم: يتم النظر إليهم، ليس فقط باعتبارهم، ببساطة وبشكل حزين، على خطأ، ولكن كذلك باعتبارهم وثنيين وغير تُقاةٍ، وحتى غير أخلاقيين. إنهم يقومون بأخذ الخطوة الصغيرة؛ من اعتبار مؤمن آخر غير عقلاني ليرونه بوصفه كافرًا. ليس من المفاجئ، والحال كذلك، أن التَّعَصُّب يَنتُج. لا يهاجم الكافرون شيئًا أقل من الإله ذاته وتصبح مهمة المؤمن الجليلة الحقيقية، وأحيانًا الأخيرة، هي حماية شرف الإله.

إن هذا الاتهام - بأن الادعاءات الدينية الحصرية تؤدي إلى التَّعَصُّب — بمثابة ادعاء هام يلزم تأكيده. إنه يستوجب الاهتمام، إلى حد ما، وذلك حين الزعم بأنه النتيجة المباشرة، والحتمية، عند فهم الدين بشكل كامل.

تقدم أبحاث هذا الكتاب ردودًا متعددة لهذا الاتهام. من خلال الكتابة من داخل التقاليد الإبراهيمية الثلاثة، فإنهم يوضّحون كيف يمكن لمسلمٍ، أو مسيحي، أو يهودي، أن يحافظوا على هويتهم واعتقاداتهم وممارساتهم الدينية الخصوصية، بينما، في آنٍ، يعززون التسامح والاحترام تجاه أصحاب الاعتقادات المختلفة. يأتي كلُّ بحثٍ من هذه الأبحاث من مؤمنٍ بإحدى الاعتقادات الإبراهيمية. وكل اعتقاد محدَّد يمتلك تراثه الخاص، ونصوصه الخاصة، ومصادره الفريدة الخاصة التي يمكن تقديمها لتحفيز التسامح الديني والمناداة به.

أراضٍ مشتركة للحرية والتسامح

على الرغم من تباين التقاليد الإبراهيمية، إلا أنها تتشارك بعض الاعتقادات الأساسية التي هي تأسيسية للتسامح واحترام الاعتقادات الأخرى والناس الآخرين. هذه الاعتقادات لا يمكن فقط، بل يجب أن تحفِّزَ التسامح والاحترام تجاه المؤمنين أصحاب الاعتقادات الأخرى. تدعم أنماط التفاهم المشتركة للعدالة المقدَّسَة، بجانب الحب، التسامحَ الديني.

إن إيجاد أرض مشتركة سيكون أمرًا طيبًا للغاية. إننا نميل للتركيز على الاختلافات بين اعتقاداتنا واعتقادات الأديان الأخرى (وهي اختلافات غير قابلة للمنازعة، وأساسية، وفي بعض الأوقات غير قابلة للتوفيق مع بعضها البعض). إن هذا غالبًا يقود للتفكير في المؤمنين الآخرين باعتبارهم معدومي الإيمان، وعصاة، وربما حتى غير مكتملين إنسانيًا. وبما أنه قد تم تشويه سمعتهم والتقليل من احترامهم، يصبح تجاهلهم واضطهادهم، بل وحتى قتلهم أسهل من ذي قبل.

يجب على الأديان الإبراهيمية في أقصى لحظات قوتها أن تخلقَ التواضع والرحمة عوضًا عن التكبُّر والكراهية البيِّنَة في حالة تُموِّني التَّعَصُّب. إن اعتقاد إبراهيم هو الاعتقاد بأن إلهًا رحيمًا يتحكم في الأمور، وأن الاستسلام لمشيئة الله هو الطريق

للاستقامة الإنسانية. كانت محاولات إبراهيم تجاه تأكيد الذات — انحرافاته — كارثية. يجب أن يُحوِّلَ القول الإسلامي "لا إله إلا الله" دون إدلاء أي إنسان بتأكيدات تشبه تأكيدات الله فيما يتعلق بالحياة والموت. يلزم على الاستسلام الكامل لإرادة الله ("الإسلام" يعني "الاستسلام") أن يمنع الاستسلام الأعمى للأوامر القاسية الصادرة من "الأنبياء" للمعاصرين. إن السبت اليهودي تذكرةٌ أسبوعية بأننا لسنا سوى كائنات خاضعة للإله الواحد، الحق، كليًّا.

ما هي الاعتقادات الأخرى التي يتشارك فيها أبناء إبراهيم والتي يمكنها أن تمنع التَّعَصُّب؟ أهم شيء هو الاعتقاد بأن كل البشر خُلِقوا على صورة الله. هذا الفهم للإنسان، الذي تتشاركه اليهودية، والمسيحية، والإسلام على السواء يساند — بشكل معنوي — تصورًا للإنسان بوصفه حاملاً لقيمة جوهرية لا تُقاس. يدعم هذا الفهم المتين لقيمة الإنسان إحساسًا سليمًا بالاحترام تجاه الأشخاص الآخرين، حتى عندما يختلفون معك فيما يتعلق بأمور ذات أهمية أساسية. تؤطر هذه القيمة المغروسة بشكل مقدَّس الاحترام تجاه الأشخاص، وهو الاحترام المطلوب لتحقيق التسامح.

يؤكد المؤمنون بالاعتقادات الإبراهيمية أيضًا أن البشر كائنات حادثة/مخلوقة the creatureliness of human persons. وهو، أنهم يتعرفون على البشر باعتبارهم كائنات محدودة، وعاجزة، وغير معصومة. هناك إله واحد، ونحن لسنا هو. مع هذا الاعتقاد، يمكننا أن نتوقع أن كل البشر، بما يتضمن الإبراهيميين أنفسهم، يخطئون في اعتقاداتهم وممارساتهم. بالتالي، يُقارب المؤمن اعتقاداته وكذلك اعتقادات الآخرين بجرعة صحية من التواضع الخاص بالمخلوقات البشرية. يوفر الإقرار بحتمية الوقوع في الخطأ حافزًا لاحترام حقيقي وأساسي تجاه الأشخاص الذين نختلف معهم.

إنني لا أقصد اقتراحًا مفاده أن المؤمنين مطلوب منهم أن يشكّوا في أكثر اعتقادات إيمانهم أصالة، وذلك لأن هذه الاعتقادات هي بالضبط التي تغرس الرحمة والاحترام. والرحمة والاحترام، وهما مغروسان هكذا، يمكنهما التغلب على النزوع الطبيعي لوضع مسافة معتَبَرة بيننا وبين الآخرين أصحاب الاعتقادات والممارسات المختلفة.

يجب أن يَغرسَ التواضع الخاص بالمخلوقات البشرية كلاً من الإحساس بالقابلية للخطأ (اللا–عصمة) تجاه كل ما لا يُعتَبَر من أساسيات اعتقاداتنا والسماح للحرية بالوجود فيما يتعلق بأمور ليست أساسية ولا مُتَصَوَّرَة بوضوح في طيّات وثيقتنا المقدسة. لقد اضطهد المسيحيون، على سبيل المثال، وبشكل مُخزٍ، مسيحيين بناءً على أفهام مختلفة بخصوص السن الملائم للتعميد، أو العلاقة المنضبطة بين الآب–الابن–الروح القُدُس، أو أدوار متعددة للاعتقاد والأعمال. لكن، تظل حقيقة أن هؤلاء المسيحين تشاركوا، طيلة الوقت، الاعتقاد العميق بأن المسيح حمل خطاياهم. يجب على هذا الاعتقاد أن يوحِّدَ، وبكل قوة، المسيحيين الذين أثبتوا بسهولة ميلهم إلى الانقسام حول اعتقادات هامشية (غير مركزية) تتعلق بالتعميد أو ميتافيزيقا الثالوث. لا أمتلك أدنى شك في أن المسلمين واليهود يمكنهم بسهولة إصلاح قلب اعتقادهم، ومن ثَمّ، وبناءً على قلب العقيدة السالف الذكر، يجدون طريقة للتسامح تجاه هذه الممارسات والاعتقادات التي ليست أساسية ولا حتى تمَّ تلقينها بوضوح باعتبارها قلب عقيدتهم.

بأخذ كل هذه الاعتقادات في الحسبان يمكننا أن نبدأ في فهم كيف أن الاعتقاد الديني لا يحتاج أن يستتبع الدوجمائية والتَّعَصُّب. لا يعني مجرد امتلاك الثقة في اعتقادٍ نعتبره مهمًا أننا سوف نقوم بإبعاد أو اضطهاد هؤلاء الذين نختلف معهم. على الرغم من أن كل هذا نزوع إنساني شائع في المجمل، إلا أنه ليس حصريًا للأمور الدينية (على سبيل المثال، نوع الحوار الذي نجده عندما يتعلق الأمر بأمور السياسة). ومع ذلك، يمتلك المؤمن سببًا وجيهًا للإقرار بهذا النزوع ومن ثمّ مقاومته: إن البشر، في نهاية الأمر، كائنات هابطة [آثمة] وعُرضة للخطأ. إن هذا الاعتقاد، في اقترانه مع الاعتقاد بأن كل البشر ذوي قيمة بشكل هائل، يحول دون اضطهاد أو إبعاد الآخرين بسبب اعتقاداتهم الدينية. يحترم المؤمنُ المؤمنَ الآخر، حتى عندما يختلفان. كذلك، قد تفهم المؤمنة أنها قد تتعلم شيئًا من الأخريات اللاتي يمتلكن اعتقادات مختلفة.

قد يظنُّ البعض أنني قمت بتقديم دفاع غربي، ليبرالي، لا–ديني عن التسامح. في النهاية، قد يظن المرء أنه لا يوجد شيء ما إبراهيمي بشكل خاص أو حتى ديني فيما يتعلق بالكرامة الإنسانية، أو الاحترام، أو اللا–عصمة [من الوقوع في

الخطأ]. يخفق مثل هذا النوع من الاعتراض في إدراك الجذور الدينية العميقة لهذه المفاهيم والقيم. لقيم التنوير جذور دينية عميقة – فهذه القيم لم تنبثق فجأة في عقول المفكرين الإنجليز والفرنسيين من العدم *ex nihilo*. لقد قامت هذه القيم من ثقافات مسيحية–يهودية–إسلامية بعد قرون من القول اللاهوتي بخصوص، مثلاً، الخَلْق على صورة الله وقداسة كل للمؤمنين. بالفعل، إن أغلب من يُسمّون بشخصيات التنوير "العلمانيين" كانوا متدينين بشكل عميق، يُنقّبون في تراثهم الديني الخاص بحثًا عن المذاهب التي ستدعم، في نهاية الأمر، الحرية والتسامح. لم يكن جون لوك John Locke يعتقد أنه من الممكن للملحد أن يتسامح! حتى الفيلسوف العلماني ريتشارد رورتي Richard Rorty يُقرُّ بأن مئات السنين من التأثيرات الدينية التي قامت بتحويل هذه الأفكار الثورية، الفائقة – مثل الكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان، والمساواة، والقانون الطبيعي... إلخ – إلى الحسّ العام common sense[1]. وتجد هذه المذاهب جذورها داخل الدين.

لقد قمنا بالنظر في بعض الاعتقادات المشتركة في التقاليد الإبراهيمية. هل من دفاعات دينية مُحدَّدَة عن التسامح؟ دعوني أكتشف هذا الأمر، بشكل مختصر للغاية من داخل تقليدي الخاص.

دفاع مسيحي عن التسامح؟

يُعتبر الدفاع المسيحي عن التسامح دفاعًا دينيًّا بمعنيين ـ تم تقديمه بواسطة رجل دين مسيحي (قس)، وهو روجر ويليامز Roger Willaims، وهو دفاع استخدمَ الاعتقادات المسيحية. أيضًا، يتكئ على الاعتقادات المسيحية الأكثر

---

(1) يقول ريتشارد رورتي Richard Rorty: "تبدأ عديد الإلزامات في الأحلام، كما تبدأ عديد التحولات العميقة على مستوى التراث في الخيالات الشخصية. فكِّر، على سبيل المثال، في الخيالات الشخصية لأفلاطون Plato أو القديس بولس St. Paul إنما خيالات مُبْتَكَرَة وطوباوية أصبحت بمثابة حسي عام في أزمنة لاحقة". من مقاله المعنون بـ "هل دريدا فيلسوف ترانسنتندالي – Is Derrida a Transcendental Philosopher"، منشور في مقالاته عن هايدجر وآخرين – Essays on Heidegger and Others .(Cambridge: Cambridge University Press, 1991), p. 121.

استبعادًا - المذهب البيوريتاني (الصّفَوِي البروتِستانتي) الأمريكي المبكّر Early American Puritanism.

إن "البيوريتانية" و"التسامح" مترادفان في التعبير اللغوي المعاصر. كان ويليامز Williams (تقريبًا 1604–1684)، وهو المؤسس الأمريكي لمستعمرة رود آيلاند Rhode Island، مسيحيًّا بروتستانتيًّا. ناشئًا في أقلية دينية مُضطَهَدَة بإنجلترا، كان ويليامز من المعرَّضين للتَّعَصُّب الديني. تحسَّر على الدم المراق خلال قرون من الحروب والاضطهاد التي قام بها هؤلاء الذين يَدَّعون الولاء ليسوع المسيح (أمير السلام). دافع ويليامز، في سعيه وراء الحرية الدينية، عن الحرية، ليس فقط لرفقائه المسيحيين ولكن كذلك للوثنيين، "المناهضين للمسيحيين"، واليهود، والتُّرك (المسلمين). لم يأفل الاعتقاد المسيحي بذلك الأمر، ولا تم منع المسيحيين من الدفاع عن اعتقاداتهم التي يؤمنون بها بيقين - لكن، ادعى ويليامز أنه يمكن إقناع المسيحيين فقط بواسطة كلمة الله، وليس بسيف الإنسان. لم يكن الإكراه الديني — البادي على مقدمة السيف — شيئًا أكثر من "انتهاك للضمير". إنه لأمر خاطئ على المستوى الروحي والأخلاقي، وهو خطأ من أعلى رتبة ممكنة، أن "تتم مضايقة أي شخص" بسبب اعتقاداته الدينية.

بالنسبة لويليامز، تتأسس الحاجة للتسامح مع الاعتقاد الديني للآخرين واحترامه في الكرامة المتأصلة وقيمة كل ضمير للفرد، وهو أمر اعتبره ويليامز ذا قيمة بشكل غير محدود وقيِّم. اعتقد ويليامز أن عديد المسيحيين الذين يعيشون حوله في المستعمرات الأمريكية الجديدة مخطئون بشكل كبير فيما يتعلق باعتقاداتهم الدينية. ومع ذلك، ومثل كل البروتستانتيين الأخيار (هؤلاء الذين تظاهروا ضد سلطة وهيمنة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية للتوسُّط بين الربِّ والإنسانية)، اعتقد أنه يلزم على ضمير كل فرد أخذ الأمور الدينية بعين الاعتبار وأن يقررها بنفسه؛ فهذا هو جوهر الإيمان. أسَّسَت بروتستانتية ويليامز، بالتالي، مذهب الفردية الراديكالي الخاص به. لذا لم يتعارض اعتقاد ويليامز بأن نسخته من المسيحية البروتستانتية هي الحقيقة المطلَقَة (وأن الانحرافات عن اعتقاده سوف تلعن روح الفرد للجحيم) مع اعتقاده بأن ضمير كل فرد واختياره الفردي قيّمان إلى آخر الحدود.

اعتبر ويليامز الاضطهاد "اغتصابًا للروح"، مبرزًا إدانته اللاهوتية والروحية للتَّعَصُّب. لا تزيغ اعتقادات ويليامز الداعمة للتسامح الديني بعيدًا عن قناعاته اللاهوتية. في الواقع، تدعم اعتقاداته الدينية، بشكل صريح، اعتقاداته حول الضمير والاختيار الحر.

خاتمة

تلوح نُذُر التَّعَصُّب الديني في عالمنا اليوم بوصفها تهديدًا. لكن فرصةً ما تكمن في ثنايا هذا التهديد. يمكن للمؤمنين، بل ويلزم عليهم، في مواجهة اتهام الملحدين الجُدد بأن الأديان — فقط — تُعزز التَّعَصُّب والكراهية تجاه اعتقادات الآخر، أن يدافعوا عن الإسهامات التي قامت بها تقاليدهم الدينية تجاه التسامح وأن يداوموا العمل على بناء مُناخ أكثر تسامحًا واحترامًا لكل الناس، من كل الاعتقادات. ومرارًا وتكرارًا، يمكننا أن نجد مؤمنين يستجيبون لهذا النداء.

في الولايات المتحدة، خلال شهور من الجدل واستثارة الانتباه التي أحاطت ببناء مركز مجتمعي ("المسجد في الجراوند زيرو")، أعلن عديد المؤمنين والمنظمات الدينية عن دعمهم بشكل علني للمسجد والمواطنين المسلمين وتحدثوا ضد التشهيرات والأكاذيب التي يتم تداولها عن المسلمين. أتت واحدة من أقوى الدفاعات عن المسجد من عمدة مدينة نيويورك اليهودي، مايكل بلومبرج Michael Bloomberg. في عديد الخُطَب، دافع بلومبرج، بقوة، عن بناء المركز، ووفق مُسَاعِدِين مُقرَّبين من العمدة، حُفِّزَ دفاعه الحماسي بقدر كبير بواسطة الأحكام المسبقة التي واجهها مع عائلته منذ الصغر.

مع ذلك، هناك جانب أقل جدوى لهذه الفرصة. بينما يعطي الاضطهاد والتَّعَصُّب الدينيان في عالمنا اليوم المؤمنين فرصة لاسترداد الطبيعة الحقيقية لاعتقادهم وتطبيق التسامح بشكل فعَّال واحترام أوامر الله، إلا أن ذلك الأمر يترك احتمال عدم استجابة المؤمنون متاحًا.

إن غاية أملنا في هذا الكتاب أن أبناء إبراهيم سيستغلون الفرصة، وهم يحتضنون التسامح والاحترام، يدعونا إله إبراهيم لأن نُظْهِرَ الرحمة تجاه الغريب.

ويفهم أبناء إبراهيم البشر باعتبارهم مخلوقين على صورة الله. إن كلاً من الرحمة وصورة الله Imago dei بمثابة أساسات لاهوتية مُحَدَّدَة لتسامح تجاه الآخرين الموجودين خارج دائرة اعتقادنا الخاص. إننا نقدِّمُ هذه الدفاعات اللاهوتية عن الرحمة، والاحترام، والتواضع باعتبارها ضرورية لفهم واحترام هؤلاء الذين يؤمنون باعتقادات وممارسات مختلفة بشكل أساسي. إن هذا، في المقابل، من شأنه خَلْق مساحة آمنة لممارسي الأديان الأخرى. إننا نسعى من خلال تقاليدنا الخاصة وراء ما هو موجود بالفعل فيها. لاهوت يُحَفِّزُ الرحمة ويعلي من شأن الكرامة الإنسانية والمذهب القائل [بقيمة] خَلْقِ الإنسان وحدوثه [في العالم]. يمكن للإقرار بهذه الحقائق اللاهوتية تأسيس الطيبة، والتواضع، والعطف، والحفاوة... إلخ، تجاه الغريب (بدون خوف أو غضب). تبين المقالات التالية الأساس الديني للرحمة والاحترام تجاه الاعتقادات الأخرى الموجودة في التقاليد الإبراهيمية، وتستند على هذا الأساس. ومن خلال فعل ذلك، نأمل أن نُقَوِّيَ إسهامات هذه التقاليد في سبيل التسامح الديني، كما نأمل إظهار أن المؤمنين الذين يأخذون إيمانهم على محمل الجدِّ يمكنهم خلق مستقبل أكثر حرية وتسامحًا.

توضيح:

تشير الأقواس [......] في الغالب إلى إضافات المترجم لتوضيح بعض السياقات في النص الأصلي.

ويشار للهوامش الإيضاحية للمترجم بكلمة (المترجم) في نهاية كل هامش.

ويشار لملاحظات محرر النسخة الإنجليزية من الأبحاث بكلمة (المحرر بالإنجليزية) في نهاية كل هامش.

أبناء إبراهيم اليهود

الفصل الأول
تعصُّب التعليم الإسرائيلي

نوريت بيليد إلهانان[1]

ترجمة: علي رضا

بعد مقتل ابنتها "سمادار Smadar" التي كانت تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا في عملية انتحارية في القدس، عملت الناشطة الإسرائيلية نوريت بيليد إلهانان Nurit Peled-Elhanan على تعزيز الحوار بين الإسرائيليين والفلسطينيين. في عام 2001 كانت واحدة من الفائزين بجائزة ساخاروف لحقوق الإنسان وحرية التعبير، التي يمنحها البرلمان الأوروبي. وهي مؤلفة كتاب "فلسطين في كتب المدارس الإسرائيلية: الأيديولوجيا والبروباغندا في التعليم

Palestine in Israeli School Books: Ideology and Propaganda in Education) "I. B. Tauris, 2011.(

هذا المقال مُهدى إلى سماداري – زهرتي التي ماتت وهي لم تزل في المهد صبية، فتاة صغيرة قُتلت لمجرد أنها ولدت إسرائيلية على يد شاب كان مُضْطَهَدًا ويائسًا إلى حد القتل والانتحار لمجرد أنه وُلِدَ فلسطينيًا.

وإلى عبير عرامين Abir Aramin التي أطلق عليها جندي إسرائيلي الرصاص في سن التاسعة لمجرد أنها كانت فلسطينية.

---

(1) أشكر دفوره جمليلي Dvorah Gamlieli على مساهمتها القيمة في هذه الورقة في ما يتعلق بالفكر اليهودي.

مقدمة: عبير

في ظهيرة يوم الثلاثاء، 16 يناير 2007، أطلق جندي إسرائيلي النار على عبير البالغة من العمر تسع سنوات فأصابها في رأسها بينما كانت تشتري مصاصة بعد وقت المدرسة في حي عناتا، ضاحية تقع شمال القدس. وقد قُتلت برصاصة مطاطية زُعم أنها أُطلقت من بندقية جندي تابع لشرطة الحدود الإسرائيلية زُعم أنه كان يجلس في سيارة جيب مدرعة عندما دفع بماسورة بندقيته من خلال الفتحة التي قيل إنها مصممة لهذا الغرض وزُعم أنه استهدف وأطلق النار على رأس الفتاة التي كانت تقف إلى جانب أختها في كشك لشراء الحلوى. لم يقم الجيش بإجراء تحقيق في وفاة عبير. وقد تم وصف "التحقيق" الرسمي من قبل محكمة العدل العليا بأنه مهزلة. لم يتم استجواب أي شخص باستثناء شقيقة عبير، البالغة من العمر أحد عشر عامًا، والتي أمسكت بيد شقيقتها وهي تسقط.

وفقًا لجيش الدفاع الإسرائيلي، لم يحدث إطلاق النار هذا قط. فروايتهم الرسمية لوفاة عبير تقول إنها "ربما تكون قد" أصيبت بحجر ألقاه أحد زملائها في المدرسة "تجاه قواتنا". وقد ناقض هذه الرواية أحد الأطباء الكبار الذي فحص جسد الفتاة بناء على طلب العائلة.

إن الحجارة التي يرميها الأطفال في سن العاشرة لا تفجر الأدمغة. وعلاوة على ذلك، تقوم سيارات الجيب الإسرائيلية بتطويق الأطفال الفلسطينيين باستمرار في طريقهم من وإلى مدرسة في عناتا، حيث تحييهم بالقنابل الصوتية، والرصاص "المطاطي"، وغاز السيطرة على الشغب.

لقد رأيت عبير في مستشفى هداسا، حيث كانت نائمة بهدوء في سرير مستشفى ضخم. كان وجهها أبيض، وعيناها مغلقتين. وبحلول ذلك الوقت، كانت قد ماتت دماغيًا، وقرر الأطباء السماح لبقية جسدها بالموت أيضًا. كان بمقدوري رؤية أنه قد تم إطلاق النار عليها من الخلف، لكن الأطباء في هداسا لم يكشفوا عن سبب وفاتها.

دخلت عبير عرامين مملكة الأطفال الموتى المتنامية في جوف الأرض المقدسة. ولسوف ترحب بها ابنتي الصغيرة، سماداري، التي قُتلت وهي في الثالثة عشر من عمرها عام 1997 على يد انتحاري.

عندما زرت عبير في مستشفى هداسا، جلست مع سلوى، والدة عبير، وحاولت أن أقول: "كلنا ضحايا الاحتلال"، على الرغم من علمي أن جحيمها أسوأ من جحيمي. فقد جنّبنا قاتل ابنتي أي أفكار بشأن وجوده في العالم عندما قتل نفسه. ولكن من المحتمل أن قاتل عبير قد قضى ذلك المساء في حانة، وسيستمر في قضاء المزيد من الأمسيات في العديد من الحانات الأخرى، في حين يسعى والدا عبير إلى تحقيق العدالة. أما قاتل سماداري فلو كان قد نجا، لكان سيتم إرساله إلى السجن بسبب جريمته، ولكان سيتم هدم منزل عائلته.

لقد شارك والد عبير، بسام عرامين Bassam Aramin، في تأسيس منظمة "مقاتلون من أجل السلام – Combatants for Peace" مع ابني إليك Elik، الذي خدم كجندي إسرائيلي قبل أن يصبح "رافضًا". وفي يوم الأربعاء، 14 أكتوبر 2009، حضرت مع أعضاء في هذه المنظمة وفي منظمة "مراقبة ماشسوم – Machsom Watch" (لفظ "ماشسوم" بالعبرية يعني "نقطة تفتيش")، وفي منظمة "عائلات ثكلى من أجل السلام – Bereaved Families for Peace" جلسةَ الاستماع في محكمة العدل العليا الخاصة بغلق ملف التحقيق حول مقتل عبير عرامين البالغة من العمر تسع سنوات، بسبب نقص الأدلة.

على الرغم من أن سلوى وبسام عرامين ليسا يهوديين أو إسرائيليين، إلا أنهما يعيشان تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي وليس أمامهما خيار سوى البحث عن العدالة في محكمة إسرائيلية، والمطالبة بإظهار الحقيقة في محكمة المحتلين. إن الجريمة الكاملة، كما قال جان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard في كتابه "The Differend" (1988)، لا تنحصر فقط في القتل وإنما تشمل أيضًا قمع الشهادة وإسكات أصوات الضحايا. ولا يوجد ظلم أكبر من إجبار الضحايا على التماس العدالة في محكمة جلاديهم.

كان الصحفيون يركضون في ممرات المحكمة العليا قبل المحاكمة، وهم يسألون الكثير من الأسئلة: من مات؟ فتاة صغيرة؟ حقًا؟ عذرًا، سيدي، هل ماتت ابنتك؟ نعم. إذن أنت بسام عرامين؟ لا، أنا رامي إلهانان. أه آسف. فأين عرامين هذا؟ ومن أنت؟ ما الذي تفعله هنا؟ أنا صديق. صديق لهؤلاء الفلسطينيين؟ نعم. كيف ذلك؟ هل ماتت إبنتك أنت أيضًا؟ حقًا؟ متى؟ كيف؟ ماذا كان اسمها؟ ورغم ذلك، أنت لا تزال تقف في صف هؤلاء الفلسطينيين؟ هل يمكنني إجراء مقابلة صحفية معك؟

لكن، في النهاية، لم يروِ أي صحفي إسرائيلي أي شيء مما حدث.

أمضى بسام عرامين، وهو عضو سابق في حركة فتح (حركة التحرير الوطني الفلسطيني)، سبع سنوات في السجون الإسرائيلية لمحاولته إلقاء قنبلة إسرائيلية قديمة على سيارة جيب تابعة للجيش الإسرائيلى. ثم أصبح بسام، الذي كان في يوم من الأيام محاربًا للاحتلال، الآن محاربًا ضد العنف ومن أجل مستقبل سلمي لأطفاله الخمسة المتبقين. إن بسام، كمسلم، يعتقد أنه مُمتحَن وأن عليه النجاح في هذا الامتحان؛ كرجل ذي شرف، يجب عليه ألا يسعى للانتقام أو للاستسلام. ويجب عليه الاستمرار في النضال من أجل الكرامة والسلام على أرضه. جعل بسام ابنه البكر، عرب Arab، يقسم على القرآن، بأنه لن يستخدم العنف أبدًا في كفاحه ضد الاحتلال[1].

أيام المحاكمة، كان ابني، ييغال Yigal، يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا. وكان يجلس في قاعة المحكمة طوال اليوم وعلى وجهه شعور هائل بالصدمة. في تلك الليلة غادر إلى معتقل أوشفيتز Auschwitz مع زملائه في المدرسة، لإحياء ذكرى الهولوكوست. من أجله، كنت أتمنى، وأصلى، وأناشد، وأكاد أصرخ في الوجوه الناعسة للقاضيات، أن يجدن شرارة الإنسانية، والشعور بالأمومة، داخل أنفسهن، وأن ينظرن في عيون سلوى، التي لم تتوقف أبدًا عن البكاء، وفي وجه

(1) فشلت في جعل أبنائي يُقْسِمون نفس القَسَم. وكان عليهم أن يتعلموا من خلال التجربة أن كونهم جنودًا في الجيش الإسرائيلي يعني الانضمام إلى قتلة عبير وتشجيع قتلة سمادار.

بسام الشاحب، وأن يقلن: "إن محكمة العدل العليا تتعاطف معكم بخصوص وفاة عبير الصغيرة". لكنهن لم يفعلن ذلك.

وفي يوم الأحد الموافق 10 يوليو 2011، 8 تموز في التقويم اليهودي، قضت محكمة العدل العليا في إسرائيل، بأن الطفلة عبير عرامين، البالغة من العمر 9 سنوات، أصيبت برصاصة جاءت من بندقية مجهولة أطلقها أشخاص مجهولون. ولم يُستدل على أصل المقذوفة التي عُثِرَ عليها تحت جسد عبير الصغير. بعبارة أخرى: سمحت المحكمة العليا بإراقة دماء الفتيات الفلسطينيات الصغار، وأرسلت رسالة واضحة إلى جنود / شرطة قوات الاحتلال الإسرائيلى — أن قتل الفتيات الفلسطينيات، خاصة أولئك اللاتي يشترين الحلوى من الكشك المقابل لمدرستهن في التاسعة صباحًا، ليست جريمة. لم يعاقب أحد ولن يعاقب أحد. إن مزاعم الادعاء، أي أهل عبير، والشهود العيان، ومنظمة ييش دين: متطوعون من أجل حقوق الإنسان Yesh Din، وأدلة الإثبات، لم تجد طريقها إلى آذان القضاة.

المطالبة بعدم النسيان والدعوة إلى العدالة يمكن أن يصبحا دعوة إلى القتل[1]

في اليوم العالمى لذكرى الهولوكوست، توجه "القادة" الإسرائيليون – الرجال الذين يشغلون أعلى المناصب في الحكومة – إلى أوروبا ليطلبوا من العالم الاعتراف بألمنا وتذكُّر الشر الذي "تعرضنا" له، على الرغم من أن أكثر من نصف مواطني إسرائيل اليوم قد جاءوا من الدول العربية، حيث لم تكن هناك محرقة، وحيث قام القادة – مثل ملك المغرب – بحمايتهم من هتلر[2]. ومع ذلك، فإن الأطفال الإسرائيليين يتعلمون في المدرسة أن "نحن" قد عانينا دائمًا

(1) بيير نورا (1996: 10). الاقتباس الدقيق هو: "إن المطالبة بحق البقاء في الذاكرة مطالبة بالعدالة، ولكن هذا التكاثر في المزاعم الأخلاقية يمكن أن يتدهور لكي يصبح دعوة إلى القتل".
See Project Syndicate website, "The Tidal Wave of Memory," www.project-syndicate.org/commentary/nora1/English, accessed 2 April 2011.

(2) لقد وصلت الهولوكوست إلى تونس. انظر على سبيل المثال،
http://www.ushmm.org/wlc/article.php?lang=en&ModuleId=10007311

من "هم" – غير اليهود – ومازلنا نعاني وسنظل نعاني أكثر إذا لم نسيطر "عليهم" ليلًا ونهارًا و"نحن" مدججون بالسلاح. لقد أصبحت صدمة الهولوكوست العنصر الأساسي في التعليم والهوية الإسرائيلية، والمبرر المطلق للعدوان على الفلسطينيين. لقد أصبح "أوشفيتز" جوهر كياننا، النقطة المركزية لوجودنا – وليس الدرس الذي يجب تعلمه من أوشفيتز، فقط الصدمة هى التي تمت إعادة صياغتها وإنتاجها في التعليم الإسرائيلى من أجل تعزيز الإحساس بشخصية الضحية وبالانتقام. وكما قالت إحدى الطالبات الأثيوبيات، متحدثة عن هويتها: "أردت أن أصبح إسرائيلية، لذا ذهبت إلى أوشفيتز".

وفقًا لدانييل بار تل Daniel Bar-Tal ورافي نيتس زهنغوت Rafi Nets-Zehngut، علماء النفس السياسى، فإن "الوعى اليهودي الإسرائيلى يتصف بتقمصه لشخصية الضحية، وبعقلية الحصار، وبالوطنية العمياء، وبالعدوانية، والصلاح الذاتي، وبتجريد الفلسطينيين من إنسانيتهم وبعدم الإحساس بمعاناتهم"[1]. ويهدف هذا المقال إلى إثبات أن هذا الوعى نتاج التعليم الإسرائيلى. وإلا كيف يمكن للمرء شرح الطريقة التي يتعامل بها الأولاد والبنات الإسرائيليون في الزي العسكري مع الفلسطينيين كل يوم وكل ساعة؟

التسامح اليهودي

عندما سأل متحول جديد إلى اليهودية هيلل الأكبر Hillel the Elder، وهو أحد أبرز حكماء اليهود، أن يعلمه التوراة بأكملها وهو يقف على قدم واحدة، قال له: "لا تفعل بصديقك ما تبغضه أنت لنفسك. هذا هو تعليم الكتاب المقدس كله. كل ما يتبقى هو الشروحات. الآن، اذهب وتعلم!"[2] ويُعتقد أن هذا هو تفسير هيلل للآية الشهيرة التي تُعْرَف بأنها مبدأ أساسي للكتاب

(1) Daniel Bar-Tal and Rafi Nets-Zehngut's, "Emotions in Conflict: Correlates of Fear and Hope in the Israeli-Jewish Society," in Peace and Conflict: Journal of Peace Psychology, 1532-7949, 14 (3), 2008, 233-258.

(2) التلمود البابلي (Shabbat 31:A).

المقدس: أن "تُحِبَّ صَاحِبَكَ كَما تُحِبُّ نَفْسَكَ"[1]. يذهب هيلل إلى أبعد من ذلك فيما يتعلق بهذه الوصية كمبدأ رئيسى للتوراة. فيقول إن الكتاب المقدس بأكمله؛ كل وصاياه البالغ عددها 613 وصية، وكل قصصه وتعاليمه، يتركز في هذه الوصية. يدعى هيلل أنه بدلًا من النظرة المعتادة للكتاب المقدس – أنه يتحدث بشكل أساسى عن علاقتنا مع الله، فإنه في الحقيقة يتحدث أصلًا عن علاقاتنا مع بعضنا البعض.

ينشأ عن هذا سؤالان: أولًا، كيف يمكن أن يكون هذا تعليم الكتاب المقدس كله، في حين أن الكتاب المقدس معروف باحتوائه على الكثير من المعلومات والوصايا؟ ثانيًا، ماذا يقصد هيلل بمقولته؟

إن مقولة هيلل، التي تلخص جوهر الكتاب المقدس بهذه الطريقة، مقوله جذرية؛ فهى تتجاوز المفاهيم المبهمة للمودة الشخصية، حيث يؤكد هيلل أن هدف الكتاب المقدس هو الأفعال الواقعية التي يجب علينا كبشر القيام بها تجاه الآخرين. فما يهم في النهاية هو كيف نرتبط ونتعامل ونتصرف تجاه بعضنا البعض.

إن مقولة هيلل معروفة لدى اليهود في إسرائيل — المتدينين والعلمانيين على حد سواء — ويتم عرضها على جدران المدارس في كل مكان. لكن الأطفال الإسرائيليين يتعلمون الاعتقاد بأنها تنطبق فقط على كيفية التعامل مع اليهود الآخرين. ومع ذلك، فإن تفسير هيلل موجه إلى شخص غريب وغير يهودي Guer، الذي يطلب أن يتم تعليمه التوراة بأكملها – تعاليم الكتاب المقدس – بإيجاز شديد.

الغرباء Guerim

يحدد لنا الكتاب المقدس مرارًا وتكرارًا الطريقة التي يجب أن نرتبط بها مع الغرباء (الجوريم) وكيفية معاملتهم، أي الأشخاص الذين غادروا منازلهم

---

(1) اللاويين 19: 18.

وأراضيهم ووجدوا ملاذًا في أرضنا، بالإضافة إلى معتنقي الديانة الجدد[1]. لا يوجد تعريف دقيق للفظ Guer، لكن جذر اللفظ في اللغة العبرية هو نفس جذر ألفاظ أفعال "أن تعيش" و"أن تخاف" (lagur). هذه الأفعال الثلاثة – أن تتحول دينيًا، وأن تعيش، وأن تخاف – ترتبط بالتفسير الباطِنِيّ الموجود في كتاب الزوهار[2] Zohar لعبارة الكتاب المقدس: "وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، حَيْثُ تَغَرَّبَ أَبُوهُ"[3]. يقوم التفسير الباطني بالربط بين "الخوف" في أرض الإقامة المؤقتة والذي يظهر في كلمة גָר (gar) وفي كلمة מגורים ("megurim" - الإقامة)، وبين المعنى المضاد في كلمة ناحالا נחלה (nahala)، والتي تعني "مكان المعيشة الدائمة" وكلمة להתנחל (Lehitnahel)، التي تعني "أن يستقر". وينطبق معنى كلمة "ناحالا" عادة على الأرض التي يملكها الشخص والتي يبني عليها منزله، على العكس من المسكن أو مكان الإقامة الذي يعيش أو "يتَغَرَّب" فيه. وهكذا يربط الزوهار بين الخوف وكون الشخص غريبًا مقيمًا بطريقة مؤقتة بين أصحاب الأراضي والمنازل. وهكذا فإن كلمة גר (guer) غريب، أو أجنبي، أو معتنق جديد للديانة، ترتبط في الكتاب المقدس بالشعور بالخوف، وعدم الأمان، وكأنه ليس في بيته، وربما الأهم من ذلك كله، الشعور بالاعتماد على حسن نية هؤلاء الملّاك الدائمين الذي يقيم بينهم. هذه الصلة الثلاثية، بين الإقامة المؤقتة، والغريب أو المعتنق الجديد للديانة، والخوف، توضح الأهمية التي يوليها الكتاب المقدس للموقف تجاه الغرباء (الجوريم) الذين يعيشون بين أفراد بني إسرائيل.

ولنتأمل في بعض وصايا الكتاب المقدس المتعلقة بالعلاقة مع الغرباء:

---

(1) التعبير باللغة العبرية عن "التحوُّل إلى اليهودية" هو "جيور Giyur"، ويطلق على هذا المتحول اسم "جور guer".

(2) هو أحد أهم كتب الكابالا، التصوف اليهودي، والذي يحتوي على شرح للجانب الباطني في العهد القديم؛ مثل طبيعة الإله، ورحلة الروح، والطبيعة السحرية للأحرف العبرية وعلاقتها بالخلق والنظام الكوني، وغيرها من الموضوعات. (المترجم)

(3) التكوين 37: 1.

- "لَا تَضْطَهِدْ غَرِيبًا وَلاَ تُضَايِقْهُ، فَقَدْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي دِيَارِ مِصْرَ"[1]
- "الشَّرِيعَةُ نَفْسُها لِلغَرِيبِ وَالمواطِنِ"[2]
- "لِأَنَّ إلَهَكُمْ هُوَ إِلَهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الأرباب. الإلَهُ المنتَصِرُ الرَّهِيبُ، وَهُوَ لا يَتَحَيَّزُ وَلا يأخُذُ رِشْوَةً. 18 يَضْمَنُ العَدلَ لِليَتامَى وَالأرامِلِ، وَيُحِبُّ الغَرِيبَ وَيُعطِيهِ طَعامًا وَثِيابًا. 19 فَأَحِبُّوا أنتُمْ أيضًا الغَرِيبَ لِأَنَّكُمْ كُنتُمْ غُرَباءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ"[3]
- "إِنْ لَمْ تَجُورُوا عَلَى الْغَرِيبِ وَالْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ، وَلَمْ تَسْفِكُوا دَمًا بَرِيئًا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَإِنْ لَمْ تَضِلُّوا وَرَاءَ الأَوْثَانِ مُسِيئِينَ بِذَلِكَ لأَنْفُسِكُمْ، 7 عِنْدَئِذٍ أُسْكِنُكُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فِي الأَرْضِ الَّتِي وَهَبْتُهَا لِآبَائِكُمْ إِلَى الأَبَدِ" (4)
- "حِينَ يَكُونُ هُناكَ غَرِيبٌ يَعِيشُ فِي أَرْضِكَ فَلا تُسِئْ مُعامَلَتَهُ. 34 الغَرِيبُ الَّذِي يَعِيشُ مَعَكُمْ يَنبَغِي أَنْ يَكُونَ كَواحِدٍ مِنَ المواطِنِينَ. تُحِبُّهُ كَنَفسِكَ. لِأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أيضًا كُنتُمْ غُرَباءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ"[5]

إن اليهود الصهاينة، رغم أنهم يعتبرون أنفسهم السكان الأصليين العائدين لأرضهم، هم في الحقيقة جوريم، أجانب، أو بالأحرى غزاة: أناس وصلوا قبل مائة عام تقريبًا، مدفوعين بأسطورة الماضي المجيد والأصل العظيم للعيش في الأرض التي عاش فيها الفلسطينيون دائمًا، مُدَّعين أنها مِلْكٌ لهم، ومستخدمين الكتاب المقدس كمبرر لذلك[6]. لقد حوّل إنشاء دولة إسرائيل الشعب الفلسطيني الأصلي إلى جوريم. ومع ذلك، تعارض دولة إسرائيل باستمرار الوصايا المتعلقة بالجوريم على الرغم من إعلان الاستقلال الإسرائيلي، الصادر في عام 1948، والذي يقر صراحة باحترام جميع سكان الأرض الآخرين ويمنحهم حقوقًا مدنية وحضارية

---

(1) الخروج 22: 21.
(2) العدد 9: 14.
(3) التثنية 10: 17-19.
(4) أرمياء 7: 6-7.
(5) اللاويين 19: 33-34.
(6) See Shlomo Zand, The Invention of the Jewish People (New York: Verso, 2009).

كاملة. لم يتبع الزعماء السياسيون والدينيون في إسرائيل، فضلًا عن مؤسساتها التعليمية الثقافية، التوراة أو إعلان الاستقلال في مواقفهم وممارساتهم تجاه الفلسطينيين الذين تحولوا، بالقوة والاجبار، إلى جوريم في أرضهم وعليها.

الفلسطينيون في الكتب المدرسية الإسرائيلية[1]

كان أمر هيلل هو "اذهب وتعلم". فما الذي يفعله الأطفال الإسرائيليون تجاه جيرانهم الفلسطينيين والمواطنين المتعايشين؟ إن التعليم الإسرائيلي، الذي يُخفي حرفيًا الألفي عام من حياة اليهود في الشتات ويلح على إنكاره، يُخفي حياة الفلسطينيين على الأرض على مدى 1300 عام. تعني العقيدة الصهيونية "اعرف وطنك" أن تنسى ألفي عام من الحضارة على هذه الأرض ورؤية الحياة اليهودية الحالية في إسرائيل كاستمرار مباشر لمملكة يهوذا التوراتية[2]. لذا، نجد في كتاب الصف الابتدائي "بلدان البحر الأبيض المتوسط The Mediterranean Countries": "كانت القدس عاصمة للشعب اليهودي (باستثناء الألفي عام الذين لم نَكُن فيهم هنا)"[3].

يخدم هذا التصور ما وصفه المؤرخ الفرنسي، بيير نورا Pierre Nora، بـ "جماعة الاستمرارية"، وهو نموذج للسرديات القومية[4]. وفقًا لجماعة الاستمرارية، كانت الأرض أيضًا في المنفى؛ حيث يقول المؤرخ غابرييل بايتربرغ Gabriel Piterberg إنه وفقًا للصهيونية، فإن الأرض "افتقرت إلى أي تاريخ حقيقي أو له معنى، في

---

(1) This discussion of Israeli textbooks is based on my study: Palestine in Israeli School-books: a multimodal analysis of Ideology and Indoctrination, to be published in September 2011 by I.B. Tauris Publishers, London. UK.

(2) As noted by literary scholar Ariel Hirschfeld in Haaretz, Israeli newspaper, 27 December 2008.

(3) D. Vaadya, H. Ulman, and Z. Mimoni, The Mediterranean Countries for 5th Grade (Tel Aviv: Maalot Publishers, 1994/1996), 54.

(4) Pierre Nora, 1996:12. Rethinking France: Les Lieux de mémoire, Volume 1: The State. (Chicago: University of Chicago Press, 1996).

انتظار الخلاص؛ أي عودة اليهود"[1]. يؤكد بيتربيرغ أن الشعار الصهيوني "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، لا يعني أن الأرض كانت فارغة حرفيًا، لكنها كانت خالية من أوصيائها الحقيقيين وآهِلة بالدخلاء التافهين[2].

تصنيف "الآخرين"

غالبًا ما يكون تصنيف الناس مهينًا، خاصة عندما يُشار إليهم "وفقًا للتصنيفات الرئيسية التي يستخدمها مجتمع معين أو مؤسسة معينة في التمييز بين الفئات: العمر، الجنس، المنشأ، الطبقة، الثروة، السلالة، العِرْق، الدين، التوجه الجنسي، إلخ"[3]. إن تصنيف الفلسطينيين جزء مما يصفه مُحلل نقد الخطاب توين فان داجك Teun van Dijk بلغة عرض الذات وعرض الآخر[4].

إن لغة عرض الذات وعرض الآخر واضحة في الكتب المدرسية الإسرائيلية التي تميز اليهود الإسرائيليين عن غير اليهود (أي العرب)[5]. حتى في الأمور التي لا تمس المسائل القومية أو العِرْقية، مثل الصناعة، والزراعة، والمهن، والوثائق الرسمية، والمراجع، وحتى الخرائط، تنقسم الحياة في إسرائيل عرقيًا إلى يهودية وغير يهودية. ويساعد التمييز بين اليهود وغير اليهود على ترسيخ اليهود كالجماعة

---

(1) Gabriel Piterberg, "Erasures," New Left Review, (London, UK: 10 July/August 2001), 32.

(2) Ibid.

(3) T. Van Leeuwen, Discourse and Practice: New Tools for Discourse Analysis, Oxford Studies in Linguistics, (Oxford: Oxford University Press, 2008), 42.

(4) Van Dijk 1997. Ideology: a Multidisciplinary Approach. London. Sage publishers.

(5) عادة ما يتم تصنيف غير اليهود الذين ليسوا عربًا، سواء من خلال سجل السكان في الولاية أو في الكتب المدرسية الجغرافية على أنهم "آخرون" ويتم تضمينهم في المجموعة اليهودية، وخاصة في الرسوم البيانية التي تصف التقدُّم. يتم التعبير عن وضعهم المتميز في كتاب "جغرافية أرض إسرائيل The Geography of the Land of Israel" (2003: p.149)، حيث يقسّم الهرم السكاني الإسرائيليين إلى "يهود وآخرين" مقابل العرب. ولا يقدم الكتاب أي تفسير حول ماهية "الآخرين"، لكن يبقى الانطباع أن بعض "الآخرين" يستحقون الضمّ إلى المجموعة اليهودية، طالما أنهم ليسوا عربًا.

المهيمنة والحقيقية – لأنها تحمل اسمًا مميزًا – وعلى تهميش المواطنين الفلسطينيين باعتبارهم خارج الجماعة.

إن الاسم الذي اختاره التيار الوطني الفلسطيني لأرضه في بداية القرن العشرين هو "فلسطين"، لكن الخطاب الإسرائيلي لا يحترم هذا الاسم. فنادرًا ما يستخدم توصيف "فلسطيني" في الخطاب السياسي أو التعليمي لتسمية الأراضي الفلسطينية المحتلة أو الشعب الفلسطيني. وفي معظم الكتب المدرسية، يصبح هذا التوصيف مرادفًا لـ "إرهابي"، ويتم تقديم منظمة التحرير الفلسطينية (PLO) كمنظمة إرهابية. وكثيرًا ما تدعى الكتب المدرسية أن الفلسطينيين هم الذين يشعلون دائمًا جميع الصراعات في المنطقة ويصعّدونها، كما تُصَوِّر تلك الكتب اللاجئين كمصدر للمشاكل في البلدان التي يعيشون فيها، مثل لبنان والأردن[1].

إن كلًا من الفلسطينيين المواطنين، الذين يُطلق عليهم "عرب إسرائيل"، والفلسطينيون غير المواطنين، ويطلق عليهم "الفلسطينيون"، غالبًا ما يتم جمعهم في فئة "العرب". يعزز هذا الاسم فكرة أن الفلسطينيين ليسوا أمة في حد ذاتها ولكنهم ينتمون إلى دولة أخرى أكبر خارج إسرائيل، وهى الأمة العربية. وبوصفهم "عربًا"، يمكنهم، بل ويجب عليهم، الاستقرار في أي من الدول العربية الواحدة والعشرين. وفي عرضها لموضوع الجنسية الفلسطينية، تؤكد الكتب المدرسية على أن اللاجئين الفلسطينيين يتوقون إلى أرضنا، إسرائيل، وليس لأرضهم، فلسطين[2].

يصور توصيف "عربي" أيضًا "أقليات" أصلية أخرى، حيث يشير كتاب الجغرافيا إلى جميع السكان الأصليين من غير اليهود، بغض النظر عن أصلهم وإيمانهم، كعرب:

---

(1) R. Firer, "The presentation of the Israeli-Palestinian conflict in Israeli history and civics textbooks," in R. Firer and S. Adwan, The Israeli-Palestinian conflict in Israel history and civics textbooks of both nations, (Hannover: Georg Eckert Institute for International Textbook Research, 2004), 64.

(2) As in E. Bar Navi, The 20th Century: A History of the People of Israel in the Last Generations, for Grades 10-12, (Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv, 1998), 245.

السكان العرب: داخل هذه المجموعة يوجد العديد من المجموعات الدينية والعديد من المجموعات العِرْقية: المسلمون والمسيحيون والدروز والبدو والشركس. ولكن بما أن معظمهم عرب، فإنهم سيشار إليهم من الآن فصاعدًا بالعرب[1].

دائمًا ما يتم تصوير "العرب" بشكل نمطي، كبدو أو إرهابيين أو لاجئين أو مزارعين بدائيين؛ الرجال لديهم شوارب، ويرتدون الجلابيب (الملابس الخارجية التقليدية الفضفاضة)، والكوفيات (غطاء الرأس العربي التقليدي) ويركبون الجمال أو يسحبونها وراءهم، في حين أن النساء يرتدين الزي التقليدي وعادة ما يتم تصويرهن وهن جالسات على الأرض. مثل هذه التصورات الكاذبة ممكنة بسبب الحواجز العقلية والمادية التى بنتها إسرائيل بين اليهود والفلسطينيين. فغالبًا ما يعيش الأطفال الإسرائيليون حياتهم بدون لقاء أي فلسطيني وجهًا لوجه، ناهيك عن التحدث مع أحدهم. نشأ الجيلان الأخيران من اليهود الإسرائيليين وهم لا يعرفون شيئًا تقريبًا عن الجيران الذين يعيشون على بعد بضعة كيلومترات منهم، الذين تحول آباؤهم وأجدادهم إلى لاجئين أو مواطنين من الدرجة الثانية. لا يقدم التعليم الإسرائيلى أي شيء عن هؤلاء الجيران إلا أنهم تهديدات ديموغرافية وأمنية وتنموية. يَرِدُ في إحدى الكتب أن "المشكلة الفلسطينية" التي "نضجت في فقر وكسل الكثير من الفلسطينيين المتواجدين في مخيماتهم البائسة"[2]، يجب "حلها" لأنها "سممت لأكثر من جيل علاقات إسرائيل بالعالم العربي وبالمجتمع الدولي"[3]. إن وصف أمة بأنها "مشكلة" أمر عنصري[4] ومزعج

---

(1) T. Fine, M. Segev, R. Lavi, Israel: The Man and the Space, Selected Chapters in Geography, (Tel Aviv: The Centre for Educational Technology, 2002), 12 (emphasis added).

(2) E. Bar-Navi, The 20th Century: The History of the People of Israel in the Last Generations, for Grades 10-12 (Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv, 1998), 195.

(3) E. Bar-Navi and E. Nave, Modern Times Part II: The History of the People of Israel, for Grades 10-12 (Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv, 1999), 239.

(4) See Van Leeuwen, T. (1996). The representation of social actors. In: C.R. Caldas-

Coulthard, & M. Coulthard, Eds. Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London, Routledge.

للغاية خاصة عندما يتم استخدامه في كتاب يهودي فقط بعد مرور ستين عامًا على وصف اليهود بـ "المشكلة اليهودية".

وبما أن التعليم الإسرائيلى يغرس في الطلاب الأهمية القصوى لدولة يهودية ذات أغلبية يهودية، يتطلب حل المشكلة الفلسطينية تقليل عدد الفلسطينيين أو حتى القضاء عليهم. وبتسلحهم بهذه القناعة، دفع الإسرائيليون نحو 700 ألف شخص إلى مغادرة ديارهم وأراضيهم في عام 1948 وحوالي 350 ألف شخص آخرين في حرب عام 1967. وعندما أراد اللاجئون العودة إلى ديارهم وقُرَاهم ومحاصيلهم التى أزالتها إسرائيل أو استولت عليها، حُرِمُوا من هذا الحق (خلافًا لوعود إسرائيل والقرارات الدولية) ووُصِفُوا بأنهم متسللون خطرون وإرهابيون. أما أولئك الذين ظلوا هناك أو تمكنوا من العودة تم وصفهم قانونيًا بـ "الغائبين الحاضرين" – وهو ما يعني تقريبًا "بشر غير مُعترَف بهم" – أي الأشخاص الذين يخضعون، بموجب القانون، إلى "حالة استثناء – State of Exception" دائمة والذين يتم حرمانهم من جميع الحقوق الاجتماعية ومن جميع التوصيفات القانونية[1].

تنعكس الحاجة إلى القضاء على المشكلة الفلسطينية في القواعد والأنظمة التى تسمح بهدم قرى بأكملها[2]، وبإقرار "عقوبات" جماعية، وبالاستخدام المفرط للقوة (سواء الرصاص أو الغاز المسيل للدموع) في التجمعات، وبالاغتيالات غير القانونية للفلسطينيين. ولا يمكن تخيُّل مثل هذا السلوك موجهًا للمواطنين اليهود، أو حتى الإرهابيين اليهود، كما أنه لا يتوافق مع معايير السلوك الصحيح أو معايير العدالة في الدول الديمقراطية الأخرى.

---

(1) Oren Yiftachel, "(Un)Settling colonial presents," Political Geography, (2007). Vol. 26/1. Pp. 43-52.

http://www.elsevier.com/wps/find/journaldescription.cws_home/30465/description

(2) يوجد اليوم حوالي 100 قرية فلسطينية وبدوية غير معترف بها في إسرائيل، ومنها قرية العراقيب، وهي قرية بدوية في النقب، هُدمت عدة مرات من أجل غرس غابة لمنظمة مسيحية تدعى "تلفزيون الله God TV" والتي استأجرت الأرض من الصندوق القومي اليهودي Jewish National Fund.

تنقل الكتب المدرسية الإسرائيلية فكرة أن دولة خالية من العرب نعمة لإسرائيل. ففى إحدى الكتب، نقرأ عن "معجزة" النزوح الجماعى الفلسطيني: "في نظر الإسرائيليين حلّ رحيل العرب مشكلة ديموغرافية مروعة، حتى أن شخصًا معتدلًا مثل (الرئيس الأول) وايزمان Weizmann تحدث عن ذلك باعتباره معجزة. وبالفعل، أصبح من الواضح جدًا بعدها بقليل أن إسرائيل لن تسمح بعودة اللاجئين"[1]. وفي كتاب آخر، نقرأ مزايا هذا النزوح بالنسبة إلى إسرائيل:

- عززت القوة العسكرية للمجتمع اليهودي.
- خلقت ملكية أرض [يهودية] متصلة "كأصول استراتيجية".
- كان لها آثار إيجابية على المستوى الدبلوماسى لأنها أقنعت الأمريكيين والروس بأن المجتمع اليهودي قوي عسكريًا ويمكنه الدفاع عن نفسه[2].

ويذهب الكتاب إلى القول بأن "العرب تسببوا بذلك لأنفسهم لأنهم حاربوا اليهود حتى النهاية"[3]. كما يقول أيضًا إنه عندما قررت الأمم المتحدة ضرورة السماح لنحو 60 ألف لاجئ بالعودة، "كان الوقت ضدهم. حيث تمت تسوية القرى بالأرض واستوطن المهاجرون اليهود هذه المناطق المهجورة"[4]. تم توفير السكن للمهاجرين اليهود في الأراضى الفلسطينية المهجورة بموجب قوانين تنص على أنه لا يُسمح للاجئين بالعودة إلى منازلهم، أو استعادة ممتلكاتهم، أو حتى طلب تعويض[5].

دائمًا ما قيل للأطفال الإسرائيليين إن "العرب" لا يستحقون استعادة الأرض، لأنهم تخلوا عنها بمطلق حريتهم. وبما أن التخلي عن الأرض يتناقض مع قاعدة

(1) E. Bar-Navi, The 20th Century, 195.

(2) N. Blank, The Face of the 20th Century (Tel Aviv: Yoel Geva, 2006), 322-323.

(3) Ibid, 323.

(4) Ibid.

(5) تم إعطاء الإذن لهيئة رسمية تسمى "الأوصياء Custodian" ببيع أرض الغائبين (المحددة في البند 1 (ب) من القانون) إلى الوكالة الإنمائية، وهي هيئة حكومية أنشئت خصيصًا لاقتناء هذه الأراضي. ثم باعتها هذه الوكالة إلى الصندوق القومي اليهودي Jewish National Fund الذي "يؤجر" الأراضي لليهود فقط (Piterberg, Erasures).

الصمود الفلسطيني، والتي تعني التمسك بتربة الوطن بأي ثمن، فإن التعليم الإسرائيلي، من خلال استخدام أفعال مثل "التخلّي"، و"الهجران"، و"الهروب"، يحاول إقناع الشباب الفلسطيني أيضًا أن آباءهم وأجدادهم قد تخلوا عن الأرض، وبالتالي فقدوا حقهم في العودة[1].

تصورات عنصرية

من بين الستة عشر كتابًا دراسيًا عاديًا محل هذه الدراسة[2]، لا يَرِد في أيٍّ منها الوصف، سواء باستخدام النَصّ أو الصور، لأي جانب ثقافي أو اجتماعي إيجابي في الحياة الفلسطينية، سواء أكان ذلك في الأدب أو الشعر أو التاريخ أو الزراعة أو الفن أو العمارة أو العادات أو التقاليد.

تستخدم الكتب المدرسية عددًا من الاستراتيجيات لتصوير الفلسطينيين "كآخرين"[3]. والاستراتيجية الأكثر استخدامًا هي عدم تمثيلهم على الإطلاق،

---

(1) تزعم الكتب المدرسية الإسرائيلية أن الدول العربية، وليست إسرائيل، هي التي خلقت المشكلة الفلسطينية لخدمة مصالحها الخاصة. في إحدى الكتب التي نقرأها، بشكل عادي، نجد المقطع التالي "لقد استغل قادة الدول العربية مشكلة اللاجئين الفلسطينيين من أجل احتياجاتهم السياسية الخاصة." (N. Blank, Face of the 20th Century, p. 348). ويقول كتاب آخر: "اختار القادة العرب استخدام اللاجئين كقوة ضاربة ضد إسرائيل" (Bar-Navi, The 20th Century, 195). يقول بار نافي نقلًا عن مسؤول في الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين إنه قال: "لا تريد الدول العربية حَلَّ مشكلة اللاجئين. إنهم يفضلون الاحتفاظ بها كجرح مفتوح، كإهانة للأمم المتحدة وكسلاح ضد إسرائيل. هل يعيش اللاجئون أو يموتون، لماذا يهتم القادة العرب من الأساس؟" (عمان، أغسطس 1951) (Bar-Navi, The 20th Century, 195).

(2) الكتب المدرسية الإسرائيلية هي كتب تجارية، تباع في السوق الحرة، ويمكن للمدرسين اختيار الكتب التي سيستخدمونها. ولكنها تحتاج إلى ترخيص من وزارة التعليم، أو على الأقل أن تكون متوافقة مع المناهج الدراسية القومية. في هذه الدراسة تم فحص الكتب المدرسية العلمانية فقط، ولم يتم إدراج الكتب الدينية للدولة.

(3) يقدم فان ليوين Van Leeuwen (2008:46) خمس إستراتيجيات مختلفة لتصوير الناس على أنهم "آخرون"، وكلها يمكن العثور عليها في الكتب المدرسية الإسرائيلية: (1) استراتيجية الاستبعاد، لا يتم تمثيلهم على الإطلاق في السياقات التي يتواجدون فيها بشكل واقعي. (2) تصوير الناس على أنهم عناصر الأعمال التي لا تحظى بتقدير كبير أو أنهم تابعون أدنى شأنًا أو منحرفون أو جنائيون أو أشرار. (3) إظهار الناس كمجموعات متجانسة، وبالتالي رفض أي خصائص أو

أي تجاهل هؤلاء الأشخاص، والسياقات التي يعيشون ويعملون فيها بيننا، وإخفاء وجود الإقليم الفلسطيني. يظهر هذا بوضوح في الخرائط؛ حيث تغيب المدن والقرى والجامعات الفلسطينية وأي مواقع ثقافية أخرى، سواء أكانت داخل حدود الدولة أم خارجها. على سبيل المثال، في كتاب الجغرافيا، "بلدان البحر الأبيض المتوسط"، في فصل بعنوان "بحر واحد له أسماء كثيرة"، بدلًا من العثور على جميع الأسماء المعطاة للبحر الأبيض المتوسط من الأشخاص الذين يعيشون على طول ساحله، نجد العبارات التوراتية التالية: "وَسَيَكُونُ نَسلُكَ بِعَدَدِ ذَرّاتِ تُرابِ الأَرْضِ. وَسَيَنتَشِرُونَ غَرْبًا وَشَرقًا وَشَمالًا وَجَنُوبًا"[1]، "سَأجعَلُ حُدُودَكَ مِنَ البَحرِ الأَحْمَرِ إلَى بَحرِ الفِلِسْطِيِّينَ [الشواطئ الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط]، وَمِنَ الصَّحْراءِ إلَى نَهْرِ الفُراتِ"[2]، "كُلُّ مَكانٍ تَسِيرُ عَلَيهِ أقدامُكُمْ يَكُونُ لَكُمْ. فَيَكُونُ امتِدادُ أرْضِكُمْ مِنَ الصَّحراءِ جَنُوبًا إلَى لُبنانَ شَمالًا، وَمِنْ نَهرِ الفُراتِ شَرقًا إلَى البَحرِ الغَربِيِّ"[3]، و"سَتَكُونُ حُدُودُكُمْ مِنَ البَرِّيَّةِ وَلُبْنانَ إلَى النَّهْرِ العَظِيمِ، نَهْرِ الفُراتِ، بِما فِيها أرْضُ الحِثِّيِّينَ، إلَى البَحْرِ الكَبِيرِ فِي الغَرْبِ"[4]. والآية الوحيدة التي يوجد تفسيرها في الكتاب باللغة العبرية المعاصرة هي التي تختص بمفهوم "الانتشار": "إن تفسير الآية هو أنه في المستقبل سوف تمتد بلادكم إلى الغرب، وإلى الشرق، وإلى الشمال وإلى الجنوب"[5]. ويتم عرض هذا التفسير إلى جانب خريطة إسرائيل الكبرى التي تشمل فلسطين وأجزاء من الأردن وسوريا ولبنان. يخدم الدين، إذن، أهداف إسرائيل العلمانية في تشكيل سردية جماعية تضفي الشرعية على احتلال فلسطين.

اختلافات فردية. (4) استراتيجية الدلالات الثقافية السلبية. (5) استراتيجية الصور النمطية العنصرية السلبية.

(1) تكوين 28: 14.

(2) الخروج 23: 31.

(3) التثنية 11: 24.

(4) يشوع 1 : 4.

(5) D. Vaadya, ET. al., The Mediterranean Countries, 60.

يتم تصوير الفلسطينيين أيضًا بالطرق التالية:

باعتبارهم طفيليات: "إن المجتمع العربي مجتمع تقليدي، فطبيعته تحتم عليه الاعتراض على التغييرات، ومقاومة المستجدات. كل تحديث خطر بالنسبة لهم. وهم غير مستعدين للتنازل عن أي شيء من أجل الصالح العام .... في القطاع اليهودي لا توجد اعتراضات على تخصيص بعض الأراضي الخاصة للبناء العام. أما في القطاع العربي، فهناك توقُّع بوجوب توفير جميع الخدمات العامة والاحتياجات من الأراضي المخَصصة للدولة"[1].

باعتبارهم خارجين عن القانون: "معظم المنازل العربية غير القانونية مبنية على أراضى البلدية والأراضى الزراعية التى تنتمى إلي الدولة وفقًا للقانون الإسرائيلى. البناء غير القانوني هو أيضًا نتيجة الرغبة في التهرب من دفع الرخصة"[2].

باعتبارهم لصوصًا: "الصراع من أجل المياه: السلطة الفلسطينية تسرق المياه من إسرائيل في رام الله"[3].

باعتبارهم العدو في الداخل: يجب على إسرائيل "الحفاظ على أرض الوطن وحمايتها من الغزو غير القانوني للسكان غير اليهود، والحصول على الأرض بهدف تنميتها من أجل منع اتصال أراضى المستوطنات غير اليهودية، خشية أن يتسبب اتصال أراضي العرب في انفصال منطقة الجليل عن دولة إسرائيل"[4].

---

(1) Y. Aharony and T. Sagi, Geography of the Land of Israel, a geography textbook for grades 11-12, (Tel Aviv: Lilach Publishing, 2003), 303.

لاحظ أن "أراضي الدولة" هي في الواقع الأراضي التي تم مصادرتها من المواطنين الفلسطينيين في المقام الأول؛ الآن يُنظر إلى الفلسطينيين على أنهم سارقو أرضهم.

(2) Ibid. p. 199. For land confiscation and the ghettoisation of Arabs in Israel see Oren Yiftachel, Ethnocracy: Land and Identity Politics in Israel/Palestine (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006), 143, 166.

(3) Ibid. p. 100.

لكن رام الله ليست جزءًا من دولة إسرائيل. بل إنها واحدة من المناطق التي تسيطر عليها السلطات الفلسطينية.

(4) Ibid. 240.

باعتبارهم تابعًا أدنى شأنًا: "بعض العمال الأجانب فلسطينيون يأتون من المناطق التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية. يعملون في وظائف غير مهنية، وأجورهم أقل من تلك التي يحصل عليها المواطنون الإسرائيليون الذين يقومون بنفس الوظائف. هذه سمة مميزة لجميع الدول المتقدمة"[1].

في كتب التاريخ والجغرافيا والتربية المدنية التي بحثت فيها، وكذلك في الكتب العامة، يتم ذكر الفلسطينيين دائمًا بصفة جامعة، إما "العرب ..." أو "العربي ...". والانطباع الذي تخلقه مثل هذه النوعية من الإشارات هو أن الفلسطينيين جميعًا متشابهون ولا يعيشون إلا في مجموعات أو قطعان مثل الماشية. حتى وفياتهم في المذابح أو الحروب يتم الإبلاغ عنها مثل موت الحيوانات - بأعداد أو أحجام تقريبية. ففي عدة تقارير حول مجزرة دير ياسين، نجد ما يلي:

عدد الضحايا غير واضح ويتراوح بين 100 و254.

رحلة في الماضي 2001: 284 (الصفوف 8-9).

وخلال المعركة التي نشأت على الأرض، قُتل ما بين 100 و250 شخص، من بينهم نساء وأطفال.

خمسون سنة من الحروب والآمال 2004: 180 (الصفوف 10-11).

عند تلخيص نتائج حرب 1948، فإن كتاب التاريخ (الذي لا يعد كتابًا دراسيًا) والذي قد يعتبر تقدميًا بسبب تقديمه للروايات الإسرائيلية والفلسطينية جنبًا إلى جنب، يقدم أرقامًا دقيقة عن الخسائر الإسرائيلية خلال حرب عام 1948: ستة آلاف قتيل (4500 جندي و1500 مدني) وأكثر من 30000 جريح. لكنه يقدم فقط أحجامًا تقريبية لخسائر الفلسطينيين: "كان هناك العديد من الضحايا، ودمرت العديد من القرى وأصبح مئات الآلاف من الفلسطينيين

أصبح هذا الفصل شرعيًا الآن بمقتضى قانون يسمح للصندوق القومي اليهودي بالامتناع عن تأجير الأراضي للمواطنين العرب ووفق قانون لجان الفحص Screening Committees Law الذي تم اعتماده في 23 من مارس عام 2011.

(Ynet new s.17.06.08, http://www.haaretz.co.il/hasite/spages/1195587.html).

(1) T. Fine, et.al. Israel: The Man and the Space, 32.

لاجئين"[1]. في بعض الكتب المدرسية، يُطلق على القتلى الفلسطينيين لفظ "جثث" والذي يتماشى مع الخطاب الإعلامى الإسرائيلى الذي لا يصف خسائر الفلسطينيين أبدًا بلفظ "ضحايا": "تم عدّ 245 جثة في القرية – رجال ونساء وأطفال". (القرن العشرين The 20th century، 1998: 184).

يمنع النظر إلى جميع الفلسطينيين كأعداد أو كمجموعات القارئ من رؤيتهم ككائنات بشرية فردية وإدراك أن القضاء عليهم كارثة إنسانية. هذه الأنواع من التقارير الوقائعية، والسطحية، وغير المتفانية التي لا تتضمن أبدًا صورًا لفلسطينيين، سواء عاديين أو ضحايا، تمنع توليد أي تعاطف من جانب القارئ حول موت "أعدائنا"[2].

ويهيمن هذا الموقف أيضًا على مفاوضات تبادل الأسرى بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، التي تحول الأسرى الفلسطينيين – البالغين والقُصّر – إلى "ثمن" مجهول الهوية، على إسرائيل أن تدفعه مقابل جندي إسرائيلى معين (يُسمى "صبي") والذي لديه اسم، ووجه، وأسرة، وسيرة ذاتية.

لا يتم توصيف "العرب" بأي صفات إيجابية، أو بأي أفعال عاطفية أو معرفية، مما يعني أن هؤلاء الناس لا يشعرون بأي شيء ولا يفكرون بعقلانية. وكقاعدة عامة، نادرًا ما يفعل العرب والفلسطينيون أي شيء في الكتب المدرسية الإسرائيلية إلا الترصد والهجوم والتكاثر[3]. وفي بعض الكتب، يتم شيطنة "العرب" بشكل واضح: في كتب البروفيسور بار نافي Bar Navi، الذي أشاد به الباحثون بسبب تقدمية كتبه وصوابها السياسي، نجد تشبيهات

---

(1) N. Hagiladi and F. Kassem, The War of Independence/The Nakba (Jerusalem: Van-Leer Institute and Al-Quds University, 2007).

(2) وجد فان ليوين ويورسكي (2002: 258) موقفًا مماثلًا في تقارير وسائل الإعلام الغربية عن ضحايا العدوان الإسرائيلي سواء كانوا فلسطينيين أو مؤيدين للفلسطينيين. حيث لاحظوا أنه "يتم دعوة الجماهير الغربية للشعور بآلام الضحايا [الإسرائيليين] في حين أن الوفيات الفلسطينية نادرًا ما يتم الإعلان عنها بطريقة واضحة أو يمكن تذكرها لاحقًا: فهم أشخاص مجهولون، يُحسبون كأعداد، جثث متناثرة بين حشود الجنازات الجماعية".

(3) See, for example, Segev, M. and Fine, Z. (2007). People and settlements. Tel-Aviv. The centre for Educational Technologies.

للفلسطينيين بأنهم نازيون وأنهم كالشيطان. على سبيل المثال: "رأى رئيس الوزراء في عرفات تجسيدًا لهتلر"[1]. و"كان عرفات يعتبر تجسيدًا للشيطان، ومنظمة التحرير الفلسطينية كجماعة من القتلة"[2]. وأيضًا: "كان العمل العسكري في لبنان يبدو [للرئيس مناحم بيجن Menachem Begin] كحرب خلاص، من شأنها أن تنقذ إسرائيل من معتقل أوشفيتز ثانٍ". يتم عرض هذه التشبيهات على شكل اقتباسات من القادة الرسميين للدولة، وبالتالي تحيط بها هالة الحقيقة. ولا يعارض مؤلفو الكتب هذه النوعية من الاقتباسات أبدًا.

تمنع مثل هذه التصورات الإسرائيليين من رؤية الفلسطينيين على أنهم (أناس مثلنا PLU): "عقلانيون ومثقفون، يمتلكون الصفات الإيجابية التي يميل الطلاب الإسرائيليون إلى ربطها بجماعاتهم الخاصة، أي عربي عقلاني، ومسؤول، ومتحدث بشكل جيد، وحضاري، ومُحطِم للصورة النمطية، حيث يرتدي سترة ولديه درجة علمية وابتسامة مُتفهمة"[3]. فإذا كان "العرب" ليسوا أشخاصًا مثلنا، فهم لا يستحقون أبسط أشكال الاحترام الإنساني والكرامة والحقوق.

العنصرية البصرية

يمكن تصنيف الناس بصريًا، وكذلك كلاميًا، وفقًا للصور النمطية الثقافية أو البيولوجية السلبية. عادة ما يتم تضخيم هذه الخصائص، التي تشير لقيم وارتباطات إيجابية أو سلبية — وخصوصًا في الرسوم الكرتونية أو الكاريكاتورية – بشكل مبالغ فيه. يشير التصنيف "البيولوجي" للبشر ضمنيًا إلى أن هذه الخصائص "في الدم"[4]. على سبيل المثال، في إحدى كتب الجغرافيا، بجانب

---

(1) E. Bar-Navi, The 20th Century, 252.

(2) Ibid. 252.

(3) Dan Rabinowitch, "Natives with jackets and degrees: Othering, objectification and the role of Palestinians in the co-existence field in Israel," in Social Anthropology, vol. 1, issue 9 (February 2001:67-80).

(4) T. Van Leeuwen, "Visual Racism," in M. Reisigl and R. Wodak (Eds.) The Semiotics of Racism, (Vienna: Passagen Verlag, 2000), 146.

رسم كاريكاتيري عن "العربي التقليدي"؛ بالشارب الذي على وجهه، وبثوب علي بابا الذي يرتديه، وبحذاء المهرجين المدبب الذي في قدميه، وبالكوفية التي على رأسه، وبجانب هذا الرسم نجد جملًا مثل "إن المجتمع العربي مجتمع تقليدي، فطبيعته تحتم عليه الاعتراض على التغييرات، ومقاومة المستجدات. كل تحديث هو خطر بالنسبة لهم. وهم غير مستعدين للتنازل عن أي شيء من أجل الصالح العام"[1]، مما يوحي بأن "العرب" يمتلكون، كجزء من طبيعتهم البيولوجية، هذه الخصائص السلبية، وغير القابلة للتغيير. على الرغم من أن هذا الرسم لا يصور أي شخص عربي حي في إسرائيل أو فلسطين، إلا أنه يرمز إلى كل العرب كما تنظر إليهم العيون الإسرائيلية.

إن الكتابةَ عن المعاناة الفلسطينية من خلال ما وصفه المؤرخ دومينيك لا-كبرا La-Capra "التقمص المضطرب Empathic Unsettlement"[2] أو إظهار الفلسطينيين كأشخاص مثلنا، ينظرون إلى أرواحنا، أمرٌ خطير من وجهة النظر الإسرائيلية لأن مثل هذا التمثيل قد يشغلنا عاطفيًا وقد "يتطلب" منا فعل شيء ما حتى. إن كتاب "عالم من التغييرات World of Changes" هو الكتاب الوحيد الذي يقدم صورة يمكن من خلالها النظر إلى أرواح الفلسطينيين. تُظهر الصورة مجموعة من الأطفال اللاجئين الفلسطينيين في الأردن. تنظر إحدى الفتيات مباشرة إلى الكاميرا ومن ثم إلى أرواحنا. تتركنا نظرتها مضطربين وغير مرتاحين، فتجعلنا نفكر في ظروفها وقضيتها. هذا الكتاب المدرسي، الذي نُشِرَ في عام 2001 عندما كان حزب العمل يشغل

---

(1) Geography of the Land of Israel 303, emphasis added.

(2) في كتابه "Writing History, Writing Trauma"، الصادر عام 2001، يقترح لا-كبرا هذه الطريقة لكتابة أحداث المعاناة تاريخيًا، والتي تشق طريقًا وسطًا بين الطريقة الموضوعية التي ينظر فيها القارئ للحدث من منظور فوقي، وبين الطريقة الذاتية التي يتماهى فيها القارئ مع ضحايا الحدث. حيث يتم نقل شعور الضحية وإظهار الصدمة العاطفية لكن مع عدم تجاهل النتائج النقدية الموضوعية التي تمنع الفهم الكامل لتجربة المعاناة كما تراها الضحية، مثل الحقائق التاريخية أو وجود سرديات أخرى، فتمنع التماهي الكامل مع الضحية. هنا يصبح الكاتب صوت الاستجابة لمعاناة الضحية، بدلًا من أن يكون صوت التعبير عنها فقط، أو أن يكون صوت التاريخ الموضوعي الذي ليس له أي علاقة ذاتية بالضحية على الإطلاق. (المترجم)

وزارة التعليم، قد منعته الوزارة اليمينية عندما شغلت هذا المقعد في الحكومة التالية، لأنه لم يكُن صهيونيًا بما يكفي.[1]

إن هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد أيضًا الذي يعرض خريطة تُظهر مسالك الهروب التي استخدمها الفلسطينيون عندما تم طردهم في عام 1948، كما يُسمى الصراع باسم الصراع الصهيوني الفلسطيني بدلًا من الصراع اليهودي العربي. وفي هذا الكتاب أيضًا، يمكن العثور على الأسماء الأصلية للمدن والقرى الفلسطينية قبل أن يتم تغييرها إلى المدن العبرية.

شرعنة المذابح[2]

يتم عرض الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين في معظم الكتب المدرسية الإسرائيلية باعتباره صراعًا بين الخير والشر. وفي حين أنه عادةً يتم عرض الإجراءات الإسرائيلية على أنها حق أخلاقي وفقًا للمبادئ العالمية واليهودية، يتم عرض الإجراءات الفلسطينية باعتبارها تعسفية وشريرة. فإسرائيل "ترد على العداء العربي" وتنفذ "إجراءات ردع عقابية" ضد الإرهاب الفلسطيني. أما "العرب" على الناحية الأخرى، فهم يقتلون الإسرائيليين، ويرتكبون أعمالًا إرهابية ضد إسرائيل، ويقومون بأفعال انتقامية.

على الرغم من أن الكتب المدرسية الإسرائيلية لا زالت تستخدم تعبيرات "النزوح المذعور"، "التخلّي"، "الخروج"، "الصحراء"، وما إلى ذلك من أجل

---

(1) As reported by the committee for the examination of the History text-book A World of Changes, presided by Professor Yossef Gorni on 4 March 2001.

انظر صحيفة هآرتس [صحيفة إسرائيلية]، 13 يوليو 2001:

"بعد أيام قليلة من تعيين ليمور ليفنات Limor Livnat وزيرة للتعليم [الإسرائيلي]، حظرت كتاب التاريخ المدرسي في المدرسة الثانوية "عالم من التغييرات A World of Changes"، والذي حرره داني يعقوبي Danny Yaakobi بالتشاور مع سبعة علماء من أربع جامعات. [...] كان النقد العام الموجه ضد الكتاب سياسيًا بدرجة كبيرة: حيث أراد منتقدوه كتابًا أكثر وطنية".

(2) The strategies of legitimation are all taken from T. Van Leeuwen, "Legitimation in Discourse and Communication," Discourse & Communication 1(1, 2007): 91–112.

وصف طرد الفلسطينيين في عام 1948 (المعروف أيضًا باسم النكبة)، إلا أن بعض الكتب المدرسية تعترف بالمذابح، لكن يتم الحديث عنها بطريقة تجعلها سهلة القبول حيث تُظهرها على أنها "الجرائم التأسيسية" للأمة بطريقة تبرئ الجناة الإسرائيليين. ويتم عادة إضفاء الشرعية على تلك المذابح من خلال سردها بطريقة تجعل العواقب الإيجابية في مواجهة الفعل السلبي مثل النصر أو الإنقاذ؛ فالصراع بين الشر والخير دائمًا يؤدي إلى انتصار الخير، أي في عواقب إيجابية لإسرائيل. ولنتأمل في بعض الأمثلة.

إن مذبحة دير ياسين في عام 1948، والتي حدثت في قرية تقع غرب القدس حيث تم ذبح الفلسطينيين المسالمين الذين وقعوا على اتفاقية عدم اعتداء مع الهاجانة[1] Hagana، قد تم تصويرها في الكتب التي استعرضتها كالعامل الذي عجل بنزوح الفلسطينيين الآخرين، فجعل (معجزة) إنشاء الدولة اليهودية ممكنة. ومذبحة قبية في عام 1953، التي تم خلالها ذبح 69 فلسطينيًا في منازلهم، يتم الاعتراف بفضلها في ترسيخ الثقة اليهودية واستعادة الروح المعنوية والكرامة لقوات الدفاع الإسرائيلية[2]. إن الادعاء العام لهذه الروايات هو أن النتيجة الإيجابية (بالنسبة لنا) تفوق الشر (الذي فعلناه تجاههم).

كما يمكن إضفاء الشرعية على هذه المذابح من خلال التقييم الأخلاقي، فعلى سبيل المثال من خلال وصف المجزرة بأنها رد فعل مناسب ضد الإرهاب، حيث تصبح إجراءات عقابية أو رادعة أو انتقامية. وغالبًا ما يتم تصوير القتلة كنماذج يجب الاحتذاء بها. فعلى سبيل المثال، يدّعي أحد الكتب المدرسية أن

---

(1) تكتّل عسكري في الانتداب البريطاني على فلسطين في الفترة السابقة لإعلان دولة إسرائيل. وأصبحت لاحقًا نواة الجيش الإسرائيلي.(المترجم)

(2) "إن [مذبحة قبية وغيرها من الأعمال الانتقامية المماثلة] أعادت الروح المعنوية والكرامة للجيش الإسرائيلي وساعدته على أن يصبح جيشًا قويًا رادعًا يمكن لذراعه الطولى الوصول إلى العدو في عمق أراضيه" (Blank, 2006). هذا الأثر المذكور كحقيقة تاريخية هو في الحقيقة اقتباس من مقال مكتوب في صحيفة يديعوت أحرونوت Yedioth Ahronoth اليومية، على لسان قائد هذه المذبحة، أرييل شارون، بعد 39 عامًا منها، أي في 18 أكتوبر 1992.

See also Avieli-Tabibian, 2001; Domka et al. 2009; Inbar, 2004; Blank, 2006; Nave et al., 2009; and Domka et al. 2009.

جنود الوحدة 101 ذات السمعة السيئة، الذين ارتكبوا مذبحة قبية عن طريق هدم 69 منزلًا فوق سكّانهم انتقامًا لقتل امرأة يهودية وطفليها في القرية الفلسطينية[1] التي تم تطهيرها لتصبح مدينة "يهود" الإسرائيلية، قد وهِبُوا "شجاعة غير عادية، ومقدرة على الارتجال والثبات في أصعب الظروف، والولاء للأصدقاء الجرحى والتشبث بهم [و] أصبحوا المثال الأسطوري للجندي المقاتل في جيش الدفاع الإسرائيلي"[2].

يتكرر هذا الثناء في كتب أخرى بجانب صور جنود الوحدة 101، برئاسة أرييل شارون Ariel Sharon، مع رئيس الأركان موشيه ديان Moshe Dayan، الذي جاء لتهنئتهم بعد "عملية" ناجحة. الجنود في الصور، يتصفون بالوسامة والرجولية، ويرتدون كل "العلامات" التي تدل على التميُّز والبطولة في إسرائيل: القبعات العسكرية الحمراء، والزي العسكري بقماشه الكاكى الداكن، وشارة المظليين بأجنحتها المميزة، وأحذية المظليين الحمراء. هذه الصور ليست مجرد توضيح للنص – فهي لا تكشف فقط عن هوية جنود الوحدة 101، ولكنها تشكل أداة إضفاء الشرعية، لأنها تُظْهِر الرجال – مثل أرييل شارون، ورفائيل إيتان Rafael Eitan وغيرهم – الذين يضعون المعايير العالية لأفراد الجيش الإسرائيلى والذين وصلوا لاحقًا إلى أعلى المناصب السياسية. لا يمكن لهؤلاء الأبطال أن يقوموا بفعل أخطاء غير مبررة[3]. ينشر هذا التمجيد المرئى والنصى أسطورة القاتل الوسيم والعادل.

---

(1) كانت قرية فلسطينية تسمى العبّاسِيّة، وقد تعرضت للهجوم خلال حرب فلسطين عام 1948 في إطار العملية همتز Hametz، ثم تم إجلاء سكانها الفلسطينيين في إطار العملية داني Dani. (المترجم)

(2) Nave et al. (2009: 204).

(3) يضيف فان ليوين: "إن مجرد حقيقة أن هذه النماذج، التي يجب الاحتذاء بها، قد تتبنى نوعًا معينًا من السلوك، أو قد تؤمن بأشياء معينة، يكفي لإضفاء الشرعية على [أفعالهم] وأفعال أتباعهم".

(T. Van Leeuwen, "Legitimation in Discourse and Communication," 2007:103.)

يأمرني الكتاب المقدس بذلك

إحدى الطرق الأخرى للشرعنة هي استخدام سلطة الكتاب المقدس، أو سلطة التراث والتقاليد والقانون اليهودي في التبرير. وهكذا، يمكن تقديم المذابح على أنها متوافقة مع مبادئ الكتاب المقدس مثل "اقتل كل من ينتوي قتلك"[(1)]. هذه القاعدة التوراتية، المتحالفة مع "عَيْنٌ بِعَيْنٍ"[(2)] والتي لا تشجع على الانتقام في الأساس، بل على التعويض العادل، يتغير دورها حاليًا بحيث تدافع عن الردع والانتقام الذي يعمل كأساس منطقي دائم لتبرير العنف الإسرائيلي ضد الفلسطينيين. فعلى سبيل المثال، في 20 سبتمبر 2007، أعلن يوفال شتاينتز Yuval Steinitz، عضو البرلمان ورئيس لجنة الكنيست للأمن والشؤون الخارجية ووزير المالية، في الإذاعة الإسرائيلية أنه يؤيد إطلاق النار على المدنيين في المناطق التي تُطلَق منها صواريخ القسام. وردًا على المستشار القانوني للحكومة الذي حذر من ارتكاب جرائم حرب ضد المدنيين، قال: "إن قدرة إسرائيل الرادعة تعتمد على مبدأ مبادلة النار بالنار والرعب بالرعب، ومن ينبذون ذلك يتخلون عن أمن المواطنين الإسرائيليين"[3].

وكمثال آخر، عقب عمليات القتل التي حدثت في جامعة ميركاز هاراف Merkaz Harav الدينية في القدس، ودعمًا لقرار وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك Ehud Barak بهدم بيت عائلة القاتل، قال الحاخام الأكبر السابق لإسرائيل، الحاخام إيلياهو Elyahu: "إن الجمارا Gemara تقول إنه إذا أخذ غير اليهود فضة من إسرائيل، فيجب عليهم أن يعيدوها ذهبًا، فأي شيء يأخذونه يجب أن يعيدوه مضاعفًا. لكن لا يمكن أن يحدث ذلك في حالتنا هذه، لأن 1000 عربي لا يساوون طالبًا يهوديًا واحدًا"[(4)].

---

(1) اعتمادًا على المقطع التلمودي "إذا جاء شخص ما لقتلك، استيقظ مبكرًا واقتله أولًا" (Talmud Sanhedrin 72a). (المترجم)

(2) اللاويين 24: 20 – الخروج 21: 24

(3) Available at: steinitz.likudnik.co.il. This is his official site.

(4) As reported in Haaretz, 4 April 2008. Also: http://news.walla.co.il/?w=/1/1260087.

وكمثال آخر أيضًا، تم توزيع الكتاب المثير للجدل، تورات هامليش[1] Torat Hamelech، على الجنود الإسرائيليين، والذي كتبه حاخامات بارزون ويبرر قتل الأطفال غير اليهود. وقد تم تشجيع أبنائي، الذين كانوا جنودًا وقت مقتل أختهم على يد انتحاري فلسطيني من الضفة الغربية في عام 1997، من قبل قادتهم على الانتقام لموتها من خلال ارتكاب "أعمال انتقامية" في لبنان. لكنهم رفضوا ذلك[2].

عدم التسامح مع الجوريم اليهود

على الرغم من أن ممارسات التمييز قد تختلف، إلا أن مواقف إسرائيل المتعصبة والنابعة من الشعور بالتفوّق وبازدراء الآخر تتجلى أيضًا في العلاقات بين دولة إسرائيل واليهود وبين غيرهم من الجوريم. ويشمل الجوريم المهاجرين اليهود الذين تم إحضارهم لإسرائيل من أجل أغراض ديموغرافية بعد إنشاء الدولة، خاصة من الدول العربية، ولاحقًا من الاتحاد السوفييتي السابق وإثيوبيا.

---

http://article.wn.com/view/2008/04/02/Editorial_HangArab_Solution/.

(1) http://www.haaretz.com/jewish-world/news/the-king-s-torah-a-rabbinic-text-or-a-call-to-terror-1.261930.

(2) وبينما كانت هذه المقالة تحت الطبع، قال رئيس مجلس الأمن القومي، ياكوف أميدرور Ya'acov Amidror، إن الأمر بالقتال بحذر ومحاولة عدم الإضرار بالمدنيين "غير شرعي تمامًا". لأن "الفكرة المطلوبة هي قتل أكبر عدد من الأوغاد في الجانب الآخر. يجب أن ننتصر، وهذا يحمل القول"، مضيفًا أن على الجنود قتل كل من كان في طريق إتمامهم لمهمتهم. (www.haaretz.co.il/hasite/spages/1218121.html). الاقتباس المترجم على صفحة الموقع الإنجليزية هو: "هذا أمر غير قانوني تمامًا. ما يجب أن يقال هو (يجب قتل المزيد من الأوغاد على الجانب الآخر، حتى نربح. وهذا يحمل القول". من تشايم ليفنسون Chaim Levinson ومازال معلم Mazal Mualem، "تقول المرشحة لمنصب مستشارة الأمن القومي إن جنود الجيش الإسرائيلي الذين لن يقاتلوا يجب إطلاق النار عليهم" (Haaretz, 2 March 2011). لاحظ أن الترجمة الإنجليزية لا تفرق بين غير شرعي وغير قانوني، لكن هذا الاختلاف هو أمر حاسم كما هو موضح في كتاب التربية المدنية (Being Citizens in Israel 2001:217-218) حيث يقرأ المرء أن الجنود ملزمون بطاعة الأوامر غير القانونية (مثل تفجير المنازل الفلسطينية في الليل بدون أمر قضائي) وعصيان الأوامر غير الشرعية، مثل ذبح الأبرياء.

كما يشمل أيضًا اللاجئين والعمال الأجانب من البلدان التي تعاني من الحرب والفقر. من حيث المبدأ، ترحب دولة إسرائيل بجميع اليهود، وتهدف إلى جلبهم لإسرائيل، ومنحهم المواطنة الفورية. لكن لا يتم تشجيع هؤلاء اليهود المهاجرين على الحفاظ على ثقافتهم، وتقاليدهم، وطريقة حياتهم. حيث تسحق الدولة العبرية اللغات اليهودية الأخرى مثل اليديشية Yiddish (اليهودية الألمانية)، واللادينو Ladino (اليهودية الأسبانية)، واليهورشية Jewerish، والأمهرية Amharic (اليهودية الأثيوبية)، وغيرها من اللغات. كما يتم اعتبار التقاليد اليهودية التي تختلف عن التقاليد الإسرائيلية الرسمية "غير يهودية".

وإذا تأملنا في حال اليهود الإثيوبيين، نجد أنهم عندما يأتون إلى إسرائيل، يُعاد ختانهم؛ ثم يجب عليهم اجتياز اختبارات صعبة (لا يستطيع سوى عدد قليل من الإسرائيليين اجتيازها)، والتي تشمل إظهار فهمهم للهالاخاه Halacha (مجموع القانون اليهودي، بما في ذلك القوانين التوراتية – الوصايا mitzvot البالغ عددها 613 وصية، والقانون التلمودي والحاخامي، وكذلك العادات والتقاليد)؛ ثم يتم إعطاؤهم أسماء عبرية لتحل محل أسمائهم اليهودية الإثيوبية الأصلية؛ وتعليمهم أن يكونوا يهودًا على "الطريقة الإسرائيلية". إن التكيف مع أسلوب الحياة الإسرائيلي الحديث صعب على الإثيوبيين لأن الكثير منهم يصلون، وهم أميون، من قرى بدون كهرباء أو مياه جارية. فعند وصولهم، يتم وضعهم في كرافانات، في "مراكز الاستيعاب"، التي يمكن اعتبارها كنوع من الأحياء الفقيرة. وتظل العديد من العائلات الإثيوبية عالقة هناك لسنوات، ومعزولة عن جيرانها البيض، وتعتمد على الأعمال الخيرية وإحسان الآخرين، وتواجه صعوبات في العثور على عمل أو في تحسين أوضاعهم. في ميفاسيريت صهيون Mevaseret Zion، ضاحية بالقرب من القدس، يوجد مركز استيعاب كبير حيث أتطوع لتعليم الأطفال. كل يوم، في حوالي الساعة 6:45 صباحًا، تنقل الحافلات الصفراء جميع الأطفال السود إلى مدارس القرى البعيدة عن القدس البيضاء. وحتى هناك، يتم عزلهم. كما اعترف أحد مديريها: "نحن نهتم بهم كثيرًا لدرجة أننا نفصلهم ليس فقط خلال الفصول الدراسية بل أيضًا خلال فترات الراحة".

وقد اختلفت الإجابات على السؤال عن سبب عدم دراسة هؤلاء الأطفال حيث يعيشون، لكن الحقيقة على الأرجح، هي أن سكان الأحياء اليهودية البيضاء لا يريدون أن يختلط أطفالهم مع أطفال "العالم الثالث" على الرغم من أن هؤلاء "القادمين الجدد" قد أحضرتهم الدولة مع وعد بحياة يهودية أكثر كرامة من تلك التي كانت عندهم في إثيوبيا.

إن الأطفال في مركز الاستيعاب هذا لطفاء، وموهوبون، وطموحون، تمامًا مثل الأطفال الآخرين وأكثر، لأنهم يعرفون أن مستقبلهم، ومستقبل عائلاتهم، يعتمد على تعليمهم – فهم يدركون سريعًا أنهم هم "الآخرون". إحدى الفتيات اللاتي قمت بالتدريس لهن، اسمها سينتايهو Sintayho (الذي يعني "كم رأيت")، عندما سُئلت عن سبب بكائها وهي في الطريق إلى حمام السباحة، أجابت من بين دموعها: "أتذكر ما حدث في الأسبوع الماضي، عندما قال المدرب إن حمام السباحة كان كريه الرائحة؟ لقد نظرت حولي عندها ووجدت أنني كنت الإثيوبية الوحيدة". أخبرتني سينتايهو أيضًا أن الأطفال البيض (الذين يُطلق عليهم الأثيوبيون لفظ "فرنجي Faranji") لا يرغبون في أن يتم تصويرهم بجانب الإثيوبيين لأنهم "في قذارة القمامة". وعندما سألتها عما قالته معلمتها لهؤلاء الطلاب، أجابت، "لا شيء. ربما يكون لها نفس الرأي حتى. فالجميع يقول إن لوننا محزن". وأخبرني طفل آخر، ييمرش Yimsrach، بشكل طبيعي جدًا أنه يتم أخذ الأطفال البيض فقط لزراعة الأشجار في عيد الشجرة اليهودي. وقالت معلمة تستخدم تعاليم الهالاخاه من أجل تبرير موقفها تجاه الأطفال الإثيوبيين، إنها تتجنب هؤلاء الأطفال لأنهم دنس. هذه المعلمة لم تكن شريرة، لكنها كانت جاهلة. وكما أوضح ألبرت ميممي Albert Memmi في كتابه "العنصرية Racism"[1]، فإن الجهل يُوَلِّد الخوف والخوف يُوَلِّد العنصرية.

وإليكم ما كتبه طالب جامعي إثيوبي كخاتمة لأطروحته لدرجة بكالوريوس الآداب، الحائزة على عدة جوائز، والتي تدور حول اندماج اليهود الإثيوبيين.

---

(1) Racism. Translated and with an introd. by Steve Martinot. Minneapolis: University of Minnesota Press, c2000. ISBN 0816631646

هذا الطالب الذي رفض إعادة اعتناق اليهودية، لم يستطع الحصول على وظيفة في مجاله، ورفضه الجيش، ولم يكن يحق له الحصول على أي نوع من المساعدة المالية. وسرعان ما وجد نفسه في السجن حيث أكمل دراسته:

لم أستطع أبدًا تحمل موقف الأشخاص المتدينين تجاهنا ... في بعض الأحيان أردت أن أصرخ في وجوههم بأنني لا أهتم بهم على الإطلاق. فالله وحده يعلم ما في قلبي، وهو فقط صاحب قرار إحضاري إلى القدس أو لا.... في مركز الاستيعاب، ظلوا يراقبوننا. من حين لآخر، يأتي حاخام يدعى ق -. ويجمع الطلاب ليسألهم بعض الأسئلة الصعبة عن الدين اليهودي. كنت أعرف الأجوبة دائمًا وأحصل على الجائزة في كل مرة، ولكن رغم كل هذا لم أكن يهوديًا بما يكفي لأنني أنتمي لقوة العمل الأجنبية، وكنت أرفض إعادة اعتناق اليهودية، لأنه لا يوجد سبب لكي أفعل ذلك. أنا يهودي، يهودي أصلي. ولدت يهوديًا وسأبقى يهوديًا. ولا يهمني رأيهم في مُعتقدي. إذا لم يسمحوا لي بالزواج أو بالدفن في مقبرة يهودية (كما يفعلون في كثير من الأحيان)، فلن يمكنهم إيذائي أكثر من ذلك.

لطالما حلمنا بالقدس، لكن القدس لا تريدنا إلا كعبيد، وكناسين للطرقات، وعمال نظافة، وبستانيين في مدارسهم – حياة خالية من الكرامة. طوال حياتنا كنا نتوق إلى القدس، ولكنها استقبلتنا كلصوص. لماذا؟ لأننا جئنا من بلد فقير؟ هل جئنا لسرقة ذهبها؟ لقد أهانتنا القدس وخيبت آمالنا وأهدرت دماءنا[1].

يُطلَب من المعلمين في إسرائيل أن يحولوا طلابهم اليهود إلى "إسرائيليين" في أسرع وقت ممكن. ويجب على الطلاب المهاجرين أن يتعلموا كيف يكونون يهودًا، ولكن على الطريقة الإسرائيلية. عندما سُئلت إحدى المعلمات عما إذا كانت تدرك أنه من خلال تعليم تلاميذها الإثيوبيين نسختها من اليهودية فإنها تفصلهم عن تقاليدهم المتوارثة من مئات السنين، وتفصلهم عن آبائهم، أجابت، بأسلوب تبشيري: "أعلم ذلك بالفعل، أنتِ محقة، لكني أفعل ذلك بحب".

(1) يلمح إلى إهدار الدم الإثيوبي الذي يتم التبرُّع به بحجة أنه ملوث بالإيدز والسُّل.

لا يتم تدريس المعلمين في إسرائيل، ولا يُطلب منهم، تقدير التنوع في فصولهم. بل على العكس من ذلك، يُطلب منهم محوه، والعمل على تجانس فصولهم، أو، كما يقول التعبير العبري، "توحدها". قد يتم تأنيب المعلمين إذا لم "تتوحد" فصولهم. ولهذا يجلس أطفال المهاجرين معزولين عن بقية الأطفال، في الزاوية مع الأطفال الذين يعانون من النشاط المفرط، ومن عسر القراءة، ومع الأطفال "المختلفين" الآخرين الذين "يفسدون" التوحد. في إحدى الفصول التي زرتها، تُرِكَ الطفل الروسي جانبًا بينما كان الأطفال الآخرون يكتبون رسالة الجمعة التقليدية إلى آبائهم. وعندما سألت المعلم عن سبب ذلك، أجاب: "لأنه لا يزال يواجه صعوبات في اللغة العبرية".

ومع ذلك، فهناك بعض المعلمين الذين يرحبون بأطفال المهاجرين ويعاملونهم بشكل لائق، كما ينبغي أن يُعامل الجوريم؛ فيتمتع هؤلاء المعلمون بالقيمة الإضافية التي يمكن للمرء الحصول عليها من جراء التعرف على لغة جديدة أو ثقافة أخرى. تلقت سوسى Susi، معلمة في رياض الأطفال (وهى نفسها مهاجرة من الأرجنتين الديكتاتورية)، طفلًا عمره خمس سنوات، بنيامين Benjamin، تم تشخيصه بأنه يعاني من "مشاكل في التواصل". كان بنيامين يأتي إلى المدرسة كل صباح ليقضى خمس ساعات مختبئًا تحت الطاولة. رفضت سوسى تسليمه إلى قسم التعليم الخاص، قائلة: "إنه روسى ولم يسبق له أبدًا الذهاب لروضة أطفال إسرائيلية. فبالطبع سيكون لديه مشاكل في التواصل". ثم ابتكرت حلًا لهذه المشكلة. فذات يوم، قالت لطلاب الفصل: "سأفتتح ناديًا روسيًا. من يريد تعلم اللغة الروسية؟" رفع جميع الأطفال أيديهم. فقالت سوسى: "ولكن لدي مشكلة. لا أستطيع العثور على معلم". وعند سماعه لهذه الكلمات، خرج بنيامين من تحت الطاولة. ومنذ ذلك الحين، كل يوم أربعاء، أعطى بنيامين درسًا روسيًا للصف. وبعد أربعة أشهر من ذلك، وقبل عيد الفصح مباشرة، زرت روضة الأطفال هذه واستلمت من بنيامين محاضرة علمية عن الأهرامات – بالعبرية.

يتلقى الفصل والتهميش طابعهما الرسمى في الكتب المدرسية. فعلى سبيل المثال، في سلسلة الكتب الدراسية، "العيش معًا في إسرائيل **Living Together in Israel**": كتاب مدرسي في دراسات الوطن والمجتمع والتربية المدنية للصفوف

2-4، يُستثنى الفلسطينيون واليهود الإثيوبيون والبدو والدروز الذين يعيشون في إسرائيل من النصوص والصور الرئيسية التي تصور "الحياة الإسرائيلية"[1]. بل يتم حصرهم في "إطارات" هامشية ذات ألوان مختلفة؛ يُخرجهم عرضهم في الهوامش من السياق العام ويصنفهم على أنهم عينات من "الأقليات" الإسرائيلية أو "السلالات الأخرى" التي يجب ملاحظتها وفحصها؛ حيث يتم تقديمهم، أنثروبولوجيًا، على أنهم أنواع "أخرى" من البشر، لا ترتبط ببقية السكان وليس لها أي إسهام في الثقافة التي يتم تمثيلها في الكتاب. تُعَلِّم هذه الكتيبات القارئ، شفهيًا وبصريًا، أن هؤلاء الأطفال، في "إطاراتهم" المحكمة الخاصة، هامشيون ومستثنون ومعزولون. فعلى غلاف كل كتيب، هناك رسم ملون لأناس من جميع الأعمار (الذين يبدو أنهم يمثلون السكان الإسرائيليين). لكن لا يوجد بينهم أي شخص عربي أو أسود. في كل كتيب، نرى "عصبة" من الأطفال، مرسومة كشخصيات كرتونية، تعمل كمجموعة إرشادية حيث تأخذ القارئ في رحلة إلى إسرائيل للقاء الناس والتعرف على الأماكن والعادات، كما ترحب بالوافدين الجدد اليهود. في هذه العصبة، باستثناء طفل أشقر يدعى ساشا Sasha (للدلالة على الامتصاص الناجح لليهود الروس)، فإن جميع الأطفال هم من مواليد إسرائيل ومن البيض.

منذ سن السابعة، يتعلم الأطفال اليهود الإسرائيليون تهميش الفلسطينيين، والدروز والبدو، واليهود الإثيوبيين، وإبعادهم عن الحياة السائدة في دولة إسرائيل.

خطر السرديات القومية

يمكن للتلقين اللفظي والتصوير السلبي لـ "الآخرين" تشجيع الناس على اللجوء إلى العنف الجسدي بسهولة تامة، لأنه "قد تم تحديد جماعة الضحية منذ

(1) Published in 2006 by the Centre for Educational Technologies, Tel-Aviv.

زمن طويل، [و] بدأ الناس يفقدون القدرة على التفكير في مَن هم خارج الجماعة كأفراد"[1]، حيث يتم التعامل معهم كمجموعات خَطِرة.

إلى جانب كونها أداة لغرس الأفكار التمييزية والسلوكيات العنصرية، تعزز السردية التي يتم غرسها في أذهان الطلاب في المدارس الإسرائيلية الجهلَ. إذا افترضنا أن طلاب المدارس لا يسرعون إلى المكتبات للتحقق من الوقائع، وأن معظم المدرسين قد نشأوا على سرديات مماثلة، فيجب أن نستنتج أن الأجيال الثلاثة الأخيرة من الإسرائيليين، في معظم الأحيان، غير مدركة للواقع الجيوسياسى أو الاجتماعى لبلدهم. ويتم تنفيذ هذا التجهيل المتعمد من خلال القصائد والأغاني والقصص التي تمجد المشروع الصهيوني وتهويد الأرض، وخاصة من خلال الخطاب العلمي للكتب المدرسية التي تُعْتَبَر محايدة وموضوعية وغير متحيزة وبالتالي تُمَثِّل الحقيقة. أصبحت السردية القومية لإسرائيل، ما أسماه نورا Nora، "شكلًا من أشكال الانغلاق، وأساسًا لتبرير الإقصاء، وأداة للحرب" (Nora 1996:10).

قبل بضع سنوات كتب تل سيللا Tal Sela، أحد طلابي الجامعيين، كمقدمة لبحثه الفصلي حول السردية القومية الإسرائيلية الموجودة في الكتب المدرسية، وتأملاته في خدمته العسكرية:

كيف يمكن أن أكون ساذجًا لهذه الدرجة وأترك نفسي فريسة للخداع؟ كيف يمكنني تفسير أن يعرِّض رجل سلام نفسه لمثل هذه التجربة السقيمة بإرادته الحرة؟ اليوم، رأيت ضابطًا يقيد سائق سيارة أجرة بأصفاد ضيقة لأنه أخفق في طاعة أوامر الجنود بالوقوف هنا وليس هناك. قال الجنود "قلنا له ألف مرة". وظل الرجل مستلقيًا على الأرض في أسوأ حرارة صيفية لساعات متواصة، وهو ظَمْآن....

ما الذي يدفع هؤلاء الأولاد الإسرائيليين الشباب ليعب كل واحد منهم دور القاضي الأعلى حتى يفقدوا كل ملكات الحكم الصحيح؟ في رأيي، إنها السردية

(1) G. W. Allport, The nature of prejudice, (New York: Doubleday Anchor, 1958), 171.

الصهيونية الكبرى التي تلعب دور الضمير الجمعي للمجتمع الإسرائيلي ككل، بشكل صريح وبشكل ضمني أيضًا. فهذه السردية الكبرى هي نظام القيم الذي يجعلنا ننتمي إلى هذا المجتمع بالتحديد.

يؤكد بول ريكور Paul Ricoeur أن الخطر الرئيسي للسرديات القومية يكمن في التعامل مع "التاريخ" الرسمي، والمفروض، والمصَرَّح به، والذي يخفي "الدراما الأخرى". "عندما تتولى القوى العليا الزمام وتفرض سردية قانونية معيارية، يصبح مورد السردية فخًا وينشأ هنا شكل مخادع من أشكال النسيان [...] لكن بتواطؤ يجعل النسيان سلوكًا شبه سلبي وشبه نشط [...] باختصار؛ إرادة عدم المعرفة"[1]. يتم التعبير عن الخوف من المعرفة، على سبيل المثال، في القانون الذي أقره الكنيست الإسرائيلي في 23 من مارس عام 2011، لسحب الميزانيات من البلديات التي تسمح بإحياء ذكرى الكارثة الفلسطينية في عام 1948 (النكبة).

لكن "إرادة عدم المعرفة" التي تم غرسها في الشباب الإسرائيلي من خلال التعليم، هي في الواقع "إرادة عدم التعليم". لا تشجع دولة إسرائيل "تعليم السلام" ولا اختلاط الطلاب اليهود والفلسطينيين[2]. وبما أن المصالحة والسلام والتفاهم المتبادل [أمور] تعتمد على التواصل والمعلومات، فإن حرمان الأطفال من التواصل مع جيرانهم ومن أي معلومات عنهم تخلد تصويرهم كأعداء، وتمنع

---

(1) Paul Ricoeur, Memory, History, Forgetting, (Chicago: Chicago University Press, 2004), 448.

على سبيل المثال، انظر مقابلة مع النائبة السابقة ووزيرة التعليم شولاميت ألوني Shulamit Aloni، "مثل الألمان، نحن لا نريد أن نعرف: الإسرائيليون والجهل المتعمد للجرائم ضد الإنسانية المرتكبة في فلسطين".

www.axisoflogic.com/artman/publish/article_6869.shtml, accessed 4 April 2011.

(2) انظر: دان رابينوفيتش Dan Rabinowitch، (2001:67): السكان الأصليون ذوو السترات والشهادات العلمية Natives with jackets and degrees: "على الرغم من كثرة الفرص المتاحة، لم يصبح موضوع السلام والتعايش جزءًا من المنهج الدراسي الرسمي ولم يحمل أبدًا أي تصديق أكاديمي في حد ذاته".

حدوث أي تفاهم أو تعاطف. ترسم الدولة الحدود بين "نحن" و "هم"، ليس فقط بالجدران الخرسانية ولكن أيضًا بوسائل التعليم القوية، وتصنفهم على أنهم تابعون أدنى شأنًا وأوغاد وخطيرون. وبمجرد حدوث هذا، فإن هذه التوصيفات، كما يُظهِر تاريخ معاداة السامية، تميل إلى عدم التغيير[1].

يتناقض مثل هذا التعليم مع الزعم الإسرائيلي المستمر بأن "الفلسطينيين يعلمون أولادهم أن يكرهونا ونحن نعلم أولادنا (أن تحب جارك)"[2].

"اخْلَعْ حِذَاءَكَ"

إن غاية كل من الجدران الخرسانية والحواجز العقلية هي التأكيد على عدم طاعة وصية أخرى لهيلل: "لا تحكم على صديقك حتى تكون في مكانه"[3]. فالأفكار العنصرية الثابتة حول الآخر تمنع أن يتصور المرء نفسه وهو في مكان الآخر، أو بالأحرى أن ترتدي حذاءه [أن ترى الأمور من منظوره]. باستخدام أساليب الكابالا، يمكننا أن نربط بين كلمة "حذاء" وبين فعل "الحبس". ففى العبرية، إن فعل "الحبس" وفعل "ارتداء الحذاء" لهما جذر واحد هو: לנעול (linol). ومجازيًا، أن يُحبَس المرء "في حذاء الآخر" يعني أن يُحبَس داخل قصص الآخر من منظوره الذاتي. وهكذا، فإن ارتداء أحذيتنا يعني أننا حبيسو مواقفنا العاطفية الشخصية. وفي مثل هذه الحالة، من الصعب أن نرى الآخر، وبالتأكيد من الصعب أن نشعر به. ومع ذلك، هذه هي رسالة التوراة، التي تتضمن، وفقًا لهيلل، كل تعاليم الكتاب المقدس.

---

(1) كما ذكر ألبورت Allport (171 :1958)، " من خصائص العقلية المنحازة مسبقًا أنها تشكل مثل هذه الفئات في كل مجالات الخبرة. ويبدو أن الميول العكسية تشير إلى الشخص المتسامح". يقول (Yiftachel 2006:37) أن الأنظمة الإثنوقراطية تستلزم "الرفض التام" لجميع السرديات الأخرى ماعدا السردية الرسمية.

(2) Tzipi Livni, 1.1.2009 in a speech in Beer-Sheva. Inyan Merkazi. http://www.news-israel.net/article.asp?code=13973.

(3) Ethics of our Fathers II: 5. (Pirkey Avot).

يعطينا كشف الإله عن نفسه لموسى مثالًا على "خلع" حذاء المرء. حيث يقف موسى على جبل حوريب Mount Horeb، ويحدق بذهول وتعجُّب في الشُجَيْرَة المحترقة (بالعبرية סנה sneh) التي لا تفنيها النار، ثم يسمع صوتًا يخبره أن يخلع حذاءه، لأن المكان الذي يقف عليه أرض مقدسة[1]. وبخلعه لحذائه، يتحول بشكل إدراكي، وروحي، ووجودي حتى يتمكن من قبول هذا الذي هو ما هو، هذا الذي يكون ما يكون. فقط بخلع حذائه، يتمكن موسى من "رؤية" الله الذي يعرّف نفسه قائلًا: "أنا أكُونُ الذي أكُونُ"(بالعبرية אהיה אשר אהיה)[2]. إنه فقط من هذا المكان المقدس، الذي يتمكن موسى من الوصول إليه بمجرد خلعه لحذائه، يمكن فهم مقولة هيلل.

فقط عبر الخروج من قصتنا الشخصية أو القومية ورؤيتنا الذاتية أو العِرْقية للواقع، والتي يتم حبسنا وسجننا فيها، يمكننا أن نرى الآخر، أن نرتدي حذاءه وأن نعامله بتعاطف. إن السؤال هو: هل من الممكن أن يحدث هذا لشعب، يدعو كل صباح، منذ ألفي عام: "تباركت يا الله، ربنا، ملك العالم، الذي لم يجعلني أمميًا (غير يهودي)".

الخاتمة

ليس التعليم الإسرائيلي التعليم الوحيد الذي يغرس القيم العنصرية ويبرر الممارسات التمييزية. حيث تُظهر دراسات عديدة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وأستراليا وهولندا والسويد، من بين دول أخرى، نتائج مماثلة فيما يتعلق بتصوير "الآخرين". لذا، يحتاج العالم الغربي "المستنير" كله إلى خلع أحذيته وتنفيذ أقوال هيلل؛ إعادة تعريف كلمة "نحن" المحمّلة أيديولوجيًا، لا وفق العِرْق أو الدين، ولكن وفق قيم الرحمة والتسامح والتعاطف التي وصفها هيلل الأكبر. بالنسبة للإسرائيليين، فإن هذا يعني عدم الوقوف جانبًا عندما يقتل الجنودُ الفتياتِ الصغيرات، ويعني عدم لوم الضحايا على كل الفظائع التي نُلْحِقها بهم،

(1) الخروج 3: 5.

(2) الخروج 3: 14.

ويعني عدم الخوف من الفتيات الصغيرات اللاتي يرتدين الحجاب ومن الأولاد الذين يرتدون الكوفيات، ويعني عدم رؤية المحتاجين كجماهير غازية يجب قهرها وتدميرها. إنه لا يعني تعليم الأطفال ألا يروا أي خطأ في قتل الأطفال الآخرين "قبل أن يكبروا".

بدون هذا التغيير الروحي، لن يتبقى ما يمكن قوله أو كتابته أو الاستماع إليه على هذه الأرض باستثناء صرخة الحداد الصامتة والأصوات المكتومة للأطفال الموتى.

قائمة المصادر

الكتب المدرسية

الجغرافيا

- Aharony, Y., and T. Sagi. The Geography of the Land of Israel—Geography textbook for grades 11-12. Tel Aviv: Lilach Pub, 2003.
- Fine, Tz., Segev, M., and R. Lavi. Israel-The Man and the Space—selected chapters in geography. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies Pub, 2002.
- Rap, E., and Tz. Fine. People in space A Geography textbook for 9th grade. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies Pub, 1996/1998.
- Rap, E., and I. Shilony-Tzvieli. Settlements in space. Chapters in the Geography of settlements in the world. (Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies Pub, 1998).
- Segev, M., and Z. Fine. People and settlements. Tel-Aviv: The Centre for Educational Technologies, 2007.
- Vaadya, D., Ulman, H., and Z. Mimoni. The Mediterranean Countries for 5th grade. Tel Aviv: Maalot Publishers, 1994/1996.

التاريخ

- Avieli-Tabibian, K. Journey into the Past: Chapters in History for Grades 8–10. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies, 1999.
- Avieli-Tabibian, K. The Age of Horror and Hope: Chapters in History for Grades 10–12. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies, 2001.
- Bar-Navi, E. The 20th Century: A History of the People of Israel in the Last Generations, for Grades 10–12. Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv, 1998.
- Bar-Navi, E., and E. Nave. Modern Times Part II—The History of the People of Israel, for Grades10–12. Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv, 1999.
- Blank, N. The Face of the 20th Century. Tel Aviv: Yoel Geva, 2006.
- Domka, E., Urbach, H., and Goldberg, Z. Nationality: Building a State in the Middle East. Jerusalem: Zalman Shazar Centre, 2009.
- Inbar, S. 50 Years of Wars and Hopes. Tel Aviv: Lilach publishers, 2004.
- Nave, E., Vered, N., and D. Shahar. Nationality in Israel and the Nations: Building a State in the Middle East. Tel Aviv: Rehes, 2009.
- Yaakoby, D. et al. A World of Changes: A History Book for 9th Grade. Tel-Aviv: The Curriculum Centre in the Ministry of Education/ Maalot, 1999.

التربية المدنية

- Aden, H., Ashkenazi, V., and B. Alperson. Being Citizens in Israel – A Jewish Democratic State. Jerusalem: Maalot Publishers and the Ministry of Education, 2001.

مراجع عامة

- Agamben, G. Homo Sacer: Sovereign Power and Bare Life. Meridian: Crossing Aesthetics, 1987.
- Allport, G. W. The nature of prejudice. New-York: Doubleday Anchor, 1958.
- Bar-Gal, Y. Moledet and Geography in a Hundred Years of Zionist Education. Tel Aviv: Am Oved Publishers, 1993.
- Bar-Tal, Daniel, and Rafi Nets-Zehngut. "Emotions in Conflict: Correlates of Fear and Hope in the Israeli-Jewish Society." Peace and Conflict: Journal of Peace Psychology, 1532-7949, 14 (3), 2008, 233-258. (2008:4).
- Firer, R. "The presentation of the Israeli-Palestinian conflict in Israeli history and civics textbooks." In Firer, R. and Adwan, S. The Israeli-Palestinian conflict in Israeli history and civics textbooks of both nations. Hannover: Georg-Eckert-Institute fur Internationale Schulbuchforschung. Verlag Hahnsche Buchhandlung, 2004.
- Hagiladi, N., and F. Kassem. The war of Independence/The Nakba. Jerusalem: the Van-Leer Institute and Al-Quds University, 2007.

- La Capra, D. Writing Shoa, Writing Trauma. Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 2001.
- Lyotard, J.F. The Differend: Phrases in Dispute. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1988.
- Nora, Pierre. Rethinking France: Les Lieux de mémoire, Volume 1: The State. Chicago:
- University of Chicago Press, 1996.
- Piterberg, Gabriel. "Erasures." New Left Review, 10 (July/August 2001).
- Rabinowitch, Dan. "Natives with jackets and degrees: Othering, objectification and the role of Palestinians in the co-existence field in Israel." Social Anthropology, vol. 1, issue 9 (February 2001): 65-80.
- Ricoeur, P. Memory, History, Forgetting. Chicago: Chicago University Press, 2004.
- Van Leeuwen, T. "The schoolbook as a multimodal text." International Schulbuch Forschung, 14(1), 35-58. Frankfurt: Diesterweg, 1992.
- Van Leeuwen, T. "Visual Racism." In The Semiotics of Racism. Edited by M. Reisigl and R. Wodak. Vienna: Passagen Verlag, 2000.
- Van Leeuwen, Theo, and Adam Jaworski. The discourses of war photography. Journal of Language and Politics 1:2, 255—275. issn 1569—2159 / e-issn 1569—9862_c John Benjamin Publishing Company, 2002.

- Van Leeuwen, T. "Legitimation in Discourse and Communication." Discourse & Communication 1(1): 91–112. 2007.
- Van Leeuwen, T. Discourse and Practice: New Tools for Discourse Analysis, Oxford Studies in Linguistics. Oxford: Oxford University Press, 2008.
- Yiftachel, O. Ethnocracy: Land and Identity Politics in Israel/Palestine. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006.

الفصل الثاني

هل حقوق الإنسان العالمية من تعاليم اليهودية؟

الحاخام أريك آشرمان

ترجمة: علي رضا

كان الحاخام أريك آشرمان Rabbi Arik Ascherman المدير التنفيذي لمنظمة "حاخامين من أجل حقوق الإنسان" Rabbis for Human Right لمدة خمسة عشر عامًا. وهذه المنظمة (RHR) تعبر عن التراث الديني اليهودي لحقوق الإنسان، وذلك لحماية حقوق الإسرائيليين والفلسطينيين والعمال الأجانب على حد سواء. ويقوم الحاخام أريك حاليًا بتطوير مشاريع خاصة لمنظمة RHR. وفي عام 2009، كان الفائز مناصفة بجائزة ليبوفيتز Leibowitz Prize، والتي تمنحها مجموعة حقوق الإنسان الإسرائيلية Yesh Din. يعيش آشرمان في القدس مع زوجته إينات رامون وطفليهما. وقد كُتِبَ عنه سابقًا في صحيفة نيويورك تايمز.[1]

مقدمة

أريد الاعتراف بشيء. هناك أيام أستيقظ فيها وأقول لنفسي: "ربما كان جون لينون John Lennon على حق. ربما يصبح العالم مكانًا أفضل بالفعل إذا صار بدون دول أو أديان". عندما يفكر المرء في كل الدماء التي سالت باسم الدين

(1) http://www.nytimes.com/2010/07/08/opinion/08kristof.html

والقومية، فمن السهل أن نحلم بعالم لا حدود فيه حيث نتحدث فيه جميعًا الاسبرانتو[1].

بالنسبة للبعض منا، ليس الدين شيئًا يمكننا إطفاءه مثل مفتاح الضوء. إنه جوهر وجودنا. إنه ما يغذي حياتنا ويُثبِّتنا. علاوة على ذلك، إذا أزلنا جميع الاختلافات بين الناس غدًا، فمن خلال كل ما أعرفه عن علم النفس أستطيع أن أقول إننا على الأرجح سوف نخلق اختلافات جديدة في اليوم التالي. وبالطبع، أنا لا أشعر بأنني يهودي مؤمن ومُمارِس على أساس أنني لا أملك أي خيار آخر. بل إن إيماني يغذي حياتي ويُثبِّتني لأنه يوفر لي رؤية إيجابية للعالم الذي يريدنا الله أن نساعد في إنشائه ويحثني على القيام بدوري في جعل هذه الرؤية حقيقة.

بالنسبة لهؤلاء الذين يدركون منا بشكل مؤلم الشرور التي جلبها تراثنا، والذين يعتقدون أن تراثنا يمكن وينبغي أن يكون قوة لجعل عالمنا مكانًا أفضل، والذين لا يرون أي إمكانية لخيار التخلّي عن تراثنا الديني الخاص، فإن الاحتمال المتبقي هو الكفاح من أجل روح ديننا. ويظهر هذا الأمر بصورة أوضح عندما نأخذ بعين الاعتبار قوة الدين في الشرق الأوسط وحول العالم.

الاختباء خلف الدين

قبل بضع سنوات في مؤتمر لمنظمة العفو الدولية في المغرب، حظيت بشرف أن أكون واحدًا من حفنة من اليهود والمسيحيين في مؤتمر يتألف أساسًا من علماء مسلمين. وقد درّست سلسلة من النصوص المتضمنة في كتاب "الحياة والحرية والمساواة في التراث اليهودي – Life, Liberty and Equality in the Jewish Tradition"، وهو كتاب تمَّ تحريره من قبل الحاخام الدكتور نعوم زوهار Noam Zohar نيابة عن منظمة RHR، المنظمة التي كنت مديرها من عام

---

(1) لغة مصطنعة اخترعها لودفيغ أليعزر زامنهوف عام 1887 لتكون لغة اتصال دولية بسيطة بهدف تعزيز السلام والتفاهم الدولي.(المترجم)

1995 إلى عام 2010، ومستمر في العمل فيها[1]. يحدد الكتاب الصراعات داخل اليهودية حول كيفية تعاملنا مع البشر الآخرين. فمن تعاليم المشناه Mishna (أول مخطوطة في القانون اليهودي بعد التوراة، التي تم تحريرها في حوالي عام 200 بعد الميلاد) أنه عندما ينطح ثور يملكه يهودي ثورًا مملوكًا لشخص غير يهودي، تكون العقوبة أقل بكثير من الحالة التي ينطح فيها ثور يملكه شخص غير يهودي ثورًا مملوكًا ليهودي (Mishna Baba Kama 4:3). لكن جيل الحاخامات الذي جاء بعد الجيل الذي كتب المشناه كان منزعجًا من هذا. والجمارا Gemorrah (هي نقاش حول المشناه، والتي تُشَكِّل مع المشناه التلمود Talmud) تُظهِر خلافهم حول هذا النوع من التمييز. لكنهم في نهاية المطاف برروا التمييز الموجود في المشناه بقولهم إن غير اليهود في ذلك الوقت لم يلتزموا بشرائع نوح السبع[2] Noahide، وبالتالي لم يكن اليهود بحاجة إلى اعتبار هؤلاء الناس "ريم". ولفظ "رياح" (المفرد من "ريم") يُترجم عادة "جار" أو "صاحب"، كما هو الحال في "تُحِبُّ صَاحِبَكَ كَما تُحِبُّ نَفْسَكَ" (اللاويين 19 : 18)، ولكن ربما تُتَرجم "واحد مثلك" لتعبر عن المعنى بشكل أفضل. إن شرائع نوح السبع في التراث اليهودي شيء أشبه بالقوانين الطبيعية، وتشمل المحظورات ضد الوثنية والقتل والسرقة والفجور الجنسي. في حين أن تراثنا لا يتوقع من جميع الناس الالتزام بعديد الوصايا التي تقع على عاتق اليهود، إلا أننا لسنا نسبويين. إننا نؤمن بأن البشرية كافة تلتزم بهذه المبادئ السبعة الأساسية. وقد انتهى الحاخامات الذين كتبوا الجمارا إلى أن التمييز مسموح به لأن الناس ليسوا "جيراننا" (Talmud Baba Kama 38a).

في العصور الوسطى، قال هاميّري Hameiri، وهو عالم تلمودي هام وقاضٍ شرعي يهودي، إن أبناء الأرض في جيله قد تبنوا "ثقافة الدين" (من المثير للاهتمام

(1) Noam Zohar, ed., Life, Liberty and Equality in the Jewish Tradition, (Jerusalem: Rabbis for Human Rights, 1991, English translation 2006).

(2) هي سبعة أوامر أخلاقية، حسب التلمود، أعطاها الله إلى نوح كأوامر لأولاده، أي لكل البشر، وترى اليهودية أن أي شخص غير يهودي يتبع هذه الشرائع يعتبر شخصًا صالحًا ويُضمن له مكان في العالم الآخر. (المترجم)

أنه لا يدَّعي أن الجميع متدينون)، لذلك، وفقًا لمنطق الحاخامات التلموديين أنفسهم، يجب إلغاء التمييز الذي برروه. إن هاميّري لا يخطو خارج التراث اليهودي ولا يقبله بشكل أعمى أيضًا. إنه يجادل من داخل النسق. باستخدام التراث نفسه، فهو يقلبه رأسًا على عقب (من خلال شرحه للتلمود المسمى Beit HaBechirah). وكما شرحت للمشاركين في المؤتمر، فإن هاميّري هو مثال على شخص لم يخطُ خارج تراثنا، ولم يقبله بشكل أعمى أيضًا. لم يرفض التلمود، لكنه لم يختبئ وراءه ويقول: "ليس لدي خيار سوى الإيمان بالتمييز ضد غير اليهود لأن هذه هي تعاليم التلمود". لقد طبَّق مبادئ النص التلمودي في سياق واقع مختلف للوصول إلى استنتاج مختلف. سواء كان القانون الكنسي أو الشريعة أو قرارات المجامع أو تفسيرًا معينًا للكتاب المقدس، فإن كل تراث ديني لدينا يحتوي على شيء يمكننا الاختباء وراءه إذا أردنا. ومع ذلك، يمكننا النضال داخل تراثنا، مما يسمح لإيماننا الشخصي بالتفاعل مع نصوصنا القديمة.

وفي مثال مماثل، إن إحدى عوامل تحديد التعويض المناسب للشخص المصاب، وفقًا للتلمود، هو مستوى الإذلال الذي تعرض له. ولقد تعلمت من الحاخام آفي نوفيس–دويتش[1] Avi Novis-Deutsch، أنه قديمًا كان لا يُعتقد أن الشخص المعاق ذهنيًا لديه مشاعر وبالتالي لا يشعر بالإذلال. ولذلك، فإن مثل هذا الشخص يحصل على تعويض عن الإصابة أقل من الشخص ذي القدرة العقلية. اليوم، بالطبع، نعرف أن هذا الاعتقاد غير صحيح. لقد غيّرت بعض السلطات القانونية اليهودية الحديثة القانون اليهودي في هذه المسألة، وإن ظلت مخلصة للمبدأ التلمودي الذي يقول إن مستوى الشعور بالإذلال عامل في تحديد التعويض، لكنها استخدمت معرفتنا الحديثة فيما يتعلق بمشاعر المعاقين ذهنيًا.

---

(1) الرئيس السابق لأحد اليشيفا [مدرسة يهودية دينية] التابعة لمنظمة "حاخامين من أجل حقوق الإنسان".

التحدث من داخل النسق الديني

بعض اليهود (كنت أرغب في ألا يقتصر كلامي هنا على اليهود فقط) قد خرجوا عن التراث الذي تربوا عليه. فكما حطم إبراهيم الأصنام التي صنعها والده، دفعهم إيمانهم الشخصي إلى رفض آراء الأجيال السابقة بشكل جذري. ولكن من أجل التأثير على أعضاء تراثنا الديني وإلهامهم، يجب أن أتحدث من داخل التراث الديني، بصفتي "عضوًا في النادي". قد أتحدى أنا، وأولئك الذين مثلي، الآخرين عبر التحدُّث من الحدود الخارجية لتراثنا الخاص، ولكننا بحاجة إلى التحدُّث باللغة التي تمنحنا المصداقية لأولئك الذين يؤمنون بديننا إذا أردنا إشراكهم وإحداث التغيير.

ليس هذا الأمر سهلًا. فوحده فعل المواجهة، بدلًا من فعل الانسحاب، يمكنه إعادتنا إلى جوهرنا الروحي. في تلك الأيام عندما أستيقظ وأسائل معتقداتي الخاصة، غالبًا ما يبدأ الأمر بالفوارق الجذرية بين اليهودية التي نشأت عليها والأصوات المهيمنة على اليهودية الدينية في إسرائيل اليوم. بالنظر إلى اليهودية التي نشأت عليها، فقد كان من الواضح أن الديانة اليهودية تطلب منا السعي بنشاط لتحقيق حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية. هذا ما تعلمته من والدي، وحاخاماتي، ومعلميني، ومجتمعي. ولهذا فقد صُدمت عندما اكتشفت أن الأصوات اليهودية المهيمنة في إسرائيل مختلفة إلى حد كبير. إن هذه الأصوات انتقائية للغاية، حيث ترى أن التعاليم اليهودية حول كيفية معاملة البشر لا تنطبق إلا على إخوانهم من اليهود أو حتى على مجتمعهم المنعزل الخاص داخل المجتمع اليهودي الأوسع. كانت هناك لحظات عندما سألت نفسي إذا كانت تلك الأصوات صحيحة. ولقد شَكَّل هذا السؤال تحديًا عميقًا لي، فعدت إلى تراثنا المشترك، ونظرت في النصوص التي نعتبرها جميعنا مقدسة، وأكدت أن اليهودية التي تعلمتها هي على نفس قدر أصالة ودرجة الاستناد إلى النصوص مثل نسخة اليهودية التي أصبحت مهيمنة هنا.

إن اليهودية تراث قديم، ومتعدد الطبقات، وقائم على النقاش. ولهذا لا أستطيع أن أقول إن فهمي للتراث اليهودي أكثر أصالة من أولئك الذين يختلفون معي. إن التلمود سجل للنقاشات التي دارت بين حكمائنا وحجج كل

طرف فيها. ونحن نتعلم أنه عندما نتناقش "من أجل السماء"، فإن "كلمات الطرفين جميعها كلمات الله الحي"[1]. تسجل المدراش Midrash على نفس الصفحة ما يبدو أنه تفسيرات متناقضة لنفس الآية التوراتية. فندرك أن كل تفسير يعلمنا شيئًا حقيقيًا عن الحياة. وهذا هو ما أسميه "الحقيقة المدراشية"، على عكس "الحقيقة العقلية اليونانية". وبالنظر إلى تعددية الأصوات اليهودية، يجب أن نأخذ حذرنا كلما سمعنا الادعاء بأن "اليهودية تقول ...". ولكن للأسف، فإن هذا يعني أن أولئك الذين أختلف معهم بشدة، يمكنهم الاقتباس من تراثنا والاستشهاد بالنصوص المؤكدة لموقفهم. ولن يكون في مقدوري أو في مقدورهم "الفوز" بشكل حاسم في الجدال الدائر بيننا.

أنا لا أستطيع "الفوز" في الجدال، لكن ليس لدي أي نية للاستسلام. لذلك أواصل النضال من داخل النسق الديني من أجل روح قومي. أفعل ذلك بتواضع ومع احترام الآراء المختلفة، وأنا أعلم أنني إذا شاركت في الجدال بقوة، فقد أتغير أنا أيضًا. يجب أن أحاول المشاركة بشكل حقيقي حتى تسنح لي فرصة الفوز بقلوب وعقول قومي، وفي نفس الوقت بدون خيانة صوت الله الخافت الذي يتحدث معي من داخلي. إحدى الاعتقادات اليهودية الأساسية هي أننا نستطيع جميعًا القيام بالتوبة Teshuvah، أي أننا جميعًا نستطيع الاستجابة إلى نداء الإله والعودة إلى ذواتنا الحقيقية العليا. حتى عندما نجد أنفسنا وسط خلافات حادة ومؤلمة، فإن صورة الله في إخواننا اليهود تعني أن التوبة ممكنة.

في الآونة الأخيرة، كان أعضاء مجموعة الملاحظة التي كنت أتابعها، والمؤلفة من إسرائيليين عاديين، يريدون جميعًا حدوث أشياء جيدة للفلسطينيين (باستثناء شخص واحد). ورغم ذلك، شعروا جميعًا أيضًا بأن أمننا يأتي أولًا، متجاوزًا أي اعتبارات قيمية أو أخلاقية. أعتقد أن العديد من إخواني

---

(1) عبارة موجودة في التلمود، الذي يروي أنها قيلت بصوت إلهي لتحسم الخلاف الشرائعي بين مدرسة الحاخام هيلل المتساهلة ومدرسة الحاخام شمعي الصارمة، وهو خلاف تفرع إلى 300 قضية واستمر لثلاث سنوات حتى هدد المجتمع اليهودي الواحد بالانقسام. وفي نهاية المطاف، بَتَّ صوت من السماء في المسألة، وأعلن: "كلمات الطرفين جميعها كلمات الله الحي، لكن القانون يتماشى مع أحكام بيت هيلل". (المترجم)

الإسرائيليين لديهم فهم غير كافٍ للفلسطينيين ولواقع الاحتلال. لذلك، فهم لا يُقَدِّرون تمامًا الخيارات الصعبة التي سيضطرون إلى اتخاذها أو السعر الذي سيدفعونه مقابل السلام. فهم غالبًا ما ينتجون انقسامات مزيفة بين الأمن من ناحية، وبين السلم وحقوق الإنسان من الناحية الأخرى. يعتقد الكثيرون أنه في سبيل تحقيق الأمن، يصبح أيُّ شيء شرعيًا. لكنهم، يريدون أيضًا أن نكون أمة أخلاقية. وطالما حافظوا على هذا الفهم الضيق لموقفنا بدفن رؤوسهم في الرمال أو بالاعتقاد بأنه ليس لدينا أي خيار آخر، فستظل سرديتهم هي أننا أمة صغيرة من الناجين الذين يتصرفون بأكبر قدر أخلاقي ممكن، نظرًا لأننا محاطون بالأعداء الذين يسعون لتدميرنا، بدعم من عالم مُعادٍ. وهم يعتقدون أيضًا أن جيشنا هو أكثر جيش أخلاقي في العالم. (ورغم عدم اعتقادي بأن جيشنا قريب من أن يكون أكثر جيش غير أخلاقي في العالم، كان من المؤلم لي إدراك أنني لم أعد أعتقد أن جيشنا أكثر أخلاقية من الآخرين).

لديّ إيمان، ليس فقط بالله، ولكن أيضًا برفاقي اليهود والإسرائيليين، وفي التراث اليهودي، وفي قدرتنا على السماح لتاريخ اضطهادنا بتقوية عزمنا على محاربة كل اضطهاد. إن هذا الإيمان المركب هو الذي يسمح لي بالكفاح من أجل روح ديني وبأن أطلب من إخوتي الإسرائيليين النظر إلى الفلسطينيين برؤية روحية. في حين أن هناك أجزاء من تراث ديني لا تدعم فهمي لله أو رؤيتي للعالم، إلا أن ما اعتبره جوهر تراثنا بالإضافة إلى تجربتي الشخصية مع الله يدعمان معتقداتي بشدة.

إنني أواجه رفاقي الإسرائيليين كيهودي ملتزم وكحاخام وكإسرائيلي وكصهيوني. الصهيونية التي ترى أن حل قرون الاضطهاد اليهودي العودة إلى وطننا القديم لنتحكم في مصيرنا. لذا عندما تم اتهامي بأنني "مُعادٍ لإسرائيل" أو "خائن"، لم أكن بقادر على فهم تلك الاتهامات. جميعنا يعرف أنه لا يوجد حل عسكري لصراعنا. سوف نتعلم العيش هنا معًا، أو سنموت معًا. وأنا أُفَضِّل العيش معًا.

مبدآن يهوديان لحقوق الإنسان العالمية

في بعض الأيام، وأنا أسرع لمغادرة المنزل، أضيّع الكثير من الوقت في البحث عن مفاتيحي. وفي كثير من الأحيان، بعد بحث طويل، أجدهم فقط حيث كان يجب أن أبحث في المقام الأول. وتقول التوراة "إنَّ الوَصايا الَّتِي أُوصِيكُمْ بِها اليَومَ لَيسَتْ صَعبَةَ الفَهمِ عَلَيكُمْ. إنَّها لا تَفُوقُ إدْراكَكُمْ. (12) فَهِيَ لَيسَتْ فِي السَّماءِ لِتَقُولَ: ‹مَنْ سَيَصْعَدُ إلَى السَّماءِ لِأجلِنا وَيُنزِلُها لَنا لِنَسمَعَها وَنُطِيعَها؟› (13) وَهِيَ لَيسَتْ فِي عَبرِ البَحرِ لِتَقُولَ: ‹مَنْ سَيَعبُرُ إلَى الجِهَةِ الأُخرَى مِنَ البَحْرِ لِيُحضِرَها لَنا لِنَسمَعَها وَنُطِيعَها؟› (14) لِأنَّ الكَلِمَةَ قَرِيبَةٌ جِدًّا مِنْكَ، فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ، فَيُمكِنُكَ أنْ تُطيعَها" (التثنية 30: 11–14).

لسنوات بحثت عن النَصِّ اليهودي النهائي لشرح العلاقة بين العدالة وحقوق الإنسان العالمية. وبالتأكيد هناك العديد من الكلمات المهمة والملهمة التي قالها حكماؤنا على مر القرون، ولكن، مثل المرات العديدة التي وجدت مفاتيحي حيث كان يجب أن أبحث في المقام الأول، أدركت أن الإجابة التي كنت أبحث عنها كانت هناك "فِي البَدءِ" من التوراة، في الآيات الأولى من سفر التكوين. هناك نجد مبدأين، إذا استوعبناهما جيدًا في حياتنا وأفعالنا، فسينتج عنهما عالم يختلف تمامًا عن عالمنا اليوم. هذان المبدآن هما أيضًا أساس نصوص المدراش بأكملها، التي تقود حياتي والتي تقول إننا سنكون شركاء مع الله في ("إصلاح العالم") Tikkun Olam، حيث نشارك في شفاء وتطهير العالم، وفي عملية خلقه المستمرة[1]. نحن عينا الله ويداه في هذا العالم.

المبدأ الأول: الانتباه إلى السبت. "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ" (التكوين 1: 1). ثم استراح الله من جميع عمله؛ وبارك اليوم السابع وقدسه (التكوين 2: 2–3). يقول الحاخام إبراهام جوشوا هيتشل Abraham Joshua Heschel إن إحدى مشاكل الحضارة الحديثة التي تؤدي إلى الحروب والظلم

---

(1) هذان المبدآن معًا هما أساس ما يسميه الحاخام أكيفا Akiva المبدأ الفوقي Klal Gadol للتوراة؛ ("تُحِبُّ صَاحِبَكَ كَما تُحِبُّ نَفْسَكَ" [اللاويين 19: 18؛ Talmud Nedarim 41:3]) وما يدعوه هيلل الأكبر تعليم "التوراة بأكملها وهو يقف على قدم واحدة" ("لا تفعل بالآخرين ما تبغضه لنفسك" [Shabbat 31:1]).

هي ميل الإنسان إلى التفكير في ذاته على أنها قمة الوجود. إذا لم يكن هناك شيء فوقنا، فلماذا لا نغتصب الأرض ونقتل للحصول على ما نريد؟ لذلك كتب أن السبت Shabbat ضروري. حيث نتوقف، ليوم واحد من كل أسبوع، عن استخدام كل ما صنعناه للتلاعب بعالمنا لإطعام رغباتنا. يعلّمنا السبت بدوره أننا لسنا صانعين فحسب، بل نحن مصنوعون أيضًا. يمكنك تسميته بـ "الله"، أو بالحقيقة المدمجة في نسيج الكون نفسه، أو بأي اسم آخر. هناك شيء فوقنا وهو أهمُّ من رغباتنا البشرية ودوافعنا. يقول الحاخام هيتشل:

إن الحضارة التقنية نتاجُ العمل، نتاج بذل الجنس البشري لمجهود كبير من أجل الربح، من أجل إنتاج السلع. إنها تبدأ عندما يدخل البشر، غير الراضين عما هو متاح في الطبيعة، في صراع مع قوى الطبيعة من أجل تعزيز سلامتهم وزيادة راحتهم. وبلغة الكتاب المقدس، إن مهمة الحضارة إخضاعُ الأرض، والسيطرة على الحيوانات البرية[1].

إن تمييز يوم واحد في الأسبوع من أجل الحرية، يوم لا نستخدم فيه الأدوات التي تحولت بسهولة إلى أسلحة دمار، يوم لنكون مع أنفسنا، يوم من الانفصال عن المألوف، يوم بدون أي التزامات خارجية، يوم نتوقف فيه عن عبادة أصنام الحضارة التقنية، يوم لا نستخدم فيه المال، يوم هدنة في النضال الاقتصادي مع بني البشر وقوى الطبيعة -هل هناك عادة تحمل أملًا أكبر لتقدم الإنسان من السبت؟

نحن نعيش السبت كما لو كان مستقلًا عن الحضارة التقنية: نمتنع في المقام الأول عن أي نشاط يهدف إلى إعادة صناعة أو إعادة الأشياء. يتوقف الحق الملكي للإنسان بقهر الطبيعة في اليوم السابع[2].

في صلوات ليلة الجمعة نطلق على السبت "تَذْكِرَةٌ بفعل الخلق". إنه يذكرنا بالمبدأ الأول، وهو أنه، مع كل الأهمية التي توليها اليهودية للبشرية، هناك شيء

---

(1) إشارة إلى سفر التكوين إصحاح 1 آية 26 : ثُمَّ قالَ اللهُ: «لِنَخلِقِ النّاسَ عَلَى صُورَتِنا وَكَمِثالِنا. وَلْيَسُودوا عَلَى سَمَكِ البَحْرِ وَطُيُورِ السَّماءِ وَالمواشِي وَالحَيَواناتِ البَرِّيَّةِ عَلَى الأرْضِ وَعَلَى كُلِّ زاحِفٍ يَزْحَفُ عَلَى الأرضِ.» (المترجم)

(2) Abraham Joshua Heschel, The Sabbath, (New York: The Noonday Press and Farrar, Straus and Giroux, 1961), 27-29.

أكبر منا وأكبر من رغباتنا التي تكون أحيانًا ضارة ومدمرة. لو كنا جميعًا نضع أنفسنا ورغباتنا في المنظور الصحيح، سيصبح العالَم مكانًا أفضل.

المبدأ الثاني: إدراك صورة الله واحترامها. في سفر التكوين 1: 27 نقرأ، "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ". وفي المدراش "Mekhilta of Rabbi Ishmael"، أوضح حكماؤنا أنه إذا قمنا بتصوير الوصايا العشر وهي على اللوحين الحجريين، فإن الوصية الأولى (كما نرقمهم في التقاليد اليهودية)، "أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ"، ستكون في محاذاة الوصية السادسة، "لا تقتل". يقارن حكماؤنا تشويه التماثيل، والصور، والقطع النقدية التي تُصَوِّر حكام الأرض بالقتل: القتل يمزّق صورة سيد الكون. وكما أشار الحاخام هيتشل عندما تكلم ضد العنصرية الحديثة، على الرغم من أن اليهودية ترفض أي تصوير لله، فإننا نعتقد أن هناك صورة لله في هذا العالم. فيقول: "هناك شيء في العالم يعتبره الكتاب المقدس رمزًا لله. إنه ليس معبدًا أو شجرة، إنه ليس تمثالًا أو نجمة. إن رمزَ اللهِ إنسانٌ، كل إنسان"[1]. لذلك تعلمنا المدراش أنه عندما نؤذي الإنسان، فإننا نهاجم الله ونُنقص صورة الله في العالم.

هذان المبدآن أساس ما نتعلمه مرارًا وتكرارًا في التوراة: "لَا تَحِيدُوا يَمِينًا أَوْ شِمَالًا"، و"لا تَقِفْ مُتَفَرِّجًا حِينَ تَكُونُ حَياةُ قَرِيبِكَ فِي خَطَرٍ". فكرةُ أن خُلِقنا على صورة الله أساسُ ما نسميه "الوصايا تجاه الآخر" mitzvot bein adam l'chavero، الوصايا المجتمعية التي تعلمنا كيف نعامل البشر. ومع ذلك، إذا كان احترام صورة الله يقودنا إلى صيغة الحاخام هيلل Hillel الأكبر من القاعدة الذهبية، "لا تفعل بالآخرين ما تبغضه لنفسك"، والتي قالها عندما طلب منه رجل أن يعلِّمه "التوراة بأكملها وهو يقف على قدم واحدة"، ونحن نحتاج إلى الاهتمام بنصيحته اللاحقة: "الآن، اذهب وتعلم" (Shabbat 31a Talmud).

---

(1) Abraham Joshua Heschel, "Religion and Race," in The Insecurity of Freedom: Essays on Human Existence, (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1966), 85-100.

نظرة روحية

لعل أهم جدال في اليهودية بالنسبة لي اليوم هو الجدال الدائر بين أولئك الذين يرون أن تراثنا اليهودي يُعَلِّمنا، في المقام الأول، كيف نتعامل مع إخواننا اليهود (أو ربما ليس جميع اليهود، ولكن فقط أولئك الذين يفكرون بنفس طريقتنا)، وبين أولئك منا الذين يرون أن تراثنا يقول لنا إن الآية 27 في الإصحاح الأول من سفر التكوين لا تقول فقط إن اليهود هم الذين خُلقوا على صورة الله، بل إن كل الناس، سواء كانوا يهودًا أو أمميين Gentile، قد خُلقوا على صورة الله. خُلِق الأغنياء والفقراء على صورة الله. ويؤكد النص بشكل خاص على أن كلًا من الرجل والمرأة قد خُلقا على صورة الله. هذه المناظرة لا تنفرد بها اليهودية وحدها، وهي بالتأكيد أيضًا ليست مناقشة جديدة. تعلمنا المشناه (Mishna Sanhedrin 4:5): "من يدمر حياة واحدة، فكأنه دمر عالما بأكمله. ومن ينقذ حياة واحدة، فكأنه أنقذ عالما بأكمله". ومع ذلك، في العصور الوسطى، فقد تم تغيير الآية ليصبح نصها، "من يدمر/ينقذ حياة يهودية واحدة ... "[1]. وعلى ما يبدو فإن هناك من لم يشعر بالراحة مع الآثار العالمية للنص الأصلي.

في نهاية المطاف، الرعاية العالمية هي مسألة نظرة روحية. لكن، كما كان يخبرنا معلمي، الحاخام ليونارد كرافيتز Leonard Kravitz، لا يوجد شيء مثل "أن تُضرب على أمِّ رأسك" لإعاقة الرؤية الروحية. لقد أظهر لنا الحاخام ليونارد أن التعاليم اليهودية الأكثر عالمية قد صدرت عندما عاش الشعب اليهودي في مجتمعات ترحب بوجوده، وكُتبت النصوص الأكثر تمييزًا عندما كنا أكثر تعرضًا للقمع. لقد تعرضنا للعديد من الضربات على الرأس، للعديد من "الأسباب الجيدة" لكي تتملكنا مشاعر الكراهية والخوف وعدم الثقة. بالنسبة للشعب

---

(1) Noam Zohar, page 21 in Hebrew version only, citing Efraim Urbach, M'Olamam Shel Khakhamim, 561-77 [italics mine].

يتتبع إفرايم أورباخ Efraim Urbach كيف تم تغيير الآية. لكن، لسبب ما، لم يتم العثور على استشهاد أورباخ في الترجمة الإنجليزية لكتاب زوهار، مع أنه موجود في النسخة العبرية من نفس الكتاب.

اليهودي، فقد حدث هذا الأمر نتيجة قرون من الاضطهاد، بالإضافة إلى التجربة الإسرائيلية الحالية التي نشعر من خلالها أننا نقاتل باستمرار من أجل بقائنا. إن الوعي الجماعي اليهودي بالمعاناة، إلى جانب حقيقة أنه لدينا أعداء حقيقيون اليوم، يمكن أن يقودنا إلى الشَّكِّ في كل شخص غير يهودي واعتباره عدوًا. ثم نتصرف بغضب بسبب الظلم الذي واجهناه في الماضي[1]. يخبرنا علماء النفس أن أولئك الذين يتعرضون للضرب كأطفال هم الأكثر احتمالية لضرب أطفالهم. إننا ننظر إلى انتقاد العالم الخارجي لتصرفاتنا كإسرائيليين على أنها أمثلة أخرى للعداء وللتحيُّز ضدنا من جانب أولئك الذين لم يرفعوا إصبعًا لإيقاف الهولوكوست. (وأحيانًا ما تكون كذلك). لذلك، يتطلب الأمر رؤية روحية استثنائية للكشف عن صورة الله في كل إنسان، حتى في أولئك الذين هم أعداؤنا.

رغم أنه من الصعب رؤية صورة الله في الآخرين بعد "الضرب على الرأس"، إلا أننا نستطيع اختيار ذلك. نحن لا نستطيع تغيير الماضي، ولكن يمكننا تحديد ما نفعله به. لقد عرفت ناجين من الهولوكوست، الذين شعروا بأن العالم لم يساعد اليهود، وأن "العالم مدين لهم" الآن، وبالتالي ليس له الحق في الحكم عليهم إذا رغبوا في حماية أنفسهم أولًا وقبل كل شيء. على العكس من موقف بعض الناجين الآخرين الذين ساعدوا في صياغة القانون الدولي لحقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني.

لا يمكن لتفهمي المتعاطف للأسباب التي تؤدي إلى انتهاكات حقوق الإنسان إثنائي عن ضرورة منع الظلم والمعاناة الإنسانية. في الوقت نفسه، يجب أن أبحث دائمًا، بتواضع وتعاطف، عن طرق لإلهام زملائي الإسرائيليين ومساعدتهم على إدراك صورة الله في "الآخر"، والتعامل معها. ولهذا تتعلق مهمتي بفعل كل ما بوسعي لمنع ومعالجة انتهاكات حقوق الإنسان في إسرائيل،

---

(1) بالطبع، ليس الشعب اليهودي هو الوحيد الذي عانى في منطقتنا. لا يوجد تقريبًا أي عربي إسرائيلي أو فلسطيني لم يتأثر بهذا الصراع بطريقة شخصية. فجميعنا تقريبًا لدينا شخص عزيز علينا قد قُتل أو جُرح، أو نعرف من تعرض لذلك.

بغض النظر عمن تُوَجه إليهم: اليهود الإسرائيليون، العرب الإسرائيليون، الفلسطينيون في الأراضي المحتلة، العمال الضيوف، أو اللاجئون الأفارقة.

يقدم التراث اليهودي عدة مبادئ مهمة تساعدنا على تحقيق هذه الرؤية الروحية: "لِأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أيضًا كُنتُمْ غُرَباءَ" Gerim Hayitem – أن ندع تاريخنا يقودنا للتماهي مع المظلومين. "حَيْثُ هُوَ مُلْقىً" Ba'asher Hu Sham – ليس كل شخص غير يهودي عدونا أو مسؤول عن أخطاء الماضي أو الحاضر. "الملاك المهلك" Hamashkhit Síbhem Gufa – يمكننا أن نكون ضحية وجانيًا في نفس الوقت؛ "السيف في العالم" HaKherev BaL'Olam – الظلم يعرضنا للخطر بشكل أكبر فقط. "الذي هو القوي بحق" Gibur Eizhu M'ha'giburim – أما عن أولئك الذين هم حقًا أعداؤنا، فنحن نتعلم "من هو القوي بحق؟ الشخص الذي يحوّل العدو إلى صديق" (Pirkei Avot D'Rabbi Natan 23: 1). وعندما يكون لدينا صراع حقيقي بين حقوق الإنسان والدفاع عن النفس بحيث لا يمكن التوفيق بينهما: "من يستطيع القول إن دمك أكثر احمرارًا من دمه" Mi yaymar d'dama sisakh sumac t'fai – حتى عندما يتعلق الأمر بالأمن، فهناك خطوط واضحة تحدد ما هو مقبول وما هو غير مقبول. دعونا الآن ننظر في كل مبدأ من هذه المبادئ.

لِأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أيضًا كُنتُمْ غُرَباءَ

التماهي مع المظلوم. يقول سفر الخروج 22: 21 : "لَا تَضْطَهِدْ غَرِيبًا وَلاَ تُضَايِقْهُ، فَقَدْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي دِيَارِ مِصْرَ". لذلك أُمرنا أن نحب الغريب، لأننا كنا أنفسنا غرباء. إن الوصية الأكثر تكرارًا في التوراة هي أن تحب الغريب Ger، وألا تضطهده. ويجادل الكثيرون بأن هذه الوصية تشير فقط إلى المتحولين لليهودية Ger tzedek. ولكن، مبرر هذه الوصية المتكررة هو أننا كنا غرباء في أرض مصر. وما لم يتحول اليهود إلى الديانة المصرية، يكون Ger toshav بمثابة "الآخر" الذي يعيش وسطنا والذي يوافق على الالتزام بالقواعد الأساسية لمجتمعنا. يعني إرساء هذه القيادة في تجربتنا للرق أن الله يطلب أن يقوم تاريخ

اضطهادنا يحثنا على التعاطف مع أولئك الذين يعانون من الاضطهاد، بدلًا من أن يجعلنا حاقدين.

كطالب جامعي في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات، كنت ناشطًا في الحركة المناهضة للفصل العنصري. كان رؤساء الحرم الجامعي كثيرًا ما يتحدثون في المظاهرات، فطلبت دعوة حاخام الحرم الجامعي، الحاخام بن زيون غولد Ben Zion Gold، للتحدث في إحداها. وقد تم الاتفاق على ذلك، وفي اليوم المحدد قال المشرف "والآن سيباركنا الحاخام غولد". قال الحاخام غولد: "سأقدم مباركة، لكن لدي شيء لأقوله أولًا. عندما خرجت من بوابات معسكر اعتقال "أوشفيتز" تاركًا عائلتي الأولى تحت الرماد، قطعت وعدين على نفسي. أولًا، أن أكرس حياتي للشعب اليهودي. وهذا هو السبب في أنني حاخام اليوم. ثانيًا، القيام بكل ما في وسعي للتأكد من عدم تعرض أي شعب للظلم والاضطهاد. وهذا هو سبب وجودي هنا اليوم". ولقد أظهر رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، مناحيم بيغن Menachem Begin، هاتين الصفتين. على الرغم من أنه زاد من وتيرة استيطان الأراضي المحتلة بشكل كبير، قائلًا إن العالم ليس لديه الحق في انتقاد التصرفات الإسرائيلية، إلا أن واحدة من أولى أفعاله عندما أصبح رئيسًا للوزراء كانت استقبال قوارب النازحين الفيتناميين الذين تجاهلتهم معظم الدول الأخرى. وكان يقول إننا الذين واجهنا حدودًا مغلقة في وقت حاجتنا، لا يمكننا الوقوف مكتوفي الأيدي عندما تقطعت بهم السبل في قوارب متهالكة وسط المحيط.

يدعي ابن عزرا Ibn Ezra، شارح التوراة في القرون الوسطى، أن لفظ Ger في التوراة يشير إلى غير اليهودي الذي يعيش بين أغلبية يهودية، إحدى الفئات الضعيفة في المجتمع. وفي تعليقه على آية 19 في الإصحاح 27 من سفر التثنية، والتي تقول "مَلعُونٌ كُلُّ مَنْ يَحكُمُ بِغَيرِ عَدلٍ بِحَقِّ الغَرِيبِ وَاليَتِيمِ وَالأرمَلَةِ"، يقول: "لأنهم لا يملكون القوة [في بعض النسخ، لا يملكون رعاة]. تتحدث التوراة عن الغريب واليتيم والأرملة لأن القاضي إذا ظلم الآخرين فإنهم

سيستأنفون وسيجعلون المسألة معروفة للجميع. أما الغريب واليتيم والأرملة فليس لديهم القدرة على فعل ذلك"[1].

الحاخام شمشون رافائيل هيرش Samson Rafael Hirsch، في أواخر القرن التاسع عشر، يقول إن معاملتنا للغريب يجب أن تكون مرتبطة بالدروس المستفادة من تاريخ اضطهادنا. فيكتب في تعليقه على التوراة:

يقول سفر الخروج 22: 21: "لَا تَضْطَهِدْ غَرِيبًا وَلاَ تُضَايِقْهُ، فَقَدْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي دِيَارِ مِصْرَ" ... تؤكد هذه الآية على المبدأ الرئيسي، الذي يتكرر كثيرًا في التوراة في أماكن عدة: لا العِرْق، ولا النسب، ولا الولادة، ولا البلد، ولا الملكية، ولا أي شيء آخر خارجي، أو أي شيء حدث صدفة أو أي شيء آخر إلا جوهر الإنسان الداخلي البسيط والنقي الذي يعطيه حقوقه الإنسانية والمدنية. [هذه الحقوق] لا تعتمد إلا على القيمة الروحية والأخلاقية لإنسانية الإنسان. والتفسير الخاص، "فَقَدْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي دِيَارِ مِصْرَ"، يتم تقديمه من أجل منع خرق هذا المبدأ بأي شكل من الأشكال. كان سوء حظكم في مصر هو أنكم كنتم "أجانب" و"غرباء" هناك. على هذا النحو، وفقا لآراء الدول الأخرى، لم يكن لديك الحق في أن تكون هناك، ولم يكن لديك أي حق في الاستيطان أو المنزل أو الأرض. فيمكنهم أن يفعلوا بنا كل ما يرغبوا فيه. كغرباء لم يكن لدينا أي حقوق في مصر. كان هذا هو أصل عبوديتنا والبؤس الذي فُرض علينا. لذلك احذروا، هكذا يصاغ التحذير، من جعل الحقوق في دولتنا مشروطة بأي شيء آخر غير الإنسانية الأساسية، التي تسكن في كل إنسان بحكم كونه إنسانًا. ومع أي قمع لحقوق الإنسان هذه، سيُفتح البوابة للمعاملة الوقحة تجاه الآخرين. وكان هذا هو أصل الرعب المصري"[2].

---

(1) ابن عزرا هو شارح كلاسيكي، يتم نشر تعليقه في معظم الإصدارات المعيارية لـ "Khumash" [التوراة مع التعليق].

(2) Samson Rafael Hirsch, (Atsach jazz release 1989), Five Books of Moses with the interpretation of Rabbi Hirsch, translated from German by Samson Breuer Mordechai, edited by Mordechai ben IsaacBreuer, Jerusalem. See above for Ibn Ezra

إننا نرى معاناتنا كأمر فريد من نوعه، ونشعر بالضيق عندما يتم تشبيه كل أشكال الاضطهاد بالهولوكوست. ومع ذلك، من دون إجراء مقارنات، فإن تجربة الحاخام غولد باعتباره أحد الناجين قد جعلته متعاطفًا مع ضحايا الأشكال أخرى من الظلم. وقد أدرك الحاخام هيرش أن التوراة أمرتنا بأن نكون على حذر لأن تجاربنا الخاصة لا تجعلنا محصنين ضد الفرعون المقيم في قلوبنا. على الرغم من أن كلَّ تجربةٍ معاناة أمرٌ فريد من نوعه، إلا أنه يمكننا رسم الروابط بين معاناتنا ومعاناة الآخرين.

في عام 2005، تم هدم 22 منزلًا في قرية صغيرة باسم خربة تانا Khirbat Tana ولم يبق فيها سوى منزل واحد. نحن نصوم يوم ذكرى خراب الهيكل Tisha B'Av، الذي يذكرنا بدمار المعبدين اليهوديين اللذين كانا في يوم من الأيام في القدس. وكما نقرأ في صيام يوم الغفران، "بَلْ هَذا هُوَ الصَّومُ الَّذِي أُرِيدُهُ: أنْ تَفُكَّ قُيُودَ الظُّلمِ، وَتَحُلَّ حِبالَ الضِّيقِ عَنِ النّاسِ. أنْ تُحَرِّرَ المظلُومَ، وَتَكسِرَ قُيودَ الاستِعْبادِ. 7 أنْ تُعطِيَ مِنْ خُبزِكَ لِلجائِعِ، وَتَأْوِي المساكِينَ المشَرَّدِينَ فِي بَيتِكَ. تَرَى عُريانًا فتَستُرَهُ، وَلا تُهمِلُ حَاجَةَ صاحِبِكَ؟"(إشعياء 58: 6-7). قبل عدة سنوات، كان بيت عائلة شوامرة واحد من البيوت الأولى التي ساعدت منظمتنا في إعادة بنائه بعناتا (لفظ "عناتا" هو النسخة العربية من لفظ "أناتوت"، مسقط رأس النبي إرميا)[1]. أعدنا بناء البيت على مدى الأيام الثلاثة المؤدية إلى يوم ذكرى خراب الهيكل، وهو اليوم الذي نتذكر فيه تدمير معبدينا اللذين كانا في يوم من الأيام في القدس حسب تقويمنا اليهودي.

من الصعب مقارنة هدم منزل واحد، أو حتى قرية بأكملها، بما حدث من دماء ودمار أثناء حصار القدس، وأثناء هدم الرومان للهيكل الثاني، وإنهاء السيادة اليهودية، ونفي الشعب اليهودي من وطنه. ومع ذلك، فإن تدمير منزل يدمر الأسرة التي كانت تعيش فيه. بالنسبة للعائلة، يحوز الهدم، كمأساة شخصية، نفس درجة مأساوية المأساة الوطنية التي نحزن عليها في ذكرى خراب

(1) كانت منظمة "حاخامين من أجل حقوق الإنسان" أحد الأعضاء المؤسسين للجنة الإسرائيلية المناهضة لهدم المنازل.

الهيكل. فجزء من القدرة الروحية لرؤية صورة الله في الآخرين هو أن تكون قادرًا على فهم العلاقة العاطفية بين اضطهادهم واضطهادنا، دون الشعور بأن فهم هذه العلاقة قد ينفي الجوانب الفريدة لخبراتنا الشخصية والجماعية.

"حَيْثُ هُوَ مُلْقى"

ليس كل شخص غير يهودي عدونا. على الرغم من أننا في خضم نزاع ينطوي في بعض الأحيان على إرهابيين فلسطينيين، إلا أن كل فلسطيني ليس إرهابيًا (أي شخص قد خسر إنسانيته وحقوق الإنسان الخاصة به). وقد حدث مرة، أن رجلًا فقد ابنته في هجوم إرهابي، أشار إلى صديق فلسطيني لي وقال إنه كان لديه كل الحق في قتل صديقي. كان يعتقد أنه، ولأن بعض الفلسطينيين ملطخة أيديهم بالدماء، يصبح كل فلسطيني مذنبًا. كل شيء يمتلكونه، حتى حياتهم، هي ملك إرادته Hefker. على الرغم من أن مشاعره مفهومة، فإن التقاليد اليهودية تفرض علينا التمييز بين المذنبين والأبرياء.

لقد شهدت مشاعر مماثلة بين قوات الأمن الإسرائيلية. أحد أهم مشاريع حقوق الإنسان الفلسطينية لدينا هو حملة شجرة الزيتون لدينا. لقد قمنا بإعادة زراعة آلاف الأشجار التي اقتلعتها الجماعات الأهلية أو قوات الأمن الإسرائيلية. منذ عام 2002، أرسلنا متطوعين للعمل كدروع بشرية لحماية المزارعين الفلسطينيين من عنف المستوطنين عندما يحاول المزارعون حرث أو زراعة أو حصاد الزيتون (المبدأ العام ينطبق: ليس كل المستوطنين متعصبين دينيين عُنُف). كنتيجة لعملنا وتعاملنا مع القوات الأمنية الإسرائيلية ولانتصار كبير في المحكمة الإسرائيلية العليا في عام 2006، أصبح العديد من المزارعين الآن يصلون إلى الأراضي التي كانت ممنوعة عنهم لمدة تصل إلى خمسة عشر عامًا. وتفي قوات الأمن الإسرائيلية في معظم الأحيان الآن بالتزامها المتعلق بحماية المزارعين الفلسطينيين. ومع ذلك، فإن بعض الجنود، الذين قد يكونون فقدوا أحد أفراد عائلتهم أو رفيق في الجيش، غاضبون ومُستاؤون ويسألون:

"لقد أفقدني هؤلاء الفلسطينيون أحد أحبائي، والآن يجب أن أحميهم؟" المهمة صعبة عاطفيًا، ولكن هذا ما يجب أن نفعله.

في آيات من 9–21 في الإصحاح 21 من سفر التكوين، ترد رواية طرد هاجر وإسماعيل إلى الصحراء وأن العطش يكاد يقتلهم إلى أن يقوم الله بإعداد بئر الماء وينقذهم. في المدراش (الشرح الحاخامي الذي كتبه حكماؤنا قبل ألفي عام تقريبًا)، تأتي الملائكة إلى الله قبل أن يعد الله البئر ويطلبون منه أن يترك هاجر وإسماعيل يموتان بسبب المعاناة المستقبلية التي سيلاقيها أبناء إسرائيل من أبناء إسماعيل. يرفض الله طلبهم ويقول، "ba'asher hu sham " (إنه طفل بريء حَيْثُ هُوَ مُلْقى أمامي الآن). نحن، الذين خُلقنا على صورة الله، مأمورون أن نصبح أقرب صورة بشرية ممكنة لله (Talmud Sotah 14a). لذا يجب علينا أن نحترم صورة الله في الآخرين وفي أنفسنا بالتمييز بين الإرهابي الفلسطيني القادم لقتل عائلتي والعائلة الفلسطينية التي تريد ببساطة أن تحصد الزيتون.

الملاك المهلك

الضحية والجاني. عندما أتحدث مع زملائي الإسرائيليين عن المظالم أو انتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبناها، تكون ردودهم: "لكن انظر إلى ما فعله الفلسطينيون بنا" أو "انظر إلى ما يفعله الأمريكيون في أفغانستان" أو "انظر إلى السوريين والليبيين الذين يشغلون مقاعد في لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة". إن إسرائيل بعيدة عن أسوأ منتهكي حقوق الإنسان في العالم، وهناك قدر كبير من النفاق في تلك الدول التي تحاضر إسرائيل حول حقوق الإنسان. لكن لا ينبغي أن نشعر بالارتياح لأن الدول الأخرى أسوأ. فكما قالت لي أمي، "خطآن لا يصنعان صوابًا".

فبدلًا من مقارنة أنفسنا بالآخرين، يجب أن نتبع قيمنا العُليا بصدق. غالبًا ما كان مؤسس منظمة RHR، الحاخام ديفيد فورمان David Forman، يقول "لا يوجد مركز تجاري لبيع الأخلاق". لا يمكننا القيام "بالتسوق المقارن" واختيار قيمنا كما نحب (وبأرخص الأسعار). ما هي القيم التي يجب أن يعيش اليهودي

وفقها؟ كتب الكاتب الإسرائيلي الراحل يتسهار سميلانسكي Yizhar Smilanski المقالة الصحيفة التالية، والتي تمثل مصدر إلهام واتهام لنا:

سر الوجود اليهودي

ليس الجدال اليوم حول الأرض، رغم أنه يدور حول الأرض. وليس عن الأمن، رغم أنه يتعلق بالأمن. وليس عن السلام، رغم أنه يتعلق بالسلام. إذن حول ماذا يدور الجدل؟

يدور الجدال الأساسي اليوم حول اليهودي. عما إذا كانت هناك أشياء في العالم ممنوعٌ على اليهودي القيام بها، لأنه يهودي.

وذلك لأنه، ولكي يصبح اليهودي يهوديًا، لا يمكننا اعتبار هذا الأمر خلوًا من المعنى، ليس عبارة فارغة؛ فلليهودي حدود ومحظورات. وهناك أشياء تميز اليهودي عن الآخرين، وليس بالضرورة أن تجعل الأمور ممتعة أو سهلة أو مريحة أو بسيطة - بل على العكس تمامًا: فهي تجعل الأمور أصعب، وأقل راحة، وأكثر تعقيدًا.

على سبيل المثال، كل ما يتعلق بالظلم والعدالة.

على سبيل المثال، كل شيء متصل باستخدام القوة والاستيلاء بالقوة.

على سبيل المثال، "نعجة الرجل الفقير" (صموئيل الثاني 12: 4)[1]. على سبيل المثال، "قَتَلْتَ وَامْتَلَكْتَ أَيْضًا" (الملوك الأول 21: 19).

وعلى سبيل المثال، "العَدلَ! وَالعَدلَ وَحدَهُ فَقَطْ أُطلُبُوا دائِمًا" (التثنية 16: 20).

فلماذا إذن، في الحقيقة، تصبح يهوديًا؟

حقًا، تمامًا مثل الأرض تحت القدمين.

---

(1) تقول الآية "جَاءَ ضَيْفٌ إِلَى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ، فَعَفَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُهَيِّئَ لِلضَّيْفِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ نَعْجَةَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ وَهَيَّأَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ".(المترجم)

إذا كانت الإجابة أشياء مثل الوجود والبقاء على قيد الحياة، وألا تُدمر، فنعم بالتأكيد. بدون شك.

لكن في الكفاح من أجل الوجود - هناك أشياء يحظر على اليهودي القيام بها، فلا يستطيع فعلها. بسبب كونه يهوديًا. حتى لو كانت صعبة.

على سبيل المثال، وراثة ما لا يحق لك.

على سبيل المثال، تجاهل دموع المظلومين.

على سبيل المثال، طرد الجيران.

على سبيل المثال، أن نقمع في الآخرين ما نكره أن يُقمَع فينا.

إذا كنت يهوديًا، فهناك أشياء لا يمكنك فعلها. الوصايا الدينية، على سبيل المثال، يمكنك أن تفعلها أو لا تفعلها في أي مكان في العالم.

ولكن هنا، على هذه الأرض، فإن اختبار اليهودي هو في أخلاق ضبط النفس، في الالتزام بضبط النفس.

وهذا الالتزام، على ما يبدو، سر الوجود اليهودي[1].

لقد شرح الحاخام آرون شموئيل تميرات Aaron Shmuel Tamerat، في أواخر القرن التاسع عشر / أوائل القرن العشرين، أن السبب الذي جعل الله يأمر أبناء إسرائيل بالبقاء في بيوتهم عندما مَرَّ الملاك المهلك[2] على مصر، هو أنه حتى عندما تكون قضيتك عادلة، فإن أي علاقة بالعنف يمكن أن توقظ مَلَك الموت الذي بداخلنا جميعًا، فيجعلنا من الظالمين. الفرق بين كونك ضحية وجانيًا أدق من الشعرة. نحن على قناعة تامة بأننا الضحايا، حتى إننا نثور غضبًا إذا ما جرؤ أي شخص على قول إننا الجناة. يجب أن نكون دائمًا على حذرنا لأنه يمكن أن نكون الضحية والجاني في نفس الوقت.

---

(1) Published in Dava (newspaper), 29 January 1988.

(2) هو الملاك الَّذي أرسله الرب لقتلِ الأبكار (أوَّل المواليد) في مصر، لتنفيذ الضربة العاشرة والأخيرة من الضربات العقابية العشر التي أنزلها الرب على مصر، وفق الرواية التوراتية في سفر الخروج. (المترجم)

السيف في العالم

نحن نعرض أنفسنا للخطر من خلال الظلم. إن الإسرائيليين مهووسون بالأمن. ومع ذلك، تكمن إحدى المفارقات في أننا غالبًا ما ينتهي بنا الأمر إلى تعريض أنفسنا للخطر عندما نبرر التصرّف بشكل غير عادل باسم الأمن. خلال الانتفاضة الثانية، أعاد الجيش الإسرائيلي سياسة هدم بيوت الإرهابيين أو المشتبه في قيامهم بأعمال إرهابية. وكان الاعتقاد هو أن الإرهابي المحتمل قد يرتدع عن ذلك بسبب المعاناة التي قد يتسبب بها لعائلته. لكن في نهاية المطاف، أوقف الجيش هذا الأمر لأن القائمين عليه أدركوا أن الكراهية والغضب اللذين يولدهما هذا النوع من العقاب كانا يولّدا الإرهاب أكثر مما كانا يوقفاه. وللأسف، لا تزال هناك توابع لسياسة هدم بيوت الفلسطينيين. فلا يستطيع أصحاب البيوت المطرودون الحصول على تصاريح البناء التي يكاد يكون من المستحيل الحصول عليها.

حتى يومنا هذا، يظل هناك جدل بين وكالات الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية حول ما إذا كانت الانتفاضة الثانية مُخططة أم عفوية. أولئك الذين يعملون في الميدان توقعوا الانتفاضة الثانية قبل عام ونصف من وقوعها. ومثلما خاب ظن العديد من الإسرائيليين بعملية أوسلو للسلام لأن السلطة الفلسطينية لم تكن راغبة (أو غير قادرة) على وقف الإرهاب، سمعنا الكثير من الفلسطينيين يقولون: "هذه ليست عملية سلام". فمصادرة الأراضي، وإزالة الأشجار، وغيرها من الأمور كانت تجري على نفس الوتيرة بعد أوسلو كما كانت قبلها. كانت الرسالة التي تم إيصالها إلى المواطن الفلسطيني العادي من خلال هذه الانتهاكات المستمرة لحقوق الإنسان متعلقة بعدم كونها عملية سلام حقيقية. ربما لو استمر الفلسطينيون في التفاوض، لكانوا استرجعوا كل شيء. لكننا لن نعرف ذلك أبدًا. ومع ذلك، يجب أن نعترف بأن انتهاكات حقوق الإنسان هذه قد جعلت المجتمع الفلسطيني جاهزًا للانتفاضة.

ذات مرة، أخبرني فلسطيني عن شراء دراجة لابنه البالغ من العمر سبعة أعوام. بعد ذلك بوقت قصير، داهم الجيش شقتهم، مما ألحق الضرر بالدراجة بشكل لا يمكن إصلاحه. ورفض الابن التخلُّص من الدراجة. وعلاوة على

ذلك، ففي كل مرة ذهب فيها إلى متجر الألعاب بعد ذلك، فإنه يريد فقط شراء بندقية لعبة. ويقول زميل فلسطيني لي إن كل الأشياء التي يُعَلِّمها لأطفاله عن التعايش تُبْطَل عندما تقتحم الشرطة منزله وتعتقله في الساعة 4:00 صباحًا، أو عندما يرى أطفاله بيوت جيرانهم قد هُدمت. وطالما أننا لا نتغاضى عن العنف ولا نبرره، تكون رؤيتنا متسقة مع تراثنا اليهودي، "السيف في العالم" – يظهر السيف في العالم بسبب تأخر العدالة ومنعها" (Pirke Avot 5:11).

الذي هو القوي بحق

تحويل الأعداء إلى أصدقاء. وكما أن الظلم يجلب السيف للعالم، فإن العدالة والتضامن يمكن أن يحققا العكس. وهذه بعض الأمثلة التي تعرضت لها شخصيًا.

تمكين الآباء الفلسطينيين. عندما ساعدت في إعادة بناء منزل فلسطيني تم تدميره بسبب عدم الحصول على تصريح (وأكرر أن هذا التصريح يكاد يكون من المستحيل الحصول عليه)، غالبًا ما يصر الآباء الفلسطينيون على أن يلتقي أطفالهم بي. وفي كل مرة أسمع نفس العبارة، "لقد شاهد ابني البالغ من العمر عشر سنوات منزله يُهدَم أمام عينيه وشاهد أهله يُهانون. فماذا يكون ردنا عليه عندما يقول: أريد أن أكون إرهابيًا عندما أكبر؟ نريده أن يعلم أنه ليس كل إسرائيلي يأتي ببندقية لتدمير بيوتنا. فبعضهم يقف جنبًا إلى جنب معنا لإعادة بناء بيوتنا". ورغم أننا نغضب (على نحو مبرر) من الدعاية التي يتم تدريسها عن الإسرائيليين في المدارس الفلسطينية، إلا أننا بحاجة إلى القيام بكل ما في وسعنا لتمكين الآباء الفلسطينيين الذين يريدون أن يجرب أطفالهم شيئًا مختلفًا.

قم بإضاءة الشمعة الأولى. أتذكر أنه في إحدى الأيام كنت أقطف الزيتون مع المزارعين من بيت فوريك Beit Furik بالقرب من نابلس. ولقد اندهشت بعض الشيء عندما اكتشفت أن الشاب – الذي كان يجني معي ثمار نفس الشجرة – عضو في الحرس الرئاسي لياسر عرفات. إذا كنتُ قد اندهشتُ بعض الشيء، فإن دهشته كانت أشد أضعافًا مضاعفة عندما اكتشف أنه يعمل مع

حاخام إسرائيلي. سألني عن ما أتي بي إلى هناك. وقد كان هذا الشيء غريبًا بالنسبة له؛ فأخبرته عن التقاليد اليهودية حول السلام، وحقوق الإنسان، و"إصلاح العالم"، والعدالة. وعندها أجاب قائلًا: "بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين، فلا توجد عدالة". على الرغم من أننا كنا لا نزال على بعد بضعة أشهر من حانوكا Hanukkah، العيد الذي يأتي في أحلك أوقات السنة، وفيه نضيء عددًا متزايدًا من الشموع لمدة ثماني ليال[1]، إلا أن إجابتي كانت هي أساس تعاليم الحانوكا: "عندما يكون كل شيء مظلمًا، يجب أن تبدأ بإضاءة الشمعة الأولى". وعندها تحمس لكلامي وكرره لعائلته.

أريد أن أقول إنني لست بساذج. لا أعرف ماذا الذي فعله هذا الشاب منذ ذلك الحين، أو ما قد يفعله في المرة القادمة التي يواجه فيها خيارًا أخلاقيًا. ولقد شارك العديد من أفراد قوات الأمن الفلسطينية في أعمال إرهابية. ومع ذلك، فأنا على يقين من أن احتمالية اختيار هذا الشاب لطريق اللاعنف بعد هذا اللقاء، ستكون أكثر من احتمالية اختياره لنفس الطريق إذا لم يكن للقاء أن يحدث.

ساعد في الإنقاذ. في 15 أبريل / نيسان 2004، في نهاية مظاهرة على طول مسار الجدار الفاصل، طُلب مني أن آتي بسرعة إلى المكان الذي قبضت فيه شرطة الحدود على صبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا وتعرض للضرب. بدأت أنا وإسرائيليان آخران في شق طريقنا نحو سيارات الجيب على بعد بضع مئات من الأمتار. أطلقت شرطة الحدود الغاز المسيل للدموع علينا. فعاد الإسرائيليان الآخران إلى الوراء، وكنت الوحيد الذي يملك من الغباء ما يكفي لمواصلة التقدُّم. ثم رأيت ضابط القيادة وهو يشير لي كي أتقدم للأمام. وعندها أمسك بحنجرتي، وهزني بعنف، ثم ركلني، وصرخ قائلًا بأنني قيد الاعتقال. ثم

---

(1) معنى لفظ حانوكا هو "تدشين" باللغة العبرية، ويشير هذا الاسم إلى تدشين هيكل سليمان من جديد بعد ترميمه. ويستمر هذا العيد لـ 8 أيام وتوقد في مساء كل يوم من أيامه شموع بأعداد متزايدة كل يوم، حيث يتم إضاءة شمعة واحدة في اليوم الأول، ثم شمعة ثانية في مساء اليوم الثاني وهكذا حتى تكتمل إضاءة الشموع الثمانية. وتشير أيام العيد الثمانية إلى المعجزة التي حدثت عند تدشين الهيكل واستمرت 8 أيام. حسب التلمود لم يبق في الهيكل ما يكفي من الزيت الصالح لإيقاد الشمعدان المقدس، وبرغم ذلك فإنه أنار الهيكل 8 أيام بهذه الكمية القليلة حتى تم تحضير الزيت الجديد. (المترجم)

رُبط الفتى إلى الزجاج الأمامي لسيارة جيب. وتم تقييدي ومعي اثنان آخران وأجبِرنا على الوقوف أمام سيارات الجيب الأخرى. بدأ الشباب الفلسطيني في إلقاء الحجارة، حيث ضربوا سيارات الجيب التي كنا "نحميها". ولعدة ساعات، أُجبِرنا على العمل كدروع بشرية. وقوبلت طلباتي بعدم استخدامنا كدروع بشرية وبتقديم الرعاية الطبية للصبي بالتهديد والضحك.

علمت بعدها أن الصبي ظل يستيقظ كل ليلة لمدة شهر على الأقل بسبب الكوابيس التي كانت تنتابه. ومن يعرف طبيعة الندوب النفسية التي سيعاني منها بقية حياته. من يعرف ما الذي سيظنه بجميع الإسرائيليين، وربما بجميع اليهود. ولكن، عندما أعطى إفادة خطية لمنظمة بتسيلم B'tselem، منظمة حقوق إنسان إسرائيلية تعمل في الأراضي المحتلة، اختتم قصته قائلًا: "ثم جاء رجل يهودي طويل القامة يرتدي الكيباه [غطاء الرأس الديني اليهودي] لإنقاذي وقال لي لا تَخَف".

"أنا معهم". من بين كل الأعمال الخطرة التي قمت بها على مر السنين، فإن إحداها، أكثر من أي شيء أخر، يجعلني أتساءل دائمًا، "هل فعلت ذلك حقًا؟". كان أحد المستوطنين يطلق النار بين قدمي رجل فلسطيني عجوز، فوقفت بينهما. وعندما وصل الجيش أخيرًا وبدأ يفصل الإسرائيليين عن الفلسطينيين، بدوت كأنني مستوطن آخر مع لحيتي وارتدائي للكيباه، فأرادوا مني التحرُّك إلى حيث كان يقف المستوطنون. ولكني أشرت إلى الفلسطينيين وقلت لهم، "أنا معهم". كان هذا مجرد بيان للواقع من ناحيتي. ومع ذلك، لاحقًا، ذكّرني أحد الفلسطينيين الذين حضروا تلك الواقعة بها، كما رواها لعدة سنوات لفلسطينيين آخرين أثناء وجودي معهم.

لقد كان يرى أن قولي، "أنا معهم"، له تداعيات هائلة. والحقيقة إنني أرى نفسي "مع البشر" بدلًا من "مع الإسرائيليين" أو "مع الفلسطينيين". وما كان يُقصد به أن يكون بيانًا واقعيًا بسيطًا، أصبح إعلانًا استثنائيًا عن إنسانيتنا المشتركة. هناك حاجة هائلة للتضامن، والتي لا يمكن أن تحدث إلا عندما يصبح الأعداء أصدقاء.

يتخطى مغزى هذه القصص إثبات قدرتي على احترام صورة الله في الفلسطينيين. ففي كل حالة من هذه الحالات، تمكنت من مساعدة الفلسطينيين على رؤية صورة الله في داخلي وفي الإسرائيليين. في بعض الأحيان أعتقد أن هذا الأمر أهم من نجاحنا في منع وتصحيح انتهاكات حقوق الإنسان. يجب علينا نحن البشر كسر الصور النمطية التي لدى الكثير من الفلسطينيين عن الإسرائيليين والتي لدى الإسرائيليين عن الفلسطينيين؛ الصور النمطية التي تجردنا من إنسانيتنا وتمنع كل واحد فينا من رؤية الصورة الإلهية في الآخر. عندها فقط، يمكننا أن نعمل معًا في ثقة لإنشاء تحالف من الأمل من أجل مجتمعينا.

تتعلق إحدى مآسي وضعنا الحالي بأنه في الوقت الذي يستطيع فيه النشطاء الإسرائيليون كسر الصور النمطية عند الفلسطينيين عن الإسرائيليين، فإن لدى الفلسطينيين فرصًا أقل لكسر الصور النمطية التي لدى الإسرائيليين عنهم. ذات مرة، كنت أقدم العزاء لعائلة قُتِل ابنها على يد الجيش الإسرائيلي في ظروف مريبة. وطلبت (ربما بشكل غير واضح) من الحاضرين تخيُّل أقوال اليهود الثَّكْلَى مثلهم في تل أبيب عن الفلسطينيين. معظم الناس، بسبب غضبهم ومرارتهم، لم يتمكنوا من سماع ما كنت أقوله. لكن أحد الأشخاص قال لي: "أتمنى أن أتمكن من الذهاب إليهم وتقديم العزاء لهم بنفس الطريقة التي تزورونا أنتم بها. لكنك قادر على القدوم إلى هنا، في حين أنه لا يمكنني الحصول على تصريح للذهاب إلى تل أبيب وزيارة تلك العائلة".

أتمنى أن يجتمع المزيد من الإسرائيليين مع الفلسطينيين الأعضاء في منظمة "مقاتلون من أجل السلام"، وهي مجموعة من الإسرائيليين والفلسطينيين الذين كانوا في يوم من الأيام جزءًا من النزاع المسلح، لكنهم قرروا إلقاء أسلحتهم والسعي إلى السلام. أتمنى لو استطاعوا مقابلة نواف تسوف Noaf Tzuf الذي أمضى ثلاثة عشر عامًا في السجون الإسرائيلية لأنه كان أحد أفراد المقاومة المسلحة. ولأن يديه لم تلطخهما الدماء، أُطلق سراحه بعد توقيع اتفاقية أوسلو. لقد منحته مدة الثلاثة عشر عامًا وقتًا للتفكير، وقد خرج وهو ملتزم التزامًا تامًا بالمقاومة السلمية للاحتلال. لقد ساهم نواف بمفرده في العديد من مبادرات

التعاون الإسرائيلي – الفلسطيني السلمي. لقد رأيته يوقف ذراع قاذف حجارة وهي في الهواء، وقد جرت بيننا محادثات عدة حتى أوقات متأخرة من الليل حول ما سيفعله لضمان عدم ارتكاب أطفاله لنفس أخطائه. لقد أخبرني أنه على الرغم من أن جهوده قوبلت في البداية بالريبة، إلا أن الإنجازات التي حققها نيابة عن حقوق الفلسطينيين من خلال التعاون مع منظمة RHR والإسرائيليين الآخرين قد جذبت الناس على أعلى المستويات في المجتمع الفلسطيني في نهاية المطاف. وقد تم اختبار أفكاره عندما أصيب شقيقه بالشلل من رصاصة إسرائيلية أثناء محاولته حماية مجموعة من الأطفال خلال غارة للجيش على قريتهم. ومع ذلك، لا يزال التزامه بعدم العنف راسخًا.

ومرة أخرى، "من هو القوي بحق؟ الشخص الذي يحوّل العدو إلى صديق" (Pirkei Avot D'Rabbi Natan 23: 1). بعد أن انفجرت القنابل قريبًا من منزلي، أعتقد أن رؤية صورة الله في أعدائي هي بداية أفضل شيء يمكنني القيام به لحماية أطفالي.

من يستطيع أن يقول إن دمك أكثر احمرارًا من دمه؟

الأمن المقبول. بشكل عام، تزيد انتهاكات حقوق الإنسان الكراهية وتعرض أمننا للخطر، في حين أن الاجراءات العادلة يمكنها تحسين أمننا. ومع ذلك، هناك في بعض الأحيان نزاع حقيقي بين حقوق الإنسان والأمن. أحيانًا أقوم ببعض التمارين الذهنية مع الإسرائيليين؛ حيث يمكن لكل تلميذ إسرائيلي أن يقتبس من التلمود، "إذا جاء شخص ما لقتلك، استيقظ مبكرًا واقتله أولًا" (Talmud Sanhedrin 72a). لكني لا أرى في عيونهم إلا نظرات فارغة عندما أسألهم، "ما هو المقطع الذي يأتي بعده؟" نحن نتعلم أنه إذا كان شخص ما يطارد شخصًا آخر ليقتله، فيجب عليك قتل المطارِد. ولكن، على الرغم من أنك تحاول إنقاذ حياة إنسان، ستكون مذنبًا بارتكاب جريمة قتل إذا كان بإمكانك إيقاف المطارِد بإصابته بدلًا من قتله (Talmud Sanhedrin, 73a-74a). هذا هو مبدأ الحد الأدنى من القوة اللازمة.

وإليكم قصة أخرى: أتى رجل إلى رابا Raba، أحد حاخامات التلمود، وقال له إن أقوى رجل في قريته سيقتله إذا لم يقتل هو شخصًا ثالثًا بريئًا. لم يكن رابا ليتردد في الإجابة إذا كان السؤال هو: "هل يمكنني الدفاع عن نفسي؟" لكن، فيما يتعلق بالشخص البريء، قال رابا، "خير لك أن تكون مقتولًا على أن تكون قاتلًا. فمن يستطيع أن يقول إن دمك أكثر احمرارًا من دمه؟" (Talmud Sanhedrin, 74). هل يمكن للبشر العيش وفق هذا المعيار؟ كم شخص منا على استعداد للتضحية بحياته من أجل حماية الأبرياء؟ كان هذا في أحد الأيام جزءًا من عقيدة الجيش الإسرائيلي المسماة "طهارة السلاح".

يحتوي التراث اليهودي على سلسلة من الاختبارات لتطبيقها في كل مرة نواجه فيها نزاعًا بين الأمن وحقوق الإنسان. يجب أن نسأل أنفسنا:

1. هل سيكون الإجراء الذي نتخذه فعالًا؟ على الرغم من رفضي التام لسياسات هدم البيوت أو عقاب جماعي، لكن إذا كان تدمير البيوت الإرهابيين سيؤدي إلى إنقاذ أرواح بشرية، فإنني سأصرّ على أسناني وأُذكر نفسي بمبدأ "إنقاذ حياة" pikuakh nefesh في التراث اليهودي، الذي يقول إن أي قانون يمكن أن يُنتهك من أجل إنقاذ حياة بشرية. ولكننا تعلمنا بطريقة سريعة أن سياسة هدم البيوت لا تنقذ الأرواح.

2. ما هو الحد الأدنى من القوة اللازمة؟ فكما يعلّمنا التلمود أن المرء يكون مذنبًا بارتكاب جريمة قتل إذا كان في إمكانه إيقاف قاتل محتمل دون قتله، فإنه لا يجب على الجيش هدم البيوت إذا كانت هناك طرق أقل ضررًا لتحقيق هدفه. وإذا كان صحيحًا أن حماس أبْدَت استعدادًا لتمديد وقف إطلاق النار في يونيو 2008، بشرط أن إسرائيل تُبقي على وعدها بتخفيف الحصار عن غزة، فإنه كان من الأفضل تخفيف الحصار بدلًا من الذهاب إلى الحرب لأن حماس استأنفت إطلاق الصواريخ.

3. هل سنضر المدنيين إذا دافعنا عن أنفسنا ضد المعتدين؟

كان الحاخام فورمان Forman جنديًا في حرب لبنان الأولى، وفي إحدى الأيام أشار قائده إلى بستان موز قريب حيث كان هناك فلسطينيون يطلقون

قذائف آر بي جي (قذائف صاروخية) عليهم. قال قائده إنهم لا يستطيعون إطلاق النار لأن الفلسطينيين كانوا يحتجزون المدنيين أمامهم. وبالفعل لم يطلق الحاخام فورمان ورفاقه النار. وبشكل مأساوي قُتل اثنان من رفاقه في الجيش[1].

حكايات هاسيدية

هناك حكاية هاسيدية[2] Hassidic عن رجل ضلَّ طريقه في الغابة لعدة أيام. ثم وجد رجلًا آخر هناك فسأله إذا كان يعرف المخرج. فأجاب الأخير بـ "لا، لكن إذا قارنا الاتجاهات التي حاول كل واحد منا السير فيها، ستكون فرصتنا أكبر في اكتشاف الطريق الصحيح للخروج من الغابة". ومثل هؤلاء الذين تاهوا في الغابة، كلنا نعرف إلى أين نريد الذهاب، ولكننا لا نستطيع العثور على الطريق الذي يوصلنا إلى هناك. ولكن إذا كان لدينا هؤلاء الفلسطينيون والإسرائيليون الذين يشتركون في الحلم من أجل مستقبل أفضل، ويدعمون بعضهم بعضًا في "تحالف من الأمل"؛ فإن لدينا فرصة أفضل بكثير لإيجاد طريق الخروج من الغابة. يمكنني التحدث والاستماع — من يهودي إلى يهودي، ومن يهودي إلى فلسطيني – ومقارنة مساراتنا الخاطئة، ونحن قادرون على العمل معًا لإيجاد الطريق الصحيح.

ليس العمل الروحي الذي يجب القيام به للوصول إلى رؤية روحية بالأمر البسيط. سأل الحاخامات: "من هو الكائن الغامض الذي صارعه يعقوب في سفر التكوين 32: 25-32، في الليلة السابقة على لقائه بشقيقه عيسو بعد فراق سنوات عدة؟" فبعدها تم تسمية يعقوب بإسرائيل، "الذي يجاهد مع الله"، لأنه كما قال له الكائن الغامض "لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ". كما أطلق يعقوب / إسرائيل على مكان الواقعة اسم فَنِيئِيلَ Peniel ("وجه الله")، قائلًا إنه رأى كائنًا إلهيًا وجهًا لوجه. وعندما التقى بشقيقه في اليوم التالي، قال

---

(1) قال الحاخام فورمان إنه لم يكن متأكدًا أبدًا مما إذا كانوا قد فعلوا الشيء الصحيح. كيف كان ليطلق النار ويقتل المدنيين الأبرياء؟ ولكن في نفس الوقت كيف كان لينظر في أعين الأرامل الإسرائيليات ويخبرهن بأن أزواجهن قد ماتوا لأنهم لم يطلقوا النار؟

(2) الهاسيدية هي حركة يهودية روحية ظهرت في غرب أوكرانيا خلال القرن الثامن عشر، وهي معروفة بمذهبها الديني الأرثوذكسي، والانعزال الاجتماعي، والنزعة التصوفية الكابالية.(المترجم)

أيضًا: "لأني رأيتُ وجهكَ كما يُرى وجهُ الله". بالنسبة لي فأنا أعتقد أن يعقوب، في تلك الليلة، صارع ذلك الجزء من نفسه الذي خدع عيسو وغَشَّه؛ أدرك يعقوب أنه لم يكن الشخص الذي يريد أن يكون. بعد أن اعترف بشكل مؤلم في داخله بما أنكره لفترة طويلة، أصبح رجلًا مختلفًا واستطاع مقابلة شقيقه. في لحظة المواجهة والمصالحة مع الآخر الذي كان هو نفسه، كانت صورة الله حاضرة أمامه. نحن اليهود بحاجة لأن ندرك أننا، مثل يعقوب، لم نكن دائمًا الأشخاص الذين نريد أن نكون، الأشخاص الذي يريد الله أن نكون. وفقط عندما نعترف بأوجه قصورنا ونتحمل مسؤوليتنا، يمكننا أن نتوحد بشكل حقيقي وأن نتصالح بشكل صادق مع إخواننا وأخواتنا في فلسطين. (يجب على الفلسطينيين أن يحاسبوا أنفسهم أيضًا). وإذا استطعنا استخدام الأدوات الروحية التي توفرها اليهودية لنتصارع مع تراثنا، ومع تلك الجوانب في أنفسنا التي نفضل إسقاطها على الآخرين، فسوف ننعم بالرؤية الروحية لإيجاد الله في المصالحة المقدسة مع "الآخر". على الرغم من كل الألم الروحي المتواجد في ثنايا هذا الأمر، فإن تلك اللحظات التي يستطيع فيها صبي فلسطيني أن يقول "ثم جاء رجل يهودي طويل القامة يرتدي الكيباه لإنقاذي وقال لي لا تخف" هي لحظات حضور الله. وأعتقد أن هذه هي الطريقة الوحيدة لضمان مستقبل أفضل لأطفالي، وكذلك لأطفال ذلك الصبي.

الفصل الثالث

شعوب الأرض وخيام يعقوب: الإنسانية في صورة الله

الدكتورة إينات رامون

ترجمة: سلمى العشماوي.

تُدَرِّس الدكتورة إينات رامون Einat Ramon (1959 - ..) الفكر اليهودي الحديث، والآداب، والفكر النسوي في معهد شختر للدراسات اليهودية. وباعتبارها عميدًا سابقًا للمعهد، نُصِّبَت رامون من قِبَلِ معهد اللاهوت اليهودي بنيويورك في 1989 أول "حاخامة" إسرائيلية. حصلت رامون على درجة الدكتوراه من جامعة ستانفورد ولها العديد من المقالات المنشورة. ويعتبر كتاب "حياة جديدة: الدين، والأمومة، والحب السامي في أعمال أ. د. جوردون — A New Life: Religion, Motherhood and Supreme Love in the Works of A. D. Gordon" أحدث مؤلفاتها.

منذ عام 2006، نشطت في مجال الرعاية الروحانية في إسرائيل؛ حيث انخرطت في تأسيس أول وحدة للتعليم الرعوي الطبي (CPE) في إسرائيل لتشارك في شبكة مقدمي الرعاية الروحانية من خلال كتابة المعايير المهنية لتدريب القساوسة. ومؤخرًا أسست رامون برنامجًا أكاديميًّا متخصصًا في مجال الرعاية الروحانية اليهودية في معهد شختر. وترى رامون نفسها يهودية ملتزمة بتعاليم الدين اليهودي ولا تتبع أية طائفة. وتعيش في القدس مع زوجها الحاخام أريك أشرمان وطفليهما.

الإنسانية من منظور يهودي: التنوع والخصوصية والتضامن الإنساني

لطالما اعتبرت عائلة رامون (ويسبرج - ألبلان)، التي أنتمي إليها وتعيش في عدة مناطق في إسرائيل، مفاهيم الصهيونية، واليهودية، والتضامن الإنساني شديدة التداخل والترابط. فقد أمدتنا الصهيونية بإطار من الأمل في إمكان عيشنا —كيهود- بكرامة في أرضنا بعد ألفي عام من النفي وتحمُّل الشعور بالإهانة والازدراء في بلاد عديدة وتحت مختلف الأنظمة المسيحية، والإسلامية، والعلمانية (الشيوعية).

وعلى الرغم من الذكريات التي حفرت في أذهاننا عن "غير اليهود الأتقياء" (أصدقاء أجدادنا من البلدان القديمة وغير اليهود الذين قدموا مساعدات لليهود في بعض الأحيان)، لم يرغب الجيل الذي هاجر من أوروبا في العودة إلى بلدانه (بولندا، روسيا، أوكرانيا). فقد كانوا سعداء بالبقاء في وطن أسلافهم، شغوفين ببناء منازلهم وتأسيس عائلاتهم ومجتمعاتهم- سعداء بكونهم جزءًا من النظام اليهودي الذي أُعيد إحياؤه في مسقط رأسه، كما وعد أنبياؤنا (حزقيال 37).

نعيش، أنا وزوجي وأولادنا، حاليًا في القدس بين اليهود الذين "ارتقوا" (الذين هاجروا إلى أرض إسرائيل) من البلاد الإسلامية في خمسينيات القرن العشرين؛ حيث فرَّ جيراننا من جراء العنف ضد اليهود في الشرق الأوسط، وآسيا وشمال أفريقيا[1]. وعلى الرغم من طول فترة تعايش اليهود مع المسلمين في بعض تلك البلاد (حيث تَقَبَّل اليهود بصمت قدرهم كمواطنين من الدرجة الثانية- أصحاب الذمة- حسب التعريف الإسلامي حيث أُجبر بعضهم على دخول الإسلام[2])، ظهرت الثورات القومية العربية في الخمسينيات وبعدها.

---

(1) انظر B. D. Yemini, "The Jewish Nakba: Expulsions, Massacres, and Forced Conversions," May 20, 2009.
www.solomonia.com/blog/archive/2009/05/ben-dror-yemini-the-jewish-nakba-expulsi/.

(2) انظر B. Lewis, The Jews of Islam (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984).

خلال تلك الثورات القومية، وبعدها وفي أثناء الثورة الإسلامية بإيران في الثمانينيات، اضطر اليهود إلى ترك معظم ممتلكاتهم والهرب من البلدان الإسلامية. فقد هاجر نحو مليون لاجئ يهودي من البلدان الإسلامية إلى إسرائيل خلال السنوات الأولى لتأسيس دولة إسرائيل. ولحسن الطالع، كانت دولة إسرائيل موجودة بالفعل وقادرة على استيعابهم، على العكس مما حدث مع اليهود الذين فروا من المحرقة (الهولوكوست) قبل تأسيس دولة إسرائيل.

على الرغم مما عانوه من ألم اجتثاثهم من أرضهم، لم يشعر أجدادي وجيراني بأي حقد أو رغبة في الثأر. وعلى الرغم من حزننا على موتانا سواءً جراء النفي من أرضنا (بدءًا بالإمبراطورية الرومانية)، والتصفية العنيفة للحاليات اليهودية الغنية ثقافيًّا على يد وثنيي ما قبل الحداثة، والصليبيين، ومحاكم التفتيش الإسبانية[1]، والأيديولوجيات الاستبدادية (النازية- الفاشية- الشيوعية)[2]، لا نحمل أية ضغينة تجاه مضطهدينا سواءً في الغرب أو في البلاد الإسلامية. على العكس، نركز على بناء حياتنا هنا كيهود في إسرائيل. نحن نتذكر الإهانة والاضطهاد لكننا لا نسترسل في هذه المشاعر. فنحن حريصون على مستقبل شعبنا في أرضنا، والتي تمثل في رأينا مثالاً يحتذى به ليس لنا فحسب، ولكن أيضًا لكل الشعوب المهددة بالخطر والثقافات القديمة حول العالم.

تنبع نظرتنا التفاؤلية إلى العالم من التوراة — كتاب اليهود المقدس، والذي نؤمن أنه قد أُعطي لنا كتابة وشفاهية من الله (جُمع لاحقًا في التلمود خلال الفترة بين 500 و800 م) على جبل سيناء. ولكن معناه الأعمق لا يزال يتكَشَّف تباعًا بفضل المفسرين المتخصصين ومن خلال حياتنا التي نحياها وفقًا لها. تسلط التوراة الضوء على أهمية تراثنا الديني والثقافي الفريد والذي نؤمن بأهميته لبقاء الإنسانية. تدعو روح اليهودية إلى التوازن بين وجهات النظر الخصوصية والعالمية والالتزامات الدينية. اليهودية إذًا في جوهرها ضد الإمبريالية؛

---

(1) حول تأثير الصليبيين على اليهود، انظر الرابط التالي
www.crusades-encyclopedia.com/jews.html.

(2) Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism (New York: Schocken Books, 1951).

حيث تدعو أن يجد كل شخص معنى حياته وهدفه داخل إطار العائلة. ففي النهاية، ليست اليهودية بديانة تبشيرية، ولكنها تسعى إلى توضيح الحق الإلهي والإرادة الإلهية من خلال قناة دقيقة من الاستدلال المنطقي، والذي ينبع من الحاجة إلى فهم نَصِّ التوراة. تدعو التوراة إلى تصور تعاون بنَّاء بين اليهود كشعب مستقل (منفتح على كل من يرغب في اعتناق الوصايا التي يبلغ عددها 613 وصية) و"جميع قبائل الأرض" (سفر التكوين 12 :3).

وفي ضوء تلك الملاحظات الأولية، سوف أقدم المفهوم اليهودي للإنسانية ومصيرها، كما سأشارككم تاريخ عائلتي الروحاني. وبعد ذلك سأجسد لكم نموذج التسامح الذي أوجده الحاخامات القدماء–المفسرون الأوائل وحاملو التوراة– وأخيرًا سأعرض رؤيتي للصراع الحالي في إسرائيل والشرق الأوسط.

إسرائيل بين الأمم

تكشف لنا الفصول الاثنا عشر الأولى من سفر التكوين بالتوراة التطورَ الأخلاقي للإنسانية كما فهمه اليهود وتَبَنَّته الأديان السماوية فيما بعد: المسيحية والإسلام. وفقًا للتوراة، نحن البشر جئنا من سَلَفَين مُشْتَرَكَين، رجل وامرأة: آدم وحواء؛ حيث خُلقا على صورة الله وأُمِرا أن يتكاثرا ويحكما كل المخلوقات (سفر التكوين 1: 26 – 28). ومن ثم، فاليهودية، باعتبارها أول ديانة توحيدية، تنص على أن جميع البشر مخلوقون على صورة الله. وبالتالي نرى أن العبارة السابقة بمثابة مهمة — أو هدف يسعى الإنسان إلى تحقيقه — وليست مجرد حقيقة أخلاقية[1].

وبعد ظهور الشر في عالم الخير الذي خلقه الله (ممثلاً في الأفعى) وظهور مشاعر الحقد والانتقام والبغض (تكوين 3)، ظهرت أول جريمة قتل (تكوين 4) والتي تطوَّرت بعدها إلى هوس خطير في الجيل التالي، وهو ما مهد الطريق لفكرة القتل الجماعي (تكوين 4: 23). وأخيرًا، عندما "فَسَدَتِ الأرْضُ أمَامَ

---

(1) انظر P. Trible, God and the Rhetoric of Sexuality (Philadelphia: Fortress Press, 1978), 17, 21–22.

اللهِ وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا." (تكوين 6: 11)، أهلك الله البشرية بالطوفان، ثم أعاد خلق الإنسانية من خلال إنسان تقي وهو نوح وعائلته (تكوين 7).

وبعد ذلك أعطى الله نوح مجموعة من القوانين الطبيعية، والتي نسميها في اليهودية وصايا نوح السبعة، حتى لا تتكرر كارثة الانهيار الأخلاقي (تكوين 9: 1- 17)[1]. وتشير القوانين، التي صاغها الحاخامات، إلى قدسية الحياة، ومن ثم قدسية البناء الأسري التقليدي وقيدت العلاقات الجنسية.

وبعد ذلك بوقت قليل، عادت العجرفة البشرية إلى سابق عهدها كما نَصَّت التوراة عندما "كَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً.. وبنوا لأنفُسِهم مَدِينَةً وبرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وصنعوا لأنفسهم اسمًا" (تكوين 11: 1، 4). وفي ذلك الوقت علم الله، خالق السماوات والأرض، خطورة اتحاد البشرية بغرض السيطرة على العالم (وبالتالي تدميره) فبلبل ألسنتهم. ولذا خلق الله مختلف اللغات والثقافات و"بددهم على وجه الأرض". لعلمه بأن الإنسانية ستزدهر عندما تتبع وصايا نوح وتنمو من خلال المجتمعات الصغيرة والمتقاربة ذات التقاليد الثقافية والقَبَلِيَّة/ القومية المختلفة. وكما يبدو في نصوص التوراة أنه دون تلك الانتماءات — حيث لكل مجتمع حدوده وقراءته الفريدة للوضع الإنساني- يمكن لغرورنا اللامحدود وشهواتنا التسلطية تدمير العالم والإنسانية بسهولة[2].

شرح موردخاي م. كابلان Mordechai M. Kaplan (اللاهوتي اليهودي الأمريكي — "1881–1983") السبب وراء نشوء البشر في مجموعات صغيرة ومتجانسة (عائلات ومجتمعات وأمم) عندما قام بتفسير الحاجة للعبادة العامة. عندما "نجد أنفسنا بصحبة آخرين يشاركوننا الاهتمامات نفسها ويتحملون المسؤوليات نفسها وتحكمهم القيم نفسها، فإننا نشعر بقوة داعمة، ونشعر بمعية الله، ونشعر بالأمان في هذا العالم، وندرك القوة الداعمة والمستدامة خارج إطار

---

(1) حول وصايا نوح، انظر الرابط التالي

www.noahide.org/article.asp?Level=540&Parent=342.

(2) D. Gordis, "The Tower of Babel and Birth of Nationhood," Azure 40 (2010), 19–36.

ذواتنا الفردية، مما يتيح لنا إدراك معية الله في الطبيعة وفي الإنسانية"[1] تضفي المجتمعات الصغيرة والرموز الثرية المبدعة القومية ودورات الحياة على حياتنا معنى وسياقًا؛ حيث تضمن لنا معرفة من يقودنا والاحتفاظ باتصال مباشر معهم. ومن ثم، تكفل لنا الأمم والمجتمعات والعائلات كلاً من حريتنا وكرامتنا الإنسانية (سفر اللاويين 25: 39- 46).

ليس من قبيل المصادفة أن الامبراطوريات الوحشية على مدار التاريخ قد استعبدت الناس، وحاولت طمس هويات بعينها، ونفت شعوبًا من مواطنها الأصلية إلى أراضٍ غريبة؛ حيث فقدوا كرامتهم الإنسانية ولم تعد لهم القدرة على ممارسة تقاليدهم وعاداتهم الأسرية. ومن ثم، كما نصَّت التوراة، يظل التحذير من الوثنية – بمعني نزوع البشر إلى تقديس أنفسهم وقوتهم، مما يؤدي إلى استعباد الآخرين – تهديدًا خطيرًا على وجود العالَم (حزقيال 19: 3).

اختار الله، وفقًا لنظرة اليهود إلى العالم، إبراهيم وسارة لبناء أسرة من شأنها إيقاف انحدار العالم نحو الوثنية. فلقد اختار الله أسرة لتكون نموذجًا يُحتذى به في كيفية حماية حرية البشر في ظل الظروف الصعبة التي تحيط بالوجود الإنساني، مع التغلب على ضعفنا وميلنا لاستعباد أنفسنا والآخرين. "إذن من الحر؟" تساءل إبراهام جوشوا هِيتشل Abraham Joshua Heschel، عالم اللاهوت اليهودي الأمريكي [وُلد ببولندا، وانتقل للولايات المتحدة عام 1940] (1907- 1972) "فالإنسان المبدع هو الذي لا ينساق وراء تيار الرغبات ولا تكبله الحوادث ولا تستعبده الظروف"[2]. هذا ما تعنيه الحرية الإنسانية في أعمق معانيها، بتوجيه من التوراة والتي أُعطيت للعالم على جبل سيناء لترشدنا نحن، أبناء إبراهيم وسارة، لأداء هذه المهمة.

ولم تكن المهمة التي تولاها اليهود بإخلاص–ألا وهي محاربة الوثنية–خالية من التعقيدات. فلقد بَدت المطالبة بإبادة الشعوب الوثنية متعارضة مع القيمة

(1) Mordecai M. Kaplan, The Meaning of God in Modern Jewish Religion (New York: Reconstructionist Press, 1962), 246–248.

(2) A. J. Heschel, God in Search of Man: A Philosophy of Judaism (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1955), 410.

اليهودية الأساسية والتي تقدس الحياة الإنسانية؛ حيث يتحدث الكتاب المقدس العبري بلا رحمة عن الشعوب الوثنية ويأمرنا بتخليص العالم من الوثنية وجميع صورها الأخلاقية المهينة (سفر التثنية 12، 13). ومع ذلك فإن الوصايا بمحو الشعوب الوثنية وخصوصًا من يعيشون في أرض إسرائيل القديمة كانت ستتطلب إراقة بحور من الدماء وستودي باليهود إلى منحدر دموي حرج. كما يخبرنا علم الآثار والكتاب المقدس، لم ينفذ قط الأمر بإفناء الشعوب السبعة الوثنية في أرض إسرائيل القديمة. احتل اليهود القدماء أرض إسرائيل ولكنهم استمروا في التعايش مع الشعوب والثقافات الوثنية حتى نَفَتْهم الإمبراطوريات القائمة وقتها. تكتسب التعاليم القاسية في نصوص التوراة التي تأمرنا بإبادة هذه الثقافات معنى رمزيًا؛ حيث تعلّمنا مدى خطورة الوثنية علينا وعلى العالم[1].

تحول الكفاح المفروض علينا ضد الوثنية وضد الإيديولوجيات والأديان الدخيلة إلى معركة هادئة لتقديس اسم الله من خلال أعمالنا اليومية والتزامنا بالتوراة. يبذل الملتزمون منا بديننا كل ما في وسعهم فعله لمواصلة حياتهم كيهود، على الرغم من المخاطر المستمرة التي تهدد وجودنا. وإذا ما فُرض علينا الاختيار بين الموت وترك ديننا، سيفضل الأوفياء منا لشعبنا الموت (أو الاستمرار في العبادة سرًا) على التخلي عن طريق أسلافنا في الحياة. أعرب موسى مندلسون Moses Mendelssohn، مؤسس حركة التنوير اليهودية (1729-1786) وجالب الفكر الفلسفي للعالَم اليهودي الحديث، عن قلقه بشأن إبعاد اليهود، تحت غطاء التسامح، أو إغوائهم في البلاد الغربية لترك دينهم واعتناق الفكر العلماني أو التوفيقي (محاولة الجمع بين المعتقدات المتعارضة في الدين والفلسفة) الذي يكتسب منزلة "أعلى" في المجتمع الغربي.

ففي عام 1784، كتب رسالة لزميله "هذا التسامح خدعة.. في هذه الحالة، أصبح لزامًا على الجماعات الصغيرة ممن لا يرغبون في تحويل الآخرين أو

---

(1) ولهذا السبب، أشار عقلاء العصور الوسطى إلى أن شعوب كنعان السبعة لم تعد موجودة. موسى بن ميمون، مشناه التوراة، فصل المقدسات، المحرمات الجنسية، 12:25.

أنفسهم عن معتقداتهم أن يظلوا متماسكين ويوحدوا صفوفهم."[1] أدرك مندلسون سعي عدم التسامح في العلمانية والإلحاد إلى فرض المعتقدات العلمانية على اليهود ومن ثم "يكبل العقل البشري". وقال مندلسون محذرًا "دعونا لا نتظاهر بوجود التشابه حيث يتجلى لنا أن التنوع هو خطة أو هدف العناية الإلهية"[2]. وقد دعا مندلسون اليهود الذين كانوا ولا يزالون أقليات في العالم بأن "يتبنوا عادات ودساتير البلاد التي يعيشون فيها، مع التمسك أيضًا بدين آبائهم".

يترسخ الاعتقاد بعدم الرغبة في تغيير الدين في المعتقدات اليهودية القدمية؛ التي تنص على أنه "سيكون للأتقياء من كل الأمم الوثنية نصيبًا في العالم المبارك القادم" (توسيفتا، سنهدرين 13). فليست هناك حاجة إلى أن ينضم الوثنيون إلى اليهودية؛ فكل ما عليهم فعله الالتزام بالتقوى واتّباع وصايا نوح السبعة واحترام المهمة التي أخدها اليهود على عاتقهم.

من خلال تلك الرؤية الكتابية للطبيعة البشرية المكونة من أمم مختلفة، تحكمها لغاتها الخاصة وطقوسها، وترتبط بأرضها، وتؤدي مهامها الخاصة، وتحترم في هذا السياق تاريخها الفريد، يتمسك الشعب اليهودي ويتوقع أن تقر الأمم الأخرى بتمسكه وارتباطه التاريخي بأرض إسرائيل وببعضه البعض وبالتوراة. وعلى الرغم من مواجهة كل هذه الأفكار لتحديات من الإيديولوجيات المعاصرة، يعتبرها الدين اليهودي ضرورة لبقاء البشرية؛ حيث يعد التزام الفرد نحو عائلته وقبل ذلك نحو والديه، وشعبه، ووطنه والذي ينبع منه شعور عميق بالمسئولية نحو الإنسانية جمعاء — أقدس الطرق الموصلة لله ولحياة كاملة ذات معنى ومغزى حقيقي.

---

(1) Moses Mendelssohn, Jerusalem and Other Jewish Writings, trans. and ed. Alfred Jospe (New York: Schocken Books, 1969), 109, 147.

. أشار إلى الرغبة في تأسيس اتحاد نظامي للأديان وجذب اليهود إلى هذا الاتحاد.

(2) المصدر السابق نفسه، 109.

من الاضطهاد إلى الاستقلال: رحلة عائلتي

ربما تُبين قصة عائلتي كيف أثَّرت تلك الأفكار الكتابية الربانية في عائلة إسرائيلية صغيرة من يهود شرق أوروبا. لقد ولدت في عام 1959 في القدس؛ التي تعد المدينة المقدسة بالنسبة لليهود عبر تاريخنا الممتد لثلاثة آلاف عام. خلال سنوات نشأتي الأولى، كانت القدس مقسمة بين إسرائيل، والتي كانت وقتها دولة ناشئة مناضلة (عمرها بالكاد عشرون عامًا)، وبين المملكة الأردنية الهاشمية (والتي أسستها الإمبراطورية البريطانية كمملكة عربية منفصلة لحل النزاع اليهودي العربي)[1]. في الوقت الذي كنت أعيش فيه في المدينة المقسمة (حتى بلغت السابعة من عمري)، كنت أتطلع للصلاة عند الجدار الشرقي (حائط المبكى) وغيرها من الأماكن اليهودية المقدسة، والتي لم يكن مسموحًا لنا بزيارتها لأنها كانت تابعة للحكم الأردني.

ومع ذلك كنا نشعر أن سكننا في القدس يعتبر ميزة، فلقد كانت أمي "من أهل القدس الأصليين" ولا تزال تعيش مع والدي في المنزل الذي بناه جدها في عشرينيات القرن العشرين. ولم تكن لتنتقل منه قط إلى مكان آخر. وفي طفولتي، كانت أمي تقص عليَّ وعلى أخواتي قصصًا عن مدينة القدس القديمة واصفة لنا الحائط الشرقي والمعبد الجميل هورفا (كنيس الخراب) في الحي اليهودي. دُمر كنيس الخراب (الذي أعيد تجديده وافتتاحه مؤخرًا) على أيدي الأردنيين في حرب 1948، عندما أُجبر اليهود على إخلاء الحي اليهودي. وفي بعض الليالي في القدس الغربية، كنا نبحث عن مخبأ في ممر شقتنا الصغيرة لأن الجنود العرب في القدس الشرقية كانوا يطلقون علينا النيران. مع ذلك حتى الأطفال عرفوا دون أن يقال لهم إن العيش في القدس بعد ألفي عام من النفي يعد هبة كبيرة. وعلى الرغم من أننا لم نكن عائلة متدينة جدًا، كنا نؤمن في أعماق قلوبنا بوجود الله، وبوجود الأخلاقيات التي أمرنا بها الله، وبأخوة جميع البشر، وبالمصير والدور المحدد للشعب اليهودي.

---

(1) On the history of Jordan in the context of Middle Eastern history, see E. Ramon, "Jerusalem After 40 years," The Jerusalem Post, May 14, 2007.

كان جدود أجدادي من العائلات اليهودية في شرق أوروبا يعيشون في "تخوم الاستيطان"، وهو المكان الوحيد الذي سُمح فيه لليهود بالإقامة على مدار عدة أجيال في شرق أوروبا بين بولندا وروسيا[1]. وعند ظهور المزيد من فرص التعليم والعمل في روسيا وبولندا في نهاية القرن التاسع عشر ومع ازدهار الإيديولوجيات الاشتراكية العلمانية أو الشيوعية، بدأ جدود أجدادي في التخلي عن أسلوب آبائهم التقليدي في الحياة. وعلى الرغم من انضمامهم إلى المدارس الروسية والبولندية العلمانية، فلقد التزموا في منازلهم بتقليد السبت اليهودي والأعياد وأصول الطعام اليهودية. وأتعجب كيف انجذب معظم أجدادي (على الرغم من إيمانهم بأفكار عصر التنوير وانضمام أولادهم للتعليم العلماني) للحركة الصهيونية في الوقت الذي لم يهتم معظم اليهود سواءً من الليبراليين أو الأرثوذكس بالفكرة. وفي تلك الفترة، كان هناك عدة مئات أو آلاف من اليهود يحلمون بالعودة إلى أرض إسرائيل، وقد كان أجدادي من بين هؤلاء القلة. وكان أجدادي من البسطاء، فلم يكونوا معلمين أو قادة، ولكنهم أدركوا نتيجة لظهور المعاداة للسامية أنه لا مستقبل لهم في شرق أوروبا قبل (أو بعد) الحرب العالمية الثانية. ومن ثم حملوا أجدادي – الذين كانوا صغارًا في هذا الوقت – إلى طريق الصهيونية.

تختلف قصة كل من عائلة أجدادي ولكنهما يشتركان في المآسي والمعتقدات نفسها. فنحو عام 1915، هوجمت عائلة جدي لأبي من قبل بعض الغوغاء

(1) "من عام 1791 إلى عام 1915، احتجز قياصرة الروس–بداية من كاترين الثانية–أغلبية اليهود الذين يعيشون في شرق أوروبا في منطقة "تخوم الاستيطان". اشتملت المنطقة على 25 مقاطعة ضمن كل من أوكرانيا، وليتوانيا، وبيلاروسيا، والقرم، وجزء من بولندا (والتي انقسمت بين روسيا، وبروسيا، والنمسا في 1772). انضم الجزء الغربي الذي كان بولندا في السابق إلى إمبراطورية النمسا وبلغاريا. ويضم الجزء الغربي من بولندا (والذي ضم مجتمعات يهودية مهمة، مثل الواقعة في منطقة غاليسيا مجتمعًا صغيرًا ولكنه يشمل عددًا غير قليل من اليهود. وكان الوضع الاقتصادي ليهود شرق إمبراطورية النمسا وبلغاريا أفضل من نظرائهم اليهود الذين يعيشون في الجانب الغربي من إمبراطورية روسيا. طُرد يهود روسيا خصيصًا من موسكو وسان بطرسبورغ وجُبروا على الحياة داخل تخوم الاستيطان. وبعد ذلك تم طردهم من المناطق الريفية داخل التخوم وأُجبروا على العيش في الملاجئ."
www.simpletoremember.com/articles/a/pale_of_settlement/.

الأوكرانيين في مدينة بروسكوروف، بقيادة بتلورا Petlura[1]، وهو ثوري أوكراني الجنسية. أُنقذت عائلتي بمعجزة بعد ما اختبأت خلف الأبواب المغلقة لمتجرهم، وبعد ذلك الحادث الأليم، انتقلوا من أوكرانيا لوارسو- واحدة من أكبر المجتمعات اليهودية في تلك الفترة - ولكن لحقهم للموت بعد ما يقرب من عقدين في جيتو وارسو ومعتقل أوشفيتز؛ حيث لم يتركوا أي أثر عن مكان أو كيفية وفاتهم. عقب وصولهم لوارسو، سافر اثنان من أبنائهم — وهما جدي وأخيه-إلى إسرائيل ليُشَيِّدا كيبوتس[2] kibbutz وتل أبيب؛ أول مدينة تتحدث العبرية في العالم[3].

هاجرت جدتي لأبي والتي عاشت في مدينة لفوف Lvov في بولندا/الاتحاد السوفيتي السابق إلى إسرائيل مع ثلاثة من أشقائها تاركين أربعة أشقاء آخرين، والذين أُبيدوا في الهولوكوست لاحقًا. لم تمر عائلة أمي بالمعاناة من أهوال الهولوكوست، ولكنها تأثرت بشدة من القتل على يد الشيوعيين ومن الاستبداد في فرض العلمانية، ومن ثم أخفت هويتها اليهودية على مدار جيلين. في الاتحاد السوفيتي، كانت ممارسة أية طقوس دينية غير قانونية (حيث يعتبر الدين ممارسة

---

(1) المكتبة التخيلية اليهودية، "Pogroms"،
www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/judaica/ejud_0002_0016_0_15895.html.

(2) كيبوتس kibbutz: تعني بالعبرية "اجتماع (أو جَمْع) أو "تجمُّع". والجمع kibbutzim، وهي استيطان (بالمعنى العام) جَمْعي إسرائيلي، يكون في العادة زراعيًا وأحيانًا يكون صناعيًا، وفيه تُمْتَلَك الثروات مشاعًا. ويُعاد استثمار الثروة في المستعمرة بعد إمداد أعضاء المستعمرة بالطعام، والملبس، والمأوى والخدمات الاجتماعية والطبية. وللبالغين مساكن خاصة بهم، لكن يتم الاعتناء بالأطفال وإسكانهم كجماعة. يتم الطهي وتناول الطعام شراكةً. وقد مالت هذه المستعمرات لخصوصية أكبر فيما يتعلق بالفرد والممتلكات منذ تشكُّل إسرائيل عام 1948. (المحرر).

(3) حول تاريخ حركة كيبوتس، انظر Daniel Gavron, The Kibbutz: Awakening from the Utopia, MD :.Roman & Littlefield Publishers, 2000
http://books.google.com/books?id=5wifOjaA2BoC&pg=PA20&lpg=PA20&dq=yosef+baratz&source=bl&ots=af2UesklNI&sig=kySFKE2zTewdbx_zYx0F9UFiRxo&hl=en&ei=ybqMS_LuM82H4Qabs73yBg&sa=X&oi=book_result&ct=result&resnum=6&ved=0CBQQ6AEwBQ#v=onepage&q=yosef%20baratz&f=false
.[AU/ED

حاولت زيارة الرابط عدة مرات لعدة أيام. كما جربت Milestones بدلاً عن Millstones وببساطة الرابط التالي www.tel-aviv.gov.il/english وواجهت المشكلة نفسها.

"غير علمية"). وقد توفى أحد أعمام أمي في معسكر أُعده جوزيف ستالين Joseph Stalin للذين انحرفوا عن تيار الحزب الشيوعي الرئيسي. وقد هاجرت عائلة جدتي لأمي إلى إسرائيل عقب الثورة الشيوعية. واختاروا بإرادتهم المجيء إلى القدس بدلاً عن السفر إلى الولايات المتحدة بسبب تطلعاتهم وخططهم الصهيونية.

كان جدي لأمي، والذي كان له تأثير روحاني هائل عليَّ، أحد الضباط اليهود القلائل في جيش قيصر روسيا؛ حيث ترك عائلته في روسيا وعَبَرَ روسيا سيرًا على الأقدام ليخدم في الجيش البريطاني الذي منحه تكليفه في الجيش بإسرائيل في نهاية المطاف. وقد وصل إلى إسرائيل في عام 1919 في عمر الحادية والعشرين تصحبه دعوات والدته التي لم تره ثانية. ومنذ لحظة وصوله، كَرَّسَ حياته لبناء دولة يهودية جديدة. وعاد جدي، الذي أصبح علمانيًّا تحت تأثير التيار السائد حينها، إلى التعليم اليهودي في سنوات عمره الأخيرة. ويرجع شغفي بالنصوص اليهودية إلى حد ما إلى اهتمامه مجددًا بالفكر اليهودي والتصوُّف.

وكان والدايَ وقد ولدا قبل الحرب العالمية الثانية من الجيل الأول من "السابرا – Sabras" — اليهود الذين ولدوا في إسرائيل. وكانا مثل أبناء "اليشوف القديم Old Yishuv" — اليهود الذين عاشوا على أرض إسرائيل لمئات (أو آلاف) السنين وخصوصًا في المدن القديمة مثل القدس، والخليل، وصفد، وطبرية[1]. تقابل والدايَ في حركة الشباب الصهاينة الاشتراكيين وأسسا بيتهما في القدس بجوار عائلة أمي. عشنا بالقرب من الخالات والأعمام وأبناء العم؛ حيث كنا نتقابل أسبوعيًّا مساء الجمعة. وكانت وليمة السبت المناسبة الخاصة التي تجمعنا في بيت جدي؛ حيث كان ينضم إلينا الضيوف أيضًا.

رحبت عائلتي وقدمت يد العون والدعم لأي شخص احترمنا كبشر وكيهود بغض النظر عن آرائه الشخصية أو توجهاته السياسية أو معتقداته الدينية. سعى أجدادي لإقامة علاقات صداقة مع الناس الذين يشاركونهم قيم الصدق والصداقة نفسها. ففي إسرائيل، يعيش الناس في مجتمعات ثقافية صغيرة، ومن ثم كان أصدقاؤنا المقربون على الأغلب من اليهود من أصول شرق أوروبية مثلنا.

---

(1) انظر Yishuv على الرابط التالي www.answers.com/topic/yishuv.

وقد كان بعضهم من العلمانيين مثلنا والبعض الآخر في دوائر اجتماعية أبعد من اليهود الأرثوذكس، وانتمى بعضهم لليمينيين سياسيًّا والبعض الآخر كانوا مثل أجدادي من اليساريين الصهاينة. كانوا يتجادلون بكل حرية وعادة ما كانت أصواتهم ترتفع بل وكانوا في بعض الأوقات يحتدون على بعضهم البعض، أحيانًا خلال أيام الأسبوع على طاولة الطعام عندما يمرون لـ "يلقوا التحية" وأحيانًا أخرى في أيام السبت. ولكن جمعهم الحب وكان كلٌّ منهم يدعم الآخر في وقت الحاجة والشدة. وقد كانوا كلهم من اللاجئين ولكنهم لم يعتبروا أنفسهم كذلك لأنهم كانوا سعداء بوجودهم في وطنهم الأم.

جعلتني نشأتي في بيئة تتسم بهذا الكم من التنوع الإيديولوجي أتعجب فيما بعد عن ماهية الإطار المفاهيمي الذي يُكَوِّن اللا-وعي والذي يسمح بنمو هذه التعددية وتعبيرها عن نفسها حول مائدة السبت؟ كيف يمكن لليميني واليساري المتدين واليهودي غير المتدين (بل وفي بعض الأحيان غير اليهود) أن يحافظوا على ذلك الترابط الإنساني على الرغم من المناقشات الساخنة والخلافات الإيديولوجية؟ دفعتني تلك التجربة الشخصية في التسامح، والتي أحاول تعليمها لأبنائي حول مائدة السبت، إلى البحث في كيفية بقائنا كيهود على قيد الحياة عندما واجهنا الجانب المظلم من التاريخ الإنساني، عندما انهارت القيود الأخلاقية.

كلما ازداد التزامي الديني، زاد شغفي بخصائص العلمانية اليهودية. فلقد تجاهلت العلمانية اليهودية -كما تعلمت - اليهودية لعدة أجيال، ولكن بسبب ارتباط اليهود ببعضهم البعض وبالتوراة، لم يتحول اليهود العلمانيون الصهاينة (كما لن يصبحوا أبدًا) إلى علمانيين بالكليَّة. من خلال أبحاثي، اكتشفت الجذور اللاهوتية للتعددية والفلسفة الإنسانية اليهودية والتي أدركتها خلال سنوات نشأتي[1]. لقد تعلمت الحكمة القديمة لليهودية التقليدية، والتي

(1) حول جدليات العلمانية اليهودية، انظر كتابي:

E. Ramon, A New Life: Religion, Motherhood and Supreme Love in the Works of Aharon David Gordon (Jerusalem: Carmel, 2007, Hebrew).

انظر نشرت أقسام هذا الكتاب باللغة الإنجليزية. انظر:

تسعى دائمًا لإحداث التوازن بين الآراء المتعارضة. ما شهدته عند والداي وأجدادي على مائدة السبت العلمانية (بالإضافة إلى إضاءة الشموع والصلاة لمباركة النبيذ) كان نتيجة للثقافة اليهودية القديمة التي تمحورت حول تعلُّم التوراة من خلال مناقشة معانيها "إذا جلس ثلاثة حول مائدة طعام وتبادلوا كلمات التوراة فكأنهم جلسوا إلى مائدة الرب" (المشناه، (فصل الآباء)، 3: 4). على الرغم من أن استنباط معاني التوراة يعتبر أمرًا شاقًا، إلا أنه قيل في المصادر الحاخامية "ادرسها وراجعها: فستجد فيها كل شيء" (المشناه، (فصل الآباء)، 5: 24). تجلى الدافع لدراسة ومراجعة التوراة، ومن ثم جميع أمور الحياة الإنسانية، في عائلتي وفي العديد من المنازل اليهودية الأخرى. فلقد كان كل شيء مفتوحًا للنقاش والتوضيح. وعلى الرغم من أن آراء الشخص نفسه تتشكل ببطء بعد سماع مختلف وجهات النظر، سعدنا جميعًا بنعمة ممارسة الحياة اليهودية في أرض إسرائيل.

نتيجة التزامنا التاريخي نحو التوراة ورغبتنا عبر التاريخ في تفسير المعضلات بأقصى قدر من الدقة، أصبحت اليهودية ديانة أقلية تتعايش مع ديانات

E. Ramon, "'A Woman-Human': A. D. Gordon's Approach to Women's Equality and His Influence on Second Aliya Feminists," in Jewish Women in Pre-State Israel: Life History, Politics and Culture, ed. Ruth Kark, Margalit Shilo, and Galit Hazan-Rokem (Waltham, MA: Brandeis University Press, 2008), 111–121; E. Ramon, "Equality and Ambivalence: The Political Repercussions of A. D. Gordon's Maternal Ethics," Nashim: A Journal of Women's Studies and Judaism 3 (Spring-Summer 5760/2000): 74–105.

حول التعددية والعلمانية، انظر:

E. Ramon, "Jewish Secularism as a Challenge for Modern Jewish Theologians: The Case of David Hartman's Thought," in JISMOR: Journal of the Interdisciplinary Study of Monotheistic Religions 3 (2007): 18–40.[ED: .

لم أضف الرابط الإلكتروني لحدوث خطأ عند تحميل الصفحة. وهناك مصادر كافية للمعلومات دون الحاجة إلى الرابط. وتعتبر الدراسة التالية عملاً مهمًا حول مصادر العلمانية اليهودية ومظاهرها:

E. Luz, Parallels Meet: Religion and Nationalism in the Early Zionist Movement (1882–1904), trans. Len J. Schramm (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1988).

الأغلبية وأحيانًا دين أغلبية يحترم أصحاب المعتقدات الأخرى الذين يعيشون تحت سيادة كيان يهودي سياسي، كما هو الحال اليوم. يتمتع كل المسلمين في ظل السيادة الإسرائيلية بكامل الاستقلالية والحرية الدينية والتي لا يقيدها إلا الاعتبارات الأمنية. يتعلم الطلبة اليهود الإسرائيليون اللغة العربية شرطًا للقبول في كل المدارس الحكومية الإسرائيلية، كما يتعلمون عن نشأة الإسلام وإسهاماته في الشرق الأوسط في مجالَي العلوم والفلسفة خلال العصور الوسطى. وعلى الرغم من اعتقادي بوجوب تعميق معرفتنا بالثقافة الإسلامية وباللغة العربية، لا يقارن نظامنا التعليمي بالتجاهل وعداء السامية الذي يظهر في التعليم في البلاد العربية والسلطة الفلسطينية. ويختلف ذلك تمامًا عن وضع اليهود الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامي في وقتنا هذا. (في الواقع، يعيش قليل من اليهود في البلاد الإسلامية الآن حيث هرب كل اليهود). في بعض البلاد العربية – حتى تلك التي تتمتع بعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل مثل الأردن ومصر– لا يستطيع اليهود بناء معابد أو مدارس بها.

عدت للالتزام بالدين اليهودي لأنني أدركت أن الالتزام باليهودية هو السبيل الوحيد لإعادة تأسيس هويتنا اليهودية واستعادة تضامننا الإنساني (الذي تحطم بواسطة القتل الجماعي في القرن العشرين) وبناء علاقات مع البلدان الأخرى. وأخشى أن تلك الإيديولوجيات التي تُعَظِّم "العلم" (والتي تعكس ثقة بالنفس وغرورًا لا يحترم التقاليد والحضارة) يمكن أن تؤدي مرة أخرى – لا قدر الله – إلى مجازر جماعية.

فلقد تعلمنا من الهولوكوست، ومجازر الشيوعيين والحروب الوحشية والثورات التي خضبت القرن العشرين بالدماء أن البشرية يجب أن تتوقف. ولكن ذكرياتنا لا تزال تراودنا: كيف يمكن للجنس البشري تجاهُل الكثير من جوانب الحضارة الإنسانية في تلك الفترة القصيرة؟ وقد عبَّر المفكر اليهودي الأمريكي إبراهام جوشوا هيتشل عن هذه المخاوف قائلاً "نحن نعيش في زمن حيث لم يعد الانهيار المتزايد في الحدود الأخلاقية يصدم غالبيتنا. ويملأ فساد الضمير الأجواء برائحة نفاذة. وأصبح الفرق بين الخير والشر، والمفترض تمايزهما كالنهار والليل،

ضبابيًا غير واضح، ولكن هذا الضباب من صنع الإنسان. والله ليس بصامت. ولكنهم أجبروه على الصمت[1]"

لدي ثقة كبيرة في تراثنا الديني (والذي تم تفسيره عبر الوسائل الفكرية التي تركها لنا حكماؤنا) ويحمل الشعور بالمسئولية تجاه استمرارية البشرية، تلك الاستمرارية التي تواجهها التحديات اليوم للمرة الأولى في تاريخ البشرية. يمكن لأدياننا المختلفة (ما دامت تلتزم بالقانون الطبيعي السائد وتحترم الاختلافات بينها) بحسب اعتقادي أن تنقذنا من المصير الرهيب الذي تفرضه علينا الأنماط العصرية من الوثنية.

خيام يعقوب: نماذج من التعددية اليهودية

عندما أعود بذاكرتي لطفولتي، أدرك أن أجدادي، لا شعوريًا، اتبعوا تقليدًا قديمًا يُعرف بالمنزل المفتوح وخلقوا جوًّا من الضيافة يدعو لمناقشة مختلف الآراء. واليوم، أحاول جاهدة محاكاة هذا الجو ونقله إلى أبنائي. تعكس هذه القصة التلمودية بيئة مائدة السبت الخاصة بنا "بينما كان يسير الحاخام ياناي Yannai رأى رجلًا متأنقًا كطالب علم فقال له الحاخام "هل تحب أن تكون ضيفنا؟" فوافق الرجل. فأخذه الحاخام ياناي إلى منزله وسأله "ما الفضيلة التي تؤهلك للانضمام إلى مائدتي؟" أجاب الرجل "لم أسمع كلمة سيئة قط ورددتها إلى قائلها كما لم أرَ رجلين يتشاجران دون أن أصلح بينهما"[2].

في طفولتي، كنت في أثناء جلوسي إلى مائدة السبت أرى كيف يجد جداي ووالداي شيئًا من الحقيقة تقريبًا في كل منهج فكري. ومن ثم، كانوا يرحبون بالنقاش مع الجميع ويتحمسون للتعلُّم من أي شخص حتى من الأشخاص الذين يختلفون معهم بشدة. هناك حكمة مهمة في المشناه (الكتاب المقدس

---

(1) A. J. Heschel, Man Is Not Alone: A Philosophy of Religion (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1951), 152.

(2) Leviticus Rabba, Tzav quoted in C. G. Montefiore and H. Loewe, A Rabbinic Anthology (New York: Schocken Books, 1974), 277–278.

الذي يعد أساسًا لكل فكرنا الحاخامي) "من الحكيم؟ هو من يتعلم من الجميع، كما هو مكتوب "أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مُعَلِّمِيَّ تَعَقَّلْتُ" (مزمور 119 : 99، مشناه 4: 1).

لضمان تنوع الآراء، يجب السماح لمجموعات مختلفة تمثل مناهج فكرية متنوعة أن تؤسس وجهات نظرها الخاصة. عندما يُسمح لمنازل روحانية مختلفة أن تضع حدودًا لثقافتها المختلفة، من أجل الحفاظ على آرائها، وعندما تخلق المنازل الروحانية المختلفة حوارات مع بعضها، يتحقق اتفاق اجتماعي أفضل ويظهر توضيح أدق للمشكلات المعقدة التي تحدث.

هكذا حافظ الشعب اليهودي على تنوعه المعرفي والفكري عبر الأجيال. وتعتبر ثوابت الشريعة اليهودية هي القاسم المشترك الذي يربطنا ببعضنا البعض- شريعة العائلة، وقداسة اللغة العبرية، والالتزام الدقيق بتقليد يوم السبت، وعلاقتنا القوية بأرض إسرائيل وإحساسنا بوحدة الشعب. وقد لخص إبراهام جوشوا هيتشل إحساسنا بالوحدة كالآتي "لا يقتصر الوجود اليهودي على الالتزام بشعائر وتعاليم معينة، ولكنه يعتمد في المقام الأول على الحياة في ظل النظام الروحي للشعب اليهودي، والحياة مع اليهود في الماضي والحاضر"[1].

حينما لا نحترم الحاجة لتقديم تنازلات لبعضنا البعض، وضرورة التعلُّم من الآخرين، نتخلى عن دورنا كجزء من الالتزام الروحاني للشعب اليهودي، ومن ثم، نتخلى عن إسهامنا نحو الإنسانية. ويعكس ذلك حقيقة الصديقين المقربين لجدي من ناحية والدتي (ونعتبرهم، نحن الأبناء والأحفاد، ضمن أفراد أسرتنا)؛ حيث كان أحدهما يهوديًّا شيوعيًّا والآخر يهوديًّا يمينيًّا. وقد ساعد جدي في إنقاذ حياة كليهما (في ظروف مختلفة وبوسائل متنوعة)، كما كان يستضيفهما بانتظام. ولكن لم يمنعه ذلك من أن يخبرهما دون خجل أنهما مخطئان في بعض الأمور. وقد كان النقاش مثمرًا على كل الأوجه، لأنه قد غَيَّرَ بالفعل كل شخص بما فيهم جدي رأيه على مر السنين نتيجة للتعلُّم من بعضهم بعضًا واستمرار النقاشات.

---

(1) A. J. Heschel, God in Search of Man: A Philosophy of Judaism (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1955), 423.

لا تتعلق هذه التجربة بنموذج كرم الضيافة فحسب، ولكنها تنطلق أيضًا من الطراز الفكري للمدارس الأكاديمية المختلفة في اليهودية القديمة. في أرض إسرائيل، وصل الذين كرسوا أنفسهم لدراسة التوراة إلى نتائج مختلفة للعديد من القضايا. وأشير هنا إلى مدرستين فكريتين، وهما: بيت شماي Shammai وبيت هيلل Hillel (شماي وهيلل كانا حاخامين عاشا في إسرائيل في بدايات القرن الأول الميلادي وكونا بشكل تلقائي أماكن لتعلُّم وتفسير التوراة). وأسس أتباعهما مدارس أكاديمية أُديرت بشكل مختلف وناقشت أمورًا قانونية متنوعة مع اتفاقهما على أصول التفسير والحدود اليهودية.[1] وقد وثِقت خلافاتهما ونُظر إليها بشكل إيجابي من وجهة نظر الدين اليهودي، والذي يرى الخلافات الخالية من الصراعات النابعة من غريزة الأنا تعبيرًا عن إرادة الله.

"سينتهي أي اختلاف في الآراء (machloket أو صراع في التوراة) لأجل الله بقيمة باقية، ولكن لن يدوم أي اختلاف في الآراء (machloket أو صراع في التوراة) لغير الله. وما هو نموذج الاختلاف لأجل الله؟ النقاش بين هيلل وشَماي (مشناه، (فصل الآباء)، 5 : 19).

يعلمنا النموذج الذي قدمه تلاميذ المدارس الأكاديمية القديمة لبيت هيلل وبيت شَماي أن الرجال والنساء اليهود من المذهبين المختلفين تزوجوا من عائلات بعضهم البعض، حتى في خضم الخلافات الحادة بين المعسكرين الديني والسياسي "وعلى الرغم من أن بعضهم منع أشياء أجازها البعض الآخر، وصرح بعضهم أن هذا حلال ورأى البعض أنه حرام، لم يُمنع بيت شماي من تزوج النساء من بيت هيلل، كما لم يُمنع رجال هيلل من الزواج بنساء بيت شماي" (التلمود البابلي (فصل أخو الزوج) 1: 4).

ومن المهم ملاحظة أنه بعد عدة سنوات من الخلاف المرير بين البيتين (التلمود اليروشلمي (فصل السبت) 1: 4)، أُقر بشكل نهائي اتِّباع بيت هيلل

---

(1) حول مدرستي بيت شماي وبيت هيلل، انظر Marcus Jastrow and S. Mendelsohn, "Bet Hillel and Bet Shammai," على الرابط التالي
http://www.jewishencyclopedia.com/articles/3190-bet-hillel-and-bet-shammai.

مع صياغة بعض الاستثناءات لتلائم مجلس شماي. علاوة على ذلك، تقرر أن يتم اتِّباع بيت شماي في "العالم القادم" في زمن المسيح، ومن ثم تستشعر الأجيال القادمة أن بيت شماي يتساوى مع بيت هيلل في الحكمة والقدسية. كان منطق طلبة شماي دقيقًا من وجهة النظر الإلهية، ولكن يجب علينا، نحن البشر، اتِّباع مجموعة واحدة من القوانين. ولهذا السبب في أغلب الأحيان، نتبع طلاب بيت هيلل في الوقت نفسه الذي نتعلم فيه من تلاميذ شماي ولا نتجاهل مدرستهم في التفكير (التلمود البابلي إيروبين 13: ب)[1].

يمكن تطبيق هذا النموذج اليوم على الدولة اليهودية؛ حيث لا تعني التعددية إجازة جميع الأشياء، كما لا تعني أن أي مجتمع إيديولوجي ليس له الحق في تحديد حدوده وقوانينه والدفاع عنها. ولكن يجب التأكيد على أن الحدود هي الوعاء الذي يُعَبِّر من خلاله الشعب اليهودي بمختلف طوائفه عن نفسه. تعتبر من بين المهام الرئيسية للعلماء/الحاخامات، والمعلمين، والقادة تعريف البيوت الروحانية اليهودية. داخل بيوتنا الروحانية – سواء كانت عائلة، أو جماعة، أو حركة إيديولوجية – يمكن تعميق معتقداتنا والاحتفاء بها. وفي الوقت نفسه، يجب الحفاظ على حس الشعب اليهودي عبر حوار مباشر أو غير مباشر بين المجموعات اليهودية المختلفة.

نتيجة لهيمنة الصهيونية من منتصف القرن العشرين إلى آخره، من المفهوم أن الخطوة الأولى نحو تكوين هوية الشخص اليهودية هي التضامن مع المجتمع اليهودي. وتكتسب المنازل الروحانية أهميتها من التزامنا بالإطار الروحاني ألا وهو الشعب اليهودي. يضعف هذا الإطار مفهوم " الهرطقة" في اليهودية كما جاء في التلمود "يظل اليهودي (الإسرائيلي) يهوديًا حتى لو ارتكب خطيئة" (سنهدرين 44 أ). يعني ذلك أن المجتمع اليهودي (أو الشعب) سيفعل كل ما في استطاعته لاحتواء كل من لهم أصل يهودي، حتى ولو انحرفوا عن الشريعة اليهودية، طالما التزموا بحدود الشعب اليهودي والشريعة اليهودية.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

في جيلنا، رأينا مدى الجدية التي أُخذت بها التحديات التي توجهها مدرسة فكرية نحو الأخرى، ومن ثم يحدث التغيير. على سبيل المثال، اعتنق اليهود الأرثوذكس نظرية المساواة بين الجنسين من الناحية الدينية، بينما بعدت حركة الإصلاح عن العداء للصهيونية. ولكن لا تزال بعض المنازعات قائمة، بما فيها النزاعات المتعلقة باللغة العبرية، والشريعة اليهودية، وتقليد يوم السبت، والصهيونية، وزواج الأقارب.

تتعلق إحدى النقاشات الصاخبة هذه الأيام والتي تهم العالم اليهودي بقضايا النوع. هل يجب علينا الاستمرار في تعريف الزواج بمفهومه التقليدي كارتباط بين رجل وامرأة؟ هل يوجد في نصوصنا ما يسمح بتقليد النساء مناصب كهنوتية؟ يميل اليهود على الجانب الليبرالي من النقاش إلى اتخاذ مواقف نحو الإيديولوجيات النسوية ويعتقدون أنه يلزم على كل اليهود تطبيقها فورًا. وكرد فعل، يميل اليهود المتدينون على الجانب الآخر إلى معارضة الأفكار النسوية سواء كانت ضمن حدود الشريعة اليهودية أو خارجها.

بسبب هذا الجمود الليبرالي وفي ظل غياب التعقيد والوضوح، قررت التخلّي عن وصفي بالليبرالية وأعرف نفسي كيهودية محافظة لا أنتمي لأي طائفة. بينما لا أزال أرى أن تمكين النساء (والرجال) وعلاقتهم من أهم التحديات الروحانية والأخلاقية اليوم. فلم أعد أرى حتمية تجنب اليهودية التقليدية. هناك الكثير من القوة الروحانية والإلهام للنساء ضمن الإطار التقليدي للحياة الأسرية بصفتهن زوجات وأمهات. ولكن على النساء أيضًا المساهمة في فهم التوراة عبر التعلُّم، والتعليم، والمشاركة بنشاط في الجماعات الدينية. وفي الوقت نفسه، يمكن أن تتعرض المرأة للإساءة داخل الدوائر الليبرالية والأكاديمية والتقدمية نتيجة لاختلاط الجنسين، وقلة الاحترام، واستغلال المرأة في المنزل وأماكن العمل بما فيها تجاهل الاحتياجات الخاصة للأمهات ووجهات نظرهن. يميل القادة اليهود هذه الأيام على جانبي النقاش إلى رؤية العيوب فقط في الجانب الآخر. لا يعترف إلا القليل جدًا بأهمية جمع اليهود معًا والحاجة إلى تقديم تنازلات لبعضهم البعض استنادًا إلى تراثهم التاريخي. ولكن في إسرائيل اليوم تسود لدى عامة الشعب والقادة الذين يمثلونهم فكرة الاتحاد. وأنا أرى أن جميع الطوائف

أساءت فهم التوراة، ولكنهم ساهموا في تقدم الشعب اليهودي وقدموا إسهامات للإنسانية ولكن بطرق مختلفة، ولكن أهم شيء هو أن نتعلم من بعضنا بعضًا.

كيف يمكننا حل هذه التوترات باستخدام النماذج التي ورثناها من الفكر الإنجيلي وفكر الحاخامات؟ لأن مختلف اليهود لديهم وجهات نظر أخلاقية وتفسيرية متنوعة بخصوص هذه الموضوعات؛ ومن ثم تعد العديد من الخيام التي تتقاسم "المعسكر" اليهودي نفسه صورة أفضل من "خيمة واحدة كبيرة"، وهو أيضًا الطريق الروحاني الذي يربط بين الشعب اليهودي في الماضي والحاضر. عندما نفكر في الشعب اليهودي ككتلة من مختلف المدارس الفكرية والقبائل التي تختلف وجهات نظرها بشأن التوراة، ولكنها ملتزمة نحو بعضها البعض ونحو الشعب اليهودي، يمكننا رؤية الطريق نحو مستقبل شعبنا كشعب واحد متمركز في إسرائيل ومستمر في التعلم من الكتاب المقدس العبري وتفاسير الحاخامات. وتشير فكرة المعسكر المليء "بخيام روحانية صغيرة" إلى أنه يمكننا الاستمرار في عدم التوافق وتقديم التنازلات لبعضنا البعض، ومن ثم الحفاظ على حدود الشعب اليهودي من أجل الحفاظ على معسكرنا المشترك. ويُسْتَوْحَى مجاز "معسكر من خيام عديدة" من الآية التي نتلوها في صلاة الصبح عند دخول المعبد.

مَا أَحْسَنَ خِيَامَكَ يَا يعْقُوبُ، مَسَاكِنَكَ يَا إِسْرَائِيلُ! (العدد 24: 5).

دولة إسرائيل اليهودية ومسلمو الشرق الأوسط

وختامًا، أود القول إن النماذج الفلسفية-السياسية للتعددية والتضامن الإنساني نفسها التي تنطبق على اليهودية يمكن أن تُطبق أيضًا على علاقتنا مع جيراننا – المسلمين والمسيحيين– العرب الذين يعيشون داخل دولة إسرائيل (وخارجها)، وبعضهم عاش في أرض إسرائيل قبل عودتنا[1]. كما أود أن أعيد ما قلته قبل عقدين من الزمن وهو ما صاغه ببلاغة كل رؤساء وزراء إسرائيل

---

(1) E. Ramon, "The Ethics of Ruling a Jewish State with a Large Non-Jewish Minority," in Jewish Ethics: A Reader, ed. Elliot Dorff and Louis Newman (Oxford: Oxford University Press, 1995), 441–453.

منذ بداية الصهيونية: نحن اليهود لسنا محتلين، ولكننا طُردنا من وطننا وعدنا إليه. وعلى الرغم من ذلك، فإن إسرائيل كانت دائمًا على استعداد لتقديم تضحيات مؤلمة وتقسيم الأرض إلى دولتين، إلى جانب الانسحاب من مناطق ومستوطنات ارتبطنا بها تاريخيًا– مثل مدينة الخليل والمنطقة القريبة من شكيم (نابلس) (سفر التكوين 23، 37 : 12-13)[1]. في مدينة الخليل كان هناك وجود يهودي مستمر لمئات السنين. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكننا المخاطرة بحياتنا والانسحاب من مناطق مهمة لأمننا وسلامتنا. ولا يمكن أن نقيم سلامًا مع من يرفضون الاعتراف بتاريخنا كشعب في أرضنا وحقنا في تقرير المصير، وإسهاماتنا الفريدة في هذه المنطقة وفي العالم[2].

هذا النزاع معقد للغاية؛ فلقد أعلنت الحكومة الإسرائيلية مرارًا وتكرارًا رغبتها في الانسحاب من بعض الأقاليم لتسمح للدولة الفلسطينية غير المسلحة بالبقاء فيها، طالما ستعترف فلسطين بشرعية الدولة اليهودية وتاريخ اليهود في أراضيهم. وحتى الآن، رفضت القيادة الفلسطينية ذلك. وعلى الرغم من أن الوضع الحالي ليس مثاليًا وهناك الكثير من المخاوف والقلق إزاء اتفاقية كامب ديفيد (حتى في مصر بعد الثورة الأخيرة)، يعتبر الوضع الحالي في إسرائيل أفضل بكثير من فرض اتفاقية علينا من قبل قوى خارجية.

---

(1) للمزيد من المعلومات حول موقف إسرائيل الرسمي والذي يشاركها فيه معظم اليهود الإسرائيليين واليهود من كل أنحاء العالم، انظر

www.nrg.co.il/online/1/ART2/243/844.html?hp=1&cat=404&ap=1&from_art =2244812&to_art=2243844 (in Hebrew) and the May 24, 2011, speech by Prime Minister Benjamin Netanyahu to a joint meeting of the U.S. Congress, reproduced at www.facebook.com/notes/the-prime-minister-of-israel/speech-by-prime-minister-benjamin-netanyahu-to-a-joint-meeting-of-the-united-sta/148067348598197.

(2) B. D. Yemini, "Israeli Pride Parade" May 17, 2008

على الرابط التالي http://www.mideasttruth.com/forum/viewtopic.php?p=19926.

في الوقت الذي ننتظر فيه التغيير (وقد نحتاج إلى الكثير من الصبر)، أود أن أشير إلى أن الحياة اليومية لليهود والعرب في أرض إسرائيل تشهد القليل من الاشتباكات والكثير من التعاون. يبدو لي أننا نفضل العيش في مجموعات منفصلة. فباعتباري أمًا ومدرسة يهودية إسرائيلية، لا أكاد أحصر التعاملات اليومية الإيجابية، لأنها تبدو طبيعية للغاية. سواء من خلال توظيف جليسة أطفال عربية (تعمل الآن محامية)، أو الاتصال بعمها والذي يعتبر جراحًا (عربيًّا) معروفًا لاستشارته بشأن مشكلة طبية لابني، أو رؤية جارتي تشتري الخضراوات من امرأة عربية تأتي لمنزلنا بانتظام، فالتعايش بين اليهود والعرب في إسرائيل أمر طبيعي على الرغم من اختلافنا الشديد فيما يتعلق بالإيديولوجيات. لا يوثق الاتجاه السائد لوسائل الإعلام، التي تتغذى على النزاعات أبدًا، هذه المواقف الإيجابية.

وأخيرًا، أود إضافة نقطة أخرى لاهوتية؛ أرى نزاعنا المحلي باعتباره إحدى صور النزاع بين الإسلام والغرب؛ حيث عَلَّقَ الكثيرون على أن النزاع العربي الإسرائيلي ما هو إلا جانب من الصراع الأكبر بين الإسلام والحضارة الغربية العلمانية. ويتعلق هذا الجدل إلى حد كبير بقضايا المساواة بين الجنسين. يلقي الكثير من القادة الغربين اللوم على الثقافة الإسلامية بسبب التمييز ضد المرأة وطالبوا الدول الإسلامية بتطبيق المساواة بين الرجال والنساء في بلادهم. ولكن كثير من المسلمين اعترضوا وتمسكوا بالحفاظ على نظامهم الأسري التقليدي؛ حيث تحفظهم انتماءاتهم القبلية وتحمي هويتهم كما تفعل التقاليد الدينية بالنسبة لليهود والمسيحيين. ولكن هل سيسمح لهم الغرب؟ أشك في ذلك. في الوقت الذي نلوم فيه المتشددين المسلمين لعدم تسامحهم، نتجاهل تفكيرنا الدوجمائي كغربيين. وكما أشار مندلسون Mendelssohn، لقد كان هناك عنصر من الدكتاتورية المتعجرفة في ثقافتنا العلمانية المعاصرة منذ نشأتها في القرن الثامن عشر؛ حيث يرفض الكثير من المسلمين وجودنا في إسرائيل ليس فقط لكوننا يهودًا ولكن أيضًا لأننا نُجَسِّد ونُمَثِّل الغرب وثقافته العلمانية والتي يراها العرب ضارة لهم. مما لا شك فيه، هناك سلوكيات تعتبرها كل الثقافات والأديان (في الشرق والغرب) غير متحضرة: كالاغتصاب، والتحرش الجنسي، والعنف المنزلي، والاستغلال، وحرمان المرأة من التعليم، وغير ذلك. ولكن هل أنهي

الغرب بحثه عن الذات فيما يتعلق بالعلاقة بين الثقافة والمرأة، والاغتراب المتنامي بين الرجال والنساء، ومكاسب الدعوى للمساواة بين الجنسين وخسائرها؟ باعتباري امرأة نشأت في جو الثقافة الغربية العلمانية المشبعة بالثورة الجنسية في فترة الستينيات ودعاوى تمكين المرأة من خلال الحركة النسوية، أتساءل هل حقق النموذج الغربي أهدافه التي حددها من خلال الحركة النسوية؟ بالطبع استفادت المرأة من فتح الأبواب أمامها للتعليم والتدريب في كل المجالات، ولكن الإباحية الجنسية قد دمرت النظام التقليدي للزواج.

يعتبر تخفيف الجزء المتعلق بقضايا الجنسين (الجندر) من بين الوسائل التي يمكن أن تحل نزاعنا. هل نحن على استعداد للاستماع "لأعدائنا" واضعين في اعتبارنا ما يقولونه عن العلاقات بين الرجال والنساء؟ هل نحن مستعدون لرؤية "مقدار ضئيل من الصدق" في معسكر أعدائنا الحاليين (والذين نتمنى أن يصبحوا يومًا ما أصدقاءنا وحلفاءنا)؟ يعتبر هذا العصر هو الوقت المثالي الذي يمكن أن تساهم فيه الحميمية والصداقة والشراكة بين الرجال والنساء في تحقيق السلام في العالم.

على الرغم من الإحباطات والاختلافات الإيديولوجية، أرى أن هناك بالفعل الكثير من التعايش المشترك، والأخوة، والإيمان، والبهجة في الحياة اليومية بين اليهود وبين اليهود والعرب في إسرائيل أكثر بكثير مما نريد الاعتراف به. وقد يكون من بين سبل تحسين الوضع التركيز على هذه البهجة وزيادتها حتى يأتي اليوم الذي تُعَظِّم فيه القدس الرب وتبارك أبناءها (مزمور 147: 12) حينئذ يسبح كل من على الأرض للرب (مزمور 148: 7)، "الشباب والفتيات والشيوخ والشباب على حدٍ سواء" (مزمور 148: 12).

الفصل الرابع
إعادة النظر في الثورة المقدسة

ليا شاكديل

ترجمة: سلمى العشماوي.

في عام 1988، أصبحت ليا شاكديل Leah Shakdiel، الناشطة السياسية الإسرائيلية في مجال السلام، أول عضوة في مجلس الأديان بعد معركة ناجحة انتهت بحكم تاريخي من المحكمة العليا. من خلال عملها في مجال التعليم ونشاطها السياسي بالتعاون مع المنظمات غير الحكومية الإسرائيلية، مثل: منظمة محسوم ووتش Machsom Watch، وميركام أزوري Mirkam Azori، وداروم فوربيس Darom4Peace، وحاخاميون من أجل حقوق الإنسان Rabbis for Human Rights، تسعى شاكديل لإعلاء قيم السلام، والمساواة، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية للجيل القادم من الإسرائيليين.

مقدمة: نشأتي

عندما توفي والدي، كتبت شقيقتي الكبرى ما يلي على شاهد قبره:

الذكرى المباركة للحاخام موسى تسيفي Moshe-Tzvi

ابن الحاخام أهارون يوسف Aharon-Yossef

شاكديل (ماندلبيوم)

عالم توراة وقلب نقي

كَرَّسَ حياته بحب أبدي

لتنشئة جيل مؤمن

خادم مخلص للشعب

ثابر في مساعدة الناس بكل تواضع

في الوقت الذي قضاه في المنفى ضَمَّ الكثيرين للحركة الصهيونية

وأمضى كافة سنين حياته في التعليم الديني القومي

وُلد عام 1905 ببولندا

جاء إلى الأرض مع الأوائل عام 1934

توفي في القدس عام 1957

فلتُكلل روحه بإكليل الحياة.

كنت في الخامسة من عمري ولم أحضر الجنازة. ولكني أحفظ هذه الكلمات، فلقد أصبحت نبراسًا لي "معلم توراة وقلب نقي ... ضم الكثيرين إلى الحركة الصهيونية ... أمضى سنوات طويلة في التعليم الديني القومي".

عندما توفيت أمي بعد ذلك بعدة سنوات، رقدت بجانبه وكُتب أيضًا على شاهد قبرها أنها أتت من بولندا مع جيل الأوائل في 1934. فقد تقابلا في بولندا وتزوجا عقب مجيئهما إلى هنا وأدارا ظهريهما لعائلتيهما حيث لم توافقا على خيارهما. فمن قبل هربت أمي من منزلها إلى كراكوف لتنضم إلى مستوطنة زراعية "كيبوتس kibbutz" لأن والديها لم يصدقا إمكانية أن يجمع الشخص بين الصهيونية والورع الديني في نفس الوقت. وأثبتت أمي خطأهما. ولكن عندما أدركا خطأهما كان الوقت قد تأخر. فقد تم قتل جدودي الأربعة وتقريبًا كافة أفراد عائلتي في أوروبا على يد النازيين. وأصبح والداي الداعِمَين الأساسيين للباقين على قيد الحياة ممن انتهى بهم المطاف في إسرائيل[1]. ولقد أضفنا لوحة تذكارية على شاهد قبر أمي لجدودي الأربعة (آل ماندلبيوم Mandelboyms، وآل هوتشاسر Hochhausers، وآل كورال Koralls، وآل ساتلر Sattlers) وسلالتهم الذين أُغتيلوا على يد النازيين وليس لهم قبور.

(1) سُميت على اسم جدتي لأمي، وسميت اثنين من أبنائي على اسم أفراد قتلوا من عائلتي.

في 1937، غيَّر والدي اسمه من اللغة البيدية[1] [لغة الإيدش]، ماندلبيوم، للترجمة العبرية له، شاكديل، عند تسلمه لجنسيته لدى الانتداب البريطاني في فلسطين، والذي افتخر بأنها "موطننا الجديد". لو لم يغير اسمه في هذا الوقت، غالبًا لم يكن ليتخلى عن اسم ماندلبيوم بعد الهولوكوست. عل كل حال فاسم ماندلبيوم اسم جميل يعني "شجرة اللوز"، والذي يذكرنا بأرض إسرائيل التي اشتقنا إليها[2]. "أدعو الله أن يحقق لي ولشعبنا الخير، آمين"، كما كتب والدي. لقد كان جزءًا من جيل اليهود الذي هاجر إلى فلسطين، لأنهم آمنوا بأنه لم يعد لهم مستقبل في أوروبا، وعاشوا ليروا نبوءتهم تتحقق في مفارقة تاريخية رهيبة[3].

كيف تولد الانتصارات من رحم الضحية؟

لقد اخترت تعريف نفسي بهذه الطريقة لأنها تلقي الضوء على المجتمع الإسرائيلي اليوم. لجيلين أو ثلاثة أجيال لا نزال ضحايا لعقدة الذنب باعتبارنا الناجين من الهولوكوست. وأنا استخدم المصطلح "جيل" هنا كما استحدثه عالم الاجتماع كارل مانهايم Karl Manheim، ويصف من خلاله مجموعة من البشر تنعكس أفعالهم، وآراؤهم السياسية، ومنتجاتهم، وخطابهم بشكل واضح عبر تجربة مريعة يتقاسمونها، تجربة ساحقة قادرة على تجاوز فروقاتهم وخياراتهم. في

---

(1) تعتبر لغة الإيدش واحدة من عديد اللغات الجرمانية التي تُشكِّل فرعًا من عائلة اللغات الهندو-أوروبية. وهي لغة اليهود الأشكناز، ويهود أوروبا الشرقية والوسطى وذرياتهم. مكتوبة بالأبجدية العبرية، وأصبحت واحدة من أكثر اللغات انتشارًا بالعالم، وتظهر هذه اللغة في أغلب الدول التي بها سكان من اليهود بحلول القرن التاسع عشر. وبجانب اللغتين العبرية والآرامية، تعتبر لغة الإيدش واحدة من اللغات الأدبية الأساسية الثلاث للتاريخ اليهودي. (المحرر).

(2) حفظ بعض أعضاء عائلة "ماندلبيوم" أسطورة ترجع إلى القرن الثامن عشر عن رشوة أحد الأسلاف لموظفي هابسبورج ليحتفظ بهذا الاسم. يعني شاكديل بالعبرية "لوز" بالإضافة إلى كلمة "إله" بالعبرية، "el".

(3) جذر الكلمة "ش ك د" والتي تعني التفاني في العمل. تسمى شجرة اللوز "شكد" لأنها أول شجرة فاكهة تزهر في الربيع في هذه الأرض. كان والدي يرى أن الصهيونية هي إعادة إحياء لشجرة اللوز على عصا أهارون المزهرة (عدد 17: 23)، ولكن الهولوكوست كان بمثابة غصن مكسور أراه الله النبي إرميا (1: 12) عندما قال له: «أَحْسَنْتَ الرُّؤْيَةَ، لأَنِّي أَنَا سَاهِرٌ عَلَى كَلِمَتِي لأُجْرِيَهَا» لأدمر إسرائيل بسبب أخطائهم.

مانهايم بألمانيا في عشرينات القرن العشرين، كانت التجربة التأسيسية المريعة هي الحرب العظمى (التي عُرفت فيما بعد بالحرب العالمية الأولى). بالنسبة لإسرائيل كانت تلك التجربة — ولا تزال– الهولوكوست.

اليوم لا يزال أغلب يهود إسرائيل وكذلك أغلب اليهود خارج إسرائيل يعانون من مرحلة ما بعد الصدمة، بغض النظر عن الفاصل الزمني بين الهولوكوست وولادتهم، والمكان الذي وُلِدَ فيه أجدادهم خلال الهولوكوست، وجودة حياتهم منذ ذلك الحين، وبغض النظر عن معاناة الناس حولهم ولأي مدى–وأقول والألم يعتصرني –لا يهم إذا كان هؤلاء المتألمون ضحايا لأخطائنا. نحمل نحن اليهود سمة "الضحايا الأساسيين" ومن ثم، نقول للعالم "لا تعبث معنا، ولا تحاول منافستنا في معاناتنا." وبهذا المعنى، من المذهل أن نجد أنه حتى الإسرائيليين اليهود القادمين من ثقافات غير أوروبية (تقريبًا نصف إسرائيل) جسدوا التصور المسيحي عن الشبح اليهودي التائه المشرد والملعون بالعذاب الأبدي باعتباره جانبًا أساسيًا من الهوية اليهودية في هذا "الجيل".

أنا معلمة. وكلما تسنت لي الفرصة، أعرض لطلابي فيلم إيال سيفان (Eyal Sivan) الوثائقي، إنتاج 1991 "يذكور: عبيد الذاكرة" (Yizkor: Slaves of Memory) عن التركيز الشامل لنظام التعليم الحكومي في إسرائيل طوال فترة الربيع على ثلاثة أيام تاريخية، وهي عطلة عيد الفصح والذي يحتفل بذكرى الخروج من مصر، وذكرى الهولوكوست، وذكرى الجنود الذين سقطوا مع عيد الاستقلال. يعرض الفيلم كيف يُعتبر النظام التعليمي من الحضانة حتى الصف الثاني عشر خلال ذلك الشهر نوعًا من المعالجة التعليمية المفعمة بالشعائر العاطفية والدروس التي تتوافق تمامًا مع الاحتفالات العامة " للدين المدني"[1] لدولة إسرائيل.

(1) قَدَّمَ هذا المفهوم علماء الاجتماع الإسرائيليون في 1983 شارلز ليبمان Charles Liebman وإليعازر دون–يهي Eliezer Don-Yihye، تبعًا لأعمال العالم الأمريكي روبرت ن. بللا Robert N. Bellah (1967) "الدين المدني في أمريكا – Civil Religion in America" الذي يحلل السياسات الأمريكية والمجتمع من خلال هذه الأداة.

مثل العديد من المفكرين الإسرائيليين اليوم، تبنيت استخدام هذه الأداة التحليلية الجديدة "الدين المدني" لأنها تبدو وسيلة جيدة لتوضيح هذا التناقض الواضح؛ حيث يُعرف الغالبية العظمى من الإسرائيليين أنفسهم بأنهم "غير متدينين"، ولكنهم يظهرون إخلاصًا للسمة اليهودية للحياة العامة في إسرائيل. يعتزون باستقلالهم عن المؤسسة الدينية، وعادة ما يغضبون عندما تحصل هذه المؤسسة على مكاسب سياسية، ولكنهم لا يشككون مطلقًا في مركزية المؤسسة الدينية لبقاء الهوية اليهودية في كل مكان، بما في ذلك إسرائيل. كما أنهم يعتمدون على تلك المؤسسة الدينية لحماية يهوديتهم بينما يعيشون حياتهم كما يطيب لهم! وأعتقد أن ذلك ينطبق على المجتمعات (بما فيها المجتمعات الإسلامية) التي لا تفصل مفهوميًا بين "الدولة والكنيسة" حيث يختار الكثير أن يكونوا "غير متدينين" وينظرون لأنفسهم كآثمين دينيًا، وهي حيلة ذهنية غريبة تولِّد مشاعر سلبية، ويصفون أنفسهم بالعبارات التالية: "لا أستطيع تعريف نفسي بإيجابية، فيمكنني أن أقول إنني يهودي لا يلتزم بتقليد يوم السبت، ولا بالأغذية المطابقة للشريعة اليهودية (كوشير أو كشروت)". "أعرف أني مذنب. أمارس الطقوس اليهودية في بعض الأوقات ولكني لا أستطيع الدفاع عن خياراتي". "بالطبع أنا أؤمن بالله، فلست ملحدًا، ولا يجرؤ أحد أن يقول إنني أقل يهودية من أحد".

يستعيض هؤلاء اليهود غير المتدينين عن عدم الارتياح وغموض هذه العقلية بإبراز الإخلاص للجماعة، دون إدراك أن هذا الإخلاص يبدو كما لو كان "دينًا" جديدًا، عبارة عن خليط من الطقوس القديمة التي أرسلها الله للإنسان مع احتفالات من صنع الإنسان تربط الأمة ببعضها. ومن ثم يتم السماح للجيش الإسرائيلي بإقامة احتفالات تدريبية في أماكن دينية مثل ساحة حائط البراق أو حائط المبكى، ومؤخرًا مقبرة الأسلاف في الخليل بالعلم الوطني بالخطين الزرقاوين المستمدين من شال الصلاة (تاليت)، والمسدس، والكتاب المقدس اليهودي الذي يقسم عليه الجنود يمين الولاء لدولة إسرائيل. أصبحت الأماكن، والمسدس، والكتاب المقدس دلالات على نوع جديد من القداسة، والمحظورات المقدسة للدين المدني لدولة إسرائيل. دفع الإجماع الكاسح لمركزية

تلك الأماكن وطقوس الولاء للجماعة بعضنا لتبني مصطلح "الدين المدني" لوصفه؛ حيث يعتبر أغلبية اليهود الإسرائيليين "غير متدينين" بالمعنى المفهوم لهذا المصطلح، ولكنهم في الواقع "متدينون" عقائديًا فيما يخص الدين المدني العرقي اليهودي، والذي يتشاركونه مع اليهود الإسرائيليين الممارسين للطقوس اليهودية ("المتدينين" بالمعنى المقبول) مثلي تمامًا.

أنا معلمة، وكلما تتاح لي الفرصة أعرض لطلابي فيلم يذكور (Yizkor) على ثلاثة أجزاء، كل جزء يعرض مشكلة لكل من تلك التواريخ الثلاثة. تفسر المشاهد الموثقة نفسها، ولكن سيفان يضيف تعليقًا متتابعًا، وهو مقابلته مع المتمرد ومهاجم المؤسسات التقليدية الراحل الأستاذ الدكتور يشاياهو ليبوفيتز (Yeshayahu Leibovitz) (1994-1901) والتي يعرضها طوال الفيلم في أجزاء صغيرة. لقد دفعت التلاميذ إلى قراءة نَصِّ المقابلة بدقة وأوضحت لهم أن قيمة مشاهدة الفيلم تكمن في مشاهدة وسماع الرجل الذي أعتبره أهم مفسر لحالة هذا الجيل اليهودي، نبينا البكاء إرميا.

كشف إرميا النتائج المترتبة على الآثام في زمنه – هدم هيكل أورشليم ونفي الشعب خارج الأرض- إذا لم يَتُبْ الشعب، وبالمثل كان ليبوفيتز أول من حذر علانية أن دولة إسرائيل، المعروفة عالميًا بأنها دولة الشعب اليهودي، قد أدانت نفسها بخطيئة الكبرياء بسبب سياساتها فيما بعد حرب 1967[1]، وإذا لم نتب فسيحكم علينا بسقوط مأساوي. تعتبر مقالات ليبوفيتز مختلفة عن أي شخص آخر في التيار اليساري الإسرائيلي لأن مرجعيته لم تعتمد على مفاهيم شائعة مثل السلام، أو العيش المشترك، أو حتى حقوق الإنسان. واستهدفت حملته

(1) وفقًا لهذه الرؤية، لم يُتنازع على تأسيس دولة إسرائيل في 1948؛ حيث تلت قرار الأمم المتحدة في 1947 بتقسيم الأرض إلى دولتين، أحدهما "يهودية" لليهود والأخرى "عربية" للعرب (وأعني للعرب؛ حيث لم يُعرفوا في ذلك الوقت كشعب فلسطيني منفصل ولا بالنسبة لبقية الدول العربية). علاوة على ذلك النقد، لا تستهدف حرب الأيام الستة في 1967 – النصر العسكري في حد ذاته.وإنقاذ إسرائيل من عدوان العرب عليها- ولكن سياسة الاحتلال المستمر واحتلال الأراضي خارج حدود اتفاقيات الهدنة في 1949، والمعروفة باسم " الأراضي".

إنهاء الاحتلال فوريًا ومن جانب واحد، ليس لمصلحة الفلسطينيين، ولكن لمصلحة إسرائيل نفسها.

يردد نشطاء السلام في إسرائيل شعار "dai la-kibbush" وترجمته "انهوا الاحتلال". ولكني أزعم أن كلمة "kibbush" وردت في الكتاب المقدس فقط في سياق السيطرة على باقي الخلائق (كما في سفر التكوين 1) واستعباد البشر الذين أُعطوا لنا للسيطرة عليهم (كما في سفر رعايا الملك في صموئيل الأول 13 والنساء في سفر إستير 1). وباختصار، تعني "kibbush" نزع الصفة الإنسانية عن البشر ومعاملتهم كالحيوانات، التي نستأنسها لكي تخدمنا بشكل أفضل —كمورد طبيعي نحتفظ به ونحرسه لكي نستفيد منه.

يجب أن ننهي الاحتلال، ليس لأننا نحتل مساحة من الأرض لا يحق لنا احتلالها، ولكن لأننا نحتل تلك المساحة بقهر الفلسطينيين الذين يعيشون على تلك المساحة. ونريد إنهاء الاحتلال من خلال معاملة الفلسطينيين كبشر كاملين، وليسوا كحيوانات يستحقون الإخضاع والاستئناس. تستند الطبيعة الفريدة للبشر التي تميزهم عن باقي الخلائق على أساس عقيدتين أخلاقيتين: تميزهم على كل الخلائق يعني أنهم مسؤولون عن حفظ ورعاية العالم، وأن هذه الميزة والمسؤولية يمتلكها كل البشر بدون أي تمييز.

ومثل ليبوفيتز، أؤيد أن المفكرين الإنسانيين الأوربيين ممن وضعوا أساس الحداثة، بما فيها العلمانية وحتى النسخ الملحدة من الحداثة لم يحفظوا تلك الفكرة الكتابية عن مركزية الإنسان في الكون فحسب، ولكنهم أضافوا إليها قوة أخلاقية من خلال الإيمان بحقوق الإنسان العالمية والأنظمة السياسية للديمقراطيات المرتبطة بها.

في سبعينيات القرن العشرين كانت لغة الخطاب الرسمي الإسرائيلي تشير إلى الأراضي بأنها "المحتلة" (muhzakim) لحين الوصول إلى حل سياسي دائم لكسر حالات العنف المتكرر بين إسرائيل وجيرانها.

ولكن الاحتلال سرعان ما تحول إلى غزو: تم تشجيع المواطنين اليهود الإسرائيليين على الاستيطان في تلك الأراضي بحيث يحملون كافة حقوقهم

كمواطنين، في حين لم تمنح أي من تلك الحقوق إلى جيرانهم العرب الفلسطينيين. بل إنهم يحتملون الفلسطينيين في دائرة القدس المتسعة بصعوبة فقط باعتبارهم مقيمين، وليسوا مواطنين كاملين في إسرائيل؛ حيث تحول الموارد المحلية، مثل الأراضي والمياه لتنتفع بها الدولة ومواطنيها بعيدًا عن الفلسطينيين. وأصبح الأمن والذي يهدف بالأساس إلى التحرش بالفلسطينيين "أسلوبًا للحياة" لتأمين إسرائيل بالإضافة إلى نصف مليون مستوطن يهودي في هذه الأراضي[1].

هوية اليهودي الإسرائيلي

يدفعنا ليبوفيتز إلى النظر في المرآة ومواجهة ما أصبح منذ 1967 "الأسلوب الإسرائيلي في الحياة" والمطلوب منا الدفاع عنه بالدماء، وهو ما يشبه إلى حد ما "الأسلوب الأمريكي في الحياة"، لأن هناك علاقة بين أسلوب الحياة التي نعيشها وطريقة تبريرنا أخلاقيًا للحروب التي نشارك فيها.

إجابةً على أسئلة سيفان، يوضح ليبوفيتز أن معاناتنا على أيدي الآخرين طوال التاريخ (فرعون، والنازيون، والعرب) هي القيمة الأساسية الوحيدة التي نغرسها في أذهان الشباب. ولا تمثل هذه المعاناة أية مشكلة لدينا. ولكنها تطرح مشكلة أخلاقية وروحية بالنسبة لغير اليهود الذين تسببوا في هذه المعاناة. ولأننا نمعن بشدة في التفكير في معاناتنا، نتجاهل التحديات الأخلاقية والروحية، وهو ما نفعله بالآخرين في الواقع.

فنحن نفضل التمعُّن فيما حدث لنا لأننا غير مسؤولين عنه. ومن ثم، نعتقد أننا قادرون على التسلط والإساءة للآخرين لأن ما حدث لنا كان أسوأ حالًا. يقول ليبوفيتز إن ما حدث في أعقاب حرب الستة أيام في 1967 كان بمثابة نقطة الانقلاب لنا، لأننا تحولنا من المهمة الأخلاقية لبناء أمة تحمي الشعب

---

(1) أُضيفت إلى دولة إسرائيل عقب 1967 فقط الأراضي التي تم تطهيرها عرقيًا (عن طريق الإجلاء وليس القتل الجماعي) للعرب غير المرغوب فيهم (سُمح فقط للدروز بالبقاء في مرتفعات الجولان واللطرون التي تقع على الطريق السريع الواصل بين القدس – يافا).

اليهودي إلى دولة مستعمرة غير أخلاقية، وإمبراطورية تتسلط على الآخرين. وقال حرفيًا، استخدمنا القومية للتحول من الإنسانية إلى البهيمية.

لقد نبذ الكثير من يهود إسرائيل الوطنيين ليبوفيتز لأنه أدعى أن اليهود ليسوا بمنأى عن ارتكاب جرائم مثيلة للنازية، فلقد تجاهلوا حقيقة أنه قال ما قاله كصهيوني مخلص ملتزم بالاستقلال الوطني كحق أساسي من حقوق الإنسان منذ القرن التاسع عشر. وفقًا لما قاله، يمكن أن تنحدر إسرائيل من القومية الإنسانية إلى القومية البهيمية، بنفس الطريقة التي عاش بها جيله ليرى ألمانيا تنحدر من "قصيدة إلى الفرح" لشيللر في نهاية السيمفونية التاسعة لبيتهوفن إلى البربرية النازية. لا يمكن للنازية أن تلغي الثقافة والهوية الألمانية، ولا الحق الأساسي للشعب الألماني في دولة ذات سيادة، ولكن كان ينبغي التغلب عليها واستئصالها حتى يستطيع الألمان أن يفخروا ببلدهم مرة أخرى.

وبالمثل، يرى ليبوفيتز أنه على الوطنيين الإسرائيليين التراجع عن الجرائم الحقيقية لاحتلال أراضي الفلسطينيين كشرط أساسي لاستعادة مكانتهم الأخلاقية بين الدول ذات السيادة. يرى ليبوفيتز أن تبرير استغلال صدماتنا باعتبارها كفاحًا وطنيًا عنيفًا كنقطة مركزية في التعليم، ببساطة لأنه لا يتم تدريس أي قيم يهودية أخرى. فبحكم عملي كمعلمة للدراسات اليهودية لسنوات عديدة (في المرحلتين الثانوية والجامعية)، أتفق أن المحتوي العلمي في الجيل السابق لا يترك الوقت الكافي لأي محتوى في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بسبب الضغوط الاجتماعية والسياسية والتي تحث الطلاب ليس فقط على البقاء، ولكن أيضًا النجاح فيما يعتبر اقتصادًا عالميًا تنافسيًا أكثر معرفة بالكمبيوتر والتقنية العالية على حساب التعليم الليبرالي المتعدد الأوجه. ولكنني لا أرى أن نقطة التحول كانت في 1967، بل أعتقد أنها كانت في حرب 1973، والتي كانت نتيجة لحرب 1967؛ بسبب عدم الرغبة في تسوية الاحتلال بالطرق السياسية التي تؤمن دولة إسرائيل. كشفت حرب 1973 النخبة، التي خدمت قديمًا، وهم الصهاينة الاشتراكيون غير المتدينين بنشاطهم الفعال السابق في تفسير الصهيونية بأنها يهودية، كنخبة مجهدة وفاشلة وظيفيًا تقدم تنازلات في مقابل ثقافة النجاح الاقتصادي والراحة اليومية. أصبح التعليم

الإنساني الليبرالي غير ضروري، لا تراه حتميًا إلا المدارس الدينية. لا شك أن المعلمين الأوائل مثل: أحاد حاآم Ahad Ha'am، وأ.د. جوردون A. D. Gordon، وديفيد بن جوريون David Ben-Gurion، ويتزحاق بنزفي[1] Yitzhak Ben-Zvi يتقلبون في قبورهم حاليًا جراء هذا الألم المحبط، حيث كانوا من اليهود الذين كرّسوا حياتهم لدراسة النصوص اليهودية، ليس باعتبارها التزامًا دينيًا ولكن باعتبارها قانونًا ثقافيًا للشعب.

في وقتنا الحاضر يدَّعي الكثير من الإسرائيليين أنهم عالميون من فئة الديمقراطية الليبرالية أكثر من كونهم يهودًا. يجسدون الصور الإعلامية للمدارس اليابانية أو الفنلندية الفعالة، والتي تنتج أفرادًا مرتبطين بإنجاز ذاتي غير عرقي ولا قومي، محايد، كما في أغنية "تخيل" لجون لينون John Lennon. فهم مرتبطون "بأسلوب الحياة الإسرائيلي" كما ذُكر أعلاه، ولكن بدون الالتفات لمحتواها اليهودي. اختاروا أسلوب الحياة البرجوازي في دولة عصرية ناجحة من ضمن الثمانية عشر دولة الأولى في العالم. كان ليبوفيتز على حق: فهم يهود فقط استنادًا إلى ديمومة الهوية كضحايا للنازي، ومن ثم، فهم وطنيون حتى بأسوأ تعبير- "بلدي، سواءً على خطأ أو صواب: لقد دفنا في أوشفيتز ولذلك تصرفاتنا مبررة حتى لو ألقينا قنبلة تزن طنًا على غزة". يعتبر أي رأي معارض مضادًا للسامية وبخاصة عندما يأتي من اليهود الكارهين لذواتهم مثل القاضي ريتشارد جولدستون Richard Goldstone (الصهيوني الغيور الذي ترأس لجنة تحقيق الأمم المتحدة في الأعمال العسكرية في غزة 2008-2009) أو نشطاء حقوق الإنسان العاملون في منظمات مثل محسوم ووتش (نساء يراقبن سلوك الجنود والشرطة على نقاط التفتيش) والتي أتشرف بالانتماء إليها. يعيشون بتصور خاص لليبراليين الذين صوتوا للمساواة لأنها تبدو تقدمية، وموجهة نحو

---

(1) آحاد هعام Ahad Ha'am، هو اللقب الذي اشتهر به الكاتب اليهودي الروسي الأصل آشير تسفي هيرش جينتسبرج Asher Zvi Hirsch Ginsberg (1856-1927)، وأهارون دافيد جوردون Aaron David Gordon (1856-1922) – مفكر وقدوة الرواد الصهاينة، ديفيد بن جوريون David Ben-Gurion (1886-1973) –أول رئيس وزراء لإسرائيل، وإسحاق بن تسفي Yitzhak Ben-Zvi (1884-1963) ثاني رئيس لإسرائيل.

المستقبل، وفي نفس الوقت تسمح لليهودي بينهم أن يظل غير مثقف، وغريزيًا، وغير مراعٍ لشعور الآخرين بسبب الخوف غير المعالَج من جراء الهولوكوست. فَهِمَ الإنسانيون، أو المتدينون، أو العلمانيون الحاجةَ إلى إدراج كل فرد في دائرتين من الهوية المدمجة-الخاصة والكونية-ولذلك عَلَّموا الشباب أن يكونوا متمكنين في المجالين. تعني حالة الفقر الحالي في التعليم الليبرالي أن الشعب غير مجهز ليدعم الأجندة الإنسانية لأنهم غير مثقفين على المستويين. يعرفون القليل عن الفلسفة، والآداب، والتاريخ، والصراعات، والتضحيات، والقدوة التي تشخص وتجسد مبادئ أخلاقية في حياة الناس الحقيقية.

وأنا منزعجة بالأخص من هؤلاء الليبراليين الديمقراطيين الذين ارتبطوا ببرنامج عمل حقوق الإنسان، وعلى الرغم من ذلك يديرون ظهورهم لليهودية، على سبيل المثال هؤلاء الذين يصرون على الحوار بين "الإسرائيليين والفلسطينيين". فعندما تحل التسمية الذاتية "إسرائيلي" محل التسمية الأدق "يهوديين إسرائيليين"، لن يعود هناك مجال للعشرين بالمائة من الإسرائيليين الذين هم فلسطينيون! كما أنه لا طائل من إدارة ظهورنا ليهوديتنا. نحن إسرائيليون لأننا يهود، ولقد رجعنا لهذه الأرض حيث ننتمي كيهود، والدولة التي أسسناها هنا تدعى إسرائيل. فإذا أنكرنا الرابط الجوهري بين يهوديتنا، متدينين أو علمانيين، وإسرائيليتنا، فنحن إذن لا شيء سوى مستعمِرون آخرون نحل محل السكان الفلسطينيين الأصليين. وبذلك تفقد الصهيونية موقفها الأخلاقي كحركة تحرير عالمية لشعب متمايز يستحق الحياة في وطن آمن ودولة ذات سيادة في أرضها التاريخية. تدل مصطلحات "اليهودية، والهوية اليهودية، والشعب اليهودي" على واقع أكبر من ديانة فقط ("اليهودية": أنا يهودي لأن الله قال لي أن أكون يهوديًا بل وأخبرني كيف أكون يهوديًا)، أو أنا الضحية فقط (أنا يهودي لأن هتلر قال ذلك، لأن غير اليهود لم يسمحوا لي أن أتمثل بهم). ولكن لا يمكن وجود هوية إنسانية يهودية بدون وعي معلوم بالثقافة اليهودية — فالمسألة تتعلق بالتعلُّم وليست عطية أو هبة يولد بها الإنسان.

ليبوفيتز كان على حق. ولكنني أقول لكل يهودي إسرائيلي غير متدين ممن يقبل سياسته ولكن يستبعد رسالته اليهودية: "يجب أن تعود لدراسة اليهودية

كجزء أساسي من ثقافتك القومية المتعددة الأوجه؛ بحيث تعزز القيم اليهودية هويتك كفرد وكمجتمع". وستُمَكِّن استعادة الثقافة اليهودية الإسرائيليين المطعونين بألم الهولوكوست من أن يضعوا جانبًا تلك الذكريات التاريخية المرة من الاضطهاد والمذابح "التي حدثت لنا ضد رغبتنا ولذلك لا مسؤولية علينا" حتى نتجاوزها "لما نحن بالفعل مسؤولون عنه"[1].

الفلسطينيون يعانون من نفس مشاكل الهوية

يعد الشيخ بلال زرينا Sheikh Bilal Zreinah من بيت جالا في الضفة الغربية[2] أحد المشاركين في محادثات الأديان الثلاثة بين الفلسطينيين والإسرائيليين والتي أحضرها. لقد سمعته مؤخرًا يحكي قصة يهودية قديمة: اندلعت النيران في منزل أحدهم، فقفز جانبًا لينجو بحياته وسقط على رأس عابر سبيل فقتله. كانت أوروبا تحترق، فهرب منها اليهود وألقوا أنفسهم فوق الفلسطينيين، والذين أصبحوا ضحايا لضحايا، وبالتالي أصبحوا فائزين في بطولة العالم للضحايا.

لا توضح هذه القصة مدى تعقيد تاريخ الطرفين، وأنا لم اقتبسها هنا لمعناها الأصلي. أنا استخدمها لأوضح أن الإحساس بالضحية هو السمة الطاغية على الهوية القومية بين الفلسطينيين أيضًا، كما لو أنهم قد أصيبوا بعدوى "الفيروس الإدراكي" منا نحن اليهود الإسرائيليين. فهم أيضًا لن يكسبوا شيئًا من ديمومة هوية قائمة على الإحساس بالضحية فقط لذكرى النكبة[3] باعتبارها

---

(1) كلما مرت السنوات، ازددت اقتناعًا بأهمية ليوفيتز بالنسبة لي. ولكن إحقاقًا للحق، لقد كنت وحيدة في المعسكر الصهيوني الديني الذي نشأت فيه. أدرك الحاجة الملحة لنبوءة إرميا الغاضبة في الفصل الأول، ولكنني في حاجة لتفاؤل أبي غير المحدود. نعم ضرب الله الشعب الإسرائيلي — بشدة – بيده ولكنه رعى الحركة الصهيونية الشابة باليد الأخرى حتى أصبحت دولة نحتفي بها جميعًا لعدة أسباب.

(2) باعتباري يهودية أرثوذكسية وامرأة، لا أستطيع (حتى الآن) أن أكون حاخامًا في طائفتي، ولكنني أفتخر بدعوتي للتحدث في المنتديات من وجهة نظر دينية.

(3) تعني كلمة "النكبة" بالعربية "الكارثة" وهي المقابل الحرفي لكلمة " شواه Sho'ah" العبرية، وهذه ليست مصادفة؛ حيث يشير التعبير إلى المآسي التي عانى منها الشعب الفلسطيني خلال

انعكاسًا للهولوكوست اليهودي. يجب أن يتحملوا المسؤولية تجاه تراثهم، وثقافتهم، ومستقبلهم وكيفية معاملة الآخرين[1]. يجب على كلا الجانبين التوقف عن التلاعب بتاريخهم المؤلم (historia lacrimosa) — بالإضافة إلى إنكار أية معاناة للطرف الآخر- والاستثمار في بناء هوية جماعية استنادًا إلى القيم الإنسانية من احترام وعدالة[2].

فتح المجال لقصص الآخرين

أنا أقرأ العربية فقط من خلال الترجمة[3]. ومن ثم، تأثرت كثيرًا باكتشاف ترجمة عبرية في 1992 لمذكرات خليل السكاكيني (1853- 1878)، القائد (والبعض يقول إنه المؤسس) للحركة القومية الفلسطينية خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين (1918- 1948). لقد كان السكاكيني عالم إنسانيات عظيم وكانت لديه مكتبة ضخمة بلغات متعددة، وكَرَّسَ حياته (بجانب أشياء أخرى) لإنشاء شبكة مدارس في أنحاء القُطْرِ لأنه يعلم أن التعليم هو الأساس

حرب 1947–1949: خسائر في الأرواح، والأراضي، والممتلكات، وقضية اللاجئين التي لا تزال دون حل. ويعد يوم 15 مايو يوم انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في 1948. قبل اليهود حينها بخطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين إلى دولتين، وأعلنوا تأسيس الدولة اليهودية في إسرائيل قبل هذا التاريخ بليلة واحدة، أي يوم 14 مايو. ورفض العرب خطة الأمم المتحدة للتقسيم واعتقدوا أنه بإمكانهم استعادة الأرض برمتها. ولكن للأسف خسروا الحرب، وحتى الأراضي التي ظلت خارج إسرائيل في 1949 لم تصبح دولة فلسطينية.

(1) يرجع الفضل في هذا التحليل إلى بروفسور إيلان جور– زئيف Ilan Gur-Ze'ev، أستاذ التعليم، جامعة حيفا.

(2) وفقًا لمارتين بوبر، إذا كانت الـ "أنا" الخاصة بك ضعيفة وعصبية، فلن يكون هناك مجال في عالمك "الأنت"، وستكون كيانًا جامدًا فقط.

(3) هذا عذري: فالمدرسة الدينية الثانوية التي حضرتها، زيتلين في تل أبيب، كان بها فصول للبنين وأخرى للبنات. درس الأولاد اللغة العربية كلغة ثانية وتخرج من المدرسة أساتذة أكاديميون كبار في العربية بالإضافة إلى ضباط مخابرات في غاية الكفاءة. درس البنات اللغة الفرنسية بدلًا من اللغة العربية كصورة مثيرة مشوقة للتنشئة الاجتماعية حسب النوع وتبنِّي ثقافة أجنبية في دولة محاصرة. وصفت الكاتبة النسوية نيتزا بيركوفيتز Nitza Berkovitz ذلك قائلة: الرجال يخدمون في الجيش، والمرأة تخدم كزوجة وأم. ولأن هذا هو الوضع المفضل للطبقة الوسطى، تعتبر التنشئة الاجتماعية غربية احترافية مقسمة هي الأخرى بحسب النوع الاجتماعي.

لكل من الحداثة والقومية. كان لديه إحساس شديد بالاضطرارية: فلقد كانت هناك حركة قومية منافسة على نفس الأرض (الصهيونية) ولم يكن الوقت في صالحه. كان مفتخرًا بهويته الثقافية الأوربية، من اليونان القديمة حتى الحداثة المعاصرة، وكرس حياته لإنشاء نظام تعليمي حديث لكل فلسطين. ولكن كانت هناك نقطة محورية في عملية التحديث، ألا وهي جمع كل العرب في أمة واحدة (شعب). وكان متفهمًا لضرورة أن يكون هناك إنجازات جوهرية في كل مناحي الحياة (المؤتمرات، والمؤسسات، والمعاجم، والكتب المدرسية، والخدمات العامة في القرى والمدن) تسبق الصهاينة. عندما أقامت السلطة الفلسطينية عاصمتها في رام الله في 1993، سُمي المركز الثقافي باسم السكاكيني تكريمًا له، ويبدو أن رئيس الوزراء الفلسطيني الحالي سلام فياض يسير على ذات النهج في التنمية الوطنية مع الأخذ في الاعتبار أن المكاسب السياسية ستتحقق فقط عندما تتحسن حياة الناس اليومية[1].

مثل باقي الفلسطينيين من الطبقة المتوسطة في القدس خلال ثلاثينيات القرن العشرين، أسس السكاكيني منزلًا له في الحي المسيحي العربي في قطمون. لقد نشأت على قصة ذلك التل من خلال الرواية اليهودية: في إبريل 1948 بعد شهور من القتال المرير، احتل اليهود تلك الضاحية ووجدوها مهجورة: وهنا كما في أي مكان آخر، لم تُتَح فرصة العودة للاجئين الفلسطينيين. ولكن تلك المعرفة المسبقة لم تعدني جيدًا للصدمة غير المتوقعة للرواية الفلسطينية مقارنة باليهودية: ففي الهامش حدد المترجم العبري لمذكرات السكاكيني بدقة العنوان الحالي لذلك المنزل الذي عرفت للتو أنه كان بالقرب من المنزل الذي نشأت فيه (منزل جميل ذو طراز عربي يجمع أجمل ذكرياتي)! وفجأة أدركت لأول مرة أن النكبة الفلسطينية كانت انطلاقة اقتصادية لعائلتي: فقد اشترى أبي منزلنا في 1953، عندما استكملت الحكومة الإسرائيلية الاستيلاء على الأملاك المعلن أنها "مهجورة من قبل أشخاص في عداد المفقودين" وباعت كل المنازل القيمة بثمن بخس. وبعد شراء ذلك المنزل، انضم والدي فعليًا للطبقة الوسطى. لقد

---

(1) يعود هذا البحث إلى ما قبل تولّي رامي الحمد لله المنصب ذاته خلفًا لسلام فياض عام 2013. (المحرر).

كانت زيارتي الثانية لمكان طفولتي بمثابة صدمة لي لأن المنازل المألوفة لم تعد كما كانت؛ حيث تمثل طبيعة أحداث 1948 والتي تشبه قناع جانوس Janus mask – إعادة إحياء أمة من ناحية، ونكبة وتهجير من ناحية أخرى[1].

لاحقًا قرأت كتاب لهالة ابنة السكاكيني ولدهشتي كان يحتوي صورًا لضاحية قطمون في الأربعينيات. كانت الصور تماثل صور عائلتي لنفس المنطقة بعدها بعقد كامل: ابنة تعزف على البيانو، عائلة تقف على السلم أمام المنزل، عطلة العائلة على الشاطئ، الأب يرتدي قبعة وبدلة. وجدت في الكتاب خريطة رسمتها من الذاكرة بها محل لخياط على ناصية شارعين هما الآن بيلو وشيل ناشيم: تحول ذلك المحل إلى بقالة أيام طفولتي يديرها الناجيان من الهولوكوست إيجنتز وأديلا.

وعلى الرغم من وجودهما معًا في نفس المدينة، يعملان ويعيشان فيها، ولكن أبي والسكاكيني لم يعرفا بعض، ولكنهما يشتركان في الكثير من النقاط[2]. كانا وطنيين مخلصين وعالمين في مجال الإنسانيات منتميين لدولتيهما، ولم يضمر أي منهما الكراهية للجانب الآخر بل مجرد رغبة ملحة للوصول أولًا إلى الهدف. ومن ثم، ترك لنا كل منهما تراثًا قيمًا "وإن كان غير مكتمل": أحبب من في جانبك، وافتخر به، واستكمل العمل غير المكتمل. ولكن بالنسبة للجانب الآخر: تجاهله، ربما سيبقى مجرد فكرة خيالية، مجهولة فعليًا، وغير مسلية، ومخفية خلف حدود الدولة المحصنة، والقضبان، والعوائق الأخرى.

يعتبر تراث أبي والسكاكيني جزءًا من الأساس الذي نحتاجه لنبني عليه ("أحبب من في جانبك")، ولكننا نحتاج للإضافة عليه. نحتاج إلى تغيير حركاتنا القومية: يجب أن نتعمد صناعة مساحة في حركاتنا القومية للتعايش مع الجانب

---

(1) فتحت داليا لانداو Dalia Landau هذا المجال أمامي؛ حيث كتبت رواية مأساوية عن طفولتها في منزلها العربي السابق في الرملة.

(2) هناك مفارقة واضحة بين الرجلين، وهو ما يلقي الضوء على إحدى ظواهر 1948: فَرَّ معظم الفلسطينيين من الطبقة الوسطى مثل السكاكيني من الأراضي التي مزقتها الحرب تاركين الفقراء وراءهم بدون قيادة ولا وسيلة للهرب. ومن ناحية أخرى، رفض أبي ترك المحاصرين جوعى وعطشى تحت القصف في القدس اليهودية على الرغم من مرضه وتحمله لمسؤوليات عامة أكثر.

الآخر. ولدت الصهيونية، وصورتها المعاكسة من الحركة الوطنية الفلسطينية، في عالم الحق المطلق والذي استبعد كل دعاوى الحقيقة، لذلك تتعلق مهمتنا بنقلها إلى المرحلة التالية، وهي أن نحتفظ بحقنا بينما نترك مساحة لروايات ووجود الآخر[1] والذي هو وجود إنساني كامل.

بعد عدة سنوات من اكتشافي لمذكرات السكاكيني، طُلب مني التحدُّث في الذكرى السنوية "لتحرير" (احتلال/غزو) القدس الشرقية في 1967. كانت احتفالية بديلة أقامها عدد من المجموعات اليهودية والفلسطينية. كانت بمثابة رسالة روحية، ولكن تقرر عدم دعوة رجال دين للتحدث؛ حيث تعذر دعوة ممثلين لكل الكنائس المسيحية. ومن ثم، دعاني المنظمون للتحدث — كامرأة يهودية أرثوذكسية ليست حاخامًا — للتحدث عن اليهود. كان لي شرف الاشتراك في ذلك اللقاء في الهواء الطلق بالقرب من أسوار المدينة القديمة؛ حيث تحدثت عن التشابه بين أبي وبين السكاكيني، والاختلاف بين مهمة جيلهما كما تصوروها ومهمة جيلنا (كما ذكرت آنفًا). ومنذ ذلك الحين، أتيحت لي الكثير من الفرص لأدهش المستمعين اليهود بتلك القصة. وفي مناسبات عديدة، أزعجت الطلبة العرب الإسرائيليين كوني يهودية صهيونية عرفتهم بالسكاكيني، بطلهم القومي غير المعروف لهم. وكان السكاكيني غير معروف لهم لسببين: أولًا، لأن النكبة أثرت في آبائهم لدرجة جعلتهم عاجزين عن قراءة كل الأنماط السياسية في فلسطين، وثانيًا، لأن مدارسهم لا تسمح بتدريس تاريخهم القومي.

---

(1) الآن أرى أن هذا التغيير الضروري في هذه الأرض يتوافق مع روح العصر والتغيير من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة، ولكن في حين يتحدث الكثير من اليهود الإسرائيليين في حركات السلام عما بعد الصهيونية، أصر على أنني صهيونية في مرحلة ما بعد الحداثة تبحث عن ليبراليين فلسطينيين في مرحلة ما بعد الحداثة للعيش والعمل معهم. ويتعدى هذا الخطاب الأكاديمي نطاق هذا المقال.

خطورة تطبيق العقيدة الميسانية (الخلاصية)

أشعر بمسؤولية إضافية لعرض رسالة خاصة تجاه مجتمعي، وهو الجناح المتدين من الحركة الصهيونية. ظهر هذا الجناح في 1902 كحزب سياسي داخل الحركة الصهيونية، وهم اليهود المزراحيون- الحاخامات وغيرهم من اليهود المتدينين (كوالديّ)، ممن ساندوا براجماتية الحركة الصهيونية العلمانية كحركة تحرير قومية. تم استبعاد الصيغ التنبؤية لعقيدة اليهود الميسانية الغيبية لتحقيق إنجازات أكثر تواضعًا ولكنها واقعية – مثل الاعتراف السياسي، والتحالف الفعلي مع اليهود العلمانيين، والمستوطنات الزراعية، وقوات الدفاع، وآليات إنشاء دولة ذات سيادة. وعلى الرغم من ذلك على مدار السنين تخلى معظم اليهود الصهيونيين عن هذا المنهج البراجماتي وبدأوا يرونه عند تذكره بمثابة تسوية لليهودية الملتزمة بالتوراة. وبدلًا من ذلك، بدأوا يعتنقون على نحو واسع الأفكار اللامنطقية القبلانية kabbalistic المتعلقة بتفوق اليهود على غيرهم وبخاصة المسلمين، والعرب، والفلسطينيين.

ومن ثم، بدأنا نسمع دعاوى أن العرب مثل شعب العماليق الذي ذُكر في التوراة وممالك كنعان السبعة والتي أمر الإسرائيليون القدماء بإبادتها. وأكثر من ذلك نسمع أن دعاة السلام اليهود هم عرق مختلط تسلل إلى داخل معسكر الإسرائيليين أثناء خروجهم من مصر بغرض تدمير الشعب من الداخل. تستند هذه الادعاءات إلى قراءة خاصة لمخطوطات غامضة وتخالف تمامًا السياق العام المقبول للقانون اليهودي (الهلاخاه).

لم تخطر أي من هذه الأفكار لأبي أو لأي من رفاقه. بل على العكس تمامًا: كان جيلهم لا تزال في مخيلته ذكريات حياتهم كأقلية تعتمد على حسن نية الأغلبية الحاكمة. ووفقًا للإنجيل، تذكر جيلهم كيف كانت الحياة كأجنبي بلا جذور (guerim) في مصر[1]. تحدث الصهيونيون المتدينون في جيل والدي

---

(1) للاطلاع على دراسة عن الأوامر الكتابية اليهودية المتعلقة بمعاملة الغرباء (جوريم)، انظر: مقال Nurit Peled-Elhanan في هذه المجموعة (ملحوظة المحرر بالإنجليزية).

بصراحة عن الحاجة لإلغاء عقوبة الإعدام التي ورثتها إسرائيل من البريطانيين[1] لأنه وفقًا لنصوص المشناه من القرن الثاني الميلادي لا يمكن الرجوع عن الخطأ في تنفيذ عقوبة الإعدام[2]. وكان هؤلاء القادة أول من شجب المذبحة التي حدثت في قرية قبية في 1953 (كانتقام لقتل يهود إسرائيليين مدنيين بيد إرهابيين فلسطينيين) في الوقت الذي ادعى فيه بن جوريون عدم علمه بها. في جيل والدي، كان المتدينون الصهاينة قادرين على انتقاد الحماسة العسكرية لدى النخبة الحاكمة من الاشتراكيين الصهاينة باعتبارهم "غير يهود" وفي نفس الوقت الاتحاد مع زعيم المعارضة في البرلمان، مناحم بيجين Menachem Begin، الذي كانت حماسته اليهودية محصنة بضميره الإنساني. وللأسف، لم يعد الأمر كذلك. فعندما يخطئ الزعماء في تقييم ظرف تاريخي باعتباره مواتيًا لثورة مسيانية، وعندما يُلهمون على نحو كاذب بحماسة تنبؤية افتراضية ويتجاهلون الحاجة لخلق توافق يناسب الظرف الإنساني، فعادة لن يَحِلَّ سوى الدمار.

كانت روح الحماسة التي تحلى بها الصهاينة الأوائل بمثابة "ثورة مقدسة" ضد ويلات الحياة اليهودية في المنفى. ولكنها أخذت منحنيين منفصلين زائفين، وللمفارقة كل منهما بحاجة إلى الآخر يمكنه ويدعمه. شَوَّه اليهود المتدينون الدين وحولوه إلى شوفينية قومية بل وعنصرية، على نحو مشابه لما تفعل بعض التيارات التي تسيء للإسلام. وفي نفس الوقت، يتجاهل اليهود غير المتدينين في إسرائيل الثقافة اليهودية ويتخلون عن الروح القومية ويدمنون القوة العسكرية[3] في مرحلة ما بعد الهولوكوست. ولقد آن أوان العودة إلى "الثورة المقدسة" لتصحيحها ودفعها للمرحلة القادمة.

---

(1) استثنى هذا القانون النازيين ومساعديهم، ولهذا السبب تم إعدام أدولف إيخمان Adolf Eichmann في 1962.

(2) انظر السنهدرين Sanhedrin الفصل الرابع، والذي اقتُبِس جزئيًا في سورة المائدة آية 32 في القرآن.

(3) تكمن المشكلة الثالثة التي أراها في تراجع إسرائيل عن كونها دولة تنعم بالرفاهية تتضمن آليات التضامن الاجتماعي. يرجع ذلك إلى سحر الرأسمالية المفرطة واقتصاد العولمة والذي تستفيد منه القلة على حساب الكثيرين. وتؤكد روح الداروينية الاجتماعية على التنافس في عالم الربح/الخسارة في مجال الجغرافيا السياسية بالإضافة إلى المجالات الأخرى. ففوزنا يعني بالضرورة خسارة الفلسطينيين.

الصهيونية "كثورة مقدسة" في الماضي الحاضر

صاغ الحاخام صموئيل حاييم لانداو Rabbi Shmu'el Chaim Lando (1892-1928)، أحد أكثر زعماء الصهيونية المتدينة قدرة على التأثير في الآخرين، مصطلح "الثورة المقدسة". وكان طالبًا متحمسًا للشاسيدية[1] وكانت تجاربه في القيادة السياسية باعتباره حاخامًا شاسيديًا. في احتفال شعبي بالقدس بمناسبة تكريس سفر التوراة لمعبد جديد لجماعة الصهاينة المتدينين الاشتراكيين[2]، ولاحقًا في رسالة إلى الشباب في أوروبا، اقتبس من أقوال الحاخام الشاسيدي مندل Mendel من كوتسك (1787–1859)، وهو رجل محير وشديد الحماسة "أعطني عشرة من الشاسيديين، مرتدين أسمالًا بالية، ولكن لديهم الرغبة في الصعود إلى أعلى السطح صارخين "الله هو إلهنا!" حيث يمكن أن يعجل أفراد قليلون تدفعهم حماسة القداسة[3]، وتساعدهم على تجاوز استعباد الحياة اليومية، من مجيء المسيا!"

استمر لانداو في تسمية نفس الروح المتحمسة للصهاينة الأوائل "بالثورة المقدسة" (mered kadosh) والمفصلة على غرار الثورة الروحية التي تصورها سلفه، ولكن في سياق مختلف تمامًا. ولزم على أتباعه الثوريين معرفة أن أفعالهم الجديدة ليست إلا إعادة تفسير لتقليد مقدس. ومن ثم، يساعدنا لانداو على الحفاظ على السمة التنبؤية في التوراة اليهودية– ثورة بلا انقطاع، ثورات متتابعة قادها محطمو المعتقدات الدينية. وبالتالي، فإن ضم المتناقضين معًا في تعبير

ويتجاوز تحليل هذه المشكلة نطاق هذا المقال. ولكن تجدر الإشارة إلى أن هذه المشكلات الثلاثة المتزامنة والمترابطة اجتاحت إسرائيل منذ 1973.

(1) تعتبر الشاسيدية حركة روحية يهودية بدأت من القرن الثامن عشر في شرق أوروبا وتستند على نسخة معممة من التصوف اليهودي. يسمى رئيس جماعة الشاسيدية "ربي rebbe" والتي تعني حاخام بلغة اليدية.

(2) فصيل الاشتراكيين المتدينين الصهاينة أو haPo'el haMizrahi.

(3) "جراءة القداسة" أو azut de'kedushah.

"الثورة المقدسة" سيظل شعارًا يحمينا ضد الجمود من ناحية وعدم الانتماء من ناحية أخرى[1].

ولكن لا ينبغي على الإطلاق غلق الأبواب أمام محاولات إعادة التفسير المبتكرة[2]. ومن ثم، فيما يلي رؤيتي- النسخة الخاصة بي من إعادة التفسير- للثورة المقدسة التي أنتمي إليها، وهي الوقوف ضد كافة أشكال التجرُّد من الإنسانية التي تراها حولك ومحاولة إضفاء الصبغة الإنسانية مرة أخرى على المجتمع، والثقافة، والسياسة كلما أمكن ذلك.

في مجال الدين، لا تستسلم للانطباع الخاطئ بأن الاضطهاد يكمن في "التديُّن الشديد" وتسود الحرية فقط عندما يخف هذا الحمل. فالمسألة لا تتعلق بالكم ولكنها تتعلق بالكيف. يعطي تسليط الضوء على النسخ المتطرفة، والكلية، والفردية من الدين باعتبارها عنصرية مثالًا على تجاوز كل مكونات الإيمان من ممارسات ونصوص، وتوضح كيف تؤدي هذه الصور من الدين إلى ارتكاب جرائم باسم العلي القدير وتدنس اسمه وتنتهك قدسيته. قم بتدريس النسخ الإنسانية من الدين -كافة الأديان، وتعليم القراءات النقدية للنصوص المقدسة، وتحدي القراءات الخطيرة للنصوص والقادة الدينين الذين يشكلون خطرًا على الدين، وتدريب نوع مختلف من القيادات الدينية، ووضع نصوص دينية جديدة، وتذكر ضرورة عدم ترك هذه الرؤى الجديدة مهمشة في مجتمعك، بل السعي لإضفاء الصبغة الشرعية عليها وتعميمها.

في مجال الدين المدني، ابتعد عن تعريف "غير المتدين" فقط "بالمتحلي بالهوية الثقافة الكونية". لتكون إنسانًا كاملًا يجب تنمية كافة النواحي المتعلقة بهوية الشخص، الفردية والقبلية، والقومية والعالمية. لا تسمح لمن يعادون السامية بتعريف يهوديتك، لأن ذلك يولد الخوف من كونك ضحية، ولا يهدأ هذا

---

(1) تعلمت من والدي كل ما يتعلق بالثورة المقدسة. في عيد ميلاد أمي الثمانين، تحدثت عن أعمالها البطولية الثلاثة (يسمى سن الثمانين "بالأعمال البطولية" في المشناه): الجراءة في عصيان والديها والحاخامات، والتواضع بالبعد عن الشعور بالصلاح الذاتي ونقل عظمة نفس عالم التوراة الذي عصته، والشجاعة لتعبر بعائلتها من المعاناة والترمل إلى حياة رائعة تنعم بها بناتها الأربعة.

(2) اجتهاد في الإسلام.

الذعر إلا من خلال إظهار القوة ضد أعداء دائمين. تأكد من استناد تحديد هويتك مع يهود إسرائيل على مشاركة معرفية للثقافة اليهودية عبر العصور. قم بتدريس المحتوى الإنساني للوطنية في كل تاريخ وطني. اكشف الغطاء عن نماذج تاريخية من الماضي واصنع نماذج جديدة. اكشف النقاب عن التقاليد، والطقوس، والأعياد، والنصوص، والأساطير الشفهية. طَوِّر موادًا جديدة في كل تلك المجالات.

وأعتقد أنه فقط من خلال العمل على هاتين الجهتين، سيُخلق التكافل المطلوب بين طوائف اليهود المختلفة والفلسطينيين. يجب أن تشعر كافة الجماعات بالتمكين والقدرة على التصرف بمسؤولية على كافة المستويات، بين الطوائف وداخلها. يمكن – بل يجب– أن يخلق الدين والانتماء الوطني عقلية لا تقبل بالتضحية بالبعض ليستفيد آخرون.

وقد تملأ تفاصيل تلك الثورة المقدسة مجلدات. ولكن يعتبر العمل الوحيد في حياتي الذي يمثل لي اختياري لهذا الطريق هو قراري بترك القدس في 1978 والانتقال إلى يروحام، وهي بلدة صغيرة متنوعة في صحراء النقب يسكنها ما يقرب من عشرة آلاف نسمة، غالبيتهم يهود ويقرب منها قرية بدوية لم تعترف بها الحكومة (حتى الآن).

اختار والداي "المجيء" إلى أرض إسرائيل (بالعبرية، make aliya) بينما اخترت المجيء إلى يروحام كوسيلة لتركيز حياة أسرتي والعمل والسياسة ودراسة التوراة حول إعادة تفسيري للثورة المقدسة. انتقلت إلى هناك في 1978 مع مجموعة من اليهود تحمل نفس أفكاري –لقد اعتقدنا أنه من الأهم أن نعمل في مدينة صحراوية تعاني حالة من الكساد لتمكين سكانها وتوفير فرص متساوية على كافة الأصعدة عن بناء المزيد من المستوطنات اليهودية بين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة. بدأت تعليم الأطفال والكبار، وكان علي تعلم المزيد في تخصصي قبل أن أفتخر بنجاح تلاميذي في الدراسة والحياة. لقد تزوجت طبيبًا نفسيًا، موشي لاندزمان Moshe Landsman، أحد أعضاء مجموعتنا. واشترينا المنزل الذي لا نزال نعيش فيه، وأنجبنا أطفالًا وعلمناهم في المدارس المحلية. كما استضفنا أطفالًا من "أسر مفككة" لعدة سنوات، وهو ما شَكَّلَ إضافة لحياتنا مع الناس حولنا. ولكن

اختيارنا أن نكون "المثقفين العاملين" بالتعبير الماركسي قادنا إلى العمل السياسي في نظام البلدة المصغر، وفي إسرائيل بصفه عامة. لقد أصبحت أول امرأة تخدم في مجلس مدينة يروحام، وأول امرأة في إسرائيل تخدم في المركز الديني المحلي الذي يشرف على كافة الخدمات الدينية بالمدينة. لقد حاربت من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية لكل السكان، سكان يروحام، وجيرانهم من البدو، والفلسطينيين في الأراضي المحتلة، والنساء في كل مكان ونقلت هذه الرسائل إلى المجلس الديني للبلدية وللعامة في كل مكان.

نموذج إبراهيم — وخطيئته

أود أن أختتم هذا الفصل بتعريف نفسي كابنة لإبراهيم. كان إبراهيم خليل الله الواحد، ولم تكن الأصنام التي حطمها مجرد تماثيل لا طائل من ورائها. فمن خلال تقسيم الأرض لإنهاء النزاع بين رعاته ورعاة لوط[1]، حطم وثنية الأرض الموعودة وفكرة امتلاك ابن الله للأرض الموعودة كليًا وحصريًا وتوًا.

ينعكس المفهوم الكتابي للعهد والذي يعني بالعبرية "قَطْع" على طقس الختان، وإقصاء الحيوانات، وإقامة حدود فعلية (مثال: التكوين 31: 53-44). يهدف العهد، والذي يعني حرفيًا فاصلًا بين شركاء غير متكافئين، إلى تأسيس احترام متبادل للحدود والسيادة كشرط لتحقيق الثقة المتبادلة، والتعاون، والسلام، بل وأيضًا المحبة. مع أخذ ذلك في الاعتبار، يمكن أن نقتبس من التوراة فكرة أن تقاسم الأرض لحل نزاع فعلي هي أكثر أهمية في بعض الأحيان من حيازة الإرث الموعود من قبل الله.

فلقد نشب نزاع بين رعاة مواشي إبراهيم ورعاة مواشي لوط .... فقال إبراهيم للوط: "لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك. لأننا أقرباء مقربون. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزلني، فإذا ذهبت شمالًا، سأذهب يمينًا، وإذا ذهبت يمينًا، سأذهب شمالًا. ... واعتزلا بعضهما البعض. (تكوين 13: 11-7)

(1) انظر سفر التكوين 13.

نحن بحاجة إلى استعادة هذه النصوص وما يماثلها من التقاليد التي تساعد على الحياة وتوفِّر الحرية. لم تُستَثْمَر جهود كافية في التفكير لصياغة أساليب بديلة في العلاقات مع العرب مبنية على تعاليم ديننا. فيما يخص مهمة صنع السلام مع كل ما تحمله تقاليدنا من ثراء، سنكون أكثر جهوزية لإيجاد حلول ملهمة. وبصفة خاصة، في هذا المنعطف، نحتاج إلى تفسير خلاق لتقاليدنا ونصوصنا المقدسة للتأكيد على قيمة الحياة، والعدالة، والسلام أكثر من قيمة أرض إسرائيل. لقد قيل لنا مرارًا إن واجبنا الديني هو الاستقرار في أجزاء من أرضنا التاريخية المتنازع عليها مع سكانها العرب وهذا يضرنا. ومن ثم، يجب أن نعلن معارضتنا لتلك التوجهات. ويلزم علينا أن نتعلم كيف نُطَوِّر وجهات نظر مبتكرة مع شركائنا الفلسطينيين لإفساح المجال لهم.

لم ينتظر إبراهيم تعليمات من الله عندما قرر تقسيم الأرض مع لوط. ومع ذلك، هناك حادثة أخرى في حياته أود استعراضها هنا، عندما بدا أنه اتبع كلمة الله حرفيًا —فهل فعل؟ أود تأييد التقليد اليهودي في التعليم، ليس فقط من منطلق فضائل القدوات الواردة في الكتاب ولكن أيضًا من خلال إخفاقاتهم وأخطائهم (فهم يخطئون أيضًا لأن الله وحده هو المعصوم). عندما استعد إبراهيم للتضحية بابنه قربانًا لله، أعتقد أنه أخطأ الهدف كليًا وبالتالي ارتكب خطيئة[1].

اعْتَقَدَ إبراهيم خطأً أن الله بالفعل طلب منه ذبيحة بشرية؛ فقد آمن أن هذا الدرس —الذي أُعطي له كعبرة يستفيد منها كل البشر—يؤكد اقتضاء الإيمان قفزة تتخطي الحكمة الإنسانية. لقد اعتقد أنها إرادة الله وأنه عليه أن يخضع للتعليمات التي سمعها؛ وأن إيمانه يستوجب الطاعة العمياء التي تتجاوز عواطفه وغريزته الأخلاقية.

يعتبر النص واضحًا لا لبس فيه: لقد قال الله لإبراهيم أن يضحي بابنه؛ فهذا ليس اختلاقًا من خيال إبراهيم. وأنا أرى أن الله كان يختبر إبراهيم بهذا الطلب.

---

(1) في اللغة العبرية، كلمتا "سوء الفهم lahato" و"ارتكاب خطيئة lehahti" لهما نفس الجذر اللغوي.

وأعتقد أن الله توقع أن يجادله إبراهيم، كما جادله قبل تدمير سدوم في سفر التكوين 18. في الواقع، يستدعي الموقف هنا مع إسحاق المجادلة ربما أكثر من ذلك الموقف المتعلق بسدوم. ففي سدوم، كان الرب سينفذ القتل، ولكن في هذا الموقف سيقتل إنسانٌ إنسانًا بلا سبب. كان من المفترض على إبراهيم إدراك أن الأمر كان اختبارًا، ولكنه لم ينتبه لهذه الحقيقة حتى اللحظة الأخيرة حين أرسل الله ملاكًا ليوقف يده عن الذبح. لزم على الله إنقاذ اسحاق لأن إبراهيم كان متلهفًا لعمل الصواب، ومن ثم تجاهل التناقض بين كلمات الله في تلك المرة والشريعة الإلهية التي يعرفها. فقد قرر أن يطيع الكلمات التي سمعها بدلًا من استنتاج أنها مجرد اختبار.

فعليًا، كما ظَنَّ إبراهيم، لم يقصد الله أن يصنع منه نموذجًا، ولكن الرسالة مفادها لا يتعلق بأمر الله ذبح البشر، ولكن الرسالة كانت أشد وضوحًا من تلك التي أرسلت لنوح. فلقد تعلَّم نوح الفرق بين البشر والوحوش: البشر فقط هم من يُخلقون على صورة الله. ومن ثم، فإن الأمر بسفك دم حيوان لأكل لحمه يقارن صراحة بقتل الإنسان؛ حيث يُعرف سفك دم إنسان بأنه جريمة كبرى تستحق عقوبة كبرى[1] لأنها تنقص من تمثيل الله على الأرض. ولكن اختبار إبراهيم كان له بعد آخر: يعد قتل الإنسان جريمة حتى ولو بقصد تقديمه أضحية لله، حتى لو سمعت الله يأمرك بفعل ذلك. حتى في ظل هذه الظروف، يجب أن تظل ملتزمًا بالدستور الإلهي "القانون الطبيعي"، وتتفهم أن الأمر الحالي يخالف شريعة الله لذلك فهو مجرد اختبار.

أنا أعلم جيدًا أن اقتراحي حول خطيئة إبراهيم يخالف تقريبًا كل القراءات اليهودية لهذا النص[2]، والقراءات الإسلامية والمسيحية. ولكنني أعتقد أن هناك سببًا لانتهاء هذا المقطع من تكوين 22 بإخبار إبراهيم عن أبناء أخيه الثمانية؛

---

(1) يعتبر سفر التكوين 9: 6 جزءًا من عهد الله مع نوح حينما قال الله "سَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ بِالإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ. لأَنَّ اللهَ عَلَى صُورَتِهِ عَمِلَ الإِنْسَانَ."

(2) تعتبر إحدى الاستثناءات هي شوليت هارئيفين Shulamit Har-Even الكاتبة اليهودية الإسرائيلية؛ حيث قرأ البعض رسالة مشابهة في "دلالة الحائرين" لموسي بن ميمون Maimonides (القرن الثاني عشر).

حيث سيصبح أحدهم والد رِفْقَةَ Rebekah التي ستصبح زوجة لإسحاق. وبدأ ضوء إبراهيم يخبو وحان الوقت لابنه أن يحل محله. فلم يتحدث الرب لإبراهيم مرة أخرى.

باعتباري ابنة لإبراهيم، أقول: لا لمزيد من إراقة الدماء، التي أصبحت بفضل أدياننا والدين المدني طقوسًا. ويجب علينا رفض هذه الممارسة التي لا طائل من ورائها في إسرائيل وفلسطين وأي مكان آخر.

أبناء إبراهيم المسيحيون

الفصل الخامس
التَّعَصُّب الديني وجراح الله

نيكولاس ولترستورف

ترجمة: إسلام سعد.

نيكولاس ولترستورف أستاذ فلسفة "the Noah Porter Professor" متقاعِد بجامعة يال Yale ورئيس سابق لاتحاد الفلاسفة الأمريكيين ومَجْمَع الفلاسفة المسيحيين. حصل ولترستورف على الدكتوراه من جامعة هارفارد Harvard. وقبل تدريسه بيال، دَرَّس ولترستورف لعدة سنوات في كلية كالفن Calvin. وهو مؤلف للكثير من الكتب والمقالات البحثية المنشورة، ومنها "حتى تحيط بنا العدالة والسلام – Until Justice and Peace Embrace" و"العدالة: الأمور الصائبة والأخطاء – Justice: Rights and Wrongs".

صرخة من أجل العدالة

تحدَّثوا عن أراضيهم الموروثة وهي تُحتَل. تحدَّثوا عن بساتين الزيتون الخاصة بهم وهي تُهْدَم. تحدثوا عن منازلهم وهي تُنسَف بالديناميت بعد أن أُعْطِيَت العائلة ساعة واحدة لأخذ ممتلكاتها. تحدَّثوا عن إجراءات التفتيش المذِلَّة بالمطارات وفي نقاط التفتيش الموزعة على امتداد بلدهم. صرخوا في سبيل العدالة. وتساءلوا، لماذا لم يسمع أحد صرختهم؟

كان هذا احتكاكي الأول مع الفلسطينيين. حدث ذلك في مؤتمر عن حقوق الفلسطينيين، أقيم في غرب شيكاجو بتاريخ مايو 1978. تواجد 150 فلسطيني

بين الحضور. كان السبب الذي لأجله حاقت بهم هذه الشرور أنهم ليسوا يهودًا. ولو كانوا يهودًا، لم يكن لأي من هذه الشرور أن يحدث.

ذهبت بعد عام أو أزيد بقليل للشرق الأوسط؛ ولقد ذهبت مرات عديدة منذ ذلك الوقت. ذهبت للضفة الغربية ـ "المنطقة المحتلة"، كما يطلق عليها الفلسطينيون ـ ورأيت بنفسي الأرض المحتلة، عادة من قمة التلال، والآن صارت هذه القمة مغطاة بمساكن جديدة برّاقة لليهود فقط، وتم دفع قسط كبير من تكاليفها من خلال التمويلات الأمريكية. رأيت المكان الذي كانت فيه بساتين الزيتون يومًا ما. رأيت عائلتين تقفان بجانب أكوام من الأنقاض حيث كانت منازلهم حتى منتصف الليلة المنصرمة.

ذهبت لإسرائيل وتحدثت مع يهود وفلسطينيين. سمعت من الفلسطينيين الطرق العديدة التي عوملوا بها كمواطنين من الدرجة الثانية لكونهم غير يهود. سمعت إسرائيليين تقدميين يؤكدون هذه التهمة. سمعت "الكلام المعسول" من قائد سفارة أورشليم كما يسمونها، وهي مؤسسة تدبيرية إنجيلية أمريكية تلتزم بدعم القضية الإسرائيلية. بدا إما غير واعٍ بوجود مسيحيين في الشرق الأوسط، أو غير مُكْتَرِثٍ لما كانت سياسات إسرائيل ودعم أمريكا لهذه السياسات يفعلون فيهم. عندما طُرِح سؤال بعد ذلك، تبيَّن أنه لم يكن غير واعٍ. قال إنهم لم يكونوا مسيحيين. ولم يكن غير مكترث. يتعين على الفلسطينين والمسيحيين والمسلمين، على السواء، الرحيل. لقد منح اللهُ اليهودَ هذه الأرض.

يا للتحولات الغريبة التي يتخذها التَّعَصُّب الديني. إن معاداة السامية الجلية التي طَفَت على السطح في قضية دريفوس Dreyfus الشهيرة في فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر، والتي حدثت بعد مائة عام من التنوير الأوروبي، قادت ثيودور هرتزل Theodor Herzl لاستنتاج أن اليهود لن يتم قبولهم بشكل كامل في أوروبا. وكان الحل الذي اقترحه إقامة اليهود لدولتهم في مكان ما– ولم يكن يملك تفضيلًا قويًا للمكان الذي ينبغي أن تُقام فيه. لقد دفع الهولوكوست الكثير من اليهود الناجين لمغادرة أوطانهم بعد الحرب العالمية الثانية والهجرة إلى الشرق الأوسط.

كان وصولهم نافعًا من جهة تأسيس دولة إسرائيل ـ منذ بدايتها، كدولة يهودية. والآن، نفس الأشخاص الذين تحمَّلوا الكثير من المعاناة لقرون لا لسبب سوى أنهم لم يكونوا يهودًا، استولوا على أراضي أسلاف السكان الفلسطينيين، مدمرين معيشتهم، ومحطمين منازلهم، لا لسببٍ سوى أنهم لم يكونوا يهودًا.

ينبغي إضافة [حقيقة] أنه، وبينما يفهم الكثير من مؤسسي دولة إسرائيل، إن لم يكن أغلبهم، اليهوديةَ بالمصطلحات العِرقية أكثر من الدينية، فإن هذه الحقيقة لا تصح وفق السكان الحاليين لإسرائيل؛ والأمر أقل صدقًا من ذلك عند المستوطنين اليهود في الضفة الغربية[1].

يمكن للقصة التي رويتها الآن والمتعلقة بمعاملة يهود دولة إسرائيل لغير اليهود أن تُروَى عن معاملة المسيحيين لغير المسيحيين، ومعاملة المسلمين لغير المسلمين، ومعاملة الهندوس لغير الهندوس ... إلخ. ومن بين كل القصص التي يمكن روايتها، يكمن سببي الوحيد لاختيار هذه القصة التي رويتها بالفعل في أنني كنت ملمًّا بها مباشرةً.

سأقدم في هذا الفصل حالة للتسامح الديني تستقي [تنظيرها] من نسق شبه مَنْسيٍ في التقليد اللاهوتي المسيحي: وبافتراض أن التَّعَصُّب الديني ظالم، فأن تكونَ غير متسامح مع ممارسة إنسانة لدينها يعني إساءة لله.

لا يُكَوِّن هذا النسق عن الظلم باعتباره إساءة لله، بنفسه فقط، حالة كاملة للتسامح الديني؛ فعلي سبيل المثال، يلزم على المرء إضافة الافتراض الذي ذكرناه للتو، وهو أن التَّعَصُّب الديني ظالم. لذا، قبل تطوير أي نسق، دعوني أتحدث قليلًا عن طبيعة التسامح، وأن أحددَ البنية المتعلقة بأن حالة تامة للتسامح الديني ستحوز وتحدد بدقة الإسهام لبنية النسق الذي سنناقشه.

---

(1) يحاجج مارك بريفرمان Mark Braverman، وهو يهودي، في كتابه الجريء، العناق المميت Fatal Embrace – (Austin, Texas: Synergy Books, 2010)، بأن السببَ الرئيس لمعاملة إسرائيل التمييزية لغير اليهود داخل دولة إسرائيل وداخل المنطقة المحتلة هو القناعةُ بالاستثنائية اليهودية المودَعَة بعمق في عقلية اليهود المتدينين وغير المتدينين على حدٍ سواء.

طبيعة التسامح وأسباب ممارسته

ليس التسامح عدم اكتراث. إنه غير متوافق مع عدم الاكتراث؛ يجعل عدم الاكتراث التسامح مستحيلًا. لو أنني أعتقد أن كل الأديان تتساوى في صحتها مع صحة ديني من جهة الوصول لله، وفي جعلنا على تواصل مع "الحقيقة"، أو أيًا كان، فلن أتسامح مع ممارستك لدينك؛ سأكون غير مكترِث تجاه الدين الذي تمارسه. التسامح أيضًا غير متوافق مع إجلال ممارستك لدين ما يختلف عن ديني - "فمن الممتع أن تحظى بهندوسي في الجوار". يجعل إجلال التعدد من التسامح أمرًا مستحيلًا. عندما ألحَّ جون ستيوارت مِل J. S. Mill على أننا نُجِلُّ الاختلاف على أرضية مفادها أن صدام الآراء يجعل من بلوغ الحقيقة أمرًا أكثر احتمالًا [من جهة الحدوث]، فإنه لم يكن يلح على التسامح حيال الاختلاف.

إن بعضًا مما يُعتبر تسامحًا دينيًا في العالم الغربي اليوم ليس بتسامحٍ، وإنما هو إجلال للتعدد؛ وإن زاد عن ذلك يكون عدم اكتراث محضًا. ومع ذلك، يلزم إضافة أن قليلًا من الناس غير مكترثين بكل الأديان؛ بل وعدد أقل يُجِلُّون التعدد من الأساس. من المحتمل أن ينزعجَ المسيحي الليبرالي الذي يستطيب وجود هندوسي تقدُّمي في الجوار لو أن مسيحيًا إنجيليًا يمينيًا، يمتنع عن المسكرات، انتقل للجوار. إن انزعاجه من وجود مسيحي إنجيلي يميني في الجوار، وعدم انزعاجه من وجود هندوسي تقدمي، يعني أن وجود مسيحي إنجيلي يمنحه فرصة لممارسة التسامح بينما وجود الهندوسي لا يمنحه هذه الفرصة.

يستوي التسامح والتَّعَصُّب حيال ممارسة شخص ما لدينه من جهة أن الواحد منهما يفترض استنكار الآخر لهذه الممارسة. يتسامح المرء مع ممارستهم لدينهم لو أن المرء يستنكر الممارسة لكنه رغم ذلك يتحملها. أو بمعنى أدق: لو أن المرء يتحملها عن طيب خاطر. لو أن المرء يتحمل ممارسة الشخص الآخر لدينه فقط لأن القانون يلزمه بذلك، فهذا ليس بتسامحٍ.

يتفاوت الرفض في الحِدَّة، كما يفعل حيال ممارسة الشخص الآخر لدينه أو دينها والذي يعاني وطأة رفض المرء لممارسته. ربما الأمر الذي يزعجني هو الحقيقة الصِّرْفَة المتعلقة بوجود بالغ عقلاني يعتقد ظاهريًا في مثل هذا الهراء السخيف، ربما

هي حقيقة أنه يجعلني أشعر بعدم التأكد والارتباك تجاه ديني، ربما هو نفوره من المشاركة في حروب أمتنا. يتفاوت التسامح والتَّعَصُّب أيضًا في الحِدَّةِ، ويأتيان بعديد الأشكال. وعلى الرغم من عدم تأييدي لإرغامك على عدم ممارستك لدينك وممارسة دين آخر بدلًا من ذلك، فإنه يمكنني أن أتجنبك، أو أستهزئ بك، أو أؤيد عدم معاملتك بمساواة مثلنا من جهة الدولة، أو أؤيد حيازتك لحقوق مدنية أقل منّا، وما شابه ذلك. وفي عدم تأييدي لإرغامك، فإنني لدرجة ما، أتحمل ممارستك لدينك؛ إلا أنني، رغم ذلك، أسخر من دينك، و[حينها] فإنني لا أتحمل ممارستك له. إن سلوكي خليطٌ من التسامح والتَّعَصُّب.

ومع أخذ رفضي لأن تمارس دينك بعين الاعتبار كمعطى، يصبح التسامح اختيارًا حيويًا بالنسبة لي لو أنني اعتقدت أن ديني وأخلاقيتي يسمحان به. وهنا تكمن أعظم عقبة أمام التسامح: يعتقد الكثير من الأشخاص المتدينين، عبر العصور وحتى اليوم، أن دينهم يَفْرِضَ عليهم التسامح مع الآخر. يأمر الله بإخماد الهرطقة. ويأمر الله (في النسق الإسلامي بالتحديد) بقتل الكافر. إن تبدُّلًا لاهوتيًا عميقًا في عقلية المسيحيين الغربيين هو الذي جعل من انبثاق التسامح الديني الواسع الانتشار في الغرب أمرًا ممكنًا.

وما هو الأمر الذي يُحَفِّز الناس على تجاوز الاعتقاد بأن التسامح جائز للتسامح واقعيًا حيال ممارسة دين ما يرفضونه؟ في بعض الأحيان، يكون المحفز اعتبارات استتباعية[1]: وعي مُتَنَبِّه للشرور الشخصية والاجتماعية الكبيرة النابعة من التَّعَصُّب، والمقترنة، ربما، بجاذبية أشكال الخير الشخصية والاجتماعية لمدى يظنون وفقه أن التسامح من شأنه أن يُثْمِرَ. قاد نزيف الدماء المرَوِّع في القرن

---

(1) Consequentialism – الاستتباعية: بحسب موسوعة ستانفورد للفلسفة، هي المنظور المتعلق بأن الخصائص المعيارية تعتمد فقط على التبعات والنتائج. يمكن تطبيق هذه المقاربة العامة بمستويات مختلفة لخصائص معيارية مختلفة لأنواع مختلفة من الأشياء، لكن المثال الأبرز للاستتباعية يتعلق بالصواب أو الصحة الأخلاقية للأفعال، والتي تنص على أن كون الفعل صائبًا على المستوى الأخلاقي أو لا، يعتمد فقط على تبعات ونتائج هذا الفعل أو شيء ما مرتبط بهذا الفعل، مثل الدافع وراء الفعل أو قاعدة عامة تتطلب أفعالًا من هذا النوع.

https://plato.stanford.edu/entries/consequentialism/ (المترجم)

السابع عشر المسيحيين الأوروبيين لاستنتاج أن أيًا كان ما قيل لصالح التَّعَصُّب الديني، فإنه أتى بثمن باهظ.

ومع ذلك، تكون حالة استتباعية ما للتسامح غير مستقرة. قد تتغير الظروف، كي لا تبدو التكاليف الشخصية والاجتماعية للتَّعَصُّب غير مقبولة بعد الآن. إن الحالة الأكثر جوهرية للتسامح الديني هي أن التَّعَصُّب ظالم؛ إنه يجور على الشخص الذي يُعامَل بتَّعَصُّب. إنه يجور عليها بوصفها إنسانة تمتلك كرامة ذات قيمة. أن تكون غير متسامح تجاه ممارستها لدينها يعني أن تنتهك كرامتها، أن تعاملها كما لو أنها لا تمتلك قيمة، وهذا يعني الإساءة إليها.

وبالتالي، ستحاجج حالة تامة للتسامح الديني والتي وَظَّفَت مصادرَ النَصِّ المقدس المسيحي والتقليد اللاهوتي المسيحي، أولًا، أن النص المقدس المسيحي واللاهوت يجيزان التسامح الديني؛ ومن هذه النقطة ستستكمل حجاجها بأن البشر جميعًا يمتلكون كرامة، وستختتم قولها بأن التَّعَصُّب الديني انتهاكٌ لهذه الكرامة. في هذه المقالة، سأفترض إمكان الدفاع عن هذه الادعاءات الثلاثة على أساس النَصِّ المقدس المسيحي والتقليد اللاهوتي المسيحي. وبدلًا من تدعيم هذه الادعاءات هنا[1]، سأشير لنسق في التقليد المسيحي يتعلق بفحوى أو معنى اقتراف ظلم التَّعَصُّب الديني بحق شخص ما - أو أي شكل آخر للظلم.

أن تعامل شخص بظلم، أن تنتهك قيمته أو كرامته، لا يعني فقط أن تسيء إليه، لكنه أيضًا يعني الإساءة لله. وبقدر معرفتي، كان هذا النسق بارزًا في فكر جون كالفن John Clalvin (1509 — 1564) أكثر من أي لاهوتي آخر ينتمي للتقليد؛ ولهذا السبب، سيتخذ تطويري للنسق شكلًا شارحًا للاهوت كالفن المتعلق بالظلم الاجتماعي.

(1) فعلت ذلك في مقالي: "هل يمتلك المسيحيون أسبابًا جيدة لدعم الديمقراطية الليبرالية؟
"Do Christians Have Good Reasons for Supporting Liberal Democracy?" in The Modern Schoolman (LXXVIII, January/March 2001), 229-248.

الخلفية الأوغسطينية[1]

يلزم علينا، لفهم جرأة فكر كالفن بشكل كامل بخصوص هذه المسائل، تذكُّر طريقة التفكير في مكانة المعاناة عند الإنسان والحياة الإلهية التي تسيَّدت عند أسلاف كالفن. من الواضح أن هذا ليس المكان [المناسب] لاستكشاف وتلخيص أكثر من ألف عام من الفكر. لذا، سأقيِّد نفسي بالنظر في أمر أوغسطين، من جهة أن رؤاه بخصوص هذه الأمور عبَّرت عن عقلية مُرَسَّخة بقوة في وقته وشكَّلت فكر اللاحقين عليه بقوة. إن رؤى أوغسطين التي سألخصها هي تلك التي تبلورت في Confessions – الاعترافات وكتابين آخرين كتبهما تقريبًا في نفس الوقت، عن الدين الحقيقي – Of True Religion وعن المذهب المسيحي – On Christian Doctrine. وفي أواخر حياته، عندما كتب مدينة الإله – City of God، تغيرت رؤاه إلى حدٍ ما[2].

في فقرة من الكتاب الرابع من الاعترافات يبرز أوغسطين، بشكل كامل، الأسى الذي استحوذ عليه عقب موت صديق من قريته (موطنه)، والذي عرفه أيام المدرسة، في طاغاست (سوق أهراس حاليًا) Tagaste بشمال أفريقيا.

"ادلهمَّ قلبي بتلك الفاجعة، فكان الموت وحده ماثلًا في كل ما كنت ألمحه. وكان في الوطن عذاب وفي منزلي شقاء مدهش. كل ما تشاركنا فيه، قد تحول الآن إلى معاناة مهولة بدونه. كانت عيناي تبحثان عنه في كل مكان، لكنه لم يكن هناك ليُرى. وكنت أكره كل الأماكن التي عرفناها سويًا، لأنه لم يكن فيها، ولم تعد تقدر أن تهمس لي، "ها هو آتٍ!" تمامًا كما كانت تفعل في حياته عندما كان يتغيب فترة ما ... كانت روحي عبئًا، منجرحةً، وتنزف. سئمت

(1) ما يرد في هذا المقال هو، بشكل كبير جدًا، نفس مقالي "جراح الله: لاهوت كالفن عن الظلم الاجتماعي – The Wounds of God: Calvin's Theology of Social Injustice"، المنشور في دورية:

The Reformed Journal (37: 6; June 1987), 14-22.

(2) لباقي الموضوع، انظر الفصل الثامن من كتابي:

Justice: Rights and Wrongs (Princeton: Princeton University Press, 2008).

روحي من الرجل الذي حَمَلها، لكنني لم أجد مكانًا لأريحها فيه". (IV، 4، 7)[1].

مات صديقه قبل اعتناق أوغسطين المسيحية، وتلاه موت أمه. جعل هذا الاعتناق من استجابة أوغسطين لموت أمه استجابة مختلفة بعمق عن استجابته لموت صديقه. فيقول:

"أغْلَقْت عينيها، وانصبَّت موجة من الحزن العارم في قلبي. كان لها أن تفيض بالدمع لو أنني لم أبذل جهدًا مضنيًا وليد إرادتي لإيقاف الانهمار، وجفَّت الدموع في عيناي. ويالها من صراع مرير لأكبح هذه الدموع! أما عندما لفظت أنفاسها الأخيرة، فإن الصبي أديوداتوس Adeodatus [ابن أوغسطين] أجهش بالبكاء، وسكت عندما نَهَره الجميع. أنا أيضًا شعرت بأنني أريد البكاء كصبي، لكن صوتًا أنضج داخلي، صوت قلبي، أمرني بكبح بكائي، وظللت صامتًا. (الاعترافات، IX، 12)[2].

لم يكن كفاح أوغسطين للتحكم في ذاته ناجحًا. يقول إنه، بعد الدفن، حينما أوى إلى فراشه وهو يفكر في أمه الصالحة، "وانهمرت الدموع التي كنت حبستها، وتركتها تنساب ما شاء لها أن تنساب، والقلب مني قد تَوَسَّدها ولقي فيها الراحة" .. وكما يقول للإله، "لذا، أقرّ لك باعترافي، فليقرأه من يريد ... وإن وجد في بكائي على أمي خطيئة، حتى ولو لمدة قصيرة، لا تدعه يسخر مني ... بل دعه يبكي حاله إن كان ذا إحسان كبير. دعه يبكي على خطاياي أمامك ...". ليست الخطيئة التي يريد أوغسطين من الرجل المحسِن أن يبكي عليها بكاءه على موت أمه بقدر ما كانت خطيئة مفادها أن البكاء كان علامة على أنه، وكما يقول، "مذنب بالتعلّق الدنيوي الزائد عن الحد". (IX، 12).

---

(1) تم الاستعانة باعترافات القديس أوغسطين من المصدر التالي:

القديس أغستينوس: "اعترافات"، ترجمه عن اللاتينية: إبراهيم الغربي، مراجعة: محمد الشاوش، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، 2010، ص: 100. بتصرف يتلاءم والاقتباس الذي يسوقه الباحث باللغة الإنجليزية. وتلزم الإشارة إلى أن الأرقام التي يسوقها الباحث في المتن، في مصدر اقتباسه، تختلف عن نسخة الترجمة باللغة العربية. (المترجم)

(2) قارن مع القديس أغستينوس: "اعترافات"، سبق ذكره، ص: 289. (المترجم)

كيف لنا أن نفهم العقلية التي تقوم بالتعبير عن نفسها هنا؟ أقترح إزاء السطور التالية بأن أوغسطين، ومعه كل القدامى، اعتقدوا أنه لكي تكون إنسانًا يعني أن تبحث عن السعادة ـ eudaimonia باليونانية، beatitude باللاتينية. أيضًا، اتفق أوغسطين مع التقليد الأفلاطوني في قناعته بأن الحب عند الإنسان هو المحَدِّد الرئيس لسعادته. لم يتخيل أوغسطين قط أننا، نحن البشر، باستطاعتنا احتثاث الحب بالكامل من حيواتنا.

كان من الواضح لأوغسطين، كما هو واضح لنا كذلك، أن الأسى يَنْتُج عندما يُدَمَّر أو يموت ذلك الذي نحبه. يقول حين تفكيره في أساه على موت صديقه، "لقد عشت في بؤس مثل كل شخص مربوطة روحه بحب الأشياء التي لا يمكنها أن تدوم، ويتمزق عندما يفقدها ... لقد صعقني الأسى الذي شعرت به لفقد صديقي حتى أعمق مكان من صميم قلبي، ببساطة لأنني سكبت روحي عليه كما الماء على الرمال، أن تحب إنسانًا فانيًا كما لو أنه لن يموت أبدًا". (الاعترافات، IV، 6، 8)[1].

يكمن العلاج في أن يفصل المرء حبه عن مثل هذه الأشياء وأن يربطها بشيء ثابت ولا يمكن تدميره. وعند أوغسطين، كان الإله هو المرَشَّح الوحيد. "مباركون هؤلاء الذين يحبونك، يا إلهي ... لا يمكن لأحد أن يخسرك ... إلا لو تركك". (الاعترافات، IV، 9).

لا يجب تفسير أوغسطين على أنه يعارض كل مُتَعِ الأشياء الدنيوية: الطعام والشراب والحديث والجمال المرئي والموسيقى. [كان أوغسطين] متشككًا ومنتبهًا، نعم؛ [كان أوغسطين] معارضًا [بالكلية]، لا. يتعلق موضوعه في الاعترافات فقط بأنه يجب علينا احتثاث كل الحب للأشياء التي سيسبب موتها أو دمارها الأسى لنا. يكون الاستمتاع بمذاق فاكهة الكيوي مقبولًا شريطة أن لا يشعر المرء بالأسى إذا ما أصبحت فاكهة الكيوي غير متوفرة. وإن كان لا يجب علينا أن نحب العالَم، قد نستمتع به. لكن يلزم الإقرار بأن أوغسطين يتحدث قليلًا، أو لا يتحدث، بطريقة تؤسس لمشروعية مثل هذا التمتُّع. في

---

(1) قارن مع المصدر السابق، ص: 101 ـ 104. (المترجم)

الفقرة الأشهر من الكتاب العاشر من الاعترافات حيث تنطق الأشياء المخلوقة، فإن ما تقوله ليس "تلقانا بتمتُّع كبركات الإله"، وإنما "انصرف عنا لخالقنا". أيضًا، كان أوغطسين شغوفًا بقول إن أشياء هذا العالَم تُسْتَخْدَم (Uti) [أي أن تُحَب لأجل شيء آخر أو كوسيلة لغاية أسمى] بينما الإله وحده يتم التمتُّع به (frui) [أي التمتُّع به في ذاته].

اعتقد أوغسطين أن الكفاح لإزالة حب المرء للأشياء الدنيوية لا يكتمل أبدًا في هذه الحياة؛ لا تنتصر الذات المسّيَّرة مؤخرًا بشكل كلي على الذات القديمة. يُقَدِّم هذا الاعتقاد نمطًا جديدًا من الأسى لحيواتنا-وهو نمط مشروع. إننا نشعر بالأسى حيال كل تكرار لظهور الذات القديمة مرة أخرى - وبالتماثل، للابتهاج حيال اختفائها. كذلك - وبأكثر الأشكال استثناءً - نأسى على خطايا الآخرين ونبتهج بتوبتهم. على كل منا الترابط في تضامن للابتهاج والأسى مع كل الإنسانية-الابتهاج والأسى على الأشياء الصائبة، وأعني، على الشرط الديني لأرواحنا[1]. إنني أبتهج وأشعر بالأسى حيال الشرط الديني لروحي، وبنفس الطريقة، حيال الشرط الديني لروحك. إن هذا الاستثناء هام. إلا أن القاعدة العامة هي كفاحنا لمحو الأسى من حيواتنا من خلال الكفاح للتركيز على حبنا والإله وحده.

تعلَّق كل ذلك بنا كبشر. إن ما يقوله أوغسطين عن الله هو النسخة المطابقة والمناظرة بشكل يزيد أو ينقص. إن حياة الله سعيدة بكل ما في الكلمة من معنى. ليس ثمَّة اضطراب عاطفي في الله. أما عن التعاطف، والمعاناة (أو أن يعاني) مع هؤلاء الذين يعانون، لا يشعر الله بشيء، كما لا يشعر الله كذلك بالألم بسبب نقص التقوى في مخلوقاته الضالَّة. إن حالة الله هي التي يطلق عليها اليونانيون أباثيا Apatheia [أي الخلو من الانفعال]. يقيم الله أزليًا في أباثيا سعيدة لا تُعاني. لا شيء مما يحدث في العالم يُبَدِّل سكينة الله التي لا تتزعزع. ليس الله بغافلٍ عن العالَم؛ يوجد في الله نزوع ثابت للإحسان تجاه

(1) في كتاب The City of God، يعتقد أوغسطين أنه من الملائم كذلك أن نأسى على المصائب التي تُلِمُّ بنا أو برفقائنا، ويكون المعنى الضمني متعلقًا بعدم سعينا لتحقيق سعادة تامة وكاملة في هذه الحياة الحاضرة. وكما سنرى، يتفق كالفن بالأساس مع أوغسطين المتأخر في هذه النقطة.

مخلوقاته البشرية. لكن هذا النزوع المتعلق بالفعل الإحساني يمضي في مساره الناجح مهما يحدث في العالَم.

لهذا الفهم لله سببان عند أوغسطين والقدامى الآخرين أساسًا. أولًا، أنهم كانوا مقتنعين للغاية بفكرة أن وجود الله وجودٌ تامٌ، ولم يكن بمقدورهم تخيُّل وجود تام سوى لسعادة بكل ما في الكلمة من معنى لا يزعجها [أي حادث]. وبما أنهم اعتقدوا في ثبوت الله، فإنهم لم يعتقدوا في أن وجود الله التام شيء لزم على الله انتظاره؛ فذلك الأمر نفسه سيكون علامة على النقص.

ثانيًا، اعتقدوا أنه لو كان لله أن يعاني ويأسى، فإن شيئًا خارج الله سيتكفل بإحداث ذلك في الله ـ الفعل الشرير للإنسان على سبيل المثال. لكن سمة الإله المتعلقة بثبوته ووجوده لا تتأثر بأي شيء خارج الذات الإلهية. إن الله هو الشرط غير المشروط لكل شيء لا يتطابق مع الله. قاد هذا النمطان من التفكير، وأقصد تمتع الله بالوجود التام وكون الإله الشرط غير المشروط، لمذهب اللامبالاة عند الله ـ أو كما أطلق عليه تقليديًا عدم تأثُّر الإله impassibility [1].

كالفن والظلم بوصفه إساءة لله

دعونا الآن ننتقل لكالفن، ولنبدأ ببعض التعليقات التي قالها كالفن عن لاهوت الظلم الاجتماعي الخاص به، ثم نقتفي أثر المسار الذي قاد كالفن لادعاءاته الجريئة. وفي سبيل تنفيذ هذا المشروع الخاص بالتعليق على كتب الإنجيل، ووجه كالفن بالآية التالية في تعليقه على سفر التكوين — Commentary on Genesis:

وَمِنْ يَدِ الإِنْسَانِ أَيْضاً أُطَالِبُ الأَخَ بِنَفْسِ أَخِيهِ الإِنْسَانِ.
فَسَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ
يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِسَفْكِ دَمِهِ
لأَنَّ اللهَ خَلَقَ الإِنْسَانَ

---

(1) باللاتينية inpassibilis وتعني عدم القدرة على المعاناة وانعدام التأثر العاطفي. وهو مذهب لاهوتي يكون الله فيه غير قادر على المعاناة وفق طبيعته الإلهية. (المترجم)

عَلَى صُورَتِهِ (التكوين 9: 5–6).

يُعَلِّق كالفن كما يلي:

لا يستحق البشر بالفعل رعاية الله لو أن الاحترام سيكون من نصيبهم فقط؛ لكن، بما أنهم يحملون صورة الله وهي منقوشة فيهم، فإن الله يعتبر نفسه مُنْتَهَكًا بسببهم (أو في شخصهم). بالتالي، وعلى الرغم من عدم امتلاكهم لشيء يجعلهم حائزين على فضل الله، إلا أن الله ينظر إلى عطاياه فيهم، وبذلك فالله يسعد بحبهم والاهتمام بأمرهم. ومع ذلك، يلزم ملاحظة هذا المذهب بترو، فلا يمكن للمرء أن يكون جارحًا لأخيه بدون أن يجرح الله نفسه. ومتى كان هذا المذهب راسخًا في عقولنا، سنكون أكثر ممانعة مما نحن عليه فيما يتعلق بإلحاق الجروح.

إن الفكرة هنا مذهلة. فالله "يعتبر نفسه مُنْتَهَكًا بسببهم (أو في شخصهم)"، و"لا يمكن للمرء أن يكون جارحًا لأخيه بدون أن يجرح الله نفسه". ولكي يوضح أن الحديث بهذه الطريقة لم يكن مجرد تنميق خَطَابي مُزَخْرَف لا يتم أخذه بجدية، يضيف كالفن أن هذا المذهب يلزم "ملاحظته بترو". يلزم أن يكون هذا المذهب "راسخًا في عقولنا". لكي تُلْحِقَ جرحًا بإنسان يعني أن تجرح الله. وراء وأسفل البؤس الاجتماعي في عالمنا توجد معاناة الله. أن تطارد العدالة يعني أن تخفف من معاناة الله. ولو أننا اعتقدنا في ذلك حقًا، سنكون أكثر ممانعة مما نحن عليه فيما يتعلق بإلحاق الجروح.

يلزم التعامل مع آية ثانية قبل تعيين حدود المسار الذي قاد كالفن لهذه الاستنتاجات المذهلة والمثيرة، ونجد ذلك في تعليقه على حبقوق – Commentary on Habakkuk. والنص الذي يُعَلِّق عليه هو:

كَذَلِكَ تَأْخُذُ المُغْتَرَّ نَشْوَةُ الانْتِصَارِ فَلاَ يَسْتَكِينُ،

فَإِنَّ جَشَعَهُ فِي سَعَةِ الْهَاوِيَةِ،

وهُوَ كَالْمَوْتِ لَا يَشْبَعُ.

لِهَذَا يَجْمَعُ لِنَفْسِهِ كُلَّ الأُمَمِ

وَيَسْبِي جَمِيعَ الشُّعُوبِ.

وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْخَرَ مِنْهُ سَبَايَاهُ قَائِلِينَ:
وَيْلٌ لِمَنْ يُكَوِّمُ لِنَفْسِهِ الأَسْلاَبَ،
وَيَثْرَى عَلَى حِسَابِ مَا نَهَبَ. إِنَّمَا إِلَى مَتَى؟ (حبقوق 2: 5-6).

وفي تعليقه على صرخة "إلى متى؟" بالتحديد، يقول كالفن:

إن هذا إملاء من الطبيعة ... عندما يزعج أيُّ أحدٍ كلَّ العالَم بطموحه وجشعه، أو حين يرتكب النهب في كل مكان، أو حينما يقمع أممًا بائسة ـ عندما يصيب الأبرياء بنكبة، يصرخ الكل [قائلين] إلى متى؟ وهذه الصرخة، التي تمضي من الشعور بالطبيعة وإملاء العدالة، تصل في نهاية المطاف إلى مسامع الله. وكيف يصرخ الكلُّ، وهم يعانون من الضَعْف، إلى متى؟ إلا لأنهم يعلمون أن هذا الاختلال في النظام والإنصاف لا يمكن تحمُّله؟ أليس هذا الشعور مُرَسَّخًا فينا بواسطة الله؟ هذا الأمر هو ذاته كما لو أن الله سمع بنفسه، أي عندما يسمع صرخات وتأوهات هؤلاء الذين لا يطيقون الظلم.

مرة أخرى، هذه الفكرة مذهلة. إن صرخاتِ ضحايا الظلم صرخةُ الله. إن تألم الضحايا وهم يصرخون "إلى متى؟" هو الله نفسه وهو يمنح الصوت لتألم الله.

موقف كالفن المضاد لأوغسطين عن التمتُّع والأسى

ما هو مسار الفكر الذي قاد كالفن للاهوت جريء بشكل غير اعتيادي كهذا عن الظلم الاجتماعي؟ يمكننا البدء بشكل مفيد بمعارضته للموقف الأوغسطيني بخصوص موقع الأسى في حياة الإنسان، وأقصد سعينا لإزالة كل الأسى من خلال المجاهدة لحب الله والله وحده، مع الاستثناء المتمثل في أسى المرء على إخفاقه وأساه على رفيقه الإنسان لتحقيق نفس الأمر. يقول كالفن، "هناك، بين المسيحيين، صنفٌ آخر من الرواقيين ممن يحسبونه ضلالًا؛ ليس أن يئنَّ الإنسان ويبكي فقط، بل أن يحزن ويقلق أيضًا"[1] (أسس، III، viii، 9).

---

(1) تمَّ الاستعانة بترجمة كتاب Institutes of The Christian Religion لجون كالفن– الذي يشير إليه ولترستورف بـ Institutes – مع تصرفات بسيطة نشير إليها في موضعها. وهكذا سنشير إليه في المتن بكلمة "أسس".

وفي هذا فهم مخطئون. ليس هدفنا أن تتخدّر تمامًا أو أن تَنْمَل أحساسيك عن الشعور بالألم. فكم يختلف عمّا وصفه الرواقيّون القدامى بحمقٍ بـ "الرجل ذي النفس السامية": وهو الذي فَقَد جميع المعالم الإنسانية فكان لا توجعه فاجعة كما لا يبهجه ازدهار؛ لا تحزنه مرائر الزمن كما لا يشرح صدره إذ ابتسم له الدهر، لا، بل هو كالحجر لا يتأثر على الإطلاق. (المصدر نفسه)[1].

ثمَّ سببٌ لرفض المِثال الرواقي لأنه يرسم "صورة للاحتمال لم يُرَ لها مثيل في عالَم البشر، ويستحيل منالها". (المصدر نفسه). وفي وضعهم لهذا المثال المستحيل أمامنا، فإنه يتكفل بإلهائنا عن السلوك [المطلوب] تجاه المعاناة الذي ينبغي علينا تنميته.

فإن ابتُلينا بالمرض فسوف نئنّ ونتوجّع ونتوق إلى الصحة؛ ومن ثم نرزح تحت وطأة الفقر فتَخِزنا سهام الهمّ والأسى؛ وهكذا ينتابنا ألم المهانة والاحتقار والظلم؛ وكذلك سوف نذرف دموعًا كما تتطلب طبيعتنا البشرية عند حضورنا جنائز أعزائنا". (أسس، III، Viii، 10)[2].

كان عند كالفن سبب آخر لرفض المثال الرواقي. ويقول: "لقد أدان ربنا وسيدنا، ليس بكلمته فحسب؛ بل أيضًا بمثاله. فلقد أنَّ وبكى متألّمًا في محنته كما ندب مِحَنَ الآخرين. وعلَم تلاميذه بنفس الطريقة. فيقول "إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ، أَمَّا الْعَالَم فَسَيَفْرَحُ (يوحنا 16 : 20). ولكن لكي لا يحوّل أحدٌ ذلك إلى عيب، جاهَر علانية: "طُوبَى لِلْحَزَانَى" (متى 5 : 4). لا عجب! إن كان كل البكاء يُدان، فماذا نقول عن الرب نفسه الذي سالت من جسده دموع دماء (لوقا 22 : 44)[3]؟ إن كان كلّ الخوف يُحسب عدم إيمان، فكيف نتعامل مع

انظر: جون كالفن، "أسس الدين المسيحي"، ترجمة: القس أديب عوض، القس وليد هرموش، القس د. فيكتور مكاوي، تحرير: جورج صبرا، دار منهل الحياة بالاشتراك مع كلية اللاهوت للشرق الأدنى، بيروت، لبنان، ط2، 2018، مج1، ص: 654 (المترجم)

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها، بتصرف يسير. (المترجم)

(2) انظر المصدر السابق، ص: 655، 656. (المترجم)

(3) وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ، أَخَذَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ إِلْحَاحٍ؛ حَتَّى إِنَّ عَرَقَهُ صَارَ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ. (المترجم)

الرعدة التي ضُرب بها (متى 26 : 37، مارك 14 : 33)[1]؟ وإن كان كل الحزن يثير استياءنا، فكيف يسعدنا اعترافه بأن نَفْسه "حَزِينَةٌ جِدّاً حَتَّى الْمَوْتِ" (متى 26 : 38)؟"[2](أسس III، viii، 9)

لم يَعُد النظام الذي ينبغي علينا الالتزام به في وجه الحزن، والموت، والفقر، والخِزْي، والمذلَّة، والظلم نظام عدم الشعور بالأسى حيال هذه الأمور، أو أن نصبح غير مكترثين. اقتداءً بالمسيح، علينا أن ندع طبيعتنا التي منحها لنا الله تأخذ مسارها، وأن نُقَدِّرَ العدالة بحق عبر الشعور بالأسى حيال معاملتنا بظلم، وأن نُقَدِّرَ الحياة بحق عبر الشعور بالأسى حيال وفاة الذين نحبهم. ينبغي علينا أن ندع جروحنا تنزف، وأن تدمع أعيننا. فالنظام الذي ينبغي علينا الالتزام به هو نظام الصبر عند المعاناة. سأقول شيئًا عن طبيعة الصبر الكالفيني [باختصار] ولماذا يراه كالفن ملائمًا بعد قليل.

تأسست معارضة كالفن لكلٍ من الرواقية والأوغسطينية، بالتالي، في قناعته بأن الاثنتين يرسمان لنا مِثالًا مستحيلًا وغيرَ ملائِمٍ، يتناقض وطبيعتنا التي خُلقنا عليها، ومن ثمّ تلهيانا عن المِثال الملائم الذي يمكن تحقيقه بالصبر وقت المعاناة. لكن يسهل رؤية أن سلوكه حيال الأسى يتلاءم مع سلوكه حيال التمتُّع بأشياء هذا العالَم، ويدعمه هذا الأخير.

يحاجج كالفن، في فقرة مذهلة من كتاب "الأسس" (III، x، 2)، بأنه ينبغي علينا تقدير الأعشاب والأشجار والثمار، ليس فقط لاستخدامها في التغذية، وإنما كذلك لجمال مظهرها وحَلَاوَة الرائحة والطَّعْم، وفيما يتعلق بالملابس، لا ينبغي علينا تقدير استخدامها كضرورة للتدفئة فقط وإنما لوسامتها كذلك، وفيما يتعلق بالخمر والزيت، لا ينبغي علينا تقدير كونهم مفيدين فقط، وإنما كذلك [تقدير] أن الخمر يُفْرِح القلب ويجعل الزيتُ الوجهَ لامعًا. وكما لو كانت عينه على تمييز الاستخدام/التمتُّع الخاص بأوغسطين، يسأل كالفن خَطَّابيًا "وفي

---

(1) 37 "وَقَدْ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبَدِي وَبَدَأَ يَشْعُرُ بِالْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ" – "وَقَدْ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَبَدَأَ يَشْعُرُ بِالرَّهْبَةِ وَالْكَآبَةِ". على الترتيب كما وردا في الاقتباس. (المترجم)

(2) انظر المصدر السابق، ص: 654، 655. بتصرف يسير. (المترجم)

كلمة: ألم يمنح الله الأشياء الكثيرة بهاءً يجذبنا إلى جانب استعمالها؟"، ويجيب بأن الله فعل ذلك. لذا دعوا هذا "يكون مبدأنا: استعمال عطايا الله لا يكون خطأ إذا سُخِّر للغاية التي عيّنها لنا الخالق نفسه، إذ أنه خلقها لخيرنا وليس لدمارنا"[1].

رأى أوغسطين أشياء العالم حصريًا، تقريبًا، باعتبارها أعمال الله؛ وبالتالي فهو يلح علينا أن نُحوِّل نظرنا بعيدًا عنها فننظر لخالقها. ينبغي رؤيتها كفائدة فقط بمقدار كونها مفيدة لوجودنا المستمر ولتعبُّدنا لله. يتخلل فكر كالفن، على النقيض، إصراره على أنه ينبغي علينا رؤية أشياء العالَم، ليس فقط باعتبارها أعمال الله، وإنما أيضًا باعتبارها عطايا الله لنا، وهي ليست عطايا في استخدامها فقط، وإنما في كونها ممتعة. ويقول كالفن "هذه الحياة، مهما امتلأت من شقاوات لا تتناهى، لا تزال تُحصى بحق بين بركات الله التي يجب ألا نكفُرها. لذلك إن لم نتعرف فيها إلى إحسان إلهيّ صرنا مذنبين بنُكران صنيع الله نفسه"[2]. (الأسس، III، ix، 3).

لا يمكن للمرء المبالغة في التوكيد على تخلُّل هذا النسق عند كالفن والمتعلق بالعالم كعطية الله لنا للاستخدام والتمتُّع، والنسق النقيض من صواب الامتنان. لم يكن هنا قط لاهوتي طقسي أكثر تقديسًا [لله] من كالفن، ولا شخص أكثر امتلاءً بشعور أنه في هذا العالَم، والتاريخ، الذات، نلقى اللهَ. "دعونا، إذًا، من تلك الفلسفة اللاإنسانية التي، فيما تسمح بالاستعمال الضروري للمخلوقات، لا تتوقف عند حرماننا على نحو مؤذٍ من الثمر المباح من جود الله، بل يستحيل تطبيقها إلا إذا جرّدت الإنسان من كلّ حواسه ومسخته حجرًا"[3]. (الأسس، III، x، 3)

(1) انظر المصدر السابق، ص: 666. بتصرف يسير. (المترجم)

(2) انظر المصدر السابق، ص: 660. بتصرف يسير. (المترجم)

(3) انظر المصدر السابق، ص: 667. بتصرف يسير. (المترجم)

حَمْلُ صورة الله

قلت [من قبل]، لكي نفهم لاهوت كالفن المتعلق بالظلم الاجتماعي ولتقدير جرأته يلزم علينا إدراك رؤيته المضادة للرواقية والمضادة للأوغسطينية بخصوص موقع الأسى في الوجود الإنساني، وبالتماثل، رؤيته لموقع التمتُّع. لا يقول المرء للتي تعاني من الظلم أنه لا يجب عليها الاهتمام بالعدل للدرجة التي تجعلها تأسى على انتهاكه ـ وأنه يجب عليها أن تحب الله فقط. على النقيض، يشجع المرء الأسى. لكن ثمَّة مُكَوّن آخر على المسار الذي قاد كالفن لاستناجاته الراديكالية، وأعني أفكاره عن صورة الله في البشر.

فخُلِق الإنسان على صورة الله، فمن خلاله أراد الخالق نفسه أن يعكس مجده كما لو في مرآة" (الأسس، II، xii، 6)[1]. ليس ما يعنيه كالفن بالتأكيد، وما يقوله باللاتينية إن الذكور من البشر هم الذين خُلِقوا على صورة الله، وإنما الذكور والإناث من البشر على السواء خُلقوا على صورة الله. "ينظر الله إلى نفسه، كما يمكن للمرء القول، ويبصر نفسه في البشر كما في مرآة" (موعظة عن إنجيل يوحنا 10 : 7؛ تم اقتباسها في T.F Torrance, Calvin's Doctrine of Man). "إن أبناء الله محبوبون لديه ومبهجون له، إذ يرى فيهم سمات جبينه وعلاماته ... إن الله كلما يتفرَّس في وجهه، يحبّه ويكرّمه بحق ..." (الأسس، III، xvii، 5)[2].

ينظر الله إلى صنعه. ويلاحظ اللهُ أن البشر أيقونات للذات الإلهية. يلاحظ الله أنهم يعكسونه كالمرآة، أنهم صورته، أنهم صور الله. وبهذا [الأمر] يبتهج الله. وهذا ما يُحَرِّك حب الله تجاههم. يبتهج الله بأعمال الله. لكن، يتفرّد البشر عن باقي المخلوقات الأرضية في أنه، فيهم، يجد الله الكمالات معكوسة بأوضح شكل ممكن عائدة للذات الإلهية.

تكمن نتيجة هذه الحقيقة المتعلقة بعَكس كل إنسان لصورة الله في وجودنا، كبشر، في وحدة عميقة مع بعضنا البعض: أن ترى إنسانًا آخر يعني أن ترى

---

(1) انظر المصدر السابق، ص: 440. بتصرف يسير. (المترجم)

(2) انظر المصدر السابق، مج 2، ص: 752. بتصرف يسير. (المترجم)

مخلوقًا آخر يُبْهِج الله من خلال عَكْسِ (صورة) الله [كمرآة[1]]. لا يمكن أن توجد قرابة أعمق من هذه بين مخلوقات الله. أيضًا، يعكس كلٌّ منا الله في نفس النواحي - رغم أن البعض يفعل ذلك بشكل أكبر أو أقل كما سنرى بعد قليل. وبالتالي فإننا، بطريقة اشتقاقية، نشبه بعضنا البعض. يمكن للمرء القول بأننا نعكس بعضنا البعض. بالنظر لك ولي، يجد الله ذاته الإلهية معكوسة. ومن ثمَّ، في نظري إليك، أدرك أيضًا، في اللحظة التي تُفْتَح فيها عيناي، أنك تعكس الله [كمرآة] وأنك تعكسني. إنني أدرك نفسي كما لو كنت في مرآة. أدرك صورة عائلية. وكما يصوغها كالفن:

"لا يمكننا إلا أن ننظر إلى وجوهنا، كما لو كانت في زجاج، في الشخص الذي هو فقير ومُحْتَقَر .. رغم أنه كان أبعد غريب في العالم . دع عَربيًّا أَندلُسِيًّا أَو أَفريقيًّا (من القرون الوُسطى) أو بربريًا يأتي بيننا، وبما أنه بشر، فإنه يُحضر معه زجاجًا للنظر يمكننا أن نرى فيه أنه أخونا وجارنا. (موعظة عن إنجيل غلاطي 6 : 9–11، تم اقتباسه في R. S. Wallace، Calvin's Doctrine of Th Christian Life، 150).

وهناك الذين حاججوا بأن صورة الله فينا يمكنها أن تُمحى، وفي بعض الحالات تم محوها. ويرفض كالفن ذلك.

ولإن اعترض أحدهم، فيما يتعلق بأن الصورة الإلهية قد مُحيت، فالحل سهل؛ أولًا، لا زال أثرٌ منها موجودًا، كي لا يمتلك الإنسان كرامة ضئيلة؛ وثانيًا، لا زال الإله السماوي نفسه، مهما فسد الإنسان، ينظر بعين العناية لغاية خلقه الأصلي؛ وطبقًا للاقتداء به، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الغاية التي خلق لأجلها البشر، وما هي الأفضلية التي أسبغها علينا [وميَّزنا بها] دونًا عن بقية الكائنات الحية. (تعليق على سفر التكوين، 9 : 6).

---

(1) يشير ولترستورف إلى عَكْس الإنسان لصورة الله كالمرآة بلفظ to mirror، وكل مرة يرد فيها كلمة عَكْس، فالمقصود بها mirroring ما لم يتم الإشارة لغير ذلك. (المترجم)

ليس ثمة شيء يمكنه الحدوث للإنسان، وليس ثمة شيء يمكن للإنسان فعله لكي يتسبب في إمّحاء صورة الله فيه. رغم أن عكس الإنسان لله [كما المرآة] يمكن أن يتشوه وينطمس ويتضاءل، إلا أنه لا يُزال بالكلية.

وبشكل طبيعي نريد أن نعرف أين تكمن أيقونيتنا؟ بأي الأشكال نعكس صورة الله التي تعود مرة أخرى للذت الإلهية ومن ثمّ لبعضنا البعض؟ يقدم كالفن قاعدتين عامّتين للإجابة على هذا السؤال، أولًا، تُدْرَك أيقونيتنا فيما يميزنا عن بقية المخلوقات الأرضية: "نعمة الله الفريدة التي سمَت بالإنسان فوق سائر المخلوقات الحية" (الأسس، xv، 4)[1]. ثانيًا، مع الأخذ في الاعتبار أن تماثلنا مع الله قد يتزايد أو يتناقص، علينا تطبيق القاعدة التي تنص على أن هدفنا الأساسي من وجودنا الإنساني أن نصبح نظراءَ الله بقدر الإمكان . أو بلغة الكنيسة الشرقية الأرثوذوكسية، أن نصبح "مؤلَّهين" بقدر الإمكان. وكيف يمكن أن يبدو تماثل الإنسان الكلي مع الله؟ إننا نستوعب مثل هذه الإجابة في يسوع المسيح الذي كان "الصورة المعبِّرَة عن الآب".

عندما نتبع هاتين القاعدتين العامّتين ناظرين لتفردُّنا وإلى يسوع المسيح، نتعلم أمرًا وهو أن القادرين منّا على أن يكونوا أشخاصًا ربّانيين يقدرون على الفهم؛ وكلما اتَّسَعَ فهمنا ـ بالأخص فهمنا لله ـ نصبح شبيهين بالله. نتعلم أيضًا أن القادرين منا على أن يكونوا أشخاصًا ربانيين يحكمون عواطفهم وبالتالي يحكمون أفعالهم؛ وكلما كان قلبنا نزيهًا، نشبه الله أكثر. وعند كالفن، هذان هما التماثلان الأساسيان. لكن ثمَّة تماثلات أخرى أيضًا. إن حكمنا (المُنْتَدَب) للخلق عَكْسٌ لحكم الله، وتكويننا للمجتمعات عَكْسٌ للمجتمع المثالي الذي هو الثالوث. ليس ثمّة شك أننا اليوم نود إضافة مواضيع أخرى ـ على سبيل المثال، أن إبداعنا عَكْسٌ لإبداع الله.

---

(1) انظر المصدر السابق، مج 1، ص: 185. (المترجم)

الحب، والعدالة، وصورة الله

يؤسس كالفن مقولاته عن الحب والعدالة في ظاهرة عَكْسنا لصورة الله [كما المرآة]. والصورة القياسية عند كالفن هي أن الإلزام والواجب والمسؤولية والدعوة للطاعة يحتلون أهمية كبيرة في فكره؛ وبالفعل هم كذلك. لكن، يظل عند كالفن شيء أعمق منهم. في حياتنا المعتادة، نواجَه جميعًا ببشر آخرين. نجد أنفسنا في حضرة آخرٍ يقوم بسوق ادعاءات عنّا من خلال مزية كونه أيقونة لله. يمكن للتفكير الأخلاقي أن يبدأ إما من مسؤولية الفاعل تجاه الآخر أو من الادعاءات الأخلاقية للآخر عن الفاعل. إن الدرجة التي يبدأ منها كالفن ادعاءاته الأخلاقية عن الآخر مذهلة. يُعْرَض هذا النمط من التفكير بإصرار كبير في هذه الفقرة:

"إن الله يأمر جميع الناس، بلا استثناء، "أن يفعلوا الخير". ولكن أكثرهم لا يستأهلون إذا حُكم عليهم بحسب استحقاقهم. لكن هنا يقدِّم الكتاب أفضل إرشاد، إذ يعلّم بألّا ننظرَ إلى الناس بحسب أهليتهم، بل أن نرى صورة الله فيهم، والتي ندين لها بكل الإجلال والحب ... لذلك أيًّا كان الإنسان الذي تصادفه محتاجًا إلى معونتك، فليس لديك سبب لرفض مساعدته. تقول "إنه غريب"؛ لكن الرب وضع عليه علامة لا بدَّ من أن تبدو مألوفة لك، باعتبار أنَّه قد حرَّم عليك أن تتغاضى عن لحمك. تقول "إنه وضيعٌ وتافهٌ"؛ لكن الربَّ يُظهره كشخصٍ شاء أن يمنحه بهاء صورته. تقول إنك لست مدينًا بتقديم أي خدمة له؛ لكن الله وضعه مكانه لكي تعترف أمامه بكثرة الإحسانات التي تدين بها لله. تقول إنه لا يستحق أن تبذلَ لأجله أقل جهد، لكن صورة الله التي تزكّيه لك، جديرةٌ بعطاء ذاتك وكلّ ما تقتنيه. والآن، إذا لم يكن مستحقًّا لجودك فقط، بل وإن استفزك بأفعاله ولعناته، فلن يبرّر ذلك أن تمتنع عن معانقتك إياه بالحبّ وتأدية واجبات المحبة نحوه. ستقول "لقد استحق شيئًا يختلف كثيرًا مني". لكن ماذا استحقّ الرب؟ ... فلنتذكر أننا مطالبون بألا نبالي بسوء نيّات الناس، بل بأن نتطلع إلى صورة الله فيهم، وهي ما يلغي ويمحو

تعدياتهم، وبجمالها وكرامتها تجذبنا لنحبّهم ونضمّهم إلينا[1]. (الأسس، III، vii، 6؛ بتصرف يسير في الترجمة).

عديد الأشياء في هذه الفقرة مدهشة، بالإضافة لتأسيس ادعاءات الحب والعدالة اللافت للنظر في أيقونيتنا المتأصلة. منها الإصرار المتشدد لكالفن على أن استحقاق الشخص الآخر أو نقص الاستحقاق أمر غير متصل بالموضوع، باعتبار أن أيقونيتنا هي التي تؤسس هذه الادعاءات. دومًا يريد مُقْتَرِفو الظلم غير ذلك. لو أن المدعوين بالسود في جنوب أفريقيا أحسنوا السلوك والتصرف، سيُمْنَحُون دور في إدارة حكومتهم. لو أحسن الفلسطينيون السلوك والتصرُّف، قد يتم النظر في إنهاء احتلال أرضهم.

لكن كيف تؤسس حقيقة أن كلّ واحدٍ منا صورةٌ لله ادعاءاتنا للحب والعدالة تجاه رفقائنا [الآخرين]؟ قد يتوقع المرء من كالفن القول بأنها الكرامة العظيمة التي تنتج من كوننا صورة لله؛ فهي التي تؤسس ادعاء الآخر عني. تدعو هذه الكرامة للاحترام؛ وليس ثمة طريقة أخرى لإظهار الاحترام الملائم واللائق سوى الحب والعدل. يتحدث كالفن بهذه الطريقة من حين لآخر، لكن تأكيده ينقص في مكان آخر. إنه ينقص، لسبب واحد، بناء على حقيقة أن للآخر ادعاءاته عن حبي وعدالتي لأنه وأنا أقارب بأعمق شكل ممكن، وأعني، مزية كوننا صورًا لله سويًا. ينبع هذا بشكل حيوي للغاية في فقرة من تعليقه على سفر إشعيا. والآية التي يُعَلِّق عليها هي التالية:

أَلَيْسَ الصَّوْمُ الَّذِي أَخْتَارُهُ

يَكُونُ فِي فَكِّ قُيُودِ الشَّرِّ،

وَحَلِّ عُقَدِ النِّيرِ،

وَإِطْلاَقِ سَرَاحِ المتَضَايِقِينَ،

وَتَحْطِيمِ كُلِّ نِيرٍ؟

أَلاَ يَكُونُ فِي مُشَاطَرَةِ خُبْزِكَ مَعَ الْجَائِعِ،

(1) انظر المصدر السابق، مج 1، ص: 643. بتصرف يسير. (المترجم)

وَإِيْوَاءِ الْفَقِيرِ المتَشَرِّدِ فِي بَيْتِكَ،
وَكُسْوَةِ الْعُرْيَانِ الَّذِي تَلْتَقِيهِ،
وَعَدَمِ التَّغَاضِي عَنْ قَرِيبِكَ الْبَائِسِ؟ (أشعياء 58 : 6-7).

يرد تعليق كالفن (جزئيًا) كما يلي:

ليس امتناعك عن أفعال الظلم بكافٍ لو أنك ترفض مساعدة المحتاج ... من خلال أمرهم بأن "يتقاسموا خبزهم مع الجائع"، انتوى الله سحب العُذر من البشر الطماعين والجشعين الذين يزعمون امتلاكهم لحق الاحتفاظ بما هو ملك لهم ... وبالفعل، هذا [الفعل] إملاءُ الحس العام، أعني أن الجوعى يُحرَمون من حقهم العادل لو أن جوعهم لم يُخَفَّف ... وأخيرًا يستنتج. وَعَدَمِ التَّغَاضِي عَنْ قَرِيبِكَ الْبَائِسِ. ينبغي علينا هنا ملاحظة مصطلح قريب[1]، والذي يعني به كل البشر عالميًا، وليس شخص واحد يمكننا اعتباره، بدون رؤيته، كما في مرآة، "قريبنا". بالتالي، هذا دليل على أعظم لا-إنسانية؛ أن تمقت هؤلاء الذين نحن ملزمون بالاعتراف بهم كمثيل لنا.

باختصار، أن تخفق في معاملة رفقائك من البشر بحب وعدالة يعني أن تخفق في [أداء] واجبات القرابة، وبالتالي تتصرف وفق "أعظم لا-إنسانية".

الظلم بوصفه إساءة لله

هناك طريق ثانٍ تؤسِّس فيه أيقونية الإنسان الآخر ادعاءها أمامي للحب والعدالة، فبالإضافة لحقيقة أننا أقارب؛ كان نقاشنا يمضي تجاه هذا الطريق الآخر. "الله نفسه، وهو ينظر إلى البشر كما تشكَّلوا على صورته، بقدر من الحب والتكريم لمدى يجعله يشعر بأنه مجروح وغاضب من الأشخاص الذين هم ضحايا القسوة الإنسانية والشر". (R. S. Wallace, Calvin's Doctrine of the Christian Life, p. 149، وتم تلخيص فقرات متعددة من كالفن).

---

(1) في النص الإنجليزي، المصطلح هو flesh مسبوقًا بـ your، ولازم معناه هو القريب الذي هو من لحمك. (المترجم)

عند كالفن، لا تكمن متطلبات الحب والعدالة بادئ ذي بدء في إرادة الله، وهو ما اعتقد فيه غالبية التقليد المسيحي، ولا في عقل الله، وهو ما اعتقد فيه بقية التقليد. تكمن هذه المتطلبات في حزن الله وفرحه، في معاناة الله وابتهاجه. لو أنني أسأت استعمال شيء ما صنعته وتحبه، فإن الخطأ هنا، في أعمق معانيه، لا يكمن في أنني خرقت أمرك بعدم إساءة استعمال الشيء الذي ترتبط به وجدانيًا. رغم أنك ربما أصدرت أمرًا كهذا، وفي هذه الحالة سأكون قد عصيته. إنها تكمن أولًا، وقبل أي اعتبار آخر، في حقيقة أنني أسبب لك الحزن من خلال الاستخفاف بعواطفك. ويقترح كالفن أن متطلبات الحب والعدالة مغروسة فيما أسماه إبراهام هيتشل Abraham Heschel في كتابه عن الأنبياء العبرانيين بـ عطف pathos الله. أن تُعامِلَ واحد من البشر الذين يبتهج بهم الله بظلم يعني أن تسبب الحزن لله. أن تجرح محبوبًا لله يعني أن تجرحَ الله. تتأسس متطلبات العدالة في الحقيقة التي تنص على أن ارتكاب الظلم يعني أن تُنْزِلَ بالله المعاناة. إنها تتأسس في سرعة تأثر الله بحبنا، نحن صور الله. فالله ليس أباثيا apathê.

رغم أنني لا أقترح تطوير ذلك الموضوع هنا، يبقى من الجدير ملاحظة أن هذا النسق المتعلق بانجراح الله يُمنَح تطويرًا كريستولوجيًا وطقسيًا عند كالفن. وفي نقطة من نقاشه عن العشاء الرباني/ أفخارستيا Eucharist يقول:

وسوف يفيدنا جدًا هذا السرّ إن انطبع هذا الفكر على أذهاننا وحُفر فيه، أننا لا يمكننا جرح أو احتقار أو رفض أو إساءة معاملة الإخوة، أو مهاجمتهم بأي طريقة بدون جرح واحتقار وإساءة إلى المسيح في الوقت نفسه بما نقترفه من خطأ .. لا يمكننا أن نحبَّ المسيح من دون أن نحبه في الإخوة ... (الأسس، IV، xvii، 38)[1].

الصبر الكالفيني

قبل أن نصل للاستنتاج، يلزم علينا العودة لمذهب كالفن عن الصبر. فلنتذكر قول أوغسطين بوجوب كفاحنا لنتراجع عن حبنا لكل الأشياء التي يسبب موتها

(1) قارن مع المصدر السابق، مج 2، ص: 1321. (المترجم)

أو دمارها الأسى لنا. كان موقف كالفن مختلفًا بعمق. لا يجب علينا أن نحاول تبديل طبيعتنا التي خُلقنا عليها؛ يجب علينا تكريمها. تجاه المذلّة، والموت، والظلم، وعديد الشرور الأخرى في هذه الحياة، ليس الأسى الاستجابةَ العادية، وإنما الملائِمَة كذلك. ليس النهج الذي يلزم اتخاذه هو الانسحاب من كل ارتباطاتنا، وإنما هو المتعلق بكوننا صبورين في معاناتنا. موقفنا هو الأسى الصبور.

عندما يُواجَه المرء باحتمالية حدوث حدث ما من المحتمَل أن يُسبِبَ له الأسى، يمكن للمرء أن يتبع المسار الأوغسطيني المتعلق بالكفاح لتبديل طبيعة المرء؛ وبالتالي، عندما يحدث الحدث، لا يشعر المرء بأي أسي. لكن، يمكن للمرء أيضًا اتباع المسار المضاد والمتعلق بمحاولة تجنب حدوث الحدث. هل قصد كالفن، في استصوابه للصبر، أن ينصحنا بنبذ المسار الأخير؟ هل قصد القول بأنه لا يجب علينا أن نسعى لتغيير العالَم أكثر من سعينا لتغيير أنفسنا ـ أنه يتعين علينا السماح للوقائع التي تتهددنا بأن تغشانا؟ هل يجب علينا تحمُّل التَّعَصُّب الديني، على سبيل المثال؟ هل الصبر الكالفيني قبول سلبي؟

يَنْقُص هذا الاقتراح المعقولية الأوَّلية. كان الارتباك الحَرَكي هو الأمر المَمَيِّز للحركة الكالفينية ككل، وهذا الأمر يمكن تعقبه بقدر مُعْتَبَر لكالفن ذاته ـ لكلماته وكذلك لأفعاله بجنيف Geneva. يصح القول بأنه عندما تم التطرق للنطاق السياسي، أصرَّ كالفن على أن هؤلاء الذين لا يشغلون مواقع السلطة السياسية لا يجب عليهم أن يثوروا. لكن يختلف عدم القيام بثورة – للغاية – عن القبول بشكل سلبي ـ كما نعرف، وكما عرف أعضاء مجلس مدينة جنيف، لسوء حظهم، في صراعهم مع كالفن.

لقد أدان كالفن الفساد داخل الكنيسة بقسوة، ودون تردد، [كما أدان] فساد الحكومة، وعدم الإنصاف في الاقتصاد. ورغم أنه لن يكون من التناقض نبذ الأساقفة، والمستبِد، والرؤساء بينما ينصح بالقبول السلبي لأنظمتهم وأفعالهم، إلا أن كالفن خطا الخطوات التالية عبر الإلحاح على مقاومة الشر والكفاح في سبيل الإصلاح بانتظام، وظل يمارس ما وعظ به. في فقرة مشهورة

من تعليقه على سفر دانيال، لا ينصح كالفن بالثورة حتى كملاذ أخير، إلا أنه ينصح بالعصيان الجريء على نحو جلي.

يضع الأمراء سلطتهم جانبًا عندما يثورون ضد الله ويكونون غير مستحقين للاندراج في زمرة البشر. يلزم علينا مواجهتهم بقوة بدلًا من طاعتهم كلما كانوا جامحين للغاية ويرغبون في تجريد الله من حقوقه، ويشبه الأمر رغبتهم في الاستيلاء على عرشه وتنزيله من السماء. (دانيال 6 :22).

بأخذ الموقف الموصوف في سفر دانيال بعين الاعتبار، يمكن للمرء أن يتعجب حيال إذا ما كان كالفن يضع انتهاكات حرية ممارسة المرء لدينه نصب عينيه حصريًا. عندما نُحرَم من حرية العبادة، يلزم علينا العصيان. لكن في نقاشه للصبر في الأسس، يضع كالفن الكفاح في سبيل العدالة والكفاح من أجل حرية ممارسة الدين على قدم المساواة. إننا مدعوون للاثنين، وقد ينتج كلاهما المعاناة وشرف الاستشهاد.

"لأن يعاني أحدهم الاضطهاد من أجل البرِّ، ففي ذلك عزاءٌ نفيس. لأنه علينا أن نعي مدى الشرف الذي يغدقه الله علينا إذ يهبنا بسالة جنده. أقول هذا لا عمّن يشتغلون للدفاع عن الإنجيل وحدهم، بل عن كل من ينخرطون في قضية البرِّ بأي طريقة فيتألمون من أجله"[1].

وباختصار، ليس الصبر الكالفيني صبرًا لقبول سلبي، وإنما هو صبر لشخص يعاني بينما يكافح ضد شرور العالَم. إنه التركيب المتناقِض المتزعزع للأسى بصبر حيال الحرمان والظلم اللذين يقعان علينا بينما نكافح لرفع هذا الحرمان وإبطال الظلم.

وفي الختام

لقد سلَّمت جدلًا في هذا الفصل بأن التَّعَصُّب تجاه ممارسة شخص لدينه أو دينها بمثابة إهانة لكرامة الشخص وبالتالي [فهو أمر] ظالم. وبدلًا من الاستعانة

(1) انظر المصدر السابق، مج 1، ص: 653. بتصرف يسير. (المترجم)

بمصادر النصوص المسيحية المقدسة والتقليد اللاهوتي المسيحي دعمًا لهذا الادعاء، قمت بلفت الانتباه لنسقٍ من التراث يتعلق بمعنى الظلم الكامن في التَّعَصُّب الديني ـ وأي شكل آخر من أشكال الظلم. أن تقترف الظلم المتعلق بالتَّعَصُّب الديني بحق إنسان آخر يعني أن تسيء لله؛ تمنح صرخات المضطَّهَدين أو المذَلِّين بسبب دينهم صوتًا لمعاناة الله.

إن النسق الذي استكشفناه، والمتعلق بالظلم كإساءة لله، لا يستنفد معنى الظلم بأية حال. لقد افترض نقاشي أن الظلم أيضًا، على سبيل المثال، يحمل معنى كونه انتهاكًا للكرامة الإنسانية الخاصة بالضحية؛ ولقد اقترح كالفن على طول الطريق أن الظلم يحمل معنى كونه إساءة استعمال للقرابة مع الفرد. إن النسق الذي استكشفناه ليس بارزًا في التقليد اللاهوتي المسيحي ككل؛ وكان نقص أهميته واحدًا من أسبابي لتقديمه. ورغم كونه غير بارز في التقليد ككل، إلا أنه كان بارزًا في فكر چون كالفن. ولهذا السبب اتخذ تقديمي لهذا النسق شكل الشرح لكالفن.

لا يهم مدى بغض شخص ما لدين شخصٍ آخر، يظل هذا الأخير حاملًا لصورة الله ولهذا السبب فهو محبوب لله. أن تعامله بتَّعَصُّب يعني الإساءة له. وأن تسيء له يعني أن تسيء لله. لو أننا اعتقدنا في ذلك الأمر، واعتقدنا فيه بحق، سنكون أكثر نفورًا من معاملة شخص ما بتَّعَصُّب. ولا فرق حينئذ بين كَوْنِ تعصبنا متأسسًا على ديننا أو على أي شيء آخر.

الفصل السادس
"أظهروا احترامًا للجميع!"[1] الإيمان المسيحي وثقافة الاحترام الكوني

ميروسلاف فولف

ترجمة: إسلام سعد

مدير مركز يال للإيمان والثقافة وأستاذ اللاهوت "هنري ب. رايت Henry B. Wright" بكلية اللاهوت Divinity School في يال.: إن ميروسلاف فولف واحد من أكثر اللاهوتيين المسيحيين الأحياء توقيرًا. واحد من السكان الأصليين لكرواتيا التي مزّقتها الحروب، تستقي كتابات فولف أهميتها وعمقها في الغالب من خبرته بالحرب، والظلم، والمعاناة لنشر التصالُح والسلام. تلقى فولف Miroslav Volf دكتوراه باللاهوت من جامعة توبنغين بألمانيا وهو كاتب للكثير من المقالات البحثية وكتب عديدة منها: " Exclusion and Embrace: A Theological Exploration of Identity, Otherness, and Reconciliation — الإقصاء والاستيعاب: استكشاف لاهوتي للهوية والغيرية والتصالح"، و" Free of Charge: Giving and Forgiving in a Culture Stripped of Grace — دون مقابل: الهبة والتسامح في ثقافة محرومة من الفضل".

(1) تتنوع الترجمة العربية للإنجيل في (بطرس الأول 2 : 17) بين "أَكْرِمُوا جَمِيعَ النَّاسِ" و"أظهِرُوا احتِراماً لِجَمِيعِ النَّاسِ". وسيتم استخدامهما في ترجمة البحث بالتبادل، بحسب ما يستدعيه السياق، والاثنان يشيران لـ Honoring. (المترجم)

كَشْفٌ

تربيت في نظام معادٍ للدين يتميز بالتَّعَصُّب. كان تعصبًا معتدلًا مقارنة بما عاناه الكثيرون (بالأخص الجماعات الدينية) في القرن العشرين ويستمرون في المعاناة بعديد الأماكن حول العالم اليوم. لكنني أعلم من تجربتي الشخصية المباشرة ما معني حياة المرء في جهات يُمارَس فيها التنصُّت، ويستلم البريد الخاص به وقد فُتِحَ خلسة، والتحدُّث عبر خطوط للهواتف يتم رصد مكالماتها؛ هددني واستجوبني "عملاء سريون" لشهور متتالية[1]. ولقد استمعت كثيرًا لقصة محاكمات أبي المروِّعَة. كان رجلًا بريئًا يتم تجويعه حتى الموت حرفيًا خلال شهور من الاحتجاز في معسكرات اعتقال كالجحيم لأن "السلطات المزعومة، أيًا كانت" افترضت أنه مذنب دون بذل الجهد الأدنى للتحري عن قضيته ـ بالفعل، بدون السؤال حتى عن اسمه!

وفيما يتعلق بمستوى تجاربي في فترة تكويني المبكرة، كنت أربط اللا–دين بالتَّعَصُّب. لكن، وأيضًا وفق خبرتي، لم يَسِر الدين بشكل أفضل من اللا–دين [في هذا المضمار]. كان جدي كاهنا معمدانيًا بينما كان أبي كاهنًا ينتمي للكنيسة الخمسينية Pentecostal [2]. واتفقا على أن مجتمعيهما عاشا في أوضاع أسهل تحت حكم الشيوعيين من الأوضاع التي لاقوها تحت الهيمنة الثقافية والسياسية للكاثوليكيين والأرثوذوكس. نما توقي لأفق الاحترام المفتوح داخل المجال الضيق (أو المنْحَصِر) لكلٍّ من التَّعَصُّب الديني والعلماني. لم يكن الاعتقاد الذي سلمه لي والداي (وهو الاعتقاد الذي وجدته، حينما كنت مراهقًا، عبئًا صعبًا لأتحمله) ليتهاوى تحت الضغط متخليًا عن صدقه، بينما

---

(1) لتقرير متعلق بالسيرة الذاتية، انظر ميروسلاف فولف:
.The End of Memory (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2006)

(2) Pentecostalism: حركة دينية كاريزماتية أسست لكنائس بروتستانتية بالولايات المتحدة في القرن العشرين، ويكمن اعتقادها الفريد في أنه ينبغي على كل المسيحيين السعي للانخراط في تجربة دينية تُدعى بمعمودية الروح القدس. وتستدعي هذه التجربة ذكرى نزول الروح القدس على المسيحيين الأوائل بأورشاليم في عيد الخمسين؛ "وَعِندَما جاءَ عِيدُ يَومِ الخَمسِينَ، كانُوا كُلُّهُمْ مُجتَمِعِينَ مَعاً فِي مَكانٍ واحِدٍ [أعمال الرسل (2) 2 : 4]". (المترجم)

كافح [إيماني] ضد إصابته بعدوى التَّعَصُّب التي عانى منها بأيدي هؤلاء الذين ميزوا أنفسهم بالنجمة الحمراء أو الصليب.

لكن، هل يُعَدُّ الصليب رمزًا لدين متعصب بنفس الطريقة التي أصبحت بها النجمة الحمراء رمزًا لمشروع اجتماعي وسياسي غير متسامح؟

وجائزة التَّعَصُّب من نصيب ...

تصوَّر جائزة دولية للدين الأكثر تعصبًا. أي دين يفوز بها؟ تصوَّر أيضًا هيئة محكِّمين مكونة من نُقادٍ للدين ينتمون للحاضر والماضي. في عقول الأغلبية من هؤلاء النقاد، ستكون كل الأديان مرشحة للجائزة لأنها جميعًا لا-عقلانية بصورة عمياء، وبالتالي فهي غير متسامحة. ستبرز اليهودية والمسيحية والإسلام – أشكال الإيمان التي تؤكد الحكم الذي لا يُتَنازَع فيه لإله واحد – وتلح على [وجود] حقيقة كونية واحدة[1] باعتبارهم المنافسين، وستجسد هذه الأديان كما هي ما يسمى في بعض الأوقات بـ "إمبريالية الكوني"[2]. قد يُعلَن عن المسيحية باعتبارها الفائز وذلك لأنها تسعى إلى فرض نفسها باستمرار على الجميع تحت ستار الإحسان العام (أو حب الخير للناس). وربما تذهب الجائزة الفاسدة للإسلام، وهو دين يتصوره عديد النقاد اليوم كرجل معصوب العينين يُمسك بسيف مُنْحَنٍ في يديه[3]. في الغالب ينضم الأشخاص المتدينون للنقاد في ميلهم لاحتقار خصومهم. لقد سمعت مسيحيين يصرون على أنه بينما تكون المسيحية دينًا للحب، يكون الإسلام دينًا للعنف، [والإسلام] دين يمتلك

---

(1) انظر في العلاقة بين التوحيد، النزعة الحصرية، والتَّعَصُّب:

Jan Assmann, Moses the Egyptian: The Memory of Egypt in Western Monotheism (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997); Die Mosaische Unterscheidung, Oder der Preis des Monotheismus (Munich: Carl Hanser, 2003).

(2) وردت هذه العبارة عند بيير بورديو Pierre Bourdieu:

E.g., Firing Back: Against the Tyranny of the Market 2 (London: Verso, 2003), 86; Pascalian Meditations (Stanford: Stanford University Press, 2000), 71.

(3) وهو واحد من 12 فيلمًا كارتونيًا رسم محمد بهذه الطريقة.

إلهًا شرسًا ولا–عقلانيًا في مركز [الاعتقاد الإسلامي] يطالب بالاستسلام غير المشروط [له]. ولقد سمعت مسلمين يردُّون هذه المجاملة. على الأقل، لقد قال الرئيس السابق لماليزيا، مهاتير محمد، وفي حضوري، أنه وكما يُصَدِّق الأمر الإلهي بالإبادة الجماعية للكنعانيين، فاليهودية والمسيحية أكثر عنفًا، وبوضوح، من الإسلام.

لو أن النقاد (والخصوم المؤيدين [لطرحهم في هذه النقطة بالتحديد]) على حق فيما يتعلق بتَّعَصُّب أشكال الإيمان الإبراهيمية، سنجد عاصفة كبيرة تلوح في أفقنا. أولًا، إن عالمنا مترابط ويعتمد بعضه على بعض وفيه تمكث الكثير من الأديان في نطاق المجال العام لدول محددة. ثانيًا، إن المسيحية والإسلام هما الدينان الأكثر نموًا اليوم ويمتلكان العدد الأكبر من الأتباع؛ معًا، يُشكِّل مؤيدو هذين الدينين أكثر من نصف البشرية الحيَّة. في نظر هؤلاء النقاد، يتنافس هذان الدينان على الجائزة الأولى للتَّعَصُّب. ثالثًا، ولأن المتدينين، وضمنهم المسلمون، يعتنقون المثُل الديمقراطية في الغالب، سيستمرون في السعي لتحقيق رؤاهم المتعلقة بالحياة الطيبة في المجال العام. مترابطة، ونامية، وجازمة، ستجعل الأديان الحياة لا تطاق لملايين البشر ـ لو أن النقاد على حق.

لكن، هل يكون النقاد محقين؟ من جهة، هم كذلك. لقد كان أتباع أشكال الإيمان الإبراهيمية الثلاثة، بالأخص المسيحية والإسلام، غير متسامحين في الغالب، بل ويمارسون العنف بشكل مرعب. إن تاريخ تعصبهم طويل، ويمتلئ مسارهم عبر التاريخ بأشخاص مُذَلّين، ومشرَّدين، ومُدَمَّرين. ربما، ومن المثير للدهشة عند البعض، يتفق الكثير من أتباع هذه الأديان مع النقاد فيما يتعلق بهذه النقطة (رغم أن الأتباع يضيفون أن أديانهم تزخر بتاريخ مثير للإعجاب من الكرم والكفاح في سبيل العدالة بشكل أكبر). لذا يتوحد النقاد والمؤيدون

في هذه النقطة: عمليًا، لقد كانت الأديان الإبراهيمية متعصبة وتستمر في كونها كذلك[1].

يكمن الجدال بشكل أساسي حول كون التَّعَصُّب خاصية مميِّزَة لهذه الأشكال من الإيمان أم أنه تحريف عميق لها.

وحينما يتم تطبيق هذا الجدال على الإيمان المسيحي الذي أعتنقه وأكتب عنه هنا، يصبح هذا الجدال حول ما يعنيه أن تكون مسيحيًا مُتَسِّقًا ـ أن تكون مسيحيًا يحيا وفق حرف وروح القناعات المسيحية الأساسية. ولنأخذ مثالين متعارضين: هل يمكن لصليبي (مشارك في حرب من الحروب الصليبية، أن يصيح: "المسيح هو الرب"، بينما يشق رأس كافر أن يكون مسيحيًا متسقًا؟[2] هل يكون واحد من رهبان دير الممتنعين عن الكلام (ساكن الدير) Trappist مسيحيًا متسقًا لو أنه يخدم المسلم المسكين بينما يحيا تحت تهديد الموت من المتطرفين العُنُف؟[3] هل يسيء الصليبي استخدام الإيمان لصالح مطامعه في الهيمنة الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية ، أم أنه يُمَثِّل، بدون تردد، قناعات مسيحية أصيلة؟ هل يُلَطِّف الراهب (ساكن الدير) دينه العنيف بعطف إنساني (علماني) شائع، أم يمارس الإيمان المسيحي اتساقيًا؟ ولنضع الأمر بشكل أكثر عمومية، يكمن الجدال فيما يلي: هل يَحُطّ المسيحيون المتعصبون من دينهم، أم أن الإيمان المسيحي دين متعصب في ذاته؟ يحاجج النقاد في سبيل الموقف الثاني ويصرون على مجيء النزوعات تجاه أي تسامح قد يحويه الإيمان المسيحي من مصادر علمانية وهي أيضًا في حالة توتر مع الإيمان ذاته.

---

(1) ولا أقصد بـ "عمليًا" [أو في مجال "الممارسة"] هنا التَّعَصُّب في الفعل العنيف للمسيحيين فقط، وإنما أيضًا التَّعَصُّب في الطريقة التي صاغوا عبرها القناعات المسيحية، [أي] التَّعَصُّب في "الفعل" وفي "الكلمة".

(2) يأتي هذا المثال من:

George Lindbeck, The Nature of Doctrine (Louisville, Ky.: Westminster John Knox, 1984), 64.

(3) لمتابعة تقرير عن سبعة رهبان (ساكنون للدير) تم قطع رؤوسهم في الجزائر عام 1996، انظر فيلم Of Gods and Men.

إن القضية حرجة، ولا أعني فقط لصورة الذات والسمعة الطيبة لليهود والمسيحيين والمسلمين (رغم أنه لو كان النقاد محقين، فإن هؤلاء الناس يحيون فيما يعادل كوريا شمالية دينية[1]). في عالم مُعَوْلَم بأديان مُنْبَعِثَة، يعتمد السلام العالَمي ذاته على التسامح الديني بشكل عظيم. ولن تختفي الأديان. لو أن التَّعَصُّب يكمن في الحمض النووي DNA الخاص بهذه الأديان [أي في بنيتها]، تصبح الصراعات المُلْهَمَة والمشَرْعَنَة دينيًا أمرًا حتميًا. في عالَم اليوم المترابط والذي يعتمد بعضه على بعضٍ والذي نجد فيه أديانًا حيوية وجازمة، بصرف النظر عن الدافع تجاه التسامح الأصيل دينيًا، يمكننا توقُّع ازدراء قاسٍ، وتعصبٍ مُنْدَفِعٍ، وعنف ضَارٍ، ويكون كلُّ ذلك نظامَ العصر.

هل من أسباب أصيلة دينيًا للتسامح؟ في هذا المقال سأحاجج بأن القناعات المسيحية الأصيلة لا تعزز التسامح فقط، وإنما تعزز أيضًا الاحترام الأصيل تجاه كل البشر. تكون لفكرة احترام الجميع معنى لو أننا ميَّزنا بين احترام الأشخاص بسبب ما أنجزوه أو مكانتهم (كالقول بأنني "أحترمها لنزاهتها!") واحترام الأشخاص لإنسانيتهم ببساطة (كالقول بأنه "يلزم على البشر احترام بعضهم البعض في كل أشكال تنوعهم")[2]. وسيرد تفصيل أكثر بخصوص هذا التمييز الأساسي لاحقًا.

التسامح – الخاصية الأساسية للكنيسة الحقَّة

ليست حجة مسيحية تحديدًا للتسامح بأمر جديد. في نَصٍّ عن التسامح، من المحتمل أن يكون الأكثر تأثيرًا ضمن كل ما كُتِب، وأقصد رسالة في التسامح – A Letter Concerning Toleration (1689) لجون لوك John Locke (1632 – 1704)، وهو مؤسس الليبرالية السياسية، يوضح في الجملة

---

(1) انظر كريستوفر هيتشينز Christopher Hitchens في سجاله مع طوني بلير Tony Blair حول إذا ما كان الدين قوة للخير:

("Is Religion a Force for Good in the World?" The Munk Debates, November 26, 2010, video, www.c-spanvideo.org/program/Blairan).

(2) "إعلان الألفية للأمم المتحدة – United Nations Millennium Declaration"، رقم 6.

الأولى[1] بأن التسامح هو الخاصية الأساسية للكنيسة الحقة"[2]. وتتكئ حجته في دعم هذا الادعاء بشكل أساسي على قناعتين مسيحيتين أساسيتين.

التسامح والحرية. تتعلق القناعة الأولى بمركزية الحرية في الوصول للإيمان. تكمن طبيعة الإيمان في أنه لا يمكن لأحد أن يُجْبَر على الإيمان. يعني اعتناق (أو رفض) الإيمان المسيحي إعادة توجيه كل تكليفات حياة المرء الأساسية. لو أُجبرنا على الإيمان، سنؤمن بنفاقٍ وبالتالي نهين الله[3] ونخالف ضميرنا[4]. يقول لوك "يتعلق الدين الصادق والمنْقِذ بالاستمالة الجوانية للعقل والتي بدونها لا يمكن لشيء أن يكون مقبولًا عند الله"[5]. لا يمكن لإيمان كهذا النمو إلا في تربة الحرية.

قد يرفع ناقد إحدى حاجبيه جراء الشكِّ؛ فربما يستعير لوك "الاستمالة الجوانية" لـ[صالح] الإيمان المسيحي من خارج [هذا النسق الإيماني]، من أشكال الوعي المعاصرة. في عقل لوك فرد واحد، أمام الله، يتولى توجيه صوت ضميره بمفرده. لكن قد يدَّعي الناقد أن هذا الشخص نتاج عصر ينزع للفردانية تسببت التطورات العلمانية في [تكون] طرق فهمه للإنسان والعلاقات الاجتماعية. في

---

(1) قارن مع: جون لوك: "رسالة في التسامح"، ترجمة: منى أبو سنه، تقديم ومراجعة: مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997، ص: 19. (المترجم)

(2) John Locke, A Letter Concerning Toleration, in Two Treatises of Government and a Letter Concerning Toleration, ed. Ian Shapiro (New Haven: Yale University Press, 2003), 215.

(3) "أيًا كان الفعل [الذي يُمارَس] بدون توكيد الإيمان، فلن يكون حَسَنًا في ذاته، ولا يمكنه أن يكون مقبولًا عند الله. بالتالي، يعني فرض شيء كهذا على الناس ضد تقديرهم، في حقيقة الأمر، أمرهم بإهانة الله؛ وهو الأمر الذي يبدو منافيًا للعقل بطريقة تتجاوز حدود التعبير، وذلك على اعتبار أن الغاية من الدين هي إرضاء الله، وأن الحرية ضرورية، بشكل أساسي، لتحقيق هذه الغاية". (.ibid., 233).

(4) "لا توجد طريقة قط تجعلني أسير ضد إملاءات ضميري توصلني إلى قصور القدوس". (.ibid).

(5) Ibid., 219.

النهاية، تنساب الحجة بخصوص حرية الوصول للإيمان من قلم فيلسوف يُلَقَّب بمؤسس "الفردانية المِلْكِيَّة"[1] الغربية.

يمكن لحاجب الشكِّ أن يعود لمكانه بأمان الآن. لا يسترعي الإبداع الثقافي ولا سمة لوك الفردانية انتباهنا هنا. فمنذ البداية أصر المسيحيون على الحاجة لاعتناق الإيمان بحرية. كتب بولس الرسول أن "المرء يؤمن بالقلب"، وهو ما يعني [القول بأن الإيمان ليس] مجرد تقيُّد برآني [من خارج الذات الإنسانية] بتأثيرات محيطة أو إملاءات صريحة، وإنما بالجوهر العميق لكينونة الإنسان (الرسالة إلى مؤمني روما 10 : 10). وبالمثل، حوالي عام 300 م، إبان فترة الاضطهاد التي تميز بها عصر الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (244 – 311 م) ، أصر المسيحي المدافع عن دينه لكتانتيوس Lactantius (240 – 320 م) على أنه "لا يوجد شيء يتعلق بحرية الإرادة كالدين .. لو أن عقل العابد منضبط به، يُنْزَع منه الدين على الفور، وينعدم وجوده"[2]. قبل ذلك بقرن، أوضح ترتوليان Tertullian (160– 220 م) نفس النقطة: "من الظلم إجبار البشر الأحرار ضد إرادتهم" لينخرطوا في طقوس دينية، وذلك لأن الآلهة "لا حاجة لها في عطايا من غير الراغبين"[3]. إن الإيمان، بشكل أساسي، فعل

---

(1) See C. B. Macpherson, The Political Theory of Possessive Individualism: Hobbes to Locke (Oxford: Clarendon, 1962).

(2) Lactantius, Divine Institutes, v. 20 كما اقتبسه John R. Bowlin, "Tolerance among the Fathers," Journal of the Society of Christian Ethics, 26 [1/2006], 27).

(3)Tertullian, Ad Scapulum II (as quoted in Bowlin, "Tolerance among the Fathers," 18). How Augustine, with his own interpretation of "Compel people to come in" (Luke 14:23; see "Concerning the Correction of the Donatists," St. Augustine: Letters 156-210 [trans. Roland Teske; Hyde Park, NY: New City, 2004], 185) and the whole tradition that followed him comport with this account of faith must remain unexamined in this short essay (see Bowlin, "Tolerance among the Fathers," 28–31).

حر وشخصي. وليس الإيمان الإكراهي بإيمان على الإطلاق. يتفق كل من المسيحيين الأوائل والمعاصرين على هذه النقطة[1].

التسامح والحب. يتعلق السبب الثاني الذي يعتقد فيه چون لوك أن التسامح خاصية أساسية للكنيسة الحقَّة بمركزية حب ممارسة الإيمان المسيحي. كتب بولس الرسول بشكل مشهور أنه لا يهم كم تكون معرفتي بمبادئ إيماني عميقة، ولا يهم كم تكون إنجازاتي الأخلاقية مثيرة للإعجاب لو أنه "لَيْسَ عِنْدِي مَحَبَّةٌ، فَلَسْتُ شَيْئاً (كورنثوس الأول 13 : 2). وعلى خطى بولس الرسول، يحاجج لوك بأنه حتى لو امتلك المرء أرثوذكسية حقّة، أو امتيازًا أخلاقيًا أو إتقانًا طقوسيًا، "لو أنه تعوزه المحبة، والتسامح، والألفة بشكل عام تجاه كل البشرية، حتى تجاه هؤلاء الذين ليسوا بمسيحيين، فهو بالتأكيد لا يزال متأخرًا عن كونه مسيحيًا حقيقيًا"[2] إن التَّعَصُّب غير متوافق مع الحب الأصيل لأنه يستحيل تصديق أن "إنزال العذابات وممارسة أشكال القسوة" تعبير عن الحب[3]– وهو موقف تنازع عليه مؤيدو الحب الشرس مع أوغسطين Augustine. وعند لوك، يكون التَّعَصُّب بالتالي متعارضًا مع الإيمان الأصيل. إن إيمانًا متعصبًا لهو إيمان منقوص بشدة.

---

(1) كانت هذه [الرؤية] واحدة من ملاحظات البابا بندكت السادس عشر بخصوص الإسلام والعنف في محاضرته التي تم التشهير بها [وإداناتها] بريجنسبورج. وبشكل ملحوظ، يقوم بإيضاح نقطته من خلال اقتباس فقرة لإمبراطور بيزنطي حاجج بأن "الإيمان يولد في الروح، لا الجسد. يلزم على الشخص الذي يريد أخذ شخص آخر للإيمان أن يتحلى بالقدرة على التحدث بلباقة وأن يكون مُقْنِعًا من خلال الحجة وبشكل ملائم بدون عنف أو تهديدات".

انظر: "Faith, Reason and the University – Memories and Reflections," The Holy See, September 12, 2006,

www.vatican.va/holy_father/benedict_xvi/speeches/2006/september/documents/hf_ben-xvi_spe_20060912_university-regensburg_en.html

وللنقاش ومتابعة ردود أفعال المسلمين، انظر Miroslav Volf, Allah: A Christian Response ([San Francisco, CA: HarperOne, 2011], 19–39).

(2) Locke, A Letter Concerning Toleration, 215.

(3) Ibid., 216.

إن حجَّتَي لوك للتسامح –كيف يصل الإنسان للإيمان وكيف يجب عليه أن يحيا كشخص يتحلى بالإيمان – إلزاميتان[1]. والحجة الأولى موجَّهَة بالتحديد للتسامح الديني، وهو شاغل لوك الأساسي؛ والحجة الثانية شاملة وتؤسس لكل أشكال التسامح الأخرى المتفرعة منها. إن مسيحيًا متسقًا مسيحيٌ متسامِح، هكذا يحاجج لوك.

بإمكاننا تقوية قضيته. نستطيع المحاججة بأن كل القناعات المسيحية حول الذات، والعلاقات الاجتماعية، والخير محكومة بالادعاء القائل بأن الله، وبعيدًا عن كونه طاغية مهيمنًا، مَحَبَّة باذلة. (كما أوضحت في كتابي Free of Charge)[2]. نستطيع إيضاح أنه ينبغي على المسيحيين حب جيرانهم وإكرام نزاهتهم الجماعية والشخصية بالأخص في أوضاع تزخر بإمكان التَّعَصُّب ـ عندما يواجهون "آخرين" مختلفين ولا يوافقون على تصرفاتهم، أو هؤلاء الذين عانوا من العنف على أيديهم (كما أوضحت في كتابي Exclusion and Embrace)[3]. يمكننا إظهار أن الجيران الذين يتعين على المسيحيين حبهم واحترامهم يتضمنون خصومهم الدينيين الرئيسيين . وأقصد المسلمين. يمكننا أيضًا المحاججة في سبيل اقتداء الانخراط العمومي المسيحي بـ "القاعدة الذهبية" التي تدفعنا إلى ضمان نفس الحقوق التي نسعى لها، من أجل أنفسنا، للآخرين (كما ذكرت في كتابي A Public Faith)[4]. كل هذه الحجج ستكون هامة فيما يتعلق بالتسامح والاحترام، بالأخص الحجج الدينية.

---

(1) لنقاش شامل عن مدى حجج لوك للتسامح، انظر:

Susan Mendus, Toleration and the Limits of Liberalism (Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press International, 1989), 22–43.

(2) Miroslav Volf, Free of Charge: Giving and Forgiving in a Culture Stripped of Grace (Grand Rapids, MI: Zondervan, 2006).

(3) Miroslav Volf, Exclusion and Embrace: Theological Exploration of Identity, Otherness, and Reconciliation (Nashville, TN: Abingdon, 1996).

(4) Miroslav Volf, A Public Faith: How Followers of Christ Should Serve the Common Good (Grand Rapids, MI: Brazos, 2011).

لكن، في الفصل الحالي، سأنتهج مقاربة مختلفة. سأركز انتباهي على أسس الاحترام الموجودة في النصوص المسيحية المقدسة. في الحقيقة، سأركز على أمر واحد. وهو موجود في رسالة بطرس الأولى، وهو نص يتحدث بوضوح أكبر وبشكل أشمل من أي نص آخر في العهد الجديد عن الكيفية التي ينبغي على المسيحيين الحياة وفقها في أوضاع تعددية اجتماعية مُثْقَلَة بالتوترات. الأمر مُخْتَصَر ومباشر: "أَكْرِمُوا جَمِيعَ النَّاسِ" (رسالة بطرس الأولى 2 : 17)[1]. وللمسيحيين الذين يعتقدون النصوص المقدسة بمثابة كلمة الله، لا يصبح إكرام جميع الناس مجرد اقتراح أو إرشاد للتدبر، وإنما هو [أيْ الأمر] واجب ديني صارم. مم يتكون هذا الواجب؟

الإكرام

دعونا نتعامل أولًا مع فكرة "الإكرام"، ومن ثمّ نعود للجزء الأكثر إدهاشًا، وحتى الأكثر راديكالية، الوارد في هذا الأمر، وأعني، أنه يجب على المسيحيين إكرام الجميع. وسأستخدم "إكرام" و"احترام" باعتبارهما كلمتين مترادفتين.

أكرموا، انتهى الأمر! عند مناقشة التسامح، يتحدث الفلاسفة أحيانًا عن "ظروف التسامح". ويصفون الأوضاع التي تجعل من اللازم علينا إظهار التسامح حين تحققها. وهذه الشروط الثلاثة جوهرية: (1) التنوع، (2) الاستنكار، (3)تفاوت السلطة[2]. تخاطب رسالة بطرس الأولى مجتمعات مسيحية تحيا في وضع تتوفر فيه الشروط الثلاثة. أولًا، انتهجت هذه المجتمعات طريقة للحياة مختلفة لدرجة كبيرة عن الثقافة المحيطة بها، بل وحتى مختلفة عن ثقافة أسلافهم؛

---

(1) كما أشرح الأمر هنا، لن أكون بقادر على ربطه بنصوص إنجيلية يبدو فيها أن يسوع والمسيحيين متصفون بفعل نقيض ما تتطلبه طاعة هذا الأمر، ومثال على ذلك، عندما أخبر يسوع "اليهود" الساعين لقتله " إِنَّكُمْ أَوْلاَدُ أَبِيكُمْ إِبْلِيسَ" (يوحنا 8 :44). وعن هذا الموضوع، انظر:
Miroslav Volf, Captive to the Word of God: Engaging the Scriptures for Contemporary Theological Reflection (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2010), 105–10.

(2) لنقاش عن "ظروف التسامح" انظر: Mendus, Toleration, 8–9.

فقد رأى هؤلاء المسيحيون أنفسهم "عِرْقًا تم اصطفاؤه [شعبًا مُختارًا]" و"أمة مقدَّسة" (2 : 9). ثانيًا، شعروا بأنهم "مُفْتَرَى عليهم" باعتبارهم "مرتكبين للشر" (2 : 12)، وبالمقابل اعتقدوا أن حيوات مواطنيهم اتسمت بـ "العبث" (1 : 18). أخيرًا، كانوا أغلبية صغيرة لا قوة لها، شبكة من مجتمعات حقيرة مشتتة عبر الإمبراطورية الرومانية (1 : 1–2). مختلفين، ومنبوذين، ومُهَمَّشِين واجهوا إذلالًا واضطهادًا معتدلين (1 : 6، 3 :9). إنها الظروف التي تستجدي التسامح بالضبط.

من المثير للدهشة أن رسالة بطرس الأولى لا تحتوي على طلب — ولا حتى استعطاف — للتسامح مع المسيحيين. لاحقًا، سيواجه الكُتَّاب المسيحيين هذه المطالب، بدءًا بترتوليان.

وقبل ترتوليان، حاجج اللاهوتيون في اتجاه التسامح بدون طلبه: لاحظ القديس يوستنوس الشهيد Justin Martyr (100 — 165 م) في كتابه Apology أن الناس من مختلف الأديان "مُدَنّسون في حكمهم على بعضهم البعض استنادًا إلى أنهم لا يعبدون نفس المعبودات"[1]. ويحاجج لو أن روما تسامحت مع أديان كهذه، يجب عليها التسامح مع المسيحيين كذلك، بدلًا من تعريضهم "للموت كخطاة" حتى لو "لم يرتكبوا فعلًا خاطئًا"[2]. وحاجج القديس يوستنوس الشهيد أن كونهم مختلفين دينيًا لا يشكل أساسًا للتَّعَصُّب.

إن موقفي ترتوليان والقديس يوستنوس الشهيد هما ما قد نتوقعه: يعظ الضعفاءُ والمهمشون بالتسامح الأقوياءَ والمهيمنين الذين يقمعوهم. رسالة بطرس الأولى مختلفة. لا يخاطب النصّ الأقوياء والمهيمنون قط. ولا يطلب النصّ من الآخرين شيئًا، لكنه يطلب الكثير من المجتمعات المسيحية ذاتها. وبدلًا من الإصرار على أن يتسامح المضطهِدون غير المسيحيين مع المسيحيين، يأمر المضطَهَدين بإكرام غير المسيحيين!

---

(1) Justin Martyr, Apology, I, 24
(www.earlychristianwritings.com/text/justinmartyr-firstapology.html).
(2) Ibid.

لو ركَّزنا على نظام التَّعَصُّب الذي عانى منه المسيحيون، سيكون هذا الأمر بالإكرام منطقيًا بمقدار ضئيل [ولعله غير منطقي كذلك] ويمكن أن تفوح منه الرائحة السيئة للقمع الاستبطاني والخنوع. يبدو الأمر وقد تمَّت إساءة توجيهه بغرابة ـ ويُخاطب به هؤلاء الذين يعانون من التَّعَصُّب بدلًا من توجيهه ضد التنظيمات الاجتماعية التي تعزز التَّعَصُّب والأفراد الذين يرتكبوه. لكننا لو حوَّلنا انتباهنا لـ ذهنية التَّعَصُّب[1]، يصبح الأمر الموجه لهم بـ "إكرام جميع الناس" منطقيًا – بمعنى أعمق مما ينتجه مطلبهم المشروع بأن يتم التسامح معهم. وذلك لأن المعاناة من التَّعَصُّب تستدعي ارتكابه. هذا ما تسعى إليه المعاناة من التَّعَصُّب، أقصد أن تُعْدِيَ عقل المضطَهَد، كما أعرف من خبرتي الشخصية المباشرة وكما تشهد الدراسات في مجال علم النفس الاجتماعي بصحة هذا الأمر.

يمنع الأمرُ بإكرام الجميع الناسَ من ارتكاب نوع التَّعَصُّب الذين يضطرون لتحمله. وأكثر من ذلك، يؤكد هذا الأمر على أن احترام شخص ما لا يعد مسألة تبادل بين مكافئين (أو نظيرين): سأحترمك إن احترمتني، وسأحترمك قدر احترامك لي. وعوضًا عن ذلك، يصبح احترام شخص ما مسألة موقف أخلاقي، إلزامًا غير مشروط[2] سأحترمك سواء احترمتني أم لا. ليست [صيغة] الأمر "أكرموا لو أنكم تُكْرَمُون" أو "أكرموا لو أنكم تريدون أن تُكْرَموا!". إن صيغة الأمر هي "أكرموا، انتهى الأمر". ويكمن الأمل بالطبع في أن الآخرين سيفعلون نفس الأمر وسيكون الاحترام مُتبادَلًا. لكن لا تعد هذه النتيجة سببًا أو شرطًا إكراميًا [لجميع الناس].

---

(1) للتمييز بين "أنظمة التَّعَصُّب" و"ذهنية التَّعَصُّب"، انظر:

Michael Walzer, On Toleration (New Haven: Yale University Press, 1997), 8–13.

(2) اشتهر سقراط بمناصرته للصلاحية غير المشروطة للأوامر الأخلاقية: عندما نُصاب، لا يجب علينا "أن نصيب بالمقابل، كما يتصور الكثيرون؛ وذلك لأنه يلزم علينا ألا نجرح أحد على الإطلاق"، وعنده أن "الظلم دومًا شرّ" (Plato, Crito 49b).

وباعتباره موقفًا أخلاقيًا وأمرًا من الله الواحد لكل الناس، يحوز الأمر بإكرام جميع الناس معقوليته. ليس هذا الأمر ببساطة ما يتوجب على المسيحيين فعله؛ بل ما يتوجب على الجميع فعله. ولذا، فالأمر الموجَّه إلى المجتمعات المسيحية الضعيفة والمضطَهَدة، بشكل ضمني، هو مطلب – مطلب أخلاقي – يتقيد به مستغلوهم كذلك: هم أيضًا، يلزم عليهم إكرام الجميع ومن ضمنهم المسيحيون. لقد زرع النصّ بذرة سينبت منها المطلب الصريح بالتسامح. كما تصدى النص لنزوع سائد عند ضحايا التَّعَصُّب (نزوع سينقاد له المسيحيون القدامى أنفسهم بعد اكتمال مأسسة المسيحية باعتبارها دين الإمبراطورية): يوجه الضعيف مطالبه للقوي لكنه، وبالشكل الملائم، ينسى هذه المطالب عندما يحوز موقعًا من السلطة[1]. إن مقولة "أكرموا جميع الناس" تصلح للجميع، للمهمشين وليس فقط للمهيمنين، وربما، وبشكل خاص، للمهمشين حينما يصبحون مهيمنين.

أكرموا، وليس تسامحوا! إن الأمر يتعلق بالإكرام أو الاحترام، وليس بمجرد التسامح. إنني أكتب "مجرد التسامح" لمعرفتي جيدًا أنه عند الكثيرين سيعني مجرد التسامح الحياة بدلًا من الموت، أو على الأقل مكان مَحْمِيّ ليحيا فيه المرء بدون إقصاء أو إساءة معاملة. هكذا كان الأمر بالنسبة لي حين كنت أكبر باعتباري ابن كاهن في دولة يحكمها شيوعيون يؤمنون بالإلحاد باعتباره الخير الاجتماعي. "يا أيها الطالب الطويل! اخرج من الفصل، ولا تأتِ هنا قط وهذا الشيء حول رقبتكَ". كانت هذه أستاذة الأحياء وهي تصيح فيَّ. كَرِهَت الصليب الذي كنت أرتديه. كانت ملحدة شرسة، لم يكن بمقدورها تحمُّل ظهور الرموز الدينية في الفصل. كنت لأكون ممتنًا لمجرد التسامح – قبول مستكين يتعلق بتلميذ موهوم بما يكفي ليلتزم علانية بإيمان ديني ويمتلك حقًا في تعلُّم الأحياء بمدرسة حكومية. سيكون طلب الاحترام حينها أمرًا زائدًا عن الحدِّ.

---

(1) علَّق لوك على النزوع للاضطهاد والتسامح باعتبارهما تابعتين للسلطة ونسبيتها: "فحينما لا يمتلكون السلطة لتنفيذ الاضطهاد وليصبحوا أسيادًا، يرغبون في العيش وفق شروط عادلة ويبشّرون بالتسامح" (Locke, A Letter, 217).

قد يكون التسامح أفضل أمل لنا في بعض المواقف، لكن، يظل هناك شيء نقي يتعلق به. يكتب مايكل والزر Michael Walzer في كتابه On Toleration "أن تتسامح مع أحد لهو فعل ينم عن قوة"، ويستكمل قائلًا: "أن يتم التسامح معك لهو قبول للضعف"[1]. أيضًا، يمكن للتسامح الاتساق مع موقف إقصاء مؤثر وأخلاقي. بعد إسقاط النظام الشيوعي، يمكنني تكليف نفسي بالتسامح مع المعلمين الماركسيين الكلاسيكيين الذين كانوا متعصبين تجاهي وتجاه إيماني بينما أُظْهِر احتقارًا وبُغْضًا تامّين في كل مرة ألتقيهم أو أتحدث عنهم.

لا يتم تطبيق دينامية قوة كهذه في "الإكرام"، على الأقل ليس بالطريقة التي تُوَظِّف بها رسالة بطرس الأولى المصطلح، وبوضوح، يتم إقصاء الاحتقار. يمكنني إكرام رؤسائي ("المِلِك" [2 : 17]، في النظام السياسي المَلَكيّ الموجود برسالة بطرس الأولى)؛ ويمكنني إكرام التابعين (أو من يخضعون) لي ("الزوجات" [3 : 7]، في التنظيم الثقافي الأبوي الموجود برسالة بطرس الأولى)؛ ويمكنني إكرام من يساووني في المكانة (الأغلبية المتَضَمَّنَة في "الجميع"). أما كل العناصر الدخيلة [يقصد الأشخاص]، وكما يكتب واحد من المعلِّقين: "لا يُحْتَقَرون لأنهم غير مؤمنين، ولا يُكْرَهون لأنهم المضطَهِدون، ولا يُعامَلون بامتهان لأنهم يحتلون مكانة أو رتبة إنسانية أدنى، وإنما يُعامَلون بإكرام"[2].

لكن مم يتكون إكرام شخص ما، وكل شخص؟ لا تقول رسالة بطرس الأولى شيئًا عن هذا الأمر. يدل النص على أن الإكرام واجب تجاه الناس بناء على موقعهم الاجتماعي ("المِلِك"، "الزوجات")، كما أنه واجب للكل ("الجميع")، من المفترض بناء ذلك [الادعاء] على إنسانيتهم. لكن ما عسى إكرام الجميع

---

(1) Walzer, On Toleration, 52.

ويحيل إلى ادعاء ستيفان كارتر Stephan Carter بأن "لغة التسامح لغة السلطة"

(The Culture of Disbelief [New York: Basic Books, 1993], 96)

(2) I. Howard Marshall, I Peter (Downer's Grove, IL: Intervarsity Press, 1991), 85. See also Leonard Goppelt, A Commentary on 1 Peter, trans. John E. Alsup (Grand Rapids: Eerdmans, 1993), p. 190 and Joel B. Green, I Peter (Grand Rapids: Eerdmans, 2007), 76.

يكون بدقة؟ لن نخطئ إن افترضنا أن إكرام الأشخاص باعتبارهم كائنات بشرية (في تمايز عن إكرامهم لمكانتهم أو إنجازاتهم) يعني معاملتهم باعتبارهم كائنات خلقها وأحبها الله. وبما أن الله خلقهم، فإننا نحتاج للامتناع عن انتهاك نزاهتهم باعتبارهم كائنات بشرية؛ وبما أنهم محبوبون من الله، نحتاج للمساعدة في احتضان طاقاتهم وقدراتهم[1].

هناك طريقة لتبيين الرؤية المسيحية للاحترام، وتتم عبر مقارنتها برؤية إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724 – 1804)، وهو فيلسوف ألماني مركزي في تطويره للمفهوم الغربي عن الاحترام. وهو يُميِّز بشكل معلوم جيدًا بين "الاحترام" و"الحب"[2]. أن "تحترم" يعني ألا تحط من قدر شخص ما باعتباره

---

(1) أستعين هنا بديفيد كيلسي David Kelsey:

Eccentric Existence: A Theological Anthropology (Louisville, KT: Westminster JohnKnox Press, 2009), 279-280.

(2) يورد الدكتور عبد الغفار مكاوي نقلًا عن كتاب "عن ميتافيزيقا الأخلاق – المبادئ الميتافيزيقية الأولى لنظرية الفضيلة": "الحب أمر يتصل بالعاطفة، لا بالإرادة، ولا يمكنني أن أحب لأنني أريد الحب، وأقل من ذلك أن أحب لأن من واجبي أن أفعل ذلك (إذ أنني لا يمكن أن أُكره على الحب)؛ ويترتب على ذلك أن الواجب الذي يفرض الحب أمر يتنافى مع العقل. ولكن الإحسان amor benevolentiae ممكن، باعتباره فعلًا من أفعال السلوك، أن يخضع لقانون الواجب. فإذا قيل: ينبغي عليك أن تحب جارك كما تحب نفسك، فليس معنى ذلك أنه ينبغي عليك أن تحب مباشرة (في المحل الأول)، وأن عليك عن طريق هذا الحب أن تفعل الخير (في المحل الثاني)، بل معناه: قدِّم الخير لجارك، وسيولد هذا الفعل الخيِّر في نفسك حب الناس (بحيث يصبح استعدادًا يجعلك تميل إلى فعل الخير بوجه عام). انظر: أمانويل كانت، "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق"، ترجمة وتقديم: عبد الغفار مكاوي، مراجعة: عبد الرحمن بدوي، منشورات الجمل، بيروت، ط2، 2014، ص: 50.

وفي تعليق لكانط، في سياق دفاعه عن فكرة أن القيمة الأخلاقية للفعل لا تكمن في الأثر الذي يُنْتظَر من ورائه، ولا في أي مبدأ من مبادئ الفعل يحتاج إلى استعارة الباعث عليه من هذا الأثر المُنتَظَر، يقول: "قد يلومني لائم فيزعم أنني إنما أبحث وراء كلمة الاحترام عن ملجأ من الإحساس الغامض آوى إليه، بدلًا من أن أوضح المسألة عن طريق تصور عقلي، ولكن الاحترام وإن يكن إحساسًا وعاطفة، فليس إحساسًا متلقى بالتأثر، بل هو إحساس تولد تلقائيًا عن طريق تصور عقلي ومن أجل ذلك فهو يتميز نوعيًا عن كل المشاعر من النوع الأول التي تتصل بالميل أو الخوف. إن ما أعرفه مباشرة كقانون أخضع له، فإنما أعرفه بنوع من الاحترام، يدل فحسب على الشعور بتبعية إرادتي لقانون ما بغير توسط من جانب مؤثرات أخرى على حسّي. إن تحدد الإرادة

وسيلة لصالح غايات الفرد الذاتية؛ [أما] أن "تحب" يعني جعل غايات شخص آخر غاياتي[1]. وكما هو مفهوم مسيحيًا، فإننا في إكرامنا أو احترامنا للناس، بمعنى ما، نجمع بين الاحترام والحب عند كانط بدون التمييز بينهما بشكل كامل: إننا لا نعامل الناس باعتبارهم وسائل لغاياتنا، ونُنَمّي قدرة الأشخاص الآخرين على مطاردة غاياتهم. إذًا، يصبح الاحترام طريقة في الحب. وهذا أمر يختلف عن التسامح، حتى لو لم يكن أقل منه.

أكرموا، حتى في أوقات عدم الاتفاق! يقال في بعض الأحيان إن التسامح قريب من اللا - اكتراث المبتهج، بل وحتى القبول العَرَضي. يُزْعَم أن التسامح متطابق عمليًا مع الموافقة التامة، بل ويتطابق حتى مع المصادقة والتأييد. لو أن ذلك الأمر صحيح، ستكون رسالة بطرس الأولى بمثابة نَصٍّ عن التَّعَصُّب وعدم الاحترام وذلك لأن نغمة قوية من عدم الموافقة تسري في ثناياه - ليست فقط عدم موافقة على سوء المعاملة التي عانت منها المجتمعات المسيحية، وإنما أيضًا

تحددًا مباشرًا بواسطة القانون والشعور بذلك هو ما يسمى بالاحترام، بحيث يعتبر هذا الاحترام أثرًا للقانون على الذات لا علّة له. والواقع أن الاحترام هو تمثل قيمة تضارّ بحبي الذاتي، وهو لذلك شيء لا يمكن النظر إليه باعتباره موضوعًا للميل ولا للخوف، وإن كان يحمل في نفس الوقت شيئًا من الشبه معها جميعًا. وعلى ذلك فإن موضوع الاحترام هو القانون وحده، القانون كما نفرضه نحن على أنفسنا، وبما هو قانون ضروري في ذاته. إننا نخضع له من حيث هو قانون، وذلك بغير الرجوع إلى الحب الذاتي؛ أما من حيث أننا نفرضه على أنفسنا بأنفسنا، فهو نتيجة لإرادتنا وفيه على الاعتبار الأول مشابهة مع الخوف، وعلى الاعتبار الثاني مع الميل. إن كل احترام للشخص فهو في واقع الأمر احترام للقانون (لقانون الاستقامة) الذي يضرب لنا ذلك الشخص المثل عليه. ولما كنا نرى من واجبنا أن نزيد من مواهبنا، فإننا نرى في الشخص الموهوب مثالًا للقانون (الذي يأمرنا بأن نأخذ أنفسنا بالدربة والمران لكي نتشبه به في ذلك) وهذا هو الذي يجعلنا نحس نحوه بالاحترام. إن كل ما نصفه بالمنفعة أو المصلحة Interesse الأخلاقية فإنما يتكون من الاحترام للقانون". انظر، المصدر نفسه، ص: 52-54. (المترجم)

(1) See Immanuel Kant, The Metaphysics of Morals, ed. Mary Gregor (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 1556-56 [6:393-94].

وعن التسامح عند كانط انظر:

Gene Outka, "Respect for Persons," Westminster Dictionary of Christian Ethics, ed. James F. Childress and John MacQuarrie (Philadelphia: Westminster Press, 1986), 540-545.

على أسلوب حياة الدخلاء. حقًا، تقيم رسالة بطرس الأولى تفرقة بين أفراد المجتمع الأصليين والدخلاء، ولا تقام هذه التفرقة في المقام الأول على رفض من ينتمون للخارج فقط، وإنما كذلك بتأكيد القناعات الجوهرية للمجتمعات. ("التفرقة الناعمة"، هذه هي التسمية التي أطلقتها على هذا الموقف في موضع آخر[1]). كما يرسم النَصُّ خطوطًا فاصلة واضحة بين طرق الحياة المسيحية وغير المسيحية، ويفعل ذلك وفق مصطلحات دينية وأخلاقية. هل هذا الفعل ذاته، أقصد تمييز الحدود بحسم، أسلوب للتَّعَصُّب وعدم الاحترام؟

إنه ليس كذلك. لو كنا عاجزين عن التسامح والاحترام على الرغم من عدم الاتفاق (أو الاستنكار)، ستكون العواقب وخيمة. وإليكم ما يتأتى من افتراضين أعتقد في أنه لا جدال فيهما:

مقدمة أولى: تسري الاختلافات في طرق العيش بالعالم فيما بين الرؤى الدينية والعلمانية وتستمر بعناد؛ وفرص محوها ضئيلة.

مقدمة ثانية: يرفض الناس بثبات (وعلى نحو صحيح) قبول ما يجدوه غير مقبول.

نتيجة: لو أن القبول مطلوب للتسامح، ستستمر الذهنية المتغلغلة للتَّعَصُّب كذلك.

عاقبة: لمنع العالم من الغرق في صراعات مستعصية، سنحتاج معارضة الذهنية المتغلغلة للتَّعَصُّب عبر أنظمة من التَّعَصُّب. وستكون النتيجة الحتمية شكلًا ما من أشكال الشمولية (التوتاليتارية) بسبب العجز عن التسامح أثناء عدم الاتفاق.

ملخص: لو أن التسامح يعني القبول، يحكم التَّعَصُّب.

وكما يتبدى، تكون فكرة التسامح حين عدم الاتفاق مُتَضَمَّنَة في منطق التسامح نفسه. سيُبْطِل التسامح نفسه لو لم يكن متوافقًا مع عدم الاتفاق. وذلك لأنه، وبالتعريف، تبزغ الحاجة للتسامح في مواقف عدم الاتفاق عندما

---

(1) عن الفرق بين "أبناء الاجتماع الأصليين" و"الدخلاء" وكونه "ناعمًا" في رسالة بطرس الأولى، انظر: Miroslav Volf, Captive to the Word of God, 65–90.

نحكم على شخص أو جماعة ونعتبرهم أخلاقيًا على خطأ[1]. اسْتَبْعِد عدم الاتفاق، وسيختفي التسامح أيضًا لأنه ليس ثمة شيء للتسامح حياله.

الأمر مشابه في حالة الاحترام، ماذا سيحدث لو أنني غيَّرت رأيي بناء على احترام شخص ما لا أوافق على وجهات نظره وتصرفاته؟ سيتحول الاحترام إلى كذبة مُهاودَة ويلغي نفسه بنفسه؛ وذلك لأنني لا أستطيع تغيير آرائي المُعْتَبَرة في أي وقت[2]. يتطلب التسامح حكمًا صادرًا بصدق، سواء كان هذا الحكم سلبيًا أو إيجابيًا. إن الالتزام بالصدق — وبالتالي الالتزام بتأييد الحُكم السلبي المُعْتَبَر بواسطة شخص ما — شرطٌ لإمكانية كل من التسامح والاحترام.

أكرم، وكن صريحًا، صادقًا، مباشرًا! قال لوك في كتابه A Letter Concerning Toleration[3]: "على كل إنسان مهمة تتعلق بنصح وحثٍّ وإقناع الآخر بالخطأ، ومن ثمّ سحبه للحقيقة عبر التعقُّل". لم يسهب لوك في الحديث عن كيفية احترام الناس بينما يجتذبهم المرء للحقيقة. كان من الكافي له ملاحظة: "أن تقوم بإقناع أحد، فهذا أمر، أما أن تأمره، فهذا أمر آخر؛ وأن تضغط بالحجج، فهذا أمر، أما أن تضغط عليه بالجزاءات، فهذا أمر آخر"[4]. كان التسامح موضوعه. لو أنك أقنعت أحدًا وضغطت عليه بالحجج، فإنك تتسامح؛ أما لو أمرت وضغطت بالجزاءات، فإنك لا تتسامح. لكن، تنادي رسالة بطرس الأولى بالاحترام، وليس مجرد التسامح. بالتالي، كيف تنخرط [في نقاش] باحترام مع هؤلاء الذين تختلف معهم، مع هؤلاء الذين لا توافق على رؤاهم؟

تستخدم رسالة بطرس الأولى، في وصفها للكيفية التي ينبغي على المسيحيين تزكية طريقة حياتهم وفقها لغير المسيحيين، والكيفية التي ينبغي عليهم "تحديد

---

(1) يتضمن ما يسمّى بـ "مفارقة التسامح" شرح "كيف يمكن للمتسامح الظن بأن التسامح تجاه ما هو خاطئ أخلاقيًا أمر جيد". (Mendus, Toleration, 20).

(2) انظر في هذه النقطة (في سياق النقاش عن القيمة المتساوية للثقافات المتنوعة):

Charles Taylor, "The Politics of Recognition," Multiculturalism and the Politics of Recognition (ed. Amy Gutmann; Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), 68–72.

(3) Locke, A Letter, 219.

(4) Ibid.

الأمل" الذي يمتلكوه وفقها، أقول إنها تستخدم اسمين: "الوداعة" و"الاحترام" (3: 15–16)[1]. إن الوداعة خادمة الاحترام. يتنازل الشخص الكَيِّس عن العدوانية، مستترة كانت أو ظاهرة، ويمنح الآخرين الوقت اللازم للوصول للحُكم الخاص بهم. عندما تكون الحقيقة معرضة للخطر، يتطلب احترام الآخر ما هو أكثر من مجرد عدم انتهاك نزاهة الآخرين في بحثهم عن الحقيقة. ويعني احترامهم (1) أننا لا نشوِّش انطباعنا عنهم. وبدلًا من ذلك، أن نتجشَّم عناء معرفتهم بدقة، وكذلك بما يتضمن الكيفية التي يفهمون بها أنفسهم ويختبروها وكيف يختبروننا[2]. ويعني احترامهم (2) أننا نعاملهم باعتبارهم مصادر ممكنة للبصيرة، وليس باعتبارهم "منتفعين" بالكاد من تكليفنا. وبمواجهتهم نكون واعين بالنقص المحتَمَل في فهمنا وأن نبقي منفتحين للاندهاش [من فكرة] مَن يكونون وما قد تحويه قناعاتهم من بصائر[3].

تبعد فلسفة فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844 – 1900) عن طريق يسوع المسيح بنفس مقدار ابتعاد ديونيزوس Dionysus (إله العربدة الشهوانية) عن المصلوب، إله الحب المضحّي[4]. عندما دَرَّست مقررًا عن

---

(1) تعني كلمة "احترام" حرفيًا "الخوف". ويتجادل الباحثون حول إذا ما كانت تشير لإجلال الله كما يذهب (جوبيلت Goppelt، UI PeterU، 237 [طبعة ألمانية]) أو الاحترام للناس (كما يرى نوربرت بروكس Norbert Brox، Der erste Petrusbrief [Zürich/Neukirchen-Vluyn: Benzinger/Neukirchener, 1979], 160). وكما يشير استعمال "الخوف" في أماكن أخرى من الرسالة لإجلال الله (1: 17، 2: 18، 3: 2)، لكن يميل السياق في عصرنا لـ [احتمالية] الاحترام للناس.

(2) في هذه الفقرة، انظر: عن الأحكام المسبقة المتنازعة في Volf, Allah, 203–207.

(3) عن هذه النقطة، انظر أنماط التفكير في "الإنجيلية" في (207–213) Volf, Allah، وعن الشاهد في Volf, A Public Faith (chapter 6).

(4) تقرأ في السطر الأخير من السيرة الذاتية لنيتشه، Ecco Homo، (في إشارة إلى كلمات بيلاطس عن المسيح في نهاية إنجيل يوحنا): "أفهمتموني؟ [أو: هل فُهمت؟] ـ ديونيزوس ضد المصلوب ...". [ملاحظة المترجم: قارن مع فريدريش نيتشه: "هذا هو الإنسان"، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، لبنان، ط2، 2006، ص: 164].

(Friedrich Nietzsche, Ecce Homo: How One Becomes What One Is [trans. R. H. Hollingdale; London: Penguin, 1992], 104).

"نيتشه للاهوتيين" في المعهد الإنجيلي، أرسيت قاعدة: لم يكن مطلوبًا منا في الفصل الدراسي تقويض فلسفة نيتشه وإنما الاكتفاء بمناقشة الجانب الصائب منها. كان أغلب الطُّلاب ميالين إلى كون نيتشه مخطئًا بالكُلية، وصُمِّمَت القاعدة لمساعدتهم على التعلُّم منه؛ فلو هاجموه سريعًا، سيحجبون أنفسهم عن تبصراته.

لكن، لم تكن القاعدة مجرد أداة بيداجوجية (تعليمية). كان هدفها أيضًا تيسير الاحترام. كنت عالما منذ البدء بأن المسيحيين يخالفون فلسفة نيتشه في الكثير من الأمور. على سبيل المثال، أنا نفسي خالفته في وضعه للعربدة الشهوانية مقابل الحب المضحّي، ناهيك عن احتفائه بالقوة "القاسية"[1] وإنكاره التام لله[2]. لكن، ليست مخالفة الأشخاص، ولا حتى الحجاج معهم بشدة، شكلًا من [أشكال] عدم الاحترام؛ بينما تكون معاملتهم منذ البدء إما باعتبارهم بسطاء سُذَّجًا أو مُتَعَهِّدي خطأ ماكرين (لا يمكن أن تتولد منهم أي بصيرة) شكلًا من [أشكال] عدم الاحترام. وعلى الرغم من مجادلاته الضارية، المناقضة للمسيحية – على الأخص في كتابه المتأخر نقيض المسيح The Anti-Christ[3] – يستحق نيتشه الاحترام، ويتضمن ذلك إحترامًا يتعلق بمعاملته كمصدر مُحْتَمَل للبصيرة (أو الحكمة).[4]

وهكذا يفعل الجميع.

---

(1) See Friedrich Nietzsche, Thus Spoke Zarathustra, ed. Adrian Del Caro and Robert Pippin (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 172.

(2) See Friedrich Nietzsche, The Gay Science (trans. Walter Kaufmann; New York: Vintage, 1974), nos. 108, 125, 343.

(3) Friedrich Nietzsche, Twilight of Idols/The Anti-Christ (trans. R. J. Hollingdale; London: Penguin, 1990)

(4) بعد إتمامه لكتاب نقيض المسيح بفترة قصيرة، سقط نيتشه في [براثن] جنون دائم. في هذه الحالة أيضًا استحق نيتشه الاحترام. لكن، بالطبع عند هذه النقطة، بالتعريف، كفَّ عن كونه مصدرًا مُحْتَمَلًا للتبصُّر؛ وسيكون التعامل معه باعتباره مصدرًا مُحْتَمَلًا للتبصُّر حينئذ بمثابة عدم احترام له باعتباره شخصًا، بطريقة تحتوي على الكثير من التنازل.

الجميع

الجميع؟ الجميع حقًا؟ حتى هؤلاء الذين لا يستطيعون صياغة فكرة واحدة نصف مُعتَبَرَة، عكس نيتشه في أوج قواه؟ حتى هؤلاء، عكس المسيح لحد كبير، الذين يصلبون الآخرين على صليب الأنانية التامة للذات؟

الاحترام غير التمييزي. بعد أن أطلق جاريد لي لافنر Jared Lee Loughner النار مباشرة، ومن مدى قريب، على ممثلة الولايات المتحدة جابرييل جيفوردز Gabrielle Giffords، وقتل ستة أشخاص، وجَرح 19 آخرين، نشرت على حسابي الشخصي عبر فيسبوك: "تقول رسالة بطرس الأولى: "أكرموا الجميع"، "أكرموا"، وليس مجرد "لا تحتقروا" أو "تسامحوا"، ولكن أكرموا. والجميع - ليس فقط "هؤلاء المنتمون لفريقنا السياسي" أو "السائرون على قناعاتنا الأخلاقية"، ولكن [ورد فيها] الجميع". قصدت من هذا التعليق أن يكون تَذْكِرَة بأنه في مناخ سياسي وثقافي مستقطَب وصاخب، يتعين علينا احترام خصومنا. بالنسبة لي، كان إطلاق النار إنذارًا، تعبيرًا عن العمق غير الإنساني الذي قد نغرق فيه لو أننا أخفقنا في الاحتفاظ بثقافة للاحترام حتى تجاه هؤلاء الذين نختلف معهم بعمق[1].

---

(1) لاحظ هذا التحليل الكانطي في سياق معضلة تحديد كون الإنسان في جنسه خيِّرًا أم شريرًا: "لكن المرء لا يسمّي إنسانًا ما شريرًا من أجل أنه يقترف أفعالًا قبيحة (مناقضة للقانون)؛ بل من أجل أنَّ هذه الأفعال هي على نحو بحيث يمكن أن نستنتج أنها قائمة فيه على مسلّمات قبيحة. إذ يمكن للمرء أن يرى بالتجربة أفعالًا هي على الحقيقة مناقضة للقانون، وأيضًا (على الاقلّ في ذاتها) هي مناقضة للقانون عن وعي؛ لكنّ المرء لا يمكنه أن يلاحظ المسلمات، ولا حتى في ذاتها دومًا، ومن ثمّ هو لا يستطيع أن يؤسّس الحكم بأن مرتكب الجرم هو إنسان شرير تأسيسًا يقينيًا بالاعتماد على التجربة. وهكذا ينبغي أن يكون من الممكن أن نستنتج بشكل قبلي من بعض الأفعال القبيحة، بل من فعل قبيح واحد، تمّ عن وعي، مسلَّمةً قبيحة هي بمثابة الأساس الذي يستند إليه، ومن هذه المسلمة أن نستنتج في صلب الذات أساسًا كليًا لجميع المسلمات الخلقيّة القبيحة، هو بدوره يكون هو ذاته مسلّمة، حتى نسمّي إنسانًا ما شريرًا". انظر: إيمانويل كانط، "الدين في حدود مجرَّد العقل"، نقله إلى العربية: فتحي المسكيني، جداول للنشر والتوزيع، لبنان، 2012، ص: 67. وغني عن الذكر أن نسبة مُعتَبَرة من تحليل ميروسلاف فولف متأثرة للغاية بهذه الرؤية الكانطية. (المترجم)

دفع أحد أصدقائي على فيسبوك بتعليقي لمنتهاه. وسأل: "هل يعني ذلك: "إكرام" من أطلق النار؟"، وأجبته دون إحجام "نعم، أكرم مُطلِق النار كذلك"، "يجب علينا إكرام جميع الناس الذين يحبهم الله والذين لأجلهم مات المسيح، والذين هم، مهما كانوا، جيران أُمرنا بحبهم كما نحب أنفسنا". إن الوصول لحب الله بمجالُ احترامنا. وبما أن الأول كوني، يلزم أن يكون الثاني كذلك أيضًا. فكما أن حب الله لا تمييز فيه بالكلية، فاحتضان الناس من كل الألوان، والعقائد، والمؤهلات، سواء كانوا أكثر القديسين جدارة بالإعجاب أو أكثر الآثمين بؤسًا، يجب أن يكون احترامنا أيضًا لا تمييز فيه.

يبدو هذا الأمر موقفًا راديكاليًا - ومن زاوية ما هو كذلك. يجب علينا احترام الجميع قطعًا، فقط بناء على الحقيقة المجردة لإنسانيتهم! وعندما يتعلق الأمر بالاحترام، يكون السؤال الوحيد المناسب: "هل هو بشر؟"، لو أن الإجابة "نعم"، يصبح الاحترام واجبًا[1]. من زاوية أخرى، تبدو فكرة وجوب احترامنا للجميع مبتَذَلَة تقريبًا. وهي حقيقة بديهية في الثقافة الحديثة المعاصرة لدرجة الشعور بأنها أقرب لافتراض مؤسَّس على خلفية ثقافية ضمنية – أقرب لأن يكون هواءً ثقافيًا نتنفسه – بدلًا من كونه قناعة أخلاقية بيِّنَة. لكن، عندما يضع قاتلٌ رصاصةً عبر رأس مواطِنة تنتمي لحزب سياسي مختلف، أو تعتنق دينًا مختلفًا، أو تحيا وفق كود أخلاقي مختلف، نُدرك كم يكون هذا الافتراض هشًّا. لماذا ينبغي علينا احترام القاتل؟ كيف يمكننا احترامه؟ حتى بشكل أكثر راديكالية، كيف يمكننا زعم أن أسوأ كائن بشري يمتلك نفس الكرامة ويُطالب بنفس الاحترام كأنبل الأشخاص؟[2] لأن ذلك ما يستتبعه الاعتقاد في الكرامة المتساوية.

---

(1) يمكن لشكل [آخر] من الاحترام أن يكون واجبًا أيضًا لكائنات غير البشر. لكنني أشير هنا لنوع محدد من الاحترام واجب للكائنات البشرية.

(2) يكتب آلن وود Allen Wood مفسرًا موقف كانط من الكرامة الإنسانية: "...يمتلك أسوأ كائن بشري (من أيّة ناحية يمكنك تسميتها) نفس الكرامة أو القيمة المطلقة باعتباره أفضل كائن عقلاني من هذه الناحية (أو أيّة ناحية أخرى)".

(Kant's Ethical Thought [Cambridge: Cambridge University Press, 1999], 132) .

الشخص والعمل [بما هو فعل deed]. يميز اللاهوتيون المسيحيون بين "الأشخاص" و"أفعال"هم، أو بين "الشخص" و"العمل". ينبغي علينا احترام كل الأشخاص، لكن ليس بالضرورة احترام جميع أفعالهم؛ فقد تستحق بعض قناعاتهم أو أفعالهم أو ممارساتهم المقابل الواضح للاحترام. لكن، يظلون مستحقين للاحترام غير المنقوص.

يُقيم مؤيدو "سياسات المساواة في الكرامة" تميزًا مُشابهًا. ويعتبر كانط الذي أعطى فكرة الكرامة الإنسانية "تعبيرها الأكثر إبهارًا ونسقية"[1] مثالًا جيدًا. يقول إن كل الكائنات البشرية تمتلك كرامة متساوية وبالتالي يستحقون احترامًا متساويًا لأنهم جميعًا قادرون على توجيه حياتهم مهتدين بمبادئ عقلانية. لم يقصد أنهم يمتلكون كرامة لأنهم بالفعل يتخذون اختيارات عقلانية. بدلًا من ذلك، فهم يمتلكون كرامة بسبب مقدرتهم على فعل ذلك. ويكتب تشارلز تايلور Charles Taylor (1931 – ..) مُفسِّرًا كانط "إن هذا الإمكان بصرف النظر عن الكيفية التي يتصرف بها أي شخص فيه هو الذي يضمن استحقاق كل شخص للاحترام"[2]. وبالنسبة للمقدرة على الإتيان بالفعل العقلاني ("الشخص"، بحسب المعنى الذي أقصده)، يمتلك الشمّاسون والشياطين، الطالحون والصالحون كرامة متساوية ويستحقون احترامًا متساويًا. وبالنسبة لممارسة هذه المقدرة ("العمل"، بحسب المعنى الذي أقصده)، فهم لا يستحقون احترامًا متساويًا؛ ولا يتحتم عليَّ احترام إنسان طالح باعتباره فاعلًا أخلاقيًا رغم أنني أستمر في احترامه ككائن بشري.

يشعر الكثير من الناس بوجود شيء مُتَصَنِّع وزائف – شيء "أكاديمي" و"فلسفي"، بمعنى انتقاصي – يتعلق بالتمييز بين الشخص والعمل. الأشخاص مسؤولون عن أفعالهم. – الأفعال – بالأخص الشريرة منها – لا تشبه الماء الذي ينساب على ظهر بَطَّة دون أن يترك أثرًا؛ وبدلًا من ذلك، فهم "يتشبثون" بالفاعلين ويقيّدون هوياتهم. وبشكل ملحوظ ومساوٍ، تُشَكِّل

(1) Steven Lukes, Individualism (Oxford: Blackwell, 1973), 45.

(2) Taylor, "The Politics of Recognition," 41.

الأفعال شخصية الفاعلين؛ وتخلق الأفعال المتكررة العادات، وتُكَوِّن العادات الشخصية.

بمثل هذا التعقُّل، قاومت صديقة لي، بشكل حازم، فكرة احترام "من أطلق النار". لم تقدر على رؤية كيف يمكن للفعل الذي ارتكبه السيد لافنر استدرار اشمئزازنا واستحقاق الإدانة التامة بينما يستحق السيد لافنر الاحترام باعتباره شخصًا. لقد أحسَّت بكون فعله، بكيفية ما، شخصه. يمكن احترام شخص نبيل أو ناجح؛ احترام لإنجازها الأخلاقي أو المهني يعود إليها، ونحترم الإنسانة بناء على إنجازاتها. وبالتماثل، سيبدو من الواجب علينا احتقار إنسانة خسيسة بناء على أفعالها الدنيئة؛ إن إنسانة تقترف فعلًا شريرًا آثمة (حتى لو صحَّ أنها أكثر من مجرد آثمة).

رغم أن التمييز بين الشخص والعمل يُقبَل بصعوبة، إلا أن أغلبنا، في الواقع، يُقِيمون هذا التمييز، ونفعل ذلك تجاه هؤلاء الذين نحبهم. في مسرحية Measure for Measure لشكسبير Shakespeare (1564 — 1616)، تتوسل إيزابيللا Isabella للقاضي كي يعفو عن حياة أخيها كلاوديو Claudio وتُلحّ عليه لإدانة خطأ كلاوديو، لا كلاوديو نفسه[1]. تريد الرأفة، وضمانها من جهة فصل الفاعل عن فعله، [فصل] الشخص عن العمل. وبالمثل، يُقِيم كل من يريدون أن يُحِبّوا بحق هذا التمييز كذلك. عندما كان ابني الأكبر بعمر السنوات الثلاث، توقَّع (وقد أخبرني بذلك الأمر بمصطلحات واضحة) أنني سأحبه حتى لو أصبح حمارًا، ناهيك عن كونه قد أساء التصرف. الحبُ حبٌ، هكذا أصرّ [ابني] بشكل صحيح، ولو أن الأب يحب، سيحب بصرف النظر عمَّا يفعله الابن. فَصَلَ ابني الفاعلَ عن الفعل.

يرقد هذا التبصُّر الأساسي لطبيعة الحب في قلب التمييز العام باللاهوت المسيحي بين "الشخص" — أي شخص — و"عملـ"ـه. اعتقد مارتن لوثر Martin Luther، وهو مصلح بروتستانتي ألماني شديد، أن حب الله لنا بسبب

(1) William Shakespeare, Measure for Measure, in Riverside Shakespeare (ed. G. Blakemore Evans; Boston: Houghton Mifflin, 1974), 560.

أفعالنا النبيلة أمر غير ذي قيمة، وكذلك يكون عدم حبه لنا بسبب أفعالنا الدنيئة. إن الله يحب، وبالتالي، يخلق البشر؛ يحب الله الكائناتِ البشرية فقط لأنها موجودة. في نفس الوقت، ولأن الله يحب كل كائن بشري بشكل غير مشروط، لا يمكن لله أن يحب ذلك الذي يضر الكائنات البشرية. ومن هنا يدين الله الخطيئة، ويفعل ذلك بناء على الحب لكل الكائنات البشرية ـ القدّيسون والمذنبون على حدٍّ سواء[1].

يجعل تأسيس حب الله للتمييز بين الإنسان والعمل من الممكن للمسيحيين احترام كل شخص بدون إلزام أنفسهم باحترام كل شيء نتيجة لذلك. هل من المقبول أن يتم التمييز بين الشخص والعمل بدون الاعتقاد بالله الذي يحب، بناء على أسس علمانية صرفة، وبالتالي اعتماد مبدأ الاحترام للجميع مهما كانت أفعالهم تتسم بالشر؟ ربما. لكن في أيٍّ من الحالتين، هذا التمييز طريقة هامة من عدة طرق يؤمِّن من خلالها الإيمان المسيحي الاحترام للجميع. وبينما يُدان فعل السيد لوفنر، ينبغي علينا احترامه باعتباره شخصًا. يجب أن نمتنع عن انتهاك نزاهته باعتباره كائنًا بشريًا والسعي لتنمية إمكاناته وقدراته[2].

احترام ما نختلف معه؟ إنني أحترم إنسانة ما بناء على إنسانيتها، لكنني أحترم عملها بناء على إتقانه. أو، لأعيد صياغة الأمر بشأني، وذلك باعتباري مُسْتَقْبِلًا للاحترام بدلًا من اعتباري مانحًا له: يمكنني ببساطة الحصول على الاحترام لنفسي لكن يجب عليَّ كسْب الاحترام فيما يتعلق بعملي. من الواضح أنني، وباعتباري كائنًا غير مثالي، لا يمكنني توقُّع الاحترام تجاه كل شيء أعتقد فيه أو أفعله، بالأخص، ليس في عالَم تنتشر فيه الاختلافات في القناعات والقيم، ولا يمكنني منح الاحترام لكل شيء يعتقد فيه أو يفعله إنسان مَعيب آخر. إذًا يبدو أننا وصلنا لـ "قاعدة احترام" مُشابِهَة لـ "قاعدة الحب" المشهورة

---

(1) للتمييز بين الشخص والعمل عند لوثر Luther، انظر:

Gerhard Ebeling, Luther: An Introduction to His Thought, trans. R. A. Wilson (Philadelphia: Fortress, 1970), 148-58

(2) من الواضح أن الاحترام بالمعنى الذي أقصده يتوافق مع معاقبة مرتكب الجريمة. بالفعل، وفق ظروف معينة، قد يكون العقاب طريقة لاحترام الشخص بوصفه المقترف لفعل كريه أخلاقيًا.

رغم وجود جدال حولها: "أحبوا المخطئ، لكن اكرهوا الخطيئة!"[1]. تكون "قاعدة الاحترام" بالتالي: "احترموا الشخص، لكن لا تحترموا قناعاته الخاطئة أو تصرفاته الضالَّة!".

هل من الممكن، رغم ذلك، أن نحترم الشخص الذي نرفض قناعاته مع احترام هذه القناعات الخاطئة أنفسها (في بعض الحالات)؟ يسهل إيجاد الحالات التي يكون احترام القناعات فيها غير ملائم. لو ظنَّ السيد لافنر أن جموح إطلاقه للنار مُبَرَّر، يمكننا بصعوبة احترام "موقفه الأخلاقي"! وبالمثل، يتفق معظمنا على أنه ينبغي علينا احتقار، لا احترام، وجهات النظر التي تعتقد أنه من المبَرَّرِ إطلاق النار وإلقاء القنابل على المتظاهرين السلميين مثل نظام القذافي في فبراير من عام 2011. إذًا، في الكثير من المواقف الأخلاقية التي نرفضها، [نجد أننا] نحكم على سمة الفعل باعتباره شرًا، ونسحب الاحترام.

هل يجب علينا فعل الأمر نفسه مع التأويلات الشاملة [لكل مناحي الحياة] والتي تختلف بشكل جليٍ عن تأويلاتنا؟ هذه القضية خطيرة (ودقيقة) في ما يتعلق بالعلاقات بين الأديان، على الأخص عندما يكون الموَحِّدون [بالله] مُتَضَمَّنين[2]. يعني الإيمان بإله واحد التأكيد على حقيقة دينية واحدة، وبالتالي، رفض كل الأديان الأخرى باعتبارها على الأقل زائفة بمعنى ما من المعاني[3]. لو

(1) يعترض البعض على القاعدة، لكن بالكاد يتجادل أغلب من يفعلون ذلك حول الذهاب إلى أن فعلًا ما يُحجب عنه الاحترام آثمٌ بدلًا من رفض القاعدة نفسها. عندما يتواجد اتفاق على أن التصرف محل التساؤل آثم أو شرير، يقبل معظم المسيحيين على الأقل القاعدة.

(2) إنني أقدم افتراضًا لا أقدر على المحاججة في سبيله هنا: ليست كل الأديان متشابهة أساسًا. وفي هذا الطرح أختلف عن الكثير من المعاصرين، والباحثين، وغير المتخصصين على حدٍّ سواء، والذين يتفقون في فكرة التماثل الأساسي لكل الأديان الرئيسية على نحوٍ غير مُتَرَوٍّ [من جهة التفكير في الموضوع] لدرجة أن الاختيار بين الأديان عندهم مسألة حادثة للميلاد أو تفضيل لطريقة محددة للحياة، لكنها ليست مسألة الحقيقة. على النقيض، أعتقد أن الأديان، من بين الأشياء التي تفعلها، تسوق ادعاءات عن الحقيقة، وأن هذه الادعاءات تتداخل بين الأديان (كما يقول كل من اليهود والمسلمون بأنهم يعتقدون في إله واحد)، لكن قد يعارض الواحد منهم الآخر (كادعاء المسيحيين بأن يسوع المسيح الله وقد تجسَّد ويدعي المسلمون أنه كان رسولًا مميَّزًا).

(3) للنقاش حول هذه المسألة، انظر، Volf, Allah, 221–24.

أننا طبقنا تمييز "الشخص – العمل" على عالَم الأديان التوحيدية، سيبدو أن الشخص المَوَحِّدَ يحترم كل تابعي الأديان الأخرى، لكنه لن يحترم الأديان نفسها، بما أنه سيعتبر – على نحو ظاهر – الأديان الأخرى على خطأ. يمكننا أن نعتقد، كما يعتقد بعض المسيحيين، أن محمدًا أوحيَ إليه بواسطة شيطان وأن الإسلام دين شرير بينما نحترم المسلمين كأفراد. وبشكل لا يثير الدهشة، لا يشعر أغلب المسلمين بأن مسيحيين كهؤلاء يحترموهم حتى عندما يلتزم هؤلاء المسيحيون بالـ تسامح معهم. ولا يعتقد المسيحيون ذلك لو أن الأدوار تبدَّلَت. ولأن الاعتقادات الدينية نهائية (مطلقة)؛ فهي القناعات الأكثر أساسية التي يمكن لشخص ما اعتناقها. يتوق أغلب الناس إلى كسب الاحترام، ليس فقط لمجرد إنسانيتهم، وإنما كذلك احترامهم في ما يتعلق بالتوجه الأساسي لكينونتهم.

ليس ثمة سبب إلزامي يفسر لماذا يجب على المَوَحِّدين سحب احترامهم تجاه الأديان التي يرفضوها. في الواقع، من المحتمل أن يكون عدم احترام هذه الأديان أمرًا خاطئًا. تذكروا نقاشي الأسبق عن تدريس نيتشه، وهو مفكر [أنتج] تأويلات شاملة للحقيقة، من وجهة نظر مسيحية، أكثر خطئًا بشكل واضح من دين كالإسلام. طلبت من طلابي – بمساعدة القاعدة [التي أرسيتها]! – احترام نيتشه بالتعامل معه كمصدر مُحْتَمَل للتبصُّر. لكن، قبل تدريس هذا الفصل الدراسي بوقت طويل، توصلت لاحترام أعمال نيتشه بنفسي. كانت فلسفته إبداعية [بارعة في التصوير المجازي]، وكان تفكيره قاسيًا، وكانت كتابته قوية خَطَابِيًّا، وكانت بعض تبصراته عميقة، وكان موقفه [الفكري] في مجمله لا يُقاوَم بشكل مُغرٍ ـ وكل هذه الأمور إنجازات استثنائية تتطلب الاحترام. ولفترة من الزمن، كان واحدٌ من كتبه مستقرًا على الطاولة بجانب سريري؛ وكنت أقرأه قبل إطفاء الأنوار باعتباره نوعًا من أنواع الممارسة الروحية.

إنني أحترم فكر نيتشه، ولا أحترم نيتشه باعتباره شخصًا فقط، وأفعل ذلك بينما أواصل، بسعادة وشكل تام، اعتناق كل القناعات المسيحية الأساسية التي استهدف نيتشه إبطالها! وبطريقة مشابِهَة، أحترم تأويلات الحقيقة التي يطرحها سقراط، وبوذا ومحمد ـ وكلهم أصحاب رؤى إبداعيون نادوا ببدائل أقل راديكالية للإيمان المسيحي من نيتشه. تتعلق قناعتي بأن الله واحد، والحقيقة

واحدة، وأن الأديان تقدم ادعاءات بالحقيقة، وهذه القناعة لا تعيقني قط عن احترام فلسفتي نيتشه وبوذا (اللذان لم يعتقدا بوجود إله) أو فكر سقراط ومحمد (اللذان اعتقدا بوجود إله، كلٌ بطريقته وبشكل مختلف عن طريقتي).

أشير إلى لزوم كون الموقف من رؤى مؤسسي الأديان (بوذا ومحمد) مشابهًا للموقف من فكر الفلاسفة العظماء (نيتشه وسقراط). ومع ذلك، هل المقارنة بين الاثنين – بين مؤسسي الأديان والفلاسفة – عادلة؟ إنها عادلة.

كيف توصلت لاحترام أعمال نيتشه؟ اشتملت العملية على مراحل ثلاث: الانفتاح، والافتراض، والحُكْم. أولًا، كنت منفتحًا تجاه نيتشه باعتباره مصدرًا للتبصُّر – وهو نتيجة احترامه باعتباره شخصًا كما ناقشت قبل ذلك. ثانيًا، كنت مدفوعًا لأخذه بجدية عبر افتراض أن عمل نيتشه في الواقع يحتوي بالفعل على تبصرات هامةـوهو افتراض تبنيته بسبب اعتباره مفكرًا عظيمًا في التراث الفكري الغربي. وأخيرًا، دَرَسْت كتاباته وكَوَّنت حُكْمًا مفاده أن فكره سبب كافٍ للاحترام رغم أنني أختلف معه بعمق.

أقترح أن نتوصل لاحترام (أو عدم احترام) رؤية مؤسس ما لدين ما بطريقة مشابهة: نفترض موقفًا من الانفتاح على التبصرات [الممكنة]، ونُقرُّ بأن الاقتراض ذو قيمة، ونُصدر حُكْمًا يؤدي إما إلى الاحترام أو عدمه. وفيما يتعلق بافتراض القيمة، يكتب تشارلز تايلور:

"من المنطقي افتراض أن الثقافات [والأديان] التي أتاحت أفقًا للمعنى لعدد كبير من البشر، بشخصيات وأمزجة متعددة، لفترة طالت من الزمان ـ والتي، بمعنى آخر، صاغت إحساسهم بالخير، والمقدس، والبديع ـ [أقول من المنطقي افتراض أنها] تحوز في الغالب شيئًا ما يستحق إعجابنا واحترامنا حتى لو كانت تحتوي على الكثير مما نمقته ونرفضه ... سيتطلب الأمر غرورًا من الطراز الأرفع لاقتطاع هذا الاحتمال قَبْليًا"[1].

(1) Taylor, "The Politics of Recognition," 72–73.

يجب علينا افتراض أن الناس في تنوعهم يستحقون الاحترام فقط لأنهم وجدوا أديانًا عالمية مختلفة وملزِمَة. والآن، لا يُعتبر الافتراض بأن الاحترام واجب في الواقع حُكمًا للآن. لكنني أعتقد أن حُكمًا كهذا من المحتمل اتّباعه.

ومع ذلك، ماذا لو لم يُؤدِّ حُكم مُعْتَبَر لشخص ما لاحترام الأديان الأخرى؟ على سبيل المثال، ترى إنسانة ما أن معاملة المرأة في دين معين يؤسَف لها، وأنه ليس بمقدورها احترام دين يستغل النساء بهذه الفظاعة. لو تأسس هذا الاستنتاج على اطّلاع واعتُبر بمثابة حُكم بدلًا من اعتباره بمثابة رد فعل سلبي، ستجد نفسها قد عادت لاحترام الأشخاص —كل الأشخاص— بدون احترام اعتقاداتهم أو ممارساتهم. لن تختلف في ممارساتها عن الملحدين الأشداء الملتزمين بالمساواة في الكرامة والاحترام للجميع ـ ولن تختلف عن هؤلاء الذين يحترمون الناس الذين يعتقدون ما يرونه بمثابة اعتقادات باطلة وخطيرة تستأهل الاستهزاء والتقريع.

خلاصة القول:

الاحترام لجميع الناس؟ هذا إلزام أخلاقي غير مشروط!

احترام أديان العالَم؟ هذه نتيجة مُحتَمَلَة لحُكم مُعْتَبَر، على الرغم من أشكال عدم الاتفاق العميقة!

يطلب الإيمان المسيحي، باعتقاده في إله واحد للحب، الموقف الأول ويتوافق مع الموقف الثاني. عندما يتعلق الأمر بالاحترام، فهو الجانب الإيجابي في اعتناق الإيمان المسيحي.

الله، والكرامة، والاحترام

هناك أمور أكثر من ذلك تتعلق بهذا الجانب الإيجابي. لفحصها، أعود إلى احترام الأفراد بعيدًا عن وجهات نظرهم وتقصّي رحابة "دائرة الاحترام".

في غياب إله الحب، تساءلت قبل ذلك عن كوننا نمتلك أسسًا كافية لاحترام هؤلاء الذين نُدين أفعالهم بجديةالآثمون. في غياب إله الحب، ستتواجد فئة من الناس نصيبها الخروج من دائرة الاحترام بكل تأكيد.

مرة أخرى، تذكروا كانط وتعرضه للكرامة الإنسانية والاحترام (عن كون الاحترام الاستجابة الملائمة لكرامة الإنسان). لقد أسس الكرامة الإنسانية على مقدرة محددة للكائنات البشرية: قدرتهم على وضع غايات وتوجيه حياتهم عبر العقل. وعند كانط، تمنح هذه المقدرة، لا شيء سواها، الكائنات البشرية الكرامة[1]. وكرؤية كانط، تنبني كل الرؤى العلمانية عن الكرامة الإنسانية والاحترام على تأسيس ينطوي جزئيًا على المقدرة الإنسانية؟ لكن، ماذا عن الكائنات البشرية غير القادرة على توجيه حياتها عقلانيًا؟ يصف تايلور ما نميل لفعله في حالات كهذه:

"يصل شعورنا بأهمية الإمكانية لمدى بعيد، لدرجة أننا نَمدّ هذه الحماية [أي ادعاء امتلاكهم للكرامة واستحقاقهم للاحترام] حتى لأشخاص عجزوا عن إدراك إمكانياتهم بالطريقة العادية جراء بعض الظروف التي أصابتهم ـ الأشخاص المعاقون أو الذين دخلوا في غيبوبة على سبيل المثال[2]."

هذا ما نميل لفعله. لكن هل يمكننا تبرير مثل هذا الامتداد لـ "دائرة الاحترام" على نحو ملائم؟[3] ماذا لو حاجج أحدهم، وتمسك بأفكار كانط بصرامة، قائلًا إن شخصًا أصابه الزهايمر (أو رضيع) لا يمتلك الكرامة بما أنه ينقصه المقدرة على توجيه حياته عقلانيًا؟ لن يستحق شخص كهذا الاحترام حينها. لو أنك تؤسس الكرامة الإنسانية في المقدرة، سيستحق أصحابُ المقدرة الملائِمَةِ الاحترامَ ولن يستحقها من لا يحوزون هذه المقدرة. يمكنك التأكيد على المساواة في الاحترام تجاه من يمتلكون المقدرة، لكنك لن تتمكن من تأكيد المساواة في

(1) See Wood, Kant's Ethical Thought, 132–33.

(2) Taylor, "The Politics of Recognition," 41–42.

(3) للعبارة انظر:

Nicholas Wolterstorff, Justice: Rights and Wrongs (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2008), 333.

الاحترام للجميع. لا توجد مقدرة للكائنات البشرية تستطيع تأسيس كرامة إنسانية كونية. في غياب الله، سيخرج بعض الناس حتمًا من "دائرة الاحترام".

ما هي الاختلافات التي يُحدِثها [وجود] الله؟ لو أن الله خلق كل الكائنات البشرية ويحب كل واحد منها، حينها تمتلك كل الكائنات البشرية — وكل الذين ولدوا من كائن بشري[1]- كرامة وتستحق الاحترام. لا تؤسس علاقة الله بهم باعتباره الخالق الذي يحبهم كرامتهم، وليست أي مقدرة يمتلكوها[2]. يحاجج النقاد بأن التأكيد على وجود الإله الواحد لجميع البشر يؤدي بشكل حتمي إلى التَّعَصُّب. وكما أزعم، ليس تأكيد وجود الخالق الواحد الذي يحب كل كائن بشري متوافقًا مع الاحترام الكوني فقط، وإنما يوفر كذلك السبب الإلزامي الوحيد لاحترام كهذا.

جائزة التَّعَصُّب

أي دين يحصل على جائزة التَّعَصُّب؟ بمعنى ما، لا يساعد هذا الفصل في الإجابة على هذا السؤال العام. أولًا، لقد كتبت هنا عن الإيمان المسيحي فقط، وبشكل حصري عن القناعات المسيحية أصليًا بدلًا من الكتابة عن الممارسات الفعلية لمسيحيين أحياء. ثانيًا، لم أقم بعمل أحكام مُقارَنَة، ولا ادعاءات بخصوص استعلاء أو تدني المسيحية في علاقتها بالتسامح والاحترام. في مسيرتها عبر التاريخ، هل كانت المسيحية أكثر تعصبًا من الأديان الأخرى (وفلسفات

---

(1) اقترح اللاهوتي الألماني ديتريتش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer (الذي عمل في أوقات عدم مراعاة النازية للحياة الإنسانية خصوصًا الحياة الإنسانية المتضررة) هذا "التعريف" للكائن البشري. وقال: "إن السؤال المتعلق بحمل الحياة في حالة الأشخاص المعاقين بشكل كبير منذ الميلاد حياة إنسانية بحق لسؤالٌ ساذج لدرجة أنه بالكاد يحتاج الإجابة عنه. إنها حياة معاقة، وُلِدَت من أبوين إنسانيين ولا يمكنها أن تكون أقل من حياة إنسانية". (Ethics, vol. 6 of Dietrich Bonhoeffer Works [ed. Clifford J. Green; Minneapolis: Fortress, 2005), 195

(2) بطرق مختلفة، يسوق كل من [نيكولاس] وولترستورف Wolterstorff (Justice, 323–61)، وكيلسي Kelsey (Eccentric Existence, 276–79) هذه الحجة.

علمانية عن الحياة) كما حاجج البعض؟[1] لا أعرف الإجابة. لا أعرف حتى كيفية الشروع في إيجادها، ولا المنهج الملائم لتقييم التَّعَصُّب النسبي لأديان متنوعة. لن أقبل أبدًا بالشرف المريب للجلوس على رأس هيئة مُحَكَّمين لتحديد الحائز على الجائزة.

لكنني حاولت إجابة سؤال يرتبط بالموضوع وأهم: هل الإيمان المسيحي نفسه متعصب، أم هل يَحُطّ المسيحيون المتعصبون من قدر دينهم؟ لقد حاججت بأن ممارسة التَّعَصُّب والاحتقار تجاهد ضد القناعات المسيحية الأساسية وتنتهك أمرًا مسيحيًا بيّنًا. كما حاججت بأن الإيمان المسيحي يُقَدِّم مصادر هامة لتعزيز احترام كوني ثقافي. وهذه الثقافة، كما أعتقد، هي التي نحتاجها في عالَم اليوم المترابط والمتشابك، والمندفع [في القلب من] تغيرات سريعة وحيوية ويزخر بأديان حيوية وجازمة.

(1) See Naveed Sheikh, Body Count: A Quantitative Review of Political Violence Across World Civilizations (Amman: The Royal Islamic Strategic Studies Centre, 2009).

الفصل السابع

الاهتمام "بالآخر" باعتباره واحدًا "منا": الحرية الدينية للجميع

زيا ميرال.

ترجمة: سلمى العشماوي

زيا ميرال Ziya Meral كاتب مسيحي تركي، وباحث يُعد رسالة الدكتوراه في العلوم السياسية بجامعة كمبريدج. تلقى ميرال التدريب كباحث في علم الاجتماع بكلية لندن للاقتصاد وباحث في علم اللاهوت بكلية لندن للاهوت في جامعة برونيل. أجرى ميرال بحوثًا كثيرة وله سجل حافل باعتباره مدافعًا عن حقوق الإنسان في الشرق الأوسط وخاصة فيما يتعلق بقضايا الدين والأقليات. كما ينشر ميرال مقالات أكاديمية وأعمدة في الصفحات الأولى وتعليقات في وسائل الإعلام البريطانية والعالمية حول الشرق الأوسط وسياسات تركيا. ويلقي ميرال محاضرات في عدد من أهم مراكز البحوث السياسية والأكاديمية في العالم، والتي تشمل الكونجرس الأمريكي، ووزارة الخارجية الأمريكية، والبرلمان الإنجليزي. وبصفة دورية، يُطلع الكثير من المسئولين في المملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الأوروبي، والأمم المتحدة على مجريات الأمور. كما كتب ميرال مسرحية أُنتجت وقُدمت لأول مرة على خشبة إحدى أكبر مسارح إسطنبول. وحاليًا يجري ميرال بحثًا لمدة عام عن العنف الديني وسبل منعه مع "يوسف كرابا Joseph Crapa"، عضو اللجنة الأمريكية للحريات الدينية الدولية، وهي هيئة فيدرالية أمريكية تقدم مقترحات في مجال السياسات للحكومة الأمريكية.

المقدمة

فجأة توقف الشاب الذي كان يتحدث بجرأة عن دعم الحريات، ونشر الديمقراطية، والوصول لمستقبل أفضل لبلاده عن الكلام وبدت عليه علامات الاضطراب. أصبحت حالته، التي كانت تعكس شجاعة وثقة الشباب كما تظهر في صورة تشي جيفارا Che Guevara المعلقة خلفه، تنم عن شخص ضعيف تطارده ذكريات الماضي ومخاوف المستقبل.

اختلفت حالته تمامًا عندما سألته عن فترة احتجازه. فقد قُبض عليه بسبب تحوله من الإسلام إلى اعتناق المسيحية. ولم يُقدم للمحاكمة ولم تُوَجَّه له أية تهمة رسمية. ولكن في إحدى الليالي اقتحمت قوات الأمن منزله وأخذوه في سيارة إلى سجن مريع في الصحراء. وقد تعرض في هذه الليلة إلى الضرب، والتعرية، والإهانة، والإذلال، والتعذيب بكهربة أعضائه التناسلية. واحتُجز في زنزانة مظلمة بلا نوافذ، وضيقة لا تكاد تَسَع عدة خطوات. وقد كان انتهاء معاناته في الحجز مفاجئًا وغير مُفَسَّرٍ مثلما كان اعتقاله.

بعينين دامعتين، قال لي: "لقد ظنوا أنهم نجحوا في تحطيم إرادتي، ولكنهم مخطئون! فلا زلت كما أنا!". وعلى الرغم من خضوعه للعلاج لعدة أشهر، ولكنه استمر على موقفه من اعتناق المسيحية. ولكن، خلفت الأزمة روحًا معذبة وجرحًا عميقًا لم يلتئم بعد. ولا يزال يستيقظ في الصباح الباكر غارقًا في عرقه، ومتوترًا، ومستعيدًا لذكرى تلك الليلة المريعة. ومنذ ذلك الحين، لم يُكَوِّن أية صداقات أو علاقات عاطفية ناجحة. وقال مازحًا "من ذا الذي يشتري بضاعة معيبة؟" لا زال يعيش في تلك الدولة الشرق أوسطية وكأنه يقول لمعذبيه "لازلت أعيش هنا!". تركته في مكتبه وخلفه صورة جيفارا وسرت وسط زحام الشوارع المعبأة بالأتربة ودموع القهر تنهمر من عيني وتنطبع على وجنتيّ.

باعتباري باحثًا في مجال حقوق الإنسان، أعمل على تسجيل معاناة البشر وتحليلها. فمن وجهة نظري، لا يمكن وصف التعصب بأنه غير شخصي أو مجرد. ولكنه يعكس دومًا وجوه وأسماء الأشخاص الذين عانوا من الاغتصاب، والضرب، الاحتجاز لمدة غير محددة، والإهانة، والتهجير، وانعدام العدالة،

والحرمان من الخدمات الصحية والتعليم وفرص العمل والسكن لمجرد أنهم يعتنقون دينًا آخرًا أو لا يؤمنون بأي من الأديان.

لا تتعدى الحالات التي أقابلها في البلاد التي أراقبها مجرد جزء بسيط من مشكلة تتفاقم بشكل مضطرد؛ حيث يعتبر قمع الحرية الدينية والاضطهاد على أساس الانتماءات الدينية من أكثر انتهاكات حقوق الإنسان انتشارًا في العالم اليوم. كما تعتبر الحرية الدينية من أكثر النواحي المهملة والتي لم تحظَ بالدراسة الكافية فيما يتعلق بحقوق الإنسان على الرغم من أن حرية الفكر والوجدان والمعتقدات من الحقوق الأساسية التي تكفلها كافة مواثيق حقوق الإنسان.

هناك أسباب كثيرة وراء ذلك. أولًا، تتجنب الدول، والأجهزة الإعلامية، ومنظمات حقوق الإنسان قضايا الحرية الدينية خشية أن تتهم بمحاباة أو معاداة دين معين. ومن ثم، تفشل في حماية الأفراد من أي ضرر ولا تشجع أي ازدهار للإنسانية. ثانيًا، عادة ما يجهل الزعماء ماهية الدين وكيفية حدوث الاضطهاد وأسبابه، وأهمية الحرية الدينية. فبالنسبة لغالبية النخبة المتعلمة في أوروبا وأمريكا الشمالية، يعتبر الدين ببساطة معتقدًا شخصيًا وليس له أي وزن في الحياة العامة اليوم. مع ذلك فإن الغالبية العظمى من الناس، بغض النظر عن مستوى تعليمهم أو دخلهم، يؤمنون بمعتقدات دينية تؤثر على كافة مناحي حياتهم. ومن ثم، لا ينتهك الاضطهاد الديني حياتهم الخاصة فحسب، ولكنه يؤثر أيضًا على حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

لو كان هذا الجهل بالحرية الدينية غير محسوس بالنسبة لهؤلاء الذين لم يتعرضوا من قبل لهذه القضية، فإن هذه الرؤية المضطربة تزداد اتساعًا حتى بالنسبة لهؤلاء الذي يتعرضون لمثل هذه القضايا. وإذا لم نعالج هذه النقطة التي تضطرب فيها رؤيتنا، فنحن بذلك نناقض كل من روح حقوق الإنسان وأهدافنا في تحقيق الحرية الدينية.

النقطة التي تنعدم عندها الرؤية

يعتبر تطوير قوانين حقوق الإنسان الدولية أحد أهم الإيجابيات التي ظهرت

خلال أحلك فترات القرن العشرين. على الرغم من استمرار الجدل حول الافتراضات الثقافية وقلة التطبيق، تمكنا من خلال تطوير آليات تشريعية ودبلوماسية من تحدي زعماء أقوياء وأنظمة مستبدة. كما توفر لنا الهيئات الدولية، ووسائل الإعلام، والمنظمات غير الحكومية منابر لتوصيل أصواتنا والتحرك للدفاع عن الأفراد والأقليات. لدينا الآن سيل لا ينقطع من المعلومات المتوفرة في منازلنا الدافئة لتساعدنا على معرفة حقيقة ما يحدث في العالم من حولنا. فلا سبيل الآن أمام الحكام من أصحاب السيادة لحجب الحقائق. فالحقيقة ستظهر حتمًا إن عاجلًا أو آجلًا.

لكن لا يدرك إلا القليل من الناس أن تطبيق مبادئ حقوق الإنسان والارتقاء بها يعتمد على وسائل الضغط التي نمارسها على حكوماتنا؛ حيث تجبرهم المظاهرات، واستطلاعات الرأي، والمنظمات غير الحكومية، والشبكات غير الرسمية على اتخاذ مواقف. ويُعتبر ذلك في حد ذاته نعمة ولعنة في آن واحد. فمن ناحية يعد نعمة لأنه يساهم في تمكيننا ويعتبر وسيلة مساءلة للأقوياء. ومن ناحية أخرى هو لعنة لأننا إذا لم نتخذ مواقف ضد الظلم البيِّن، فلن يفعل أحد ذلك.

بما أنه لا يمكن لأي فرد أو جماعة أن يعالج كافة المشكلات في العالم، يجب علينا اختيار القضايا الأقرب لقلوبنا وحياتنا. ومن ثم، أهتم بالتركيز على قضايا حقوق الإنسان في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا فقط، ليس لأنني غير مهتم بباقي العالم أو سكانه، ولكن لأن ذلك هو كل ما في وسعي فعله على ضوء إمكانياتي؛ حيث يساهم التركيز في مجال أو موضوع أو قضية بعينها على التقدم بكفاءة أكبر مما لو كان المرء منشغلًا بأكثر من قضية.

لذا، تنبثق غالبية المنظمات غير الحكومية والحملات التي تدعم الحريات الدينية عن مجموعات دينية. وتعزز هذه الجماعات إلى حد كبير الحرية الدينية لأتباعها؛ حيث يؤسس المسيحيون منظمات توثق وتنشر الوعي حول ما يتعرض له المسيحيون من مآسي. وينطبق ذلك على البهائية للبهائيين، وعلى الجماعات اليهودية فيما يتعلق بالقضايا التي تخص اليهود، والجماعات الإسلامية بالنسبة للمسلمين.

وهذا أمر طبيعي بالنسبة لكافة البشر. فباعتباري مسيحيًا، أتفهم جيدًا معاناة المسيحيين. وإذا لم يتحرك المسيحيون غير المضطهدين لتخفيف معاناة إخوانهم في أماكن أخرى من العالم، فلن يفعل ذلك الآخرون. وإذا تجاهلوا معاناة الآخرين، سيكونون قد تخلوا عن إيمانهم بكونهم أسرة واحدة.

ومع ذلك، يتعارض هذا النوع من التعاطف الطائفي مع روح ومفهوم "حقوق الإنسان". فمن خلال الجهود المبذولة لدعم ذوينا، نتجاهل "الآخرين" ممن يتعرضون لنفس انتهاكات حقوق الإنسان. فقد أصبح الدفاع عن حقوق الإنسان بمثابة اللعبة التي يهتف فيها كل فرد لفريقه. وتتضمن المنافسة في هذه "اللعبة" عادة محاولة إثبات مَن هو الفريق الأكثر معاناة، ومن ثم، يستحق الحماية والامتيازات الخاصة.

وفي النهاية لا يصح تسليط الضوء على معاناة فئة معينة وتجاهل الفئات التي تعاني من نفس المصير. إذا اكتفينا باللعب لصالح ذوينا فقط، فنحن ضمنيًا ندين المجموعات الأخرى. ونتجاوز بصمتنا عن سوء معاملتهم. ومن ثم، نقول للعالم دون إدراك أن مجتمعنا هو المجتمع الوحيد المستحق للحماية وأننا لا نهتم بحقوق الآخرين. فبدون إدراك ذلك، سنهدم أساس مفهوم حقوق الإنسان من خلال تعزيز الحرية الدينية فقط من أجل ذوينا أو أتباعنا.

ثلاثة أسباب: برجماتية، وأخلاقية، ولاهوتية

لا يمكن أن نستمر في الدفاع فقط عن ذوينا وأتباع ديننا، وذلك لثلاثة أسباب.

يُعتبر السبب الأول برجماتيًا؛ حيث يؤدي تجاهل مآسي الآخرين إلى فشلنا في معالجة مسببات الاضطهاد. ففي إيران على سبيل المثال، يعتبر مصير المسلمين المتنصرين انتهاكًا صارخًا لحقوق الإنسان؛ حيث يواجهون تهديدات، واحتجازًا قصريًا، وإيذاءً جسديًا، وعقوبة الإعدام إذا لم يعودوا للإسلام. وقد تزايد عدد المسيحيين من خلفية إسلامية في إيران من عدة مئات منذ ثلاثين عامًا إلى 20,000 شخص على الأقل اليوم. وقد أدى ذلك إلى زيادة الاضطهاد، وبالتالي زاد التحامل ضد إيران من قبل المسيحيين في الغرب.

كما يتعرض في نفس الدولة على الأقل 300,000 بهائي للاضطهاد، والسجن لفترات طويلة، والترهيب، والحرمان من التعليم، والعدالة، والفرص الاقتصادية. وبفضل الجهود المستمرة من قبل مجتمع البهائية الدولي، أصبح العالم على دراية بالوضع المذري للبهائيين في إيران. فلولا هذه الجهود، لم يكن شيء ليحدث لمنع إبادة البهائيين في إيران.

ومن ثم، يتشارك البهائيون والمسيحيون المتحولون من الإسلام نفس المصير؛ حيث يُنظر إليهم على أنهم مرتدون، وزنادقة، ومخرِّبون من قبل النظام ورجال الدين. وتشاركهم نفس المصير أيضًا الأقليات الأخرى من غير المسلمين، مثل الأرمن والأشوريين والمسلمين من غير الشيعة، ولا سيما العرب السُّنَّة.

يستخدم نظام الحكم الديني (اللاهوت-سياسي) في إيران الدين لإضفاء الشرعية على كيان الدولة. فبالنسبة لهم، أن تكون إيرانيًا حقًا هو أن تكون مسلمًا شيعيًا ولا يعني ذلك أي مسلم شيعي بل مسلمًا شيعيًا مؤيدًا للرؤية السياسية والاجتماعية والدينية لآية الله الخميني. ويعتبر كل من لا يتفق مع هذه الرؤية مصدرًا للتهديد ويجب إدماجه أو إجباره على الخضوع.

تمتلئ السجون الإيرانية حاليًا بالمنتمين لكل هذه المجموعات. فيمكن أن تجد في زنزانة واحدة بهائيًا، ومسيحيًا، وسنيًا محتجزين لنفس السبب. فإذا اكتفينا بعرض حالة المسيحي وحده، لن يوقف ذلك التهديدات التي تواجهها الحرية. فإذا لم يقم المجتمع الدولي بالتصدي لذلك الأمر والدفاع عن الحرية للجميع، ستظل السجون الإيرانية مكتظة بأتباع الأديان المختلفة.

لا تعتبر إيران حالة فريدة من نوعها. فما ينطبق على إيران ينطبق على جميع البلدان حيث تتعرض الحرية الدينية لخطر. ففي النهاية، إذا لم تتحد الجماعات الدينية وتدافع عن الآخرين من مختلف الديانات، فلن تتمكن من حماية أتباع دينها. سيتاح للمسيحيين في الشرق الأوسط التمتع بالأمان وحرية ممارسة شعائرهم فقط عندما يتمتع جيرانهم من اليهود والبهائيين والمسلمين بنفس هذه الحرية. لا يمكن أن يتغاضى المسيحيون عن معاناة الآخرين؛ حيث ترتبط معاناتهم ارتباطًا وثيقًا بمعاناة الآخرين.

يعتبر السبب الثاني لضرورة توقفنا عن الدفاع فقط عن أتباع ديانتنا سببًا أخلاقيًا، فلا ينبغي أن يتغاضى أحد عن معاناة الآخر. تخيل الوقوف خارج زنزانة في سجن إيراني مكتظ بأتباع مختلف العقائد تم احتجازهم لأسباب غير عادلة. وتخيل أن لديك القدرة على تحرير هؤلاء السجناء. افترض أن كل اسم ستدعوه سيخرج حرًا. فما هي الأسماء التي ستدعوها؟ فقط أتباع ديانتك؟ هل ستعتبر نفسك شخصًا فاضلًا إذا تمنيت الإفراج فقط عمن يشاركونك نفس المعتقد؟

وبينما تُعَدّ مناداة المسجونين بالأسماء لإطلاق سراحهم أمرًا غير ممكن، يعني اهتمامنا بحقوق من ينتمون إلى ديانتنا والدفاع عنهم دون الآخرين تخلينا عن الآخرين. فإذا كان جوهرُ الدعوة لحقوق الإنسان الإلزامَ الأخلاقي المرتبط بمنع الظلم والمعاناة، فمن ثم، لا يمكننا الاهتمام فقط بذوينا.

على الرغم من عجزنا عن تخفيف كل الآلام في العالم، لا تمنعنا محدودية إمكانياتنا من الاهتمام بمن ليسوا "منا". فلن يضيف إلى أعبائنا الاهتمام بمعاناة أعضاء المجموعات الأخرى والديانات الأخرى. ولا يمكننا القول ببساطة "على الرغم من أننا نشعر بالحزن لسماع أخبار عن احتجاز أتباع الديانات الأخرى في بلد نحن نعمل فيه لمساعدة من يشاركوننا نفس المعتقد، ولكننا لا نستطيع أن ندافع عنهم ويكفي التعاطف معهم".

يطرح تجاهلنا لمعاناة الآخرين المختلفين معنا في المعتقد تساؤلات جادة عن مدى الجدوى الأخلاقية لمواقفنا وعملنا. ويُحَوِّل هذا السلوك أنبل جهودنا لمجرد جهود حزبية. ففي الوقت الذي نؤيد فيه "عالمية" حقوق الإنسان نعتبر بعيدين كل البعد عنها.

ويعتبر السبب الثالث المتعلق بعدم جواز تجاهل آلام من لا يشاركوننا نفس المعتقد لاهوتيًا. فعندما سُئل المسيح عن أهم الوصايا، أجاب قائلًا: "تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى .وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ" (مت 22 : 37 –40). طبقًا لما قاله المسيح، تعتبر

هاتان الوصيتان حجر الأساس لكل ما نؤمن به وكل ما يجب أن نعيش وفقه. بوضوح، بالنسبة للمسيح، لا تنفصل محبة الله والالتزام بوصاياه عن محبة الجار. في الواقع، لا يمكن ادعاء محبة الله بدون محبة الجار. تركز أغلب تعاليم المسيح على محبة المُحْتَقَرِين والمهَمَّشِين وإعادة الكرامة لهم. فمن خلال تناول الطعام مع الزناة والعشارين، والثناء على الخير الموجود داخل الجماعات الدينية المحتقرة، مثل الصدوقيين [1] Sadducees، ضرب المسيح مثلًا لأتباعه في رؤية الآخرين جديرين بحب الله ونعمه.

قَرَنَ المسيح نفسه مع كل من استُبعد ظلمًا، وأُسيئت معاملته وتُرك للمعاناة – ولم يقرن نفسه مع المسيحيين ببساطة. بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما قال إن الخير الذي يُقَدَّم لكل من يعاني وللمسجونين بمثابة الخير المقَدَّم له، ومن لا يهرع لمساعدة المحتاجين فقد أخفق في مساعدة المسيح. (مت 25: 31- 46)

يتحدى إيماني بالمسيح ميلي الطبيعي لتعظيم عقيدتي على حساب معتقدات الآخرين. يدفعني إيماني للسعي في مساعدة من يعانون من ظروف مأساوية بغض النظر عن مرجعيتهم الدينية، فلا يهمني قيمتهم الشخصية أو معتقداتهم الدينية، فهم جيراني فإذا لم أحبهم كما أحب نفسي، لا يمكنني أن أدعي حب الله.

حب جيرانك في القرن الحادي العشرين

للأسف، لا تقتصر النقطة التي تحجب عنا الرؤية والتي هي موضوع نقاشنا على الجماعات المدافعة عن الأديان. يكمن بداخلنا الميل للاهتمام بمن ينتمون لنفس معتقداتنا على حساب الآخرين. ويعمي هذا الميل حتى الأفراد الأشد حساسية والأكثر رحمة. وعندما أفكر في الميل للاستجابة بشكل انتقائي لمن حُرموا من الحرية الدينية، تتبادر إلى ذهني ثلاث حالات.

الحالة الأولى هي امرأة مسلمة في تركيا، رأيت في عينيها الإحساس بالمهانة

---

(1) الصدوقيون: أعضاء طائفة كهنوتية يهودية ازدهرت لقرنين من الزمن قبل تدمير الهيكل الثاني لأورشليم عام 70 م. (المحرر).

عندما أُجبرت على نزع حجابها عند دخولها إلى حرم الجامعة. وتحطم قلبي لرؤيتها مجبرة على التنازل عن قيمها لأن حكام البلاد قرروا منعها من ارتداء أي رمز ديني يعبر عن معتقداتها ويُظْهرها.

الحالة الثانية لامرأة إيرانية كانت تبكي بذعر وتصرخ طلبًا للمساعدة عندما تم إجبارها على ركوب سيارة تتبع ميليشيات الباسيج (وهي ميليشيات شبه-دينية) في طهران. كانت "جريمتها" أن حجابها الذي أُجبرت عليه كان يُظهر أكثر مما يجب من شعرها. لم أتحمل مشاهدتها تُعنف وتُهان من قبل رجال مُلْتَحين يسعون لفرض مفهومهم للدين عليها.

وكانت الحالة الثالثة لامرأة في إحدى بلاد الشرق الأوسط. قال لي راعيها إنها كانت مسيحية مفعمة بالحياة تنتمي لفريق العبادة في كنيستها المحلية. لكن الآن خبت جذوتها، وكانت كل جريمتها أنها تحولت من الإسلام إلى المسيحية ولهذا السبب اعتدى عليها مجموعة من الرجال بوحشية.

عادة ما أتلقى ردود أفعال متباينة لهذه القصص بحسب خلفية المستمِع. فعندما قصصت القصة الأولى عن الشابة التركية لأتراك علمانيين، رأى البعض منهم أنها تستحق هذه المعاملة لأنها خالفت المنهج "العلماني" لمؤسس الجمهورية التركية. وعندما أروي القصة الثانية عن الشابة الإيرانية، يقول لي بعض من أصدقائي المسلمين إنه على الرغم من عدم موافقتهم على هذه الإساءة ولكنهم يرون أن المرأة في المجتمع الإسلامي يجب أن تمتثل للقواعد. وعندما أحكي قصة المرأة الشرق أوسطية، يعلق بعض أصدقائي الأوربيين بأن هذا التصرف يعكس استبداد المسلمين. ومن ثم يبررون ما تفعله الدول الأوربية من منع المآذن واتخاذ موقف صارم ضد الإسلام.

في حين يرى بعض الناس أنه يجب تقييد حريات من لا يشبهونهم، إلا أنهم يستشيطون غضبًا إذا واجهوا قيودًا أو واجه أحد ذويهم مثل هذه القيود، ومن ثم يطالبون بالتمسك بتطبيق حقوق الإنسان. ولكن لا تختلف معاناة المسلم عن الملحد أو المسيحي أمام الله. كما أنها تتساوى أمام قوانين حقوق الإنسان الدولية، فلا يمكن إضفاء الشرعية على أي ظلم يرتكب ضد أي منهم، لأن كل

إنسان يجب أن يتمتع بالحرية الدينية، ويعيش حرًا بدون الخوف من الاضطهاد، ولا يقتصر ذلك على من يشاركوني في العقيدة. فإما أن يتمتع الجميع بهذه الحرية أو يُحرم منها الكل!

تسيطر علينا بعض الأصوات التي تحاول إقناعنا بأن الصدام حتمي بين مختلف الحضارات والأديان. ويكتظ الإنترنت والصحف والتلفاز برسائل مضمونها أن من لا ينتمون إلى بلدنا أو ديننا هم شر محض يجب تجنبه، وإبعاده، وتحجيمه — بل وربما إخضاعه وهزيمته.

يحتاج العالم بشدة إلى سماع الرسالة المعاكسة من الذين يؤمنون بمبادئ دينية محددة. يجب أن نعلن بوضوح ونؤكد أن المسيحيين، والمسلمين، واليهود، والبهائيين عليهم أن يدعموا ويهرعوا لمساعدة كل من يعاني من أهل الديانات الأخرى، وأننا في النهاية نتشارك طبيعة إنسانية واحدة لا يمكن، ولا يجب، التنكر منها.

الخاتمة

يجب أن أعترف بشيء واحد. فأثناء محاولتي للفت الانتباه نحو هذه المنطقة غير المرئية بالنسبة لمن يشاركون في تعزيز الحريات الدينية، لم أنجح في رسم الصورة كاملة؛ فالعالم لا زال يمتلئ بأناس يمكنهم تخطي تحالفاتهم الدينية ومشاركة آلام الآخرين.

ففي عام 2007، اهتز العالم لجريمة القتل الوحشية في حق تركيين وألماني من المسيحيين في تركيا؛ حيث قيد الخمسة رجال المسيحيين الثلاثة، نيكاتي Necati، وأوجر Ugur، وتيلمان Tilman، في الكراسي وعذبوهم بوحشية لساعات قبل قطع أعناقهم. وبحسب اعترافات المتَّهَمين (عندما قبضت الشرطة عليهم في مسرح الجريمة)، قال هؤلاء القتلة إنهم كانوا يحاولون انتزاع اعترافات من الضحايا عن "أهداف المسيحيين وخططهم السرية لتدمير تركيا عن طريق تنصير المسلمين".

وكانت هذه الجريمة هي الأخيرة لعدد متزايد من الهجمات العنيفة ضد غير المسلمين في تركيا. قدمت تركيا اعتذارات مشكوكًا في جديتها ولم تبذل قصارى

جهدها لتحجيم هذه الموجة المتصاعدة من العنف. وكررت السلطات "أسفها" لعمليات القتل وأكدت أنها "لن تتغاضى عن أحداث العنف". ولكنها أضافت أيضًا "أن المبشرين ليسوا أبرياء". وقد كان كل اعتذار متبوعًا بكلمة "لكن" والتي أضفت شكلًا من أشكال الشرعية على العنف ضد غير المسلمين.

على الرغم من أن التبشير لا يشكل انتهاكًا لقوانين تركيا أو قوانين حقوق الإنسان الدولية، ترى الدولة التركية حتى هذه اللحظة أن أنشطة غير المسلمين في تركيا تشكل تهديدًا أمنيًا. يقرأ أطفال المدارس في كتبهم المدرسية عن "المخططات التاريخية الماكرة" التي ينفذها "المبشرون"، وهو ما يخلق سلوكًا سلبيًا متناميًا تجاه غير المسلمين. في بلد يصل تعداده إلى 70 مليون نسمة، من بينهم 100,000 مسيحي، تشكل هذه السلوكيات خطرًا حقيقيًا على حياة هذه المجتمعات المتضائلة ومستقبلها.

كانت هذه الحادثة مؤلمة لي شخصيًا؛ فقد كان واحد من ضحاياها الأتراك صديقًا لي هو وأسرته الصغيرة لسنوات طويلة؛ حيث تعرفت عليه في كنيسة بلدتي أزمير في تركيا. ولا أزال أشعر بنفس الألم الذي شعرت به عندما قرأت التقارير الطبية عن تعذيبهم والتي عانيت بعدها لليالٍ طويلة من الألم والأرق.

في خضم هذه اللحظة القاتمة في حياتي، وصلتني رسالة إلكترونية أحدثت فارقًا كبيرًا. كانت رسالة إلكترونية من صديقي العزيز، مصطفى أكيول Mustafa Akyol، وهو صحفي وكاتب مسلم. لم يكتفِ مصطفى بالكتابة بجرأة منتقدًا اضطهاد غير المسلمين، ولكنه في الوقت الذي بدت فيه البلد بأكملها متأثرة بعصاب كراهية الأجانب، دافع أكيول عن حق الناس في تغيير دينهم والدعوة لمعتقداتهم. وكان تعاطفه معي ومع مجتمعي بمثابة شعاع الأمل وسط الظلام الحالك.

لحسن الطالع، نشهد تلك الإشعاعات من الأمل والشجاعة والتي يزداد توهجها كلما ازداد الظلام قتامة؛ حيث يكتظ التاريخ بحكايات عن جيران خاطروا بحياتهم لحماية وإخفاء جيرانهم من الأقليات الدينية المضطهدة. وقد ضرب لنا هؤلاء الأشخاص مثلًا حقيقيًا وواقعيًا لما يعنيه حب جيراننا، حتى لو لم يكونوا "منا".

الفصل الثامن
التسامح الديني

الرئيس جيمي كارتر

ترجمة: إسلام سعد.

شغل جيمي كارتر Jimmy Carter (1924 – ..) منصب الرئيس التاسع والثلاثين للولايات المتحدة من عام 1977 إلى عام 1981، حيث أشرف على معاهدات كامب ديفيد، ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل. ألَّف جيمي كارتر أكثر من عشرين كتابًا، منها "محادثات السلام: رؤية للجيل القادم – Talking Peace: A Vision for the Next Generation"، و"الإيمان الحي – Living Faith"، و"فلسطين: نعم للسلام، لا للفصل العنصري – Palestine: Peace Not Apartheid". وهو مؤسس مركز كارتر Carter Center المكَرَّس لتطوير حقوق الإنسان، وإنهاء المعاناة الإنسانية ومَنْع وحلّ الصراع حول العالم. في عام 2002، حصل الرئيس كارتر على جائزة نوبل للسلام.

مقدمة

أثناء فترتي الرئاسية، صليت كثيرًا . أكثر من أي وقت سبق طوال حياتي – سائلًا الله أن يمنحني ذهنًا صافيًا، وحصافة، وحكمة فيما يتعلق بأمور من شأنها أن تؤثِّرَ على حيوات الكثير من الناس في بلدنا وحول العالم. ورغم عجزي عن الادعاء بأن قراراتي كانت دومًا الأفضل، إلا أن الصلاة ساعدتني بشكل عظيم.

عندما أعلنت ترشيحي في ديسمبر عام 1974، عبَّرت عن حلمٍ: "أن تُرْسِيَ هذه الدولة مقياسًا في مجتمع الأمم للشجاعة، والعطف، والاستقامة والانشغال الجاد بحقوق وحريات الإنسان الأساسية". كنت معتادًا على النقاشات المقبولة

بشكل كبير والتي تتعلق باضطرارنا للاختيار بين المثالية والواقعية أو بين الأخلاقية واستعمال القوة؛ لكنني رفضت هذه الادعاءات. بالنسبة لي، كان إظهار المثالية الأمريكية مقاربةً عملية وواقعية للشؤون الخارجية، وكانت المبادئ الأخلاقية أفضل تأسيس لاستعمال القوة والتأثير الأمريكيين.

حاولت عقب دخول البيت الأبيض عام 1977، أن أُعَبِّرَ ببساطة ووضوح، قدر المستطاع، في خطابي الافتتاحي، عن طموحاتي لأمريكا. وخلال فترة وصلت لبضعة أسابيع، قمت بإنجاز كمية كبيرة من العمل وفق هذه الكلمات القليلة، وقمت، في ذلك السياق بقراءة الخطابات الافتتاحية للرؤساء الذين خدموا قبلي. تأثرتُ بخطاب وودرو ويلسون[1] Woodrow Wilson (1856 — 1924) الافتتاحي. شعرت مثله بأنني أتولى منصب الرئاسة في وقت يطمح فيه الأمريكيون للعودة إلى المبادئ الأولى من خلال حكومتهم. بدت دعوته لتوبة قومية ملائمة أيضًا، على الرغم من أنني خشيت من عدم فهم الجمهور المعاصر لدعوة كهذه تصدر مني.

تناقشتُ مع روزالين Rosalynn حول آيات الإنجيل التي سأقتبسها في مراسم التنصيب. قمت باختيار (ميخا 6 :8): لَقَدْ أَوْضَحَ لَكَ الرَّبُّ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ. وَمَاذَا يَبْتَغِي مِنْكَ سِوَى أَنْ تَتَوَخَّى الْعَدْلَ، وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعاً مَعَ إِلَهِكَ؟ تُذَكِّرنا هذه الكلمات بالحاجة للسعي وراء معونة وإرشاد الله كما سعينا لتحسين التزامنا بالعدالة والرحمة.

لكل واحد منا نقاط مركزية لإيماننا السياسي - إما مرونة شعوبنا المتنوعة، وحكمة الدستور وقوانينه والعادات المشتقّة منه، والروح القومية للأمل والثقة التي شكّلَت تاريخنا، أو المبادئ الدينية والأخلاقية التي لا تتغير، والتي كانت موجودة على الدوام لتقود أمريكا في مسارها. في بعض الأوقات ننسى، بل وحتى ننحرف جذريًا عن المسار التاريخي لأمتنا. لكننا سرعان ما نتذكر ميزة العطف تجاه الضعفاء، والمعايير الأخلاقية، وجمال أرضنا، والسلام وحقوق الإنسان،

---

(1) وهو الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة، في الفترة من عام 1913 وحتى عام 1921. (المترجم)

وجودة الحياة الممكنة لأبنائنا، والقوة التي نستقيها من بعضنا البعض باعتبارنا أحرارًا ـ غير المقَيَّدَة باستثناء الحدود التي تفرضها الذات. حينئذ نكون قادرين على تصحيح أخطائنا، وإصلاح ما أتلفناه، وأن نمضي لأيام أفضل.

حقوق الإنسان

كان الشرق الأوسط، ولعدة قرون، ملتقى طرق التجارة ومركزًا لصراع ينشد التحكم في الأرض الثمينة التي تحيط بالأماكن المقدسة لثلاثة أديان توحيدية عظيمة، اليهودية، والإسلام، والمسيحية ـ وهي أشكال الإيمان التي تتشارك دم إبراهيم. ولكي نفهم جذور الكراهية وإراقة الدماء التي لا تزال تُشَكِّل العلاقات بين أبناء المنطقة، من المفيد أن نعود للنصوص المقدسة الخاصة بالعصور القديمة. ولدرجة تثير الدهشة، "إراداة الله" هي الأساس للجدالات المستترة والهجمات الإرهابية الأشرس بين اليهود، والمسلمين، والمسيحيين. تُسَبِّب وعود الله المبكرة وكيفية تطبيقها الآن صراعًا بعد أربعين قرنًا من إنسال الأب إبراهيم للعرب واليهود في الأرض المقدسة، تقريبًا 3000 عام منذ حكم الملك العظيم داوود، ونحو 2000 عام بعد أن أتى يسوع برسالته الثورية لنفس الأرض، و1350 عام منذ انتهاء بِعْثَة النبي محمد. وبشكل مأساوي، تكون النصوص المقدسة لـ "أهل الكتاب" الذين يعبدون نفس الإله مصدرًا للاختلاف عوضًا عن الاتفاق، وتُلهِمُ كراهيةً أكثر من الحب، وحربًا أكثر من السلام.

من الواضح أن شعب كل أمة يبتغي نهاية لإراقة الدماء والمعاناة. لكن ما الأمر الذي يمنع قادتهم من الذهاب حتى لمائدة التفاوض؟ تعتقد الأحزاب المتخاصِمَة في صلاح قضيتها، والبعض منها مستعدٌ لمواجهة الموت بدلًا من تغيير موقفهم لمجرد الإقرار بالوجود الشرعي لخصومهم. إنهم يسلكون بيقينية تامة في كونهم يُنفِّذون إرادة الله. إن أغلب هذه الحقائق ليست محل نزاع.

إذًا، كيف يمكن وجود وجهات نظر متصادمة بهذه الحدة بين أناسٍ يعيشون بنفس المنطقة؟

بأبسط المصطلحات، إن الصراع العربي الإسرائيلي نزاع بين هويات قومية للتحكم في المنطقة، لكن هناك أيضًا قضايا تاريخية، ودينية، وإستراتيجية، وسياسية، وسيكولوجية تضيف بُعدًا للمواجهة وتُعيق الحلَّ السلمي. ما يريده الواحد منهما لا يقل عن الاعتراف، والقبول، والاستقلال، والسيادة، والهوية المتعلِّقة بالأرض. لا يقر الواحد من طرفي النزاع رسميًا بوجود الآخر، لذا، يلزم لأي اختبار للنوايا أن يتم عبر وسطاء مترددين [فيما يتعلق بحسم النزاع لصالح أيٍّ من الطرفين]. يسعى الاثنان لمصادَقَة عالمية ودعم مالي وأخلاقي ولوجستي من حلفاء خارجيين. يخشى كل طرف من الدمار الكلي الناتج عن الإنكار التام بواسطة الآخر، ويتم تغذية هذا القلق بواسطة تاريخ من العنف والكراهية، حاول عبره كل طرف نزع شرعية وجود الآخر بينما يُقَدِّم بنشاط الاستحقاقات الفريدة والحصرية لقضيته.

تميل القوى المتعارضة لأن تصبح أكثر جذرية بواسطة غرور النصر ويأس الهزيمة. في أي مواجهة، يتم تذكُّر التصريحات الأكثر تعسفًا من بين بعض التصريحات، وتُنَمَّى من خلال هؤلاء الذين يحتقرون بعضهم البعض بالفعل. يُوَلِّد انعدامُ الأمانِ البارانويا ويؤدي ذلك للانشغال الأقصى الذي يمنع أي حراك صوب الاعتراف المتَبَادَل أو كَبْح الكراهية: تهديد الانقراض المتعلق بفقدان الهوية كشعب.

لكي نُلْزِمَ أنفسنا شخصيًا، كبشر، ببربرية الحرب، نجد أنه من الضروري أولًا نزع الصفة الإنسانية عن أعدائنا، وهذا الأمر في ذاته انتهاك لمعتقدات كل الأديان. بمجرد وَصْف خصومنا بأنهم متجاوزون لنطاق رحمة الله وفضله، تفقد حيواتهم كل قيمتها. ننكر المسؤولية الشخصية عندما نضع الألغام، وبعد أيام أو سنوات، يصبح شخصٌ غريب عنّا — في الغالب طفل — مُعاقًا أو مقتولًا. نُطلق قنابلنا أو صواريخنا من مسافة بعيدة ونحن نأمن العقوبة لحد كبير، ولا نرغب أبدًا في معرفة عدد أو هوية الضحايا.

بالفعل، يعتبر العصر الحالي وقتًا مزعجًا ويتسم بالتحدي لهؤلاء الذين تتشكل حيواتهم بالإيمان الديني المؤسَّس على العطف الموجَّه للآخرين. لقد تم تذكيرنا بإمكانية استقاء الأفعال القاسية واللا-إنسانية من الاعتقادات اللاهوتية المحرَّفة،

تمامًا كما يزهق المفجِّرون الانتحاريون أرواح البشر الأبرياء، وهي الأفعال التي يتم تغطيتها زيفًا برداء مشيئة الله. وبشراسة بشعة ذبح جيرانٌ جيرانًا في أوروبا، وآسيا، وأفريقيا. فقط من خلال الاستماع للأصوات في كل أمة ومن خلال الفحص الثاقب لتاريخ الشعوب نفسها يكون من الممكن أن نقترب من حل سِلْمي.

يقول الإنجيل عندما أُريق أول دم بين أبناء الرب، سأل الربُّ قابيل الذابح "أَيْنَ أَخُوكَ هَابِيلُ؟"، فقال، "لاَ أَعْرِفُ. هَلْ أَنَا حَارِسٌ لأَخِي؟"، وقال الربُّ، "مَاذَا فَعَلْتَ؟ إِنَّ صَوْتَ دَمِ أَخِيكَ يَصْرُخُ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ. فَمُنْذُ الآنَ، تَحِلُّ عَلَيْكَ لَعْنَةُ الأَرْضِ" (التكوين: 4:9–11). لا زال دم إبراهيم الذي اصطفاه الرب ليكون الأب يسري في شرايين العرب واليهود والمسيحيين، وسُكِبَ الكثير منه في السعي للقبض على ميراث الأب المبَجَّل في الشرق الأوسط. لا زال الدم المسكوب في الأرض المقدسة يصرخ لله صرخة ملتاعة [تنشد] السلام.

على الرغم من الاختلافات اللاهوتية، تتشارك كل الأديان العظيمة التزامات عامة تُعَرِّفُ علاقاتنا العلمانية المثالية. إنني على قناعة بأن المسيحيين والمسلمين والبوذيين والهندوس واليهود والآخرين يمكنهم استيعاب بعضهم البعض في جهد مشترك لكبح المعاناة الإنسانية والدفاع عن السلام (محاضرة نوبل في السلام 2002). من خلال قيادة قوية، وتوسُّط مُصَمِّم يمكن الوثوق فيه، ودور متوازن بين إسرائيل والفلسطينيين، وإيمان خَيِّر، أعتقد أنه يمكننا رؤية السلام في الشرق الأوسط ونحن على قيد الحياة.

اتفاقيات كامب ديفيد

"بعد أربعة حروب، ورغم الجهود الإنسانية العديدة، لا تتمتع الأرض المقدسة ببركات السلام. وعلمًا بالقضايا الخطيرة التي تواجهنا، فإننا نضع ثقتنا في إله آبائنا، والذي نسأله الحكمة والإرشاد. وبما أننا نلتقي هنا في كامب ديفيد، فإننا نسأل الشعوب، على تعدد أشكال إيمانها، أن تصلي معنا لنحصل على السلام والعدالة من هذه المباحثات".

قضايا البيان المشترك في كامب ديفيد، السادس من سبتمبر، 1978.

كطفل علّمني أبي كل يوم أحد المكانة المميزة للشعب اليهودي في عين الربّ، وعندما كنت حاكم ولاية جورجيا، ذهبت مع زوجتي ومستشارتي جودي باول Jody Powell للشرق الأوسط لنعرف أكثر عن إسرائيل وارتباطاتها مع جيرانها العرب. ومنذ الوقت الذي كنت أعمل فيه كضابط غواصات شاب حتى أصبحت رئيسًا، لاحظت عن قرب الحروب الأربعة التي قامت في الأرض المقدسة.

كنت مصممًا، عندما تمَّ تعييني في الرئاسة، على المساعدة في حلّ بعض المشاكل التي يتم مواجهتها في الشرق الأوسط. في عام 1978، قررت أن أدعو كلًا من رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجن وأنور السادات رئيس مصر لكامب ديفيد لكي نبتعد عن المهام المعتادة لبضعة أيام. وفي عزلة نسبية، نويت التصرف كوسيط بين الوفدين القوميين. كان هدفي أن يفهم ويقبل الإسرائيليون والمصريون بالتوافق [الموجود] في الكثير من أهدافهم والمميزات التي ستحصل عليها كل من الدولتين حين يتم حلّ خلافاتهما. كان من القضايا الهامة التي يلزم الحديث عنها هي حقوق الفلسطينيين، والحدود المفتوحة بين إسرائيل ومصر، وأمن إسرائيل، والقضايا الحساسة التي تتعلق بالسيادة على أورشاليم والدخول للأماكن المقدسة.

كان السادات وبيجن غير متوافقين على المستوى الشخصي، وقررت بعد بضع لقاءات غير سارة أنه لا يجب عليهما محاولة [إجراء] أي تفاوض. وبدلًا من ذلك، عملت طوال عشر أيام وليالٍ مع ممثلي كل واحد منهم بشكل منفصل. وفي عدة مناسبات، كان بيجن أو السادات على استعداد لإنهاء النقاشات والعودة للوطن، لكننا أخيرًا تفاوضنا حول اتفاقيات كامب ديفيد، وبما يتضمن إطارًا لمعاهدة سلام بين الدولتين.

يُذْكَر أن اتفاقيات كامب ديفيد، التي وقَّعها السادات وبيجن وصَدَّقت عليها الحكومتان، أعادت التأكيد على التزام مُحَدَّد بتكريم الأمم المتحدة. تنادي قرارات رقم 242 و338 بمنع حيازة الأرض بالقوة وتنادي بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. علاوة على ذلك، أقرَّت الاتفاقيات، بشكل عام، بأن الاستمرار في معاملة غير اليهود في الأراضي المحتلة بوصفهم طبقة سفلى

للمجتمع يعدُّ بمثابة النقيض لمبادئ الأخلاقية والعدالة التي تتأسس عليها الديمقراطيات (Palestine: Peace Not Apartheid، 48). أيضًا، تم توقيع الإطار العام لاتفاقية سلام مصرية–إسرائيلية، وتنادي بانسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من سيناء، و[قيام] علاقة دبلوماسية بين إسرائيل ومصر، وفتح الحدود للتجارة وحركة السلع، ويتم ضمان مرور السفن الإسرائيلية عبر قناة السويس، ومعاهدة سلام دائم لتأكيد هذه الاتفاقيات.

انضممت للسادات وبيجن مُوَقِّعًا على معاهدة سلام بين الدولتين، وذلك بعد أربعة حروب منذ أصبحت دولة إسرائيل واقعًا. ألزم هذان القائدان أنفسهما بعدالة من أجل الفلسطينيين، وانسحاب الجيش الإسرائيلي والقوى السياسية من الأراضي المحتلة، مع وجود فرصة ليحيا الإسرائيليون وجيرانهم في انسجام وتوافق مع بعضهم البعض. وصدَّق البرلمان في كلٍّ من مصر وإسرائيل على الاتفاقيات، والتي تمت الموافقة عليها بإجماع من مواطني الدولتين ولم يتم خرقها قط.

أخيرًا، خلال المفاوضات، ظهرت علاقات شخصية طيبة بين وزير الدفاع الإسرائيلي عيزر وايزمان Ezer Weizman والسادات. علاوة على ذلك، قمت بتطوير صداقة طويلة الأمد مع وايزمان. وظلَّ وايزمان حتى وفاته عام 2005 صديقي الشخصي المقرب في الأرض المقدسة ومصدرًا عزيزًا للمعلومات والنصح.

الدين وحقوق النساء

هناك دلائل واضحة على أن التقدُّم حاصلٌ في العالَم العَلماني. لقد رأينا سيدات يتم اختيارهن كرئيسات في دول متعددة مثل الهند وباكستان وإندونيسيا وإسرائيل وبريطانيا العظمى وأيرلندا وشيلي وألمانيا والفلبين ونيكاراجوا. أتى الدعم لهم من مواطنين هندوس ومسلمين ومسيحيين بالدرجة الأولى، ويتضمن اثنتين من أكبر ثلاث ديمقراطيات على وجه الأرض.

من المثير للسخرية إذًا أنه وبينما يتم الترحيب بالنساء الآن في كُلِّ المهن القيادية ومواقع أخرى للسلطة، يتم وصفهن باعتبارهن ذوات منزلة أقل ويتم حرمانهم من الحق المتساوي [مع الرجال] في خدمة الله في مواقع القيادة الدينية. يتم جعل مأزق السيدات المسْتَغَلّات أكثر قبولًا عبر الخضوع المُلْزِم للنساء بواسطة القادة الدينيين.

هناك اتفاقيات دولية ترشدنا بجانب النصوص المقدسة:

تنص المادة الثانية من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على التالي: "لكلِّ إنسان حقُّ التمتُّع بجميع الحقوق والحرِّيات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أيِّ نوع، ولا سيما التمييز بسبب العِرْق، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدِّين، أو الرأي سياسيًّا كان أو غير ذلك، أو الأصل ... أو أي حالة أخرى". ويخبرنا الإنجيل بأنه "لَا فَرْقَ بَعْدَ الآنَ بَيْنَ يَهُودِيٍّ وَيُونَانِيٍّ، أَوْ عَبْدٍ وَحُرٍّ، أَوْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غلاطي 3:28). يُشَجِّع كل نص ديني شامل المؤمنين على احترام الكرامة الإنسانية الأساسية، إلا أن بعض النصوص المقدسة المنتقاة يتم تفسيرها لتبرير الانحطاط أو دونية النساء والفتيات، وهنَّ رفيقاتنا البشريات.

يُقِرُّ أغلب الباحثين في الإنجيل بأن النصوص المقدسة كُتِبَت عندما هيمنت السيادة الذكورية في كل منحى من مناحي الحياة. يمكن للمسيحيين أن يجدوا نصوصًا مناسبة لتبرير أي جانب من جانبي هذا الجدل، لكن ثمَّة حقيقة لا جدال فيها وتتعلق بالعلاقة بين يسوع المسيح والنساء: لم يغفر التمييز على أساس الجنس قط أو الخضوع المضْمَر للنساء. وتمجيد مريم، أم يسوع، وتعظيمها اللاحق، دليلٌ أكثر سطوعًا على المكانة العظيمة للنساء في اللاهوت المسيحي.

أيضًا، من الواضح أنه، خلال العصر المسيحي المبكر، عملت النساء كشمامسة وكاهنات وأساقفة ومُرْسَلات، ومُعلِّمات ونبيات. وفي القرن الرابع، لا قبله قط، لوى القادة المسيحيون، وكل الرجال، أعناق النصوص المقدسة وحرّفوها لإدامة مواقعهم المتفوقة داخل النظام الديني الهيراركي. والحق أن القادة

الدينيين الذكور امتلكوا، ولا يزالون يمتلكون، خيارًا لتفسير التعاليم المقدسة إما لإجلال أو إخضاع النساء. ولقد اختاروا القيام بإذلالهن بدافع غاياتهم الأنانية الخاصة وبشكل مُجْمَع عليه. لا يتوقف هذا التأثير عند [حدود] حوائط الكنيسة، أو المسجد، أو معبد اليهود، أو المعبد (بشكل عام). تُمنَع النساء من لعب دور كامل ومساوٍ في عديد أشكال الإيمان، مما خلق البيئة التي تم تبرير الانتهاكات ضد النساء داخلها.

يُوَفِّر هذا الإخضاعُ المستمر التأسيسَ أو التبريرَ لأغلب الاضطهاد المتَعارَف عليه وإذلال النساء عبر العالم. لا ينتهك هذا الأمر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فحسب، وإنما ينتهك أيضًا تعاليم يسوع المسيح، وبولس الرسول، وموسى والأنبياء، محمد [نبي الإسلام]، ومؤسسي الأديان العظيمة الأخرى . الذين نادوا جميعًا بمعاملة عادلة ولائقة لكل أبناء الله. آن الأوان أن نمتلك الشجاعة لتحدي هذه الرؤى وأن نضع الأساس لمسار جديد يُطالِب بحقوق متساوية للنساء والرجال، والفتيات والفتيان.

الأصولية الدينية

ثَمَّ نزوعٌ بارزٌ تجاه الأصولية في كل الأديان . وبما يتضمن الفِرَق المختلفة في المسيحية وكذلك في الهندوسية واليهودية والإسلام. وبشكل متزايد، يميل المؤمنون لبدء عملية من اتخاذ القرار: "بما أنني مع الله، فإنني مُتَفَوِّقٌ [على كل الآخرين] ويجب أن تتسيد اعتقاداتي، وأي شخص يختلف معي مخطئٌ أصلًا"، وتكون الخطوة التالية هي "أحَطّ/ أقل شأنًا بالأساس". وتكون الخطوة القصوى "إنسان ثانوي أو دون البشر"، وبالتالي لا تعود حياته ذات أهمية.

لقد خلقت هذه النزعة صراعاتٍ دينية حادة عبر العالم. ويجب على المسيحيين الذين يقاومون الميل نحو الأصولية، والذين يتبعون — بحق — طبيعة وأفعال وكلمات يسوع المسيح استيعاب الأشخاص المختلفين عنَّا باهتمام وكرم وغفران وعطف وحب غير أناني.

ليس من السهل فعل ذلك. إنه لميلٌ بشري طبيعي، [أعني] أن نضع أنفسنا في كبسولة [مميزة] وعلى نحو فائق فوق الناس الآخرين الذين يشبهوننا . وأن نفترض استكمالنا لشروط حياتنا التكليفية لو أننا قيَّدنا حبنا لعائلتنا أو لأشخاص مماثلين ومتوافقين معنا. إن اختراق هذا الحاجز والسعي للتواصل مع الآخرين يُجَسِّد المسيحي بحق ويحاكي أيضًا المثال التام الذي وضعه لنا المسيح.

خذ أهداف شخص ما أو فئة ما أو دولة ما. كلها تتشابه تمامًا: رغبة في السلام؛ والحاجة إلى التواضع ليتفحص المرء أخطاءه ويبتعد عنها؛ والتزامٌ بحقوق الإنسان بأوسع معنى ممكن للكلمة بناء على مجتمع أخلاقي يهتم بكبح المعاناة الناتجة عن الحرمان أو الكراهية أو الجوع أو البلاء الجسدي؛ ورغبة، أو حتى تَوْق، لمشاركة مُثُل المرء وإيمانه مع الآخرين، وأن ننقل محبة الشخص إلى [مرتبة] العدالة.

بيليوغرافيا:

- Carter, Jimmy. Beyond the White House. New York: Simon and Schuster, 2007.
- Carter, Jimmy. The Blood of Abraham: Inside the Middle East. Boston: Houghton Mifflin Company, 1985.
- Carter, Jimmy. "Camp David Accords: Jimmy Carter Reflects 25 Years Later." 17 Sept. 2003. Address.
- Carter, Jimmy. Faith and Freedom: The Christian Challenge for the World. New York: Simon and Schuster, 2005.
- Carter, Jimmy. Keeping Faith: Memoirs of a President. New York: Bantam Books, 1982.
- Carter, Jimmy. "Nobel Peace Lecture." Nobel , Oslo, mi. 10 Dec. 2002. Address.
- Carter, Jimmy. Palestine: Peace Not Apartheid. London: Simon and Schuster, 2007.
- Carter, Jimmy. "To the Parliament of the World's Religions." The Elder's Project, Melbourne, mi. 3 Dec. 2009. Address.
- Carter, Jimmy. A Plan That Will Work: We Can Have Peace in the Holy Land. London: Simon and Schuster, 2009.



أبناء إبراهيم المسلمون

الفصل التاسع
رسالة إسلامية في التسامح

عبد الكريم سروش

ترجمة: إسلام سعد.

عبد الكريم سروش Abdolkarim Soroush فيلسوف إيراني، ومسلم متدين، وواحد من القوى الفكرية القيادية الواقفة وراء حركة تأييد الديمقراطية بالجمهورية الإسلامية. وكان مسلمًا ناشطًا أثناء ثورة 1979، ولقد واجه سروش تهديدات بالقتل لدفاعه عن التعددية الإسلامية وتحدي التصور القائل بأنه لا ينبغي على الدين الانفتاح أمام تأويلات مختلفة. مؤلف للكثير من الكتب، بما فيها كتب تناولت قضية الإسلام والديمقراطية، ودرَّس سروش بجامعة طهران، وهارفارد، وبرينستون، ويال. في عام 2005، صنَّفته الـ Time كواحد من أكثر مائة شخصية تأثيرًا.

دفاعًا عن التسامح في إيران

عندما تم الدفع بكتابي التسامح والحكم – Tolerance and Governance للنشر (عام 1995)، كانت إيران تمر بواحدة من أكثر فتراتها السياسية اختناقًا منذ الثورة. كنت مجبرًا على مغادرة البلاد بعد تعرُّضي لاعتداءات جسدية متوحشة في الجامعات والأماكن العامة، بجانب هجوم مكتوب بالجرائد. فقدت وظيفتي وأماني. وبعيدًا عن عائلتي. قضيت وقتي فارًّا من دولة لدولة أخرى (من ألمانيا لبريطانيا لكندا).

وَقَعَت وزارة الثقافة الإيرانية في قبضة وزير أتى من مصاف المحافظين المتطرفين - وهو وزير لم يكن ليسمح بنشر أقصوصة من مادة مكتوبة "غير إسلامية".

مرَّت الجرائد وأسواق الكتب بانحدار منقطع النظير، ولم أُمْنَح فرصة للدفاع عن نفسي ضد الإهانات والافتراءات الموجهة صوبي. ومُنِع طلابي من الكتابة أو شرح أي شيء.

تحت وطأة هذه الشروط القاهرة، كان واحد من طلابي الجسورين شجاعًا بما يكفي ليدفع بكتابي للطباعة (وهو نفسه الصديق الذي يقضي عقوبة بالسجن لمدة ست سنوات لشجاعته في الكشف عن الأسرار التي تسببت في قتل عدد من الكُتَّاب). كان الكتاب تجميعًا لكتابات لي، وتضمن كذلك نقدًا علميًا متعددًا لأعمالي كتبه آخرون وظهر من قبل في العديد من منشوراتي. هذه المقاربة لم يسبق لها مثيل غالبًا في تاريخ صنعة الكتب بإيران، لكن، حدث تطور لاحق جعل من هذا الأمر حدثًا لا مثيل له بحق. كانت وزارة الثقافة تمنع نشر الكتاب كما هو؛ وطلبت الوزارة أن نضع في مضمون الكتاب مقالة نقدية مطولة كتبها واحد من الكُتَّاب المسؤولين عن وضع سياسة القمع الثقافي للنظام الحاكم (وقد كان عضوًا قياديًا في جماعة أنصار حزب الله). يحمل الكتاب الآن في طياته المقال غير المرغوب فيه كطفل غير شرعي. لكن بدون هذا المقال اللقيط، لم يكن للكتاب أن يُنْشَر قط. لكن الأمر المثير لسخرية حلوة يشوبها مرارة أن هذا العنصر غير الشرعي كان سبب شرعية الكتاب!

إن هدفي في هذا الفصل إقناع المسلمين بأنه من الممكن لهم أن يصونوا قيمهم وأعرافهم المسلمة وأن يحيوا في مجتمع ديمقراطي؛ ولا يحتاج المرء أن يحصل على إحداهما دون الحصول على الأخرى. لا تتضمن قيم المسلم التسامح فقط، وإنما تشمل نقد المسؤولين الرسميين ومحاسبتهم؛ يُمَثِّل هذان التصوران — التسامح والمحاسبة العامة . عمودي الديمقراطية الصلبين. عند هذه النقطة، نحتاج للتركيز على إعطاء الأسبقية للحقوق على حساب الواجبات، واستبدال التعددية التفسيرية باحتكار تفسيري (وأقصد بالأخير التأويل الرسمي للدين بواسطة الحكام). ليس التسامح، الذي نحن في أمس الحاجة إليه في العالم الإسلامي الكبير اليوم، غريبًا على ثقافتنا الإيرانية ولا معتقدنا الإسلامي. يُبرز اثنان من أعظم شعراء ومفكري إيران — حافظ ورومي — في أعمالهما أن التسامح كان جزءًا من ثقافتنا ومعتقدنا الإسلامي لقرون.

التعددية في القرآن

دعونا أولًا نتوجه للقرآن، في السورة رقم 60 [الممتحنة]، الآيتان (8، 9)، نقرأ:

"لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ...".

يتعلق هذا التصريح القاطع والبليغ بالعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين. أوحِي بهذه الآيات إلى محمد أثناء المرحلة الثانية من بعثته، عندما كان يعيش في المدينة باعتباره زعيمًا ذا نفوذ وسلطة لأول "دولة إسلامية" على الإطلاق. بالتالي، كيف ينبغي على المسلمين المهيمنين الآن معاملة جيرانهم غير المسلمين؟ على الرغم من أن ذلك الأمر غير مكتوب بشكل مباشر، تأمر الآيتان بإظهار العطف والعدل بدون تحفظ لغير المسلمين من الجيران. هاتان الآيتان هامتان لأن العطف تجاه الجيران الذي تأمران به ليس اقتراحًا اعتباطيًا وغير مُتَوَقَّع من جانب الله، وإنما هو استنتاج مُحْكَم ينبع من مبدأ للعدل. هذا ما يجعل منه أمرًا عالميًا وقاطعًا.

ولنكن متأكدين من أن بعض الآيات بالقرآن تأمر ظاهريًا المسلمين بشن الحرب (الجهاد) ضد الكفار. أول ما يلزم إدراكه أن الجهاد لا يعني "الحرب المقدسة"، وإنما يعني "الكفاح" لتحسين الشخصية وتحسين المجتمع (وهو ما يعني، وعلى نحو لا يمكن إنكاره، انتشار الإسلام). لكن يجب قراءة هذه الآيات وتفسيرها في ضوء الآيات المذكورة في سورة رقم 60 وتحت هديها. تمتلك سورة الممتحنة (رقم 60) "القوامة" على آيات الجهاد لأنها مُحكمة بينما الآيات الأخرى مجرد توصيات. بالتالي، ليس ثمة تعارض بين هذه الآيات المتناقضة ظاهريًا. أيضًا، وعند القيام بعمل تدقيق أوضح، تأمر هذه الآيات بالجهاد السلمي أو الدفاعي.

هناك آية أخرى ملائمة وتتعامل مع نفس الموضوع، وهي الآية رقم 13 من سورة رقم 49 [الحجرات]:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"

والآن دعونا نتطرق لسورة رقم 10 [يونس]، آية رقم 99: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ". ليس من المشروط ولا المتوَقَّع من كل أحد الاعتقاد [بالإسلام]، ولم يشأ الله أو يرغب في فعل ذلك. لذا من المحرم علينا نزع سلطة الله وإجبار الآخرين على الاعتقاد.

عندما يتم الجمع بين هذه الآيات وعديد الآيات الأخرى، يُقَدِّم القرآنُ صورة واقعية للطبيعة التعددية المتعلقة بالشرط الإنساني (دين، ثقافة، لغة، إلخ) الذي يؤيده الله والذي يُبَشِّر به رسوله.

لذا، لا يستطيع الرسول ولا أتباعه، بل لا يجب عليهم، إجبار الناس على أن يصبحوا مؤمنين؛ بل على النقيض؛ فبما أن عالَمًا يتوافق مع الاختلاف والنزاع يراد من الله ومُرَحَّب به، ينبغي على عباده المخلصين الترحيب به كذلك، أو على أقل تقدير التسامح معه. مرة أخرى نجد أنفسنا هنا أمام مبدأ أساسي يستنبط التسامح من حقيقة أن الله أمر بـ [وجود] الاختلافات بين الناس.

أخيرًا، في الآية الأولى من سورة رقم 49 [الحجرات]، نجد تحذيرًا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ". هذا التحذير موجَّه إلى هؤلاء الذين لا يتصالحون مع التعددية الثقافية/ الدينية، والذين لم يتمكنوا من فهم تصميم الخَلْق وإرادة الخالق. إن أي شخص يكافح لفعل المهمة المستحيلة المتعلقة باختزال الظلال والألوان الكثيرة والمتعددة لخَلْقِ الله إلى لون أحادي موَحَّد يُناقض مشيئة الله ويتجرأ عليه.

حافظ

أجَلَّ حافظ [الشيرازي] (1325 – 1390)، شاعر القرن الرابع عشر الإيراني المشهور، فضيلةَ التسامح. حيث كتب:

في هذين التعبيرين يكمن السلام في هذا العالَم والعالَم الآخر

مع الأصدقاء، كرم النفس؛ مع الأعداء، التسامح

كتب حافظ هذه الكلمات بعد قرن من الغزو المغولي لإيران، ولم يزل هلع ورعب هذا الغزو محفورًا في عقول الإيرانيين الذين صُعِقوا من الغزو التيموري. أحرقت نيرانُ انعدام الأمن، والظلم، والدمار الأرضَ، ولم يكن الحكام المحليون والسياسيون عاجزين عن التسامح مع بعضهم البعض فقط، بل انخرط القادة الدينيون والمذهبيون أيضًا في عداءات لا تنتهي، فاعتبر الواحد منهم الآخر قد خدعه الشيطان وصار الجحيم قَدَره.

وبكلمات حافظ، "كان للكوكب مِزاج مُتَجَهّم"، وكان المجتمع في حاجة إلى "اقتراح حكيم". ولم يكن الاقتراح الحكيم الذي يمكنه توفير النعيم والسلام في هذا العالَم والعالَم الآخر، كما رآه عقل حافظ، سوى الفكرتين النبيلتين والرفيعتين؛ أي كرم النفس والتسامح؛ كرم النفس تجاه الأصدقاء والتسامح تجاه الأعداء. لو أنني في مكان حافظ، سأضيف عبارة ختامية لبيت الشعر الخاص به، وهي: مع الأصدقاء، كرم النفس؛ مع الأعداء، التسامح، لكن، لن يكون ذلك مع أعداء التسامح!

عرف حافظ كذلك أن دعوة الناس لممارسة التسامح في مجتمع ديني ستخفق في إحداث أي تأثير أو استمالة للقلوب إذا لم تكن مصحوبة بنظرية مُتَبَصِّرَة عن الطبيعة الإنسانية والدين. ولهذا حاول حافظ بذكاء من خلال أعماله استخدام لغة الشعر والتورية لتوضيح نظرية من هذا النوع ولإقناع قرائه بأن كرم النفس والتسامح فكرتان فلسفيتان معقولتان تستقران على أسس صلبة.

لم يكن مبدأ عدم العصمة البشرية من الخطأ، في كلٍّ من نطاق النظرية ونطاق الممارسة، ببعيد عن عقل حافظ قط، وحاول استخدام الميثولوجيا الدينية لإبرازها وإجلائها. ووفق الآراء الإسلامية، كان حضور البشر على الأرض

نتيجة لخطيئتين أصليتين: خطيئة ارتكبها الشيطان والأخرى ارتكبها آدم. أمر الله كل الملائكة بالسجود لآدم؛ وحده الشيطان عصى، وكان عقابه خروجه من الجنة بأمر الله، وحاز الشيطان فرصة إغواء وتضليل ذرية آدم لنهاية الزمان ومحاولة استمالتهم بعيدًا عن الله. (لا تظهر هذه الأسطورة بنفس الشكل في النصوص اليهودية والمسيحية المقدسة).

وتمثلت خطيئة آدم الثانية في أكله للفاكهة المحرمة بإيعاز من الشيطان. ولم يكد آدم يتذوق من الفاكهة حتى صار واعيًا بعريّه وجنسانيته. وكان عقاب هذه الخطيئة خروج آدم وحواء من الجنة وهبوطهما للأرض حيث تزوجا وأصبحا مؤسسي البشرية وتاريخ الإنسانية.

ووفق قراءة حافظ، ليس الأفراد من البشر، الذين هم نتاج الخطيئة، بمعصومين من إغواءات الشيطان، ولا يمكنهم المناداة بحقهم في العصمة بأنفسهم ولا أن يتوقعوا من الآخرين التصرُّف بمثالية ولا أن يعاملوا المخطئين بقسوة. لا يتوافق السلوك الذي لا تشوبه شائبة مع الطبيعة الإنسانية ولا تكوين الوجود الإنساني. يُعَبِّرُ حافظ عن هذه الفكر بمصطلحات رحيمة:

من نكون نحن لنَدَّعي البراءة؟
عندما لُدِغَ آدم الوَرِع بالخطيئة[1].

وعلى قدر اهتمام حافظ، فإن الخطيئة سمة محدِّدَة وحتمية للطبيعة والسلوك الإنسانيين، ويلزم على الأذكياء من الناس أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار في تصورهم للعالم والحياة الإنسانية. لا يتحتم عليهم غضّ الطرف عن دورها الحيوي على الرغم من كونها مُسْتَهْجَنَة أخلاقيًا.

يذهب حافظ لما هو أبعد من ذلك، في واحد من أعماله، ويصف البشر بصفتي "نعسان" و"ثَمِل". يشير "النُعَاس" إلى المبدأ النظري لعدم العصمة من الخطأ، ويشير "ثَمِل" إلى تجاوزاتنا. (ضع في ذهنك أنه في القانون الإسلامي يتم

(1) قارن مع: "في المحَلِّ الَّذي لَمَعَ فيهِ بَرْقُ العِصيانِ لِآدَمَ الصَّفيِّ ، كيفَ لي ان أدَّعيْ بِأنِّي بلا ذَنبٍ"، انظر : "مجموع ديوان حافظ الشيرازي"، ترجمة وشرح: علي عبّاس زليخة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2014 ص: 460. (المترجم).

اعتبار شرب الخمر خطيئة). يقول حافظ إننا، نحن البشر، نرى الحقائق بأعين نصف مفتوحة أو في حالة تشبه الحلم؛ وبالتالي لا نمتلك تصورات واضحة عن الحقائق. لا أحد يمتلك الحقيقة لأن كل فرد نعسان. لا أحد يمتلك الرؤية المطلقة؛ وبالتالي، لا يمكن لأحد إطلاق صفة الأعمى على آخر ويعامله أو يعاملها بعنف. كلنا نصف عميان، مخلوقات نصف واعية، ويلزم أن نمد يد العون لبعضنا البعض. والنتيجة العملية المنبثقة من هذه الصورة هي التسامح والصبر – ليس فقط مع الأصدقاء وإنما كذلك مع الأعداء، لأننا جميعًا بشر؛ كلنا نِعاس وثَمِلون.

يمكن كذلك استقاء نتائج أوضح وأدق من هذه القراءة المؤسسة على الميثولوجيا: على سبيل المثال، يمكننا استنباط أن الحقيقة والتدين لا يتم استخدامهما كأسلحة على الإطلاق. وذلك لأنهما ينتميان لطبيعة اللغة، وليسا مخالب. وعوضًا عن تشجيع الغرور والتجبُّر، يجب على الحقيقة والتدين تعزيز التواضع والحِلْم. يجب على شخصٍ أقرب للحقيقة أن يكون أكثر تواضعًا وتسامحًا تجاه الآخرين من شخص مخدوع فيما يتعلق بامتلاك الحقيقة ويدَّعي الصلاح لنفسه ويتصور أن الجميع محرومون من الحقيقة.

يستعين حافظ بالفكرة المزعجة عن الجبرية (الحتمية، القول بالجبر) لتدعيم تفكيره الذي ينزع صوب التسامح. ويقول، كلنا سجناء القَدَر؛ والشخص المسلم مسلم استنادًا إلى الجغرافيا والتاريخ، تمامًا كما يكون المسيحي مسيحيًا لنفس الأسباب. لو أن الإيرانيين ولدوا في هولندا والهولنديين في إيران، لكان الهولنديون مسلمين والإيرانيون مسيحيين. بالتالي، كيف يمكننا، نحن سجناء التاريخ والجغرافيا، ادعاء أننا أسمى من الآخرين، أو أن نرتكب ما هو أسوأ فنقوم بشَنِّ الحرب على بعضنا البعض؟ يجب على السجون أن تجعل الناس أكثر تواضعًا وأن تجعل السجناء أكثر عطفًا تجاه بعضهم البعض في ضوء قَدَرهم المشترك. نحن سجناء تاريخنا، وجغرافيتنا، وما تعلمناه، واعتقاداتنا، وبمجرد أن يسقط الحجاب، سوف نرى بأي المغالطات والخرافات نحن مصابون.

تلاقى حافظ في الرأي مع موقف جبري من هذا النوع (وهو الذي عاش في مجتمع ديني مليء بالمشاعر الصوفية[1] بينما كان ناقدًا جادًا لهذا المجتمع)، وكتب:

لا تنزع عني الأمل في الفضل الأزلي

كيف لك أن تعلم من الممَيَّز بحق ومن الذميم؟

لم يحدث لي أن فقدت التقى فقط

بل آثَرَ أبي فقدان الجنة الأزلية

تقبَّل حافظ لا-عصمته باعتباره منحدرًا من [نسل] آدم لكنه لم يقبل [الفكرة القائلة بأن] تجاوزه أزال احتمالية الاستفادة من رحمة الله وفضله. لقد اعتقد أن الأشخاص الخيرين والأشرار قُدِّر لهم أن يحيوا حياة النعيم أو الخسة. وكتب برقة وعمق:

أليس الصالح والطالح من نفس القبيلة؟

بأيهما أختار أن أُخْدَع؟ أي اختيار؟

وبمعنى آخر، عندما يكون القديس والمخطئ في نفس الموقف فيما يتعلق بشروط أقدارهم الإلهية المحتمة، فأيهما نختار بحرية؟

هل يكون من المفيد أن نتحدث عن الاختيار والإرادة؟ يمكننا أن نرى ما هي الدعائم الإشكالية التي يستعد حافظ لاستدعائها ليعزز اعتقاده في التسامح. وباستعارة تماثل من مولانا جلال الدين الرومي (1207 – 1273)، يمكننا أن نرى الكيفية التي قام حافظ من خلالها بتحويل التراب إلى ذهب بسحر كلماته لكي يقوّي ويُمَكِّن المجتمع عبر الكنوز الناتجة [من أفكاره ورؤاه].

من خلال هذه الأفكار ذات الفخامة، يكون الشك الإبستمولوجي في أعيننا نصف المفتوحة هو الأمر الأهم والأكثر تقبُّلًا.

---

(1) وهو شكل باطني للإسلام يسعى للتوحد مع الرحمن.

رومي

دعونا نتجه الآن إلى الشاعر العظيم رومي، والذي عاش قبل حافظ بقرن. أتى من بلخ (أفغانستان في العصر الحالي)، وساقته أسفاره إلى إيران، والعراق، والحجاز. في النهاية، أتي ليستقر في كونيا (تركيا في العصر الحالي) ودُفن هناك. أسرت تعاليمه كامل العالَم الإسلامي - وفي عصرنا، أبهج الغرب كذلك، كما ألهم الكثير من القلوب المتّقِدَة ومحبي الله.

ولتوضيح المدى الذي تكون فيه المعرفة الإنسانية منقوصة ونسبية، يحكي رومي قصة رمزية هندية. لقد وضع الهنود فيلًا في غرفة مظلمة ولكي يراه الناس، لزم عليهم أن يمروا على جسده في الظلام. وبما أنهم لم يتمكنوا من الرؤية في الظلام، تحسسوا الفيل بأيديهم. وعند مغادرة الغرفة، أخبروا آخرين عن تجربتهم. الذين لمسوا قدم الفيل قالوا، "رأيت عمودًا". والذين لمسوا ظهر الفيل قالوا، "رأيت لوحًا". والذين لمسوا خرطومه قالوا، "رأيت ماسورة"، وهكذا تباعًا.

يخبرنا الرومي أنه لو امتلك هؤلاء الناس شموعًا في أيديهم لاختفت اختلافاتهم. لكن، للأسف، في الغرفة المظلمة للطبيعة، تكون معرفتنا بالحقيقة (التي يرمز لها الفيل) متشظية. يُمسك الواحد منا بجزء من الحقيقة ولا يمتلك أحد كل الحقيقة (فيما عدا الصوفيون، كما اعتقد، والذين امتلكوا عيونًا مُكَحَّلَة). يجب على هذا الفهم لقصور المعرفة أن يجعلنا أكثر تواضعًا، وما الصبر والتسامح إلا ثمار شجرة التواضع.

اعتقد رومي أن الأنبياء لعبوا دورين أساسيين: معلم ومُعالِج. وقد أسند أهمية أكبر لدورهم كمعالجين من كونهم معلمين. إن الغرض الرئيسي للأنبياء والأديان تنمية نفوس الناس ومعالجة أرواحهم، لا ملء عقولهم بالتعليم، وإنما ملء قلوبهم بحب الله وحب بعضهم البعض وتطهيرهم من المرض والكراهية. عندما يُحَرَّر العقل أيضًا من الرذيلة، يمكنه إيجاد طريقه برشاقة للغرفة المخفية التي تحتوي على أسرار العالَم؛ إن عقلًا مقيدًا بالأغلال لهو سجين الطبيعة.

أخبر رومي اللاهوتيين أن الله منحهم العقل لينشغلوا حصريًا بمعرفة الحقيقة، وأنه أرسل للناس الأديان لعبادة الخالق؛ ويصيبهم ويلٌ لو أنهم استخدموه

لغايات وأغراض أخرى! يشبه العقل عصا الإرشاد بأيدي العميان، وليس سلاحًا في أيدي المعْتَدين ليضربوا بعضهم البعض:

عندما تصبح العصا أداة للصخب والحرب

حَطِّمها ألف قطعة، أيها الأعمى!

لا يمكن أن يوجد حجاجٌ أفضل من هذا لممارسة التسامح. عندما يُساء استعمال شيء ما ويُستخدَم لغرض مغاير للغرض الأصلي الذي صُمِّم له، يلزم تركه حتى لو كانت "عصا" العقل والدين. لو تحولت الأديان والإيديولوجيات إلى أدوات للعداوة ولو أنها زرعت الكراهية، وحب الانتقام، والغرور بدلًا من ملء القلوب بالحب وكرم النفس وميل القلوب تجاه الخالق، يلزم التخلي عنها.

ألم يكن الأنبياء أطباء ومعالجين؟ أليست الأديان خادمة للأخلاقية والفضائل؟ أي نوع من التدين هذا الذي يزيد المرض ويجعل الناس معادين لبعضهم البعض ويضعهم في الجنة والجحيم؟ اقرأ هذه الكلمات المؤثرة لمحي الدين بن عربي، وهو الصوفي الإسلامي الكبير والمعاصر لرومي:

أدين بدين الحب

أنَّى توجهتْ ركائبه، فالحب ديني وإيماني

وعلى المستوى الباطني، يذهب الرومي لما هو أبعد من ذلك؛ فيقول إن الدين ليس عصا ولا سيفًا، وإنما هو حبل، حبل يلزم على الفرد التشبث به بشكل مستقل، بتوقٍ للارتقاء، وذلك كي يتسلق المرء خارج بئر الجهل والتيه وأن يُبصر نور المعرفة، وكرم النفس، والعطف. لقد انخدع الكثير من الناس بواسطة القرآن والإنجيل (وبالدين في العموم) لأنه لا يكفي لكتاب أن يكون كتابًا للهداية؛ بل يلزم على القارئ أيضًا أن يرغب في الهداية، وإلا فإن معتقدًا إنسانيًا بشكل كلي يمكنه إخراج نتائج غير إنسانية بشكل كلي حينما يقع في أيادٍ فاسدة ودَنِسة. استخدم رومي مصطلح "الاشتياق للأعلى" وهو مصطلح محرك للعواطف وتعبيري للغاية. تضرع لله باستمرار مخافة التعثُّر في هذه الأقوال العميقة ولكي تصل إلى نهاية الرحلة.

ذلك أن كثيرًا من الناس قد ضلوا من "تحيرهم في" القرآن!

ومن ذلك الحبل المتين سقط قوم في البئر

وليس للحبل المتين من ذنب

فلم تكن لديك الرغبة في الترقي والصعود.

رومي، مثنوي، الكتاب الثالث[1]، 4207-4209[2]

يقول رومي للفرد، "إن الحبل بين يديك لكنك لا تريد أن تتسلق للخروج من البئر. لقد هبطت لقاع البئر بدلًا عن ذلك. إنك لا تملك 'اشتياقًا للأعلى'". ولهذا السبب يكتسب تصحيح الاتجاه والهدف الأولوية على حساب الوسائل والأدوات. هناك أناسٌ يحُوِّلون الأديان إلى أدوات للعداوة، وهناك أناسٌ يحُوِّلون الأديان إلى أدوات للعطف والتعايش المشترك. يعتمد الأمر على "شغف"ـهم الذي يأتي قبل الدين ويقبع خارجه.

الاشتياق للأعلى في الصوفية

عندما نتحدث عن تعصب المؤمنين تجاه بعضهم البعض، يلزم علينا ألا ننسى غير المؤمنين. فكما يمكننا الحصول على أصولية دينية، يمكننا أيضًا الحصول على

---

(1) قارن مع: "مثنوي – مولانا جلال الدين الرومي"، ترجمه وشرحه وقدَّم له: إبرهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة، مصر، الكتاب الثالث، ط4، 2015، ص: 360، بتصرف يسير. (المترجم)

(2) ترجمة بديلة:

ذلك أن كثيرًا من الناس قد ضلوا من "تحيرهم في" القرآن!

ومن ذلك الحبل المتين سقط قوم في البئر

وليس للحبل المتين من ذنب، أيها الرجل الضال!

فلم تكن لديك الرغبة في الترقي والصعود. (II، 4210-11).

[ملاحظة المترجم: لم أقف على هذه الترجمة في الكتاب الثاني لمثنوي الرومي، وإنما هي نفسها الكلمات بترجمتها في الكتاب الثالث، لكن بدلًا من ترجمة "أيها العنود"، قمت بترجمتها "أيها الرجل الضال"، وهو المعنى الأقرب للاقتباس كما ساقه عبد الكريم سروش بالإنجليزية.

انظر: "مثنوي – مولانا جلال الدين الرومي"، ترجمه وشرحه وقدَّم له: إبرهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة، مصر، الكتاب الثالث، ط4، 2015، ص: 360].

أصولية علمانية. إن التعصب طاعون يمكنه إصابة المؤمن وغير المؤمن، ولو لم يتم الانتباه للسبب الحيوي الخاص به، وبنيته العقلية، والقصور المتأصل في المعرفة الإنسانية، ولو لم يكن هناك "اشتياق أعلى"، يمكننا الغرق جميعًا في الغطرسة والأحكام المسبقة الضيقة الأفق والقاسية، والتي تُنْتِج ثمار الكراهية، والعنف، والإقصاء، والجهل، والانحدار. قبل أي شيء آخر، يلزم علينا تصحيح شغفنا.

إن أي شخص يعتقد أنه (أو أنها) يحوز صفات خاصة أو على وجه الخصوص رؤية عينية واضحة لدرجة تمكنه (أو تمكنها) من النظر إلى الإنسانية والتاريخ من ارتفاع أعلى وقد اكتشف السر الخفي والأقصى للوجود الإنساني ووجهة التاريخ، أي أحد يتصور أن السياسة وفن الحكم يكمنان في تحقيق وعد إلهي أو تاريخي (ديني أو علماني)، أي أحد يعتقد أنه (أو أنها) يمتلك مكانة سامية ومختلفة عن أي شخص آخر، أي شخص يعامل الآخرين بطريقة لا يريد (أو لا تريد) أن يُعامَل بها، [أقول إن أي شخص يمارس بهذه الطريقة] ينصاع إلى العنف المدمِّر والتعصب بسهولة، بل وحتى اعتبار هذا العنف مقدسًا. إن هذا النوع من التعصب هو النوع الأسوأ لأنه لا يُرى بواسطة فاعله باعتباره حقه (أو حقها) فقط، وإنما باعتباره "واجب"ـه أو "واجب"ها الإلهي التاريخي. من المثير للاهتمام ملاحظة رأي الباطنيين والأنبياء، رغم امتلاكهم لقوى وصفات خاصة، إلا أنهم امتلكوا مهمة التصرف تجاه الجمهور كما لو كانوا منهم، بل واعتقدوا أن قسوة الجمهور تجاههم قسوةٌ جوهرية للمسار الروحي لزم عليهم تحمُّلها.

إن الصوفية الإسلامية، رغم أوجه القصور الكامنة فيها، حاملة القيم ومُعلمتها التي نحن في أمس الحاجة إليها اليوم لو أننا نريد تعزيز التسامح. اعتاد الصوفيون تعليمنا أن ننظر للسلطة والثروة بأقصى ارتياب، وأن نكون منتبهين للغاية للبلايا التي يمكنها أن تؤدي إليها، وأن نعلم ما هي أشكال العار التي قد يُحدِثها انبثاقها، ونموها، ووجودها غير المراقَب. يمكننا استخدام تشويه سمعة السلطة والثروة لتقوية التوزيع العادل للسلطة والثروة، من وجهة نظر أخلاقية، وهي تندرج ضمن الأعمدة الرئيسية للديمقراطية الليبرالية أو الديمقراطية الاجتماعية.

من خلال تعليم التواضع ورفض الجشع (حتى الجشع الزائد للمعرفة!)، وعبر منع البحث عن المتعة وتدعيم البحث عن الفضيلة. لقد قاد الصوفيون الناس في اتجاه

اختزل التوتر والصراع بينهم، ونتيجة لذلك تم تشجيع التعايش المشترك والتوسُّط. طلب الصوفيون من الله دومًا منحهم القدرة على فعل شيئين: المحاربة ضد الذات والتصرف بإحسان تجاه الآخرين؛ وهم يعتقدون أن الأخير نتيجة الأول.

لقد التزمنا بقول إن الشخص يلزمه أن يقسو على نفسه لكي يكون كريم النفس مع الآخرين؛ يجب على الشخص رفض مسامحة نفسه لكي يتسامح تجاه الآخرين.

من المحزن القول بأنه في عالمنا، أصبحت العناصر الأخلاقية الجوّانية الساعية وراء الفضيلة ومحاولة جعل ذات المرء مثالية ضعيفة لدرجة أنه لا يمكن للإجراءات الخارجية غرس الصبر، وكرم النفس، والتواضع في الناس بسهولة. إن واحدًا من أسباب اعتبار التواضع بمثابة الفضيلة الأعظم والغرور الرذيلة الأعظم يكمن في أن التواضع يلد التسامح والغرور يلد العنف. لقد أَجَلَّ الصوفيون الحب بشكل خاص لأنه يجعل المحِبَ متواضعًا! وبالتالي، اعتبروا التكبر بمثابة قاتل الحب. إن الناس الذين يُحوّلون التدين إلى عامل يُغَذِّي الأنانية والشعور بالاستعلاء — ويصيبهم الغرور وادعاء الصلاح لأنفسهم لأنهم يدَّعون كونهم تقاة ومطيعين للقانون الديني/ للشريعة — يرتكبون أعظم ظلم بحق ضد المذاهب الروحية. كان إيرازموس Erasmus مسيحي ملتزم، وفي ذات الوقت، رجلًا يؤمن بالإنسانية ومتسامح ومتواضع. لقد حالت "رغبته في القمة" دون سقوطه في فخ التقى المتفاخرة والفاسدة. وبكلمات سعدي [شيرازي] (ت. 1291)، الشاعر الإيراني البارز في القرن الثالث عشر: ينحني الغصن المحَمَّل بالفاكهة صوب الأرض. وبمعنى آخر، كلما كان الشخص أقدر على الإبداع، كان أكثر تواضعًا. يخفق الأشخاص الفارغون والفقراء داخليًا [في ذواتهم] في أن يكونوا متواضعين ومتسامحين تجاه الآخرين.

التسامح والحب

في وطني، إيران، وهي دولة دينية، لامس التسامح الحضيض في أيامنا هذه؛ بل سأذهب لأبعد من ذلك فأقول إنه اليوم في إيران، يُنظر إلى التسامح باعتباره رذيلة بدلًا من فضيلة. قبل ذلك، عندما كنا نحيا تحت [حكم] دولة علمانية غير ديمقراطية، كانت أيضًا غير متسامحة. اليوم، نقاسي من دولة دينية،

متعصبة. (ومن ثمّ، ليس التدين شرطًا ضروريًا للتعصب، ولا العلمانية شرط كافٍ للتسامح). اليوم، لا يتم التسامح مع غير المؤمنين فقط، وإنما لا يتم التسامح حتى مع المؤمنين من قِبَلِ الدولة بإيران. وليس ثمَّة سبب لهذا سوى أن الحكام يرون أنفسهم مقياسًا لما هو صائب وما هو أخلاقي. والحكام مصممون على سَوْق الناس للجنة حتى لو اضطروا لتكبيلهم بالأغلال وسحبهم لها. لقد ترك مفهوم الواجب مساحة قليلة للحقوق، للدرجة التي جعلت الناس، عندما يريدون انتقاد الحكام، عليهم طلب الإذن لفعل ذلك.

ترتجف الصحف وتُحْجَب بسهولة بجرّة قلم لأن تعدد الصحف وكثرتها نداء للتسامح والتعددية في حد ذاته. في المقابل، تمارس جماعات المشاغبين شبه المسلحة بحصانة وتطاول وتظهر في التجمعات العامة لتفريقها وضرب الخصوم. تُركوا أحرارًا للتصرف بهذه الطريقة لأنهم التجسيد الحي لغياب كرم النفس والتسامح. ينظر مسؤولو البلد لهذه الوقائع بعدم اكتراث تام لأن هذا ما يفرضه تدينهم، أو بمعنى أصح، "اشتياقهم للتدنّي".

لقد أخذ رجال دولتنا حبل الدين ويُنْزِلون الناس لأسفل بئر الظلامية. هناك سببان فقط لذلك: أولًا، شغفهم المتدني، وثانيًا، فراغهم (نقص الأفكار الذي يعتريهم). لو أنهم يمتلكون شغفًا للأعلى واغتنوا بالتعلُّم والروحية لصار مآل الدين والتدين أفضل دون شك، ولتبنوا شعارًا لهم: "كرم النفس تجاه الأصدقاء والتسامح تجاه الأعداء".

يتعلق الختام الذي أرغب في تأكيده بأن التسامح فضيلة فوق-دينية (وبالتأكيد ليست مضادة للدين)، تمامًا كالحب الذي "يقف وراء كل الأديان" بكلمات العظيم رومي. لقد طلبت الأديان من البشر طاعة الله وترك الخطيئة. ليس الحب (وحب الله أيضًا) واجبًا دينيًا؛ وإنما هو فضيلة أخلاقية فوق-دينية، والتي تُثري بالتأكيد الدين وتمنحه معناه. يلزم النظر إلى التسامح أيضًا بنفس الطريقة. إنه فضيلة نحن في أمس الحاجة لها سواء كنا مؤمنين أو غير مؤمنين. إن أعداءَ التسامح – بأي شكل يظهرون به، دينيًا كان أو علمانيًا – أعداءٌ لكلٍ من الإنسانية والدين. يجب علينا إرشادهم. ويتم ذلك فقط عن طريق تعليمهم التسامح لكي يمكننا، بكلمات حافظ، ضمان السلام في هذا العالَم والعالَم الآخر.

الفصل العاشر
الطريق الوسط

هدية ميراهمادي

ترجمة: علي رضا

هدية ميراهمادي Hedieh Mirahmadi محامية ومؤلفة ومؤسِّسة ورئيسة المنظمة العالمية لتنمية الموارد والتعليم (WORDE). تعمل WORDE على تحسين التواصل بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية من أجل الحَدّ من الصراع الاجتماعي والاضطراب السياسي. عملت ميراهمادي محررة للعديد من الكتب، مثل "الإسلام والمجتمع المدني – *Islam and Civil Society* " وكتاب " في ظل القديسين – *In the Shadow of Saints* ".

تقاسُم وجبة

عندما أفكر في المبدأ العالمي المتمثل في "قبول الآخر"، فإنني أتذكر دائمًا قصة معينة نتعلمها في الإسلام عن النبي إبراهيم والديانة الزرادشتية. إنها مثال رائع عن الكيفية التي يعلمنا بها الدين أن نحب بعضنا بعضًا بغض النظر عن طرقنا الدينية الفردية. وتُروى القصة على النحو التالي:

لم يحب النبي إبراهيم تناول الطعام بمفرده قط. فقد كان يشعر أن الطعام نعمة إلهية، وبالتالي، يجب مشاركته مع الآخرين، ولا سيما المحتاجين إليه. لذلك، أصبحت من عاداته الثابتة أنه قبل تناول أي وجبة طعام، يدعو شخصًا ما للأكل معه. وفي أحد الأيام، دعا النبي إبراهيم أحد عابدي النار إلى تناول وجبة معه. وعند جلوسه لتناول الطعام، طلب منه إبراهيم أن يبدأ بتسمية الله وأن يقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال الزرادشتي "تريد أن تشتري ديني

بوجبتك؟ أنا عابد للنار، فلماذا يجب أن أسمي الله؟". صدم هذا القول النبي إبراهيم الذي كان يدعو إلى عبادة الإله الواحد، الخالق، في حين أن هذا الشخص يريد أن يأكل باسم النار التي يعبدها. ولعدم قدرته على تحمل هذه الوثنية، طلب النبي إبراهيم من الرجل أن يترك مائدته. لكن الرب، على الفور، أوحى إلى إبراهيم "على مدار التسعين عامًا الماضية لم يُسمني هذا الشخص مطلقًا، وعلى الرغم من ذلك كنت أطعمه دائمًا، بينما وجدت أنت أنه من الصعب إطعامه هذه الوجبة فقط. فبغض النظر عما إذا كان يسميني أم لا، لا يمكنك أن تأكل حتى تعيده إلى مائدتك وتقوم بإسعاده. وإذا لم تقم بذلك، فسأقوم بحذفك من قائمة أنبيائي".

ذهب إبراهيم على الفور للبحث عن الرجل. وعندما رآه، جرى نحوه؛ خاف الرجل بشدة لدرجة أنه بدأ في الهرب. لكن النبي إبراهيم دعاه للتوقف، لأنه لم يكن ينتوي ضررًا، وعند وصوله إليه، أخبره إبراهيم "لقد أنَّبني ربي من أجلك"، وشرح له ما حدث. تفاجأ الرجل وقال "يا إبراهيم، إذا كان ربك يوبخك هكذا من أجلي، فمن المؤكد أنه إله يستحق العبادة".

أنا أحب هذه القصة لأنها تبرز الكثير مما أجده صادقًا وجميلاً في ديني؛ الإسلام. فمن خلال تصوير إبراهيم بوصفه نموذجًا للسلوك الحسن، تربط هذه القصة الإسلام بتعاليم الأنبياء والأديان السابقة. وإني أجد الكثير من تعاليم الإسلام على هذا النحو، تتضمن قصص الأنبياء السابقين، والرسل، والشخصيات ذات القداسة أينما سلطت تلك القصص الضوء على تعاليم دينية، أو درس أخلاقي، أو حل لمعضلة أخلاقية.

تُظهر هذه القصة أيضًا أهمية الكرم والتواضع والضيافة، والأهم من ذلك، قيمة التضحية بالنفس في الإسلام. قليل منا اليوم سيفكر في دعوة شخص غريب ليشاركه وجبة طعام، فضلًا عن إدخاله منزله؛ إلا أن إبراهيم رفض تناول الطعام دون العثور على شخص ما لمشاركتها معه.

الجزء الأهم في هذه القصة هو تشديدها على تجاوز التسامح في سلوكياتنا الأخلاقية اليومية، والسعي من أجل الوصول إلى قبول الآخر – وهو تمييز

سأناقشه بمزيد من التفصيل أدناه. كما تُصَوِّر القصة بوضوح، أن الله، من خلال حكمته الإلهية، قد خلق كل أنواع البشر. البعض يعبدونه، وبعضهم يعبد آلهة آخرين، وبعضهم ليس بعابد لأحد على الإطلاق. ومع ذلك، لا يحجب الله هباته الإلهية ورحمته عن أي منهم. لا يطلب الرب من كل خلقه الإيمان بدين واحد فقط، فلماذا نطالبهم نحن؟

وعلى الرغم من أن الإسلام يمتلك بالفعل مجموعة خاصة به من المعتقدات المطلوبة، فإن هذه القصة تعطي مثالاً واضحًا على المبدأ التوجيهي بأنه "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"[1]. وفي الوقت نفسه، توضح هذه القصة الأهمية التي يوليها الله للأفعال الخيرة وللإحسان إلى الجميع، بغض النظر عن إيمانهم به أم لا. يقول الله عن البشر في القرآن الكريم ما "خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"[2]. إذا خلقنا من الطين وأفاض علينا بنوره الإلهي وحبه، فكيف لنا أن نرفض أحدًا؟

ولكن للأسف، فإن القيم الجوهرية لهذا المثال (والتي كان أطفال المدارس يتعلمونها في المجتمعات المسلمة في جميع أنحاء العالم) يتم إغراقها من قبل المتطرفين على هامش المجتمع الإسلامي. شن هؤلاء الراديكاليون حملة دعائية لتشكيل الخطاب الذي يحدد العلاقة بين المسلمين وبقية الحضارات. فهم ينظرون إلى العالم من خلال نموذج قديم عفا عليه الزمن، ينقسم فيه العالم إلى "دار الإسلام" المسلمة و"دار الحرب" غير المسلمة.

وفي العديد من الدول الغربية، استغل المتطرفون المسلمين غير المتعلمين الذين يواجهون عوائق ثقافية ولغوية لإدامة الاعتقاد بأن عزل مجتمعات المسلمين المحلية سيكون أفضل من دمجها في "دار الحرب". ولقد تفاجأت عندما وجدت بعض الأدبيات التي تدعو إلى إنشاء مستشفيات ومحاكم قضائية ومدارس إسلامية في مسجد في العاصمة واشنطن – جزءًا من مخطط أكبر لعزل المسلمين عن المجتمع الأمريكي. وللأسف، تؤجج هذه الاستراتيجيات كراهية غير المسلمين وعدم الثقة فيهم بمرور الوقت. كما أنها تخلق عقلية حصار داخل الجالية المسلمة،

---

(1) آية 256 من سورة البقرة.

(2) آية 75 من سورة ص.

والتي يتم إحباط أي محاولة فيها للحوار والمشاركة بين الأديان بسهولة. وبذلك، فإن المتطرفين قد استبدلوا العنف والفتنة بقيم التسامح والانسجام الاجتماعي الإسلامية التقليدية. هذا تطور رهيب، ليس فقط بالنسبة لي، ولكن بالنسبة للغالبية العظمى من المسلمين في جميع أنحاء العالم الذين يرفضون التطرف ويسعون إلى العيش في وئام مع جيراننا غير المسلمين.

يدعو الإسلام التقليدي الناس إلى الطريق الوسط في كل شيء: في العقيدة، والعبادة، والمبادئ الأخلاقية، والمثل، والسلوك، والتعاملات الفردية، والتعاملات الاجتماعية، والتفاهم الفكري. يقول القرآن "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"[1]. يعني مفهوم "الطريق الوسط" الطريق المعتدل، فيتجنب حَدَّيّ التطرف في كونه صارمًا للغاية أو متساهلًا أكثر من اللازم. ليس الطريق الوسط قاسيًا، لكنه لا يرخى العنان "للأنا". إنه الطريق الذي يجب أن يسعى إليه الجميع.

النبي محمد – الذي هو أفضل قدوة لجميع المسلمين الصادقين الساعين للتأسي به – قد رفض التطرف. فقد قال عن نفسه وعن طريقه "إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلاَ مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا". وقالت السيدة عائشة، زوجة النبي محمد "مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا"[2]

مبادئ التسامح والوحدة الإنسانية

غالبًا ما يكرر العلماء المسلمون في العصر الحديث شعار، "يتسامح الإسلام مع الأديان الأخرى"، ومع ذلك أعتقد أن هذا تمثيل غير كافٍ للدين. فمفهوم "التسامح"، كما هو مُعرَّف في قاموس ميريام وبستر Merriam-Webster، هو "يتحمل، يتكبد، يطيق". ووفق هذا التعريف، فإن "التسامح" يسمح للمرء فقط بتطوير علاقات سطحية أو ضحلة، تكون خالية من الرأفة والتعاطف

---

(1) آية 143 من سورة البقرة.

(2) رواه مسلم.

والتفاهم المتبادل. أما في الإسلام فإنه لا يكفي أن نتسامح مع الآخرين فقط. بدلاً عن ذلك، يشجع الإسلام المسلمين على الاستماع إلى الآخرين ومتابعتهم حتى نفهمهم حقًا ونتقبلهم كجزء من خَلْقِ الله. إن القبول -أكثر من التسامح- يُحْيِي البِنَى الاجتماعية؛ فيمكن أن يحوّلها من موقف تصارع إلى موقف احترام متبادل.

وقد جاء أمر القبول عندما قال الله تعالى في القرآن الكريم "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[1]. هذه الآية عمومًا أقوى تأكيد لإيمان الإسلام بوحدة الجنس البشري والمساواة بين الأنفُس، والتي تنطبق على الرجال والنساء، وكذلك المساواة بين كل الأجناس، والقبائل، والأعراق. إنها تشدد على أن المقياس الحقيقي للقيمة ليس ثروة الشخص أو مكانته، بل طابعه الأخلاقي أو "تقواه".

في القرآن يتم التأكيد مرارًا وتكرارًا على مبدأ الكرامة الإنسانية ووحدتها "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"[2]. والبشرية، بسبب انحدارها من أب واحد وأم واحدة، متوحدة في جذر شجرة الوجود الإنساني. ولهذا السبب، يعتقد المسلمون أن البشرية بأكملها تتكون من أخوة وأخوات، وأن العلاقات الأسرية لها الأولوية على الرغم من أي اختلافات جوهرية قد تكون موجودة.

الحج، الزيارة السنوية الإسلامية للأماكن المقدسة بمكة المكرمة، في المملكة العربية السعودية، دليل فريد وغير مسبوق على الوحدة الإنسانية. لا يوجد شيء مثله في هذا العالم. حسب الإحصاء الرسمي، يحضر مليونا شخص هذا الحدث كل عام من جميع أنحاء العالم. يجتمع الجميع، من كل عِرق وثقافة وأمة وقبيلة دون تمييز، بغرض العبادة في مكان واحد. وقد أكَّدَ نبي الإسلام على هذا المبدأ عندما قال "لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى"[3].

---

(1) آية 13 من سورة الحجرات.

(2) آية 70 من سورة الإسراء.

(3) رواه أحمد.

وفي أثناء الحج، يقف جميع الحجاج معًا في أثواب متطابقة، فقط تغطيهم قطع من القماش الأبيض غير المنسوج، مثل ملابس الزُهّاد. عند ارتداء ملابس الحج لا يمكنك أن تفرق بين قائد دولة وبين عامل نظافة بسيط. وفي اليوم الأخير للحج يأتي الجميع معًا في سهل جبل عرفات ليدعوا الله بصوت واحد، في وحدة. ظلَّ هذا الدليل على الأصول المشتركة للإنسانية وعلى وحدتها، والذي يحدث سنويًّا لمدة 1400 سنة، دليلاً حيًّا على المبدأ النبوي المعروف "النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ"[1].

وفقًا لأستاذ القانون الإسلامي، الدكتور خالد أبو الفضل "يمكن تحديد موقع الخطاب الأخلاقي بسهولة في التراث الإسلامي ... المتسامح تجاه الآخر، المدرك لكرامة وقيمة جميع البشر"[2]. من بين أسس هذه العلاقة نجد الخير العام والمتبادل (أو الرفاهية) المجتمعية والعلاقات التعاونية. لهذا، فمن الواضح أن الإسلام لم ينوِ منع الصداقات مع أصحاب الأديان الأخرى، على الرغم من التفسيرات الخاطئة التي تدعو لذلك من قبل أولئك الذين يسعون إلى عزل المسلمين. بل على العكس، هناك قصص لا حصر لها تُروى عن حياة المسلمين وغير المسلمين وهم يعيشون بسلام معًا جنبًا إلى جنب. وعلى سبيل المثال، يروي الدكتور أحمد محمد الطيب، الشيخ الحالي للمؤسسة التعليمية الإسلامية الأولى في العالم، الأزهر، أن المسلمين كانوا دائمًا يتعايشون مع الديانات الأخرى – مع المسيحيين واليهود في الجانب الغربي من أرض الخلافة الإسلامية، ومع الهندوس والبوذيين في الجانب الشرقي منها. يمكن للمرء دائمًا العثور على أمثلة، في هذا السياق، على الترابط بين الناس والذي ينبع من الإشارات الجوانية لإنسانية أثْرَتْها حياتها الدينية. لقد كانت هذه تجربتي الشخصية بالفعل في

---

(1) رواه البخاري.

(2) Khaled Abou El Fadl, "Islam and the Theology of Power: Supremacist Puritanism in Contemporary Islam is Dismissive of All Moral Norms or Ethical Values," Islam for Today website,
http://www.islamfortoday.com/elfadl01.htm accessed 22 March 2011.

صعيد مصر، حيث عاش المسلمون جنبًا إلى جنب، على مدى قرون، مع إخوانهم الأقباط المسيحيين[1].

يجب أن تكون العلاقة بين المسلمين وجيرانهم غير المسلمين ومواطنيهم علاقة احترام وتواصل اجتماعي ودي وخير متبادل وتعاون على البر. وهذا ما يدعو إليه الإسلام الحقيقي. يجب أن تُمنح الصداقة دائمًا حتى لأولئك الذين قاتلوا المسلمين، على الرغم من عداوتهم، فيقول الله في القرآن "عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"[2].

ولأن النبي محمد قدوة المسلمين في السلوك، فمن المهم أن نتأمل في علاقته بأصحاب الديانات الأخرى. فيقدم الدكتور الطيب مثالاً آخر: أن النبي محمد مرت به جنازة رجل يهودي، فوقف احترامًا. فأبدى بعض الحاضرين معه دهشتهم، لأن المتوفى لم يكن من المؤمنين بالإسلام أو من المعترفين به كدين. فكان جواب النبي "أَلَيسَتْ نَفْسًا؟". يكرس هذا المثال العملي من جانب نبي الإسلام المساواة بين البشر على هذا النحو، في الحقوق والواجبات...[3]

وكما توضح هذه القصة، منذ بدايتها، أن النبي لم يعامل اليهود معاملة "الآخر الديني". لقد حاول دمجهم في مجتمع سياسي من خلال ما يعرف بـ"ميثاق المدينة" (صحيفة المدينة). هذه الاتفاقية كانت بين المجتمع المسلم الوليد، والقبائل اليهودية المختلفة، والقبائل الوثنية. وتجدر الإشارة إلى أنه حتى "الآخر" القَبَلِيّ ظل مكونًا مهمًا[4].

إن صحيفة المدينة، التي وضعها النبي نفسه، تُظهر معاييره الأخلاقية، وروحه الشمولية، ونهجه المبتكر لصناعة مجتمع معقد وحديث. لقد وصف النبي هذا

---

(1) Ahmad Mohamed El Tayeb, "Islam and the Other Religions," speech at Washington Cathedral, March 1, 2010

(2) آية 7 من سورة الممتحنة.

(3) Ahmad Mohamed El Tayeb, "Islam and the Other Religions," speech at Washington Cathedral, March 1, 2010.

(4) Asghar Ali Engineer, "The concept of "other" in Islam," Center for Study of Society and Secularism, Mumbai, September 2001.

المجتمع بأنه "أمة واحدة"، أي "مجتمع واحد"، بينما في إمبراطوريات أخرى في العالم، تحققت حالة التسامح مع الأقليات الدينية ولكن دون منحها أي حقوق سياسية. في هذه الوثيقة مُنح غير المسلمين حقوق أمنية مساوية لجميع المجموعات الأخرى، بالإضافة إلى حقوق سياسية وثقافية متساوية ومُعادلة لحقوق المسلمين. وتم ضمان الحرية الدينية، ومُنحت كل الجماعات حقوق في الإدارة الذاتية والاستقلالية. ومع ذلك، كان مطلوبًا أيضًا من المسلمين وغير المسلمين أن يتشاركوا العبء العسكري ضد أعداء الدولة الجديدة وتقاسم تكلفة الحرب. لم يكن هناك نظام ضريبي حكومي، لذلك كان على كل مجتمع قَبَلِيّ توفير الأسلحة والخيول والجمال استعدادًا للحرب[1].

وعلى الرغم من أن بعض الزعماء المسلمين انحرفوا عن مثال النبي مع مرور الوقت، فإن الحكام من السلالة الأموية في سوريا الكبرى، ومن العصر العباسي في بغداد والقاهرة، ومن المغول في الهند الكبرى، ومن سلطنات الشرق الأقصى، أمثلة ممتازة للقيادات التي حكمت بنجاح أناسًا متنوعين، وأصحاب لغات وثقافات ومعتقدات مذهبية مختلفة. ويكمن نجاحهم في التزامهم بالتعلُّم من الدول التي حكمها المسلمون ومن ثقافاتها المختلفة التي تَكَيّفت معًا وتم تبنيها بدلاً عن تدميرها[2].

---

(1) Dr. Vincent J. Cornell, "Islam: Theological Hostility and the Problem of Difference," paper delivered at the Elijah Interfaith Academy Meeting of Board of World Religious Leaders, Seville, Spain, December 15, 2003.

من المثير للاهتمام ملاحظة أن كبار علماء الإسلام في الهند استشهدوا بهذا الاتفاق السياسي الذي وضعه النبي لمعارضة انفصال باكستان عن الهند. ووفقًا للدكتور كورنيل Cornell، فقد أكدوا أنه عطفًا على خَلْقِ النبي لكيان سياسي فريد للمجتمع غير المتجانس، ينبغي أن ينطبق الشيء نفسه على دولة مسلمة هندية.

(2) Timothy J. Gianotti, "Sharing Wisdom: A Muslim Perspective," paper presented in preparation for the meeting of World Religious Leaders, 26-30 November 2007, Amritsar, India. Download version accessed 2 December 2010 at

http://www.elijah-interfaith.org/uploads/media/BP_Islam .doc.

لا يعني احترام وقبول الأديان الأخرى أننا لن نختلف حول مسائل الدين والمجتمع. ولكن الشريعة الإسلامية التقليدية والقرآن يعززان الاعتقاد بأن مثل هذا الخلاف يجب ألا يؤدي إلى العنف. تراثيًا، يعتقد المسلمون أنه من الأفضل للبشر أن يسعوا في الأعمال الصالحة، وأن يسلموا أنفسهم لإرادة الله، وأن يلتزموا بالحدود الأخلاقية للعدالة الاجتماعية، وأن يتركوا الله يقرر مسائل الدين في نهاية المطاف. وهناك مقطع في القرآن حيث يقول النبي "آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"[1]. لذلك، فإن الوصية بتجنب العداء ونبذ الخلاف في مسائل الدين واضحة للغاية. إن الرسالة الحقيقية للقرآن هي ما يسميه "استباق الخيرات" (أي، السعي للتفوق على بعضكم البعض في الأعمال الصالحة)[2]. لكن للأسف، يهدر الناس وقتًا كثيرًا في التنازع مع بعضهم البعض حول المعتقدات بدلاً عن التنافس مع بعضهم البعض في القيام بالأعمال الصالحة[3].

مبدأ التنوع والتعددية

يقول الله في القرآن الكريم:

"إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى"[4]

"وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"[5]

"وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ"[6]

---

(1) آية 15 من سورة الشورى.

(2) آية 48 من سورة المائدة، وآية 148 من سورة البقرة.

3 Asghar Ali Engineer, "The concept of "other" in Islam," Center for Study of Society and Secularism, Mumbai, September 2001.

(4) آية 4 من سورة الليل.

(5) آية 118 من سورة هود.

(6) آية 48 من سورة المائدة.

من بين جميع التقاليد الدينية، يتفرَّد الإسلام بأنه الوحيد الذي يقول إن الله لم ينوِ أن تكون البشرية كلها على دين واحد. وقد تم تأسيس الإسلام على هذا المبدأ، وليس على مبدأ التماثل، الذي نراه في كثير من الأحيان مفروضًا على المسلمين في الوقت الحالي من قبل الجماعات والعلماء والحكومات الذين يلتزمون بتفسيرات صارمة وحرفية ومُبَسَّطة للدين. تسيء هذه الجماعات إلى الإسلام بصورة كبيرة، فتظهره بدائيًا في نهجه، تنتمي مواقفه إلى العصور الوسطى، غير قادر على التكيف مع التغييرات المتأصلة في النسيج الاجتماعي والثقافي لـ "الثقافة العالمية الجديدة" التي نَشَأت مع ظهور العولمة التكنولوجية.

في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي، أكدت جماعة مهرطقة من المسلمين، تُعرف باسم الخوارج، أنها وحدها تمتلك الفهم "الحقيقي" للدين وأن كل الذين اختلفوا معها كانوا كفارًا، على الرغم من ضلاعتهم في الدين الإسلامي. وقد اعتبر علي بن أبي طالب، صهر النبي وابن عمه والخليفة الراشدي الرابع، هذا الانحراف المتطرف خطيرًا للغاية وعلى النقيض من التعاليم الإسلامية لدرجة أنه جرَّم تبشير أي شخص بمثل هذه العقائد. وقد تنبأ بأن الأشكال الحديثة من هذه الهرطقة سوف تصيب الأمة الإسلامية طيلة وجودها.

كل من يعتقد أن البشر يجب أن يكونوا متماثلين متطابقين، ملتزمين جميعهم بنظام واحد وطريق واحد، هو في الواقع عدو للحرية والتنوع أو يؤمن بالمثالية الاستبدادية التي يستحيل استيفاؤها والتي تتعارض مع التعاليم القرآنية. إن قمع حرية الفكر وحرية النقاش حول المقاربات المتعددة للقانون والمجتمع يتناقض مع الروح الأصيلة للخطاب في الإسلام. إن قمع النقاشات يشبه فرض سلطة ديكتاتورية على الدين، فتقيد نطاقه بالكامل. وقد قال النبي "اختلاف أصحابي رحمة"[1]. إن قول "لا" في وجه الاختلافات يحد فقط من ازدهار العباقرة المبدعين. والإسلام ينظر إلى التنوع باعتباره أحد أنماط الخلق الإلهي. فلا توجد ندفتان ثلجيتان متشابهتان، لأن خالق الندف الثلجية يُدعى، الذي ليس كمثله

(1) رواه ابن عباس.

شيء، الأحد، وبالتالي فإن كل مخلوق من مخلوقاته فريد من نوعه. فكيف يمكن للمرء أن يتوقع هروب البشر من هذا النمط الإلهي؟

يقول الله تعالى في القرآن الكريم "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ"[1]، "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"[2]، و"لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً"[3]. ومرة أخرى، يذكرنا بأن التنوع والتعددية هما نمط الخلق الإلهي "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ"[4].

فالوحدانية المطلقة تنطبق على الله وحده. أما بالنسبة لغيره، فالتنوع هو الشرط الأساسي: الإنسان أو الملاك، الجماد أو الحي، الصلب أو السائل أو الغاز. لذلك، فإن وجود الاختلافات ليس انحرافًا (كما يدعي بعض المسلمين الرجعيين)، بل هو، في الواقع، أمر مُتَوَقَّع، في ضوء طبيعتنا المتغايرة.

ومن خلال تنوعنا فقط، يمكننا التعلُّم؛ لأنه دون التنوع في التفكير، يتم القضاء على المنافسة، وستسقط البشرية إلى القاسم المشترك الأدنى. يتطلب التفكير العقلي محفزات تنافسية وتبادلاً للأفكار لكي يؤدي دوره جيدًا. إن ظهور المناهج المتنوعة ثمرة العمل العقلي والروحي. وهكذا نرى أنه بدلاً عن تقييد المسلمين ليهتموا بشؤونهم فقط، شجعهم النبي على التعلم من الآخرين. هذا أمر واضح من الحديث الشهير "اطلبوا العلم ولو في الصين". هذا الحديث والكثير غيره – على سبيل المثال "اطلبوا العلم من المهد الى اللحد" — منحت الأمة المسلمة دافعًا للتعلم وطلب المعرفة حتى لو تكن " لم تُخترع هنا". وهكذا، نرى أن المسلمين كانوا المنارة الرائعة للتقدم لعدة قرون وكانوا ناقلي المعرفة وناقلي العلم الذي دعم النهضة في العالم المسيحي في القرون الوسطى. ولو لم يتعمق المسلمون في جميع العلوم، ولو لم ينتجوا معارف جديدة هائلة، ولو لم يدرسوا وينقلوا إلى الغرب معارف الإغريق والرومان والفينيقيين والهنود والفرس، فربما لم

(1) آية 4 من سورة الليل.

(2) آية 118 من سورة هود.

(3) آية 48 من سورة المائدة.

(4) آية 22 من سورة الروم.

يكن ليظهر الدافع الباعث لعمليات التفكير العميقة والمتبصرة والتي كانت ضرورية لتحول أوروبا النهضوي.

مبادئ الحرية الدينية

استنادًا إلى مبدأ التنوع، يجد المرء أن حرية الدين نتيجة لازمة له. فقد قال الله تعالى "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"[1]. إن هذا المبدأ مهم جدًا في الإسلام؛ والشخص المجْبَر على أن يصبح مسلمًا، يعتبر قبوله للإسلام باطلاً من الناحية القانونية. حتى أن ابن تيمية، مؤسس المدرسة السلفية، التي تعتبر في الوقت الحالي أحد أكثر طوائف الإسلام تطرفًا، قال إن الكفار الذين لم يحاولوا التعدي على دار الإسلام، لا يُفرض عليهم الإسلام بالقوة. "إن قتل الكافر إذا لم يتحول للإسلام، أكبر إكراه ديني ممكن" ويتعارض مع القاعدة القرآنية التي تقول "لا إكراه في الدين"[2].

وباعتباره إيمانًا إبراهيميًّا، يحتضن الإسلام المسيحيين واليهود بوصفهم موحدين ومؤمنين بالإله الواحد. ففي القرآن الكريم، يمدح الله أنبياءهم، فيقول "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ"[3]. وهكذا يعترف القرآن بالكتب المقدسة، التوراة والإنجيل، كوحي إلهي للجنس البشري ويكرم المسيحيين واليهود على أنهم "أهل الكتاب".

لم يُمنح أهل الكتاب حرية الاعتقاد فحسب، بل سُمح لهم بالحفاظ على قوانينهم الدينية وممارساتهم، حتى تلك التي تتعارض مع تعاليم الإسلام. وبمرور الوقت، مُنحت مجموعات دينية أخرى حقوقًا مماثلة. فارتأى الإمام مالك بن أنس، أحد الفقهاء البارزين في الإسلام، أنه يجب معاملة المجوس Zorastrians

(1) آية 256 من سورة البقرة.

(2) Shaykh Muhammad Al Hasan Al Shaybani, Siyar, The Shorter Book on Muslim International Law, translator's introduction, (translated by Mahmood Ahmad Gazi), Islamic Research Institute, 2005, p. 59.

(3) الآيات 46-44 من سورة المائدة.

بشروط معاملة الرسول وخلفائه نفسها لأهل الكتاب[1]. وفي أوائل القرن الثامن ميلادي، تعهد أول أمير مسلم يحكم الهند، محمد بن قاسم، بعدم حماية المساجد والأضرحة الإسلامية فحسب، بل وأماكن العبادة الهندوسية كذلك. وخلال فترة الحكم العربي لبلاد السند من القرن الثامن إلى القرن العاشر، تكيفت الشريعة الإسلامية مع وجود البوذيين، فاعتبرتهم من أهل الكتاب أيضًا[2].

وخلال عهود الإمبراطوريات الإسلامية الماضية، كان أهل الكتاب قادرين على تنفيذ قوانينهم الخاصة بدلاً عن الشريعة الإسلامية. فعلى سبيل المثال، سُمح لهم بأكل الأطعمة التي يحلها "دينهم" لهم، بما في ذلك تلك التي يحرّمها الإسلام مثل لحم الخنزير أو النبيذ. وحتى في الأمور الاجتماعية، مثل الزواج والطلاق والإحسان، كان لغير المسلمين الحرية في حكم مجتمعهم كما يشاءون، دون شروط أو قيود.

لقد كان النبي محمد نفسه يحترم الأنبياء الذين جاءوا من قبله؛ وعندما دخل هو وصحابته مدينة مكة المكرمة العربية، أمر بتدمير جميع الأصنام داخل الكعبة، باستثناء صورة واحدة، والتي غطاها بكلتا يديه إشارة لعدم التعرض لها. وعندما انتهوا من إزالة الصور الأخرى، أبعد النبي يديه، وكشف عن الصورة التي أخفاها بعناية: الطفل يسوع مع أمه مريم. كانت هذه الصورة، الموضوعة على عمود داخلي، هي الصورة الوحيدة التي بقيت داخل الكعبة[3]. وعلى نحو مماثل، بعد أن غزا العثمانيون القسطنطينية وحولوا الكاتدرائية الضخمة آيا صوفيا إلى مسجد، تركوا أيقونات السيد المسيح والسيدة مريم سليمة في السقف، على الرغم من حظر الصور في المسجد.

---

(1) موطأ الإمام مالك - كتاب الزكاة.

(2) Alexander Berzin, "Islamic-Buddhist Dialogue."
http://www.berzinarchives.com/web/en/archives/study/islam/general/islamic_buddhist_dialog.html (accessed on 2 December 2010).

(3) Ahmad Mohamed El Tayeb, "Islam and the Other Religions," speech at Washington Cathedral, March 1, 2010.

بالإضافة إلى المثال النبوي، يأمر القرآن الكريم المسلمين بتقديم الاستقلالية والاحترام للديانات العالمية وتقاليدها. في الآيتين 106–107 من سورة الأنعام، يقول تعالى "اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ". وعلى نحو مماثل، في الآية السادسة من سورة الكافرون، يقول تعالى "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ". واستنادًا إلى هذه الآيات خلُص الفقهاء المسلمون إلى أن الحرية الدينية مبدأ جوهري في الإسلام.

أمثلة تاريخية للحرية الدينية

من المهم إبراز بعض الأمثلة التاريخية عن التسامح الديني وعن الدعم للجماعات غير المسلمة في زمن ما بعد النبي محمد، لإثبات أن بعض التفاعلات الحالية بين المسلمين وغير المسلمين قد اختلفت إلى حد كبير عن جذورها التاريخية.

سواء تعلق الأمر بتدمير الأماكن المقدسة المسيحية في مصر، أو هدم التماثيل البوذية في أفغانستان، أو النزوح الجماعي للمسيحيين من العراق، يتناقض العنف الذميم ضد هذه الجماعات مع تراث المجتمعات الإسلامية السابقة. وللأسف، يُلْحق بعض القادة المسلمين والجماعات الهامشية ضررًا كبيرًا بسمعة الإسلام وبالطريقة التي ينظر بها العالم إلى الشريعة الإسلامية وإلى مفاهيمنا عن العدالة. يمكن للأمثلة التاريخية عن التماسك الاجتماعي والتعاطف والعدالة تزويد المسلمين بالأدلة التي يحتاجون إليها لعكس مد العداوة والحقد بين الأديان. كما أنه يوفر لغير المسلمين الأمل والطمأنينة بأن هذا التوازن والوئام يمكن أن يعودا يومًا ما.

العهدة النبوية لرهبان دير سانت كاترين على جبل سيناء

في عام 628 ميلادية، كتب النبي محمد رسالة، "ميثاق حقوق"، إلى رهبان دير سانت كاترين على جبل سيناء. وتعتبر تلك العهدة مثالاً مبكرًا على الحرية

الدينية والتسامح تجاه المسيحيين؛ فهي تضمن عدة حقوق إنسانية، مثل حرية العبادة وحرية الحركة وحرية المسيحيين في تعيين قضاتهم وحق الحفاظ على ممتلكاتهم الخاصة، والإعفاء من الخدمة العسكرية، وحق الحماية أثناء الحروب. النص الكامل للرسالة التالي:

هذا كتاب محمد بن عبد الله، عهدًا للنصارى، أننا معهم قريبًا كانوا أم بعيدًا، أنا وعباد الله والأنصار والأتباع للدفاع عنهم، فالنصارى هم رعيتي. والله لأمنع كل ما لا يرضيهم.

فلا إكراه عليهم، ولا يُزال قضاتهم من مناصبهم ولا رهبانهم من أديرتهم. لا يحق لأحد هدم دور عبادتهم، ولا الإضرار بها ولا أخذ شيء منه إلى بيوت المسلمين. فإذا صنع أحد غير ذلك فهو يفسد عهد الله ويعصي رسوله. وللحق أنهم في حلفي ولهم عهد عندي أن لا يجدوا ما يكرهون. لا يجبرهم أحد على الهجرة ولا يضطرهم أحد للقتال بل يقاتل المسلمون عنهم.

إذا نكح المسلم النصرانية فلا يتم له ذاك من غير قبول منها. ولا يمنعها من زيارة كنيستها للصلاة. كنائسهم يجب أن تُحترم، لا أحد يمنعهم من إصلاحها ولا الإساءة لقدسية مواثيقهم. لا يحق لأي من الأمة (المسلمين) معصية هذا العهد إلى يوم الدين[1][2]

---

(1) Dr. Akram Zahoor and Dr. Z. Haq, Muslim History: 570 - 1950 C.E., English translation, ZMD Corporation. P.O. Box 8231, Gaithersburg, MD 20898-8231. Copyright Akram Zahoor, 2000, 167

(2) يروي جورجي زيدان في ص 113-112 من كتابه تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الرابع - مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- 2012) أن السلطان العثماني حمل النسخة العربية الأصلية إلى الأستانة في أوائل القرن السادس عشر ميلادي، وينقل نصها عن كتاب «منشآت سلاطين» لأفريدون بك بعد البسملة "هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين، رسوله مبشرًا ونذيرًا ومؤتمنًا على وديعة الله في خلقه؛ لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية، من مشارق الأرض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها، جعل لهم عهدًا فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه إلى غيره وتعدى ما أمره، كان لعهد الله ناكثًا ولميثاقه ناقضًا وبدينه مستهزئًا وللعنته مستوجبًا، سلطانًا كان أم غيره من المسلمين – وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو بيعة، فأنا أكون من ورائهم أذبُّ عنهم من كل غيرة لهم بنفسي وأعواني وأهلي وملتي

العهدة العمرية

غالبًا ما كان الخليفة عمر بن الخطاب يزور الأماكن المقدسة اليهودية والمسيحية. وعندما ذهب إلى المعبد اليهودي، انزعج بشدة عندما وجد أن الرومان كانوا يخزنون نفاياتهم هناك، وبدأ على الفور في إزالة القمامة بيديه. بعد ذلك، ذهب الخليفة إلى كنيسة القبر المقدس [كنيسة القيامة في القدس]. وعندما حان وقت الصلاة، عُرض عليه مكان داخل الكنيسة للصلاة، لكنه رفض فعل ذلك، لأنه كان يعلم أنه إذا صلى داخل الكنيسة، فسوف يتم تحويلها إلى مسجد. بدلاً عن ذلك قام بتكريم المبنى المقدس للمسيحيين من خلال الصلاة على الدرجة التي على باب الكنيسة والسماح للكنيسة بالبقاء مكانًا مسيحيًّا مقدسًا. ثم عرض على شعب القدس ميثاق سلام وحماية لأماكنهم المقدسة، مثل كنيسة القبر المقدس والمعبد اليهودي القديم.

وأتباعي؛ لأنهم رعيتي وأهل ذمتي وأنا أعزل عنهم الأذى في المؤن التي يحمل أهل العهد من القيام بالخراج، إلا ما طابت له نفوسهم، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك، ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله. ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة، وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر في المشرق أو المغرب والجنوب والشمال، وهم في ذمتي وميثاقي وأماني من كل مكروه، وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضيع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم، ولا يعاونون عند إدراك الغلة، ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية، ولا من أصحاب الخراج وذوي الأموال والعقارات والتجارات مما هو أكثر من اثني عشر درهما بالجملة في كل عام، ولا يكلف أحد منهم شططًا ولا يجادلون إلا بالتي هي أحسن، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة، يكف عنهم أذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا – وإن صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها، ولا يحال بينها وبين هوى دينها، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله، ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد، ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم، ولا يخالف هذا العهد أبدًا إلى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا". (المترجم)

الهندوس في الهند

عندما أدخل محمد بن قاسم الحكم الإسلامي إلى شبه القارة الهندية في أوائل القرن الثامن الميلادي، تم التعامل مع الهندوس على أنهم من أهل الكتاب. كما تمت دعوة كل من الهندوس والبوذيين للعمل في إدارة حكم البلاد كمستشارين وولاة موثوق بهم. وقد عزز الصوفيون تقاليد الاندماج، وخصوصًا الطريقة الجشتيَّة Chistiya order، التي استوعبت عددًا من العادات والتقاليد المحلية[1]. وبمرور الوقت، قبل أيضًا العلماء الهنود المسلمون، مثل العالم الشهير حبيب الله جان جانان Mazhar Jan-i-Janan، الأصل الإلهي لنصوص الفيدا Vedas، النصوص المقدسة للديانة الهندوسية، واقترح كذلك أن كلاً من الهندوسي كريشنا Krishna وراما شاندرا Rama Chandra أنبياء بشروا بوحدانية الله[2][3].

رسالة الخليفة علي بن أبي طالب إلى مالك الأشتر، والي مصر

كتب الخليفة علي بن أبي طالب لصاحبه مالك الأشتر عن الحكم برحمة تجاه المسلمين وغير المسلمين على حد سواء:

أشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنّهما صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من

---

(1) Asghar Ali Engineer, "How Muslims Viewed Hindus in the Past and in the Present," Center for Study of Society and Secularism, Mumbai, September 2001.

(2) كريشنا وراما شاندرا إلهان هندوسيان شهيران، وهما بطلا الملحمتين الهندوسيتين الأشهر؛ فالأول بطل ملحمة المهابهارتا والثاني بطل ملحمة الرامايانا، وكلاهما تجسد للإله فيشنو الذي أصبح الإله الأعلى في الفيشنوية، وهي طائفة موحدة داخل الديانة الهندوسية. (المترجم)

(3) Yohanan Friedman, "Medieval Muslim Views of Indian Religions," Journal of the American Oriental Society, 1975, Vol. 95, Issue 2, 214-221.

ولاك... وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية"[1]

وقد استُخدمت هذه الرسالة في تقرير التنمية البشرية العربية لعام 2002 الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) مثالاً على الحكم الرشيد في العالم العربي.

رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة

هذه الرسالة، من الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى الوالي عدي بن أرطاة، تأمر المسلمين برعاية المسنين غير المسلمين:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه، وقاصه من جراحه ... والسلام عليكم[2][3]

إسبانيا الإسلامية (الأندلس)

في ظل الخلافة الأموية في القرن التاسع ميلادي، كان قلب الإمبراطورية الإسلامية هو جنوب إسبانيا، الأندلس. وقد لعبت هذه المنطقة دورًا فعالاً في نشر المعرفة المتعددة الثقافات والتسامح الديني. عاش المسيحيون واليهود والمسلمون في سلام، وكان المسيحيون والمسلمون يصلون معًا في الجامع الكبير

---

(1) نهج البلاغة – من كتاب له كتبه للأشتر النخعي لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر. (المترجم)

(2) Muhammad Hamidullah, "The Status of Non-Muslims in Islam" Introduction to Islam, Truestar 1997.

(3) طبقات ابن سعد – ج 7 – في أهل المدينة من التابعين – مكتبة الخانجي بالقاهرة — 2001 – ص 370 (المترجم)

في قرطبة (أصبحت الآن كاتدرائية قرطبة). في هذا الوقت حُفظت كتابات الفلاسفة اليونانيين القدامى وتمت ترجمتها من قبل العلماء المسلمين. لم يُجبر غير المسلمين الذين يعيشون في الأندلس على العيش في غيتوهات Ghettoes [مناطق سكانية منعزلة تعيش فيها الأقليات نتيجة لضغوط اجتماعية أو عرقية أو ثقافية أو دينية] أو أماكن منفصلة أخرى؛ لم يجبروا على أن يكونوا عبيدًا؛ لم يتم منعهم من ممارسة عقيدتهم. لم يجبروا على التحوُّل إلى الإسلام أو الموت تحت حكمه؛ ولم يتم منعهم من أي طرق معينة لكسب العيش. لم يكن اليهود والمسيحيون قادرين على المساهمة في المجتمع والثقافة فحسب، بل كان بإمكانهم أيضًا العمل في جميع فروع الخدمة المدنية.

فرمان من سلطان المغرب

أصدر سلطان المغرب محمد بن عبد الله الفرمان التالي في 5 فبراير سنة 1864 بهدف تقديم المشورة للولاة المغاربة في كيفية التعامل مع اليهود من سكان ولاياتهم:

نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام، حتى لا يلحق أحدهم منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وألا يعتلوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وألا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق غليه، لا في حقهم ولا في حق غيرهم، ولا نرضاه، لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء، ومن ظلم أحدًا منهم أو تعدى عليه، فإنا نعاقبه بحول الله، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررًا، ومعروفًا محررًا، لكن زدنا هذا المسطور تقريرًا

وتأكيدًا ووعيدًا في حق من يريد ظلمهم وتشديدا، ليزيد اليهود أمنًا إلى أمنهم، ومن يريد التعدي عليهم خوفًا إلى خوفهم[1].

هذه العهود والممارسات جزء من الإرث الحقيقي للنبي محمد إلى الحضارة. ومن الواضح من هذه الأمثلة أن الإسلاميين المتشددين اليوم يصنعون دينهم الخاص بهم. وعلاوة على ذلك، فإن دعواتهم للعودة إلى الممارسات الإسلامية في القرن السابع ميلادي هي دعوات مُضلِلَة لأنهم لا ينوون اتباع أمثلة المجتمعات الإسلامية المبكرة في التسامح وقبول الآخر والتعايش السلمي. من المهم أيضًا ملاحظة حدوث الكثير من أسوأ الأمثلة على التوتر الإسلامي/غير الإسلامي في العصر الحديث بعد ظهور العقيدة الجهادية الإسلامية المتشددة.

أمثلة تاريخية لتبادل المعرفة عبر الأديان المختلفة

نجد أيضًا أنه كان هناك تبادل كبير للأفكار والمثل بين العالمين المسيحي والإسلامي. فعلى سبيل المثال، أخذت الدراسات الدينية الإسلامية بعض منهجيتها من المسيحيين، مثل جون فيلوبونوس (الذي يشير إليه المسلمون باسم يحيى النحوي). وعلى نحو مماثل، في لحظات مهمة في تاريخها، استندت أوروبا المسيحية إلى دراسة المفكرين الإسلاميين. في منتدى للحوار بين الأديان، أبرز العالم الإسلامي عبد الحكيم مراد بعض المصادر الرئيسية للتأثير الإسلامي على الغرب:

من يستطيع أن ينكر تأثير ابن رشد، القاضي الشرعي في قرطبة، على أوروبا في عصر القديس توما الأكويني؟ أو أهمية الغزالي، المعروف باللاتينية باسم الجازيل Algazel، في دحضه الصارم لميتافيزيقا ابن سينا المغلوطة وفي بعض الأحيان شبه الوثنية؟ أو تأثير المتكلمين، اللاهوتيين المسلمين المعروفين باسم "Loquentes" في الغرب، من جعلتهم صرامتهم في استخدام العقل، المحاورين

---

(1) يوسف القرضاوي – الأقليات الدينية والحل الإسلامي – مكتبة وهبة – 1996 – ص 53 – 54. (المترجم)

المثاليين لأشد المفكرين المسيحيين حدة، وإن كان ذلك على القدر الذي تتطلبه ثقافة ذلك العصر؟[1]

وحتى داخل مجال الشريعة الإسلامية الحرج، كان فقهاء المسلمين منفتحين على التعلم من نظرائهم المسيحيين واليهود. ظهرت التفسيرات القرآنية المعروفة باسم الإسرائيليات من خلال هذه الأحاديث. ساعدت تجربة الوجود بين علماء مسيحيين ويهود مطلعين، ممن ناقشوا وحللوا ونقدوا قوانين الدين بدقة، المسلمين على تطوير علم اللاهوت الخاص بهم (علم الكلام Kalām)، والذي تمكنوا بواسطته من الإجابة على الأسئلة اللاهوتية والتصدي للهجمات اللاهوتية المضادة. وقد أدى هذا إلى قيام المسلمين بتطوير النظم الكلاسيكية للفقه الإسلامي التي أثرت على اللاهوت والقانون الإسلامي منذ ذلك الحين[2].

باختصار، لقد وجد المسلمون أنفسهم تاريخيًا أغنياء بشكل لا حدود له بما وصل إليهم من معارف وخبرات وحكمة المجتمعات والتقاليد الأخرى. وقد تأثرت عظمة الحضارة التي بنوها تأثرًا كبيرًا بتلك المنقولات. وبطريقة ما، يمكننا رؤية المسلمين وهم يجسدون الوصية القرآنية بمعرفة "الآخر" و"التنافس" في السباق التقي للقيام بالأعمال الصالحة.

---

(1) Abdal Hakim Murad, "Human Dignity and Mutual Respect," speech delivered to First Catholic-Muslim Forum, Rome, November 5, 2008. http://acommonword.com/en/a-common-word/16-conferences/297-human-dignity-and-mutual-respect.html (accessed December 2, 2010).

(2) J. Gianotti, "Sharing Wisdom: A Muslim Perspective," paper presented in preparation for the meeting of World Religious Leaders, 26-30 November 2007, Amritsar, India. Download version accessed 2 December 2010 at http://www.elijah-interfaith.org/uploads/media/BP_Islam.doc

أمثلة تاريخية عن المساواة بين الجنسين

في تعارض حاد مع الصور السلبية التي نراها في الوقت الحالي[1]، يتمتع الإسلام بتراث غني بالمساواة بين الجنسين. في سياق الإيمان، لا يوجد تمييز بين الرجل والمرأة المسلمة؛ فكلاهما له الحقوق والواجبات نفسها، وقد وُعِدا بثواب متساوٍ في السماء. وعلى الرغم من أن مبدأ المساواة قد تم التأكيد عليه كثيرًا عبر صفحات القرآن الكريم، إلا أن زوجة النبي محمد، أم سلمة، قد سألته لماذا لم تُذكر المرأة على وجه التحديد في القرآن الكريم[2][3]. وبعد فترة وجيزة من هذا، أوحي إلى النبي محمد بالآيات التالية:

"إِنَّ المسْلِمِينَ وَالمسْلِمَاتِ وَالمؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالمتَصَدِّقِينَ وَالمتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"[4]

وعلى الرغم من أن النبي محمد علّم مجتمعه بالأمثلة احترام المرأة وتكريمها، إلا أن هذه الآية رسمت مبدأ المساواة بين الجنسين وكفلت العديد من الحقوق في زمان ومكان تُعتبر فيهما المرأة مجرد متاع. وباعتبارهن باحثات شهيرات وسيدات أعمال وناشطات، فإن العديد من النساء في عائلة الرسول كُنَّ رموزًا للتفوق الأخلاقي. فكُنَّ من الشخصيات البارزة في المجال العام على عكس

---

(1) See Amira el-Azhary Sonbol, ed. Women, the Family, and Divorce Laws in Islamic History. Syracuse: Syracuse University Press, 1997.

(2) رواه أحمد.

(3) قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شيبة، سمعت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت، وأنا أسرح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر "يا أيها الناس، إن الله يقول (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) إلى آخر الآية". (المترجم)

(4) آية 35 من سورة الأحزاب.

الوضع الحالي في العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة[1]. علاوة على ذلك، كُنَّ أيضًا من الركائز القوية للمجتمع الإسلامي المبكر، وكُنَّ نماذج يقتدي بها الرجال والنساء على حد سواء. لقد كُتب الكثير عن مساهماتهن الشهيرة التي يمكن أن نتعلم منها[2].

وعلى الرغم من أنه في كثير من الأحيان يكون لدينا انطباع مختلف عن المرأة المسلمة، فالحقيقة أن الإسلام أعطى حقوق وحريات المرأة التي لم تتحقق في الغرب إلا بعد ظهور الحركات النسائية في القرن العشرين. وتشمل هذه الحقوق الحق في حياة دون وأد البنات؛ والحق في التعليم؛ والحق في اختيار الزوج أو رفضه أو طلاقه؛ والحق في الامتلاك الشخصي المستقل عن أي شخص آخر؛ والحق في مهر الزواج؛ والحق في الاحتفاظ باسم عائلتها بعد الزواج؛ والحق في إدارة الأعمال، والتجارة، وتوظيف الرجال، وحفظ وإدارة ثروتها دون أب أو أخ أو زوج؛ والحق في المشورة القانونية والدينية دون إكراه. حتى أنه كان لديهن الحق في تعليم أعلى المعارف - العلوم الدينية - على قدم المساواة مع الرجال قبل 1400 سنة.

تعتقد الغالبية المعتدلة من المسلمين أن هذه الحقوق تساعد المجتمعات على النمو. بالتأكيد يمكننا الاتفاق على أن هذه الحقوق راسخة، تمامًا مثل تأكيد توماس جيفرسون Thomas Jefferson لحقوق الإنسان، الثابتة التي لا تتغير، في "الحياة والحرية والسعي وراء السعادة ...". ومع ذلك، في بعض أجزاء العالم، تم حرمان النساء بشكل منهجي من هذه الحقوق الممنوحة على يد المتعصبين الدينيين[3].

---

(1) See Fatima Mernissi, Dreams of Trespass: Tales of a Harem Girlhood, Addison-Wesley Publishing, 1995.

(2) See Shaykh Muhammad Hisham Kabbani and Laleh Bakhtiar, Encyclopedia of Muhammad's Women Companions and the Traditions They Related, 1998. ISBN 1-871031-42-7

(3) See Kecia Ali, Sexual Ethics and Islam: Feminist Reflections on Quran, Hadith, and Jurisprudence, One World, 2006; and Leila Ahmed, Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate, Yale University Press, 1993

إن أفغانستان، تحت حكم طالبان، واحدة من أسوأ الأمثلة الحديثة على حقوق المرأة. فقبل سيطرتهم، كانت النساء عضوات فاعلات في النظام التعليمي كطالبات ومعلمات، حيث كُنَّ يمثلن 70% من المعلمين في العاصمة كابول في عام 1996[1]. لكن عندما تولت طالبان السلطة، لم تكتف فقط بإبطال حقوق المرأة في التعليم العام، لكنها قيدت حق المرأة في العمل وحرية الحركة وحصولها على الرعاية الصحية. وفي غضون خمس سنوات، سجلت أفغانستان ثاني أعلى معدل لوفيات الأمهات في العالم، وانخفضت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين الإناث إلى حوالي 13% من السكان[2]. وعلى الرغم من استمرار طالبان في حرق مدارس البنات حتى الآن، إلا أن الرجال والنساء يعملون جاهدين لتوفير تعليم الفتيات.

في عام 2009، تحدثت سكينة يعقوبي Sakeena Yaqoubi، مؤسِّسة معهد التعليم الأفغاني (AIL)، وهو معهد مُخصص لإعادة بناء النظم التعليمية والصحية للنساء والأطفال في أفغانستان، في مؤتمر الحلقات المقدسة Sacred Circles السنوي في كاتدرائية واشنطن الوطنية عن جهودها الرامية إلى توفير تعليم الفتيات. وروت قصة رائعة عن عملها، حيث إنه في أحد الأيام، بعد زيارة إحدى المراكز التعليمية التي أنشأتها منظمتها، أوقف مجموعة من الرجال المسلحين سيارتها؛ ولأنها سبق وأن تلقت تهديدات بالقتل بسبب عملها، فقد توقعت أن يتم اختطافها، لكن بدلاً عن ذلك، طلب منها الرجال بناء مدرسة في قريتهم من أجل بناتهم، وهو ما كان مفاجأة سارة لها. ومنذ ذلك الحين، توسَّع هذا المعهد لتوفير فرص التعليم لأكثر من 300,000 طالب، كما درب

---

(1) "A Woman Among Warlords: Women's Rights in the Taliban and Post-Taliban Eras," PBS: Wide Angle, Aired September 11, 2007
http://www.pbs.org/wnet/wideangle/episodes/a-woman-among-warlords/womens-rights-in-the-taliban-and-post-taliban-eras/66/

(2) "Afghanistan," CIA World Factbook,
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/af.html [Population literacy data established 2000].

أكثر من 7000 معلمة في المدارس الابتدائية. وقدم أيضًا دروسًا في محو الأمية، بالإضافة إلى دروس في التفسيرات القرآنية التي تدعم حقوق المرأة في الإسلام.

وأنا أعتبر نفسي محظوظة لتلقي تعليمي في العقيدة الإسلامية بطريقة تقليدية من قبل أحد هؤلاء القادة المسلمين الذين يجسدون الروح الحقيقية للنبي محمد في مذهب المساواة بين الجنسين؛ الشيخ هشام قباني، العالم ورجل الدين المعروف على مستوى العالم، كان دائمًا ما يمنح الإناث في وصايته التعليمية الحقوق والامتيازات نفسها التي يمنحها للطلاب الذكور. وهو يؤكد دائمًا على المبدأ القائل إن النساء والرجال متساوون في نظر الله، وأن كلاهما يتمتع بفرصة متساوية للتميز في القطاعات الدينية والتجارية والسياسية. من المهم للغاية بالنسبة للأشخاص في مناصب السلطة أن يكونوا قدوة يُحتذى بها بدلاً عن تقديم الكلمات والشعارات فقط، وقد نجح الشيخ القباني في فعل ذلك.

خاتمة

من الناحية التاريخية، لم يقم الإسلام بتأسيس ودعم المبادئ العالمية لحقوق الإنسان فحسب، بل أدى أيضًا إلى تعزيز التسامح وقبول الأديان والثقافات المختلفة. ولكن للأسف، يتعرض الإسلام الذي أصفه - والذي يرتكز على مثال النبي محمد، والذي يُمارس على نطاق واسع اليوم، لهجوم عنيف.

إن المتطرفين الدينيين الذين أساءوا تفسير مبادئ الإسلام الأساسية هم أحد أكبر التهديدات لممارسة وفهم الإسلام اليوم. وعلى الرغم من أنهم يشكلون أقلية صغيرة جدًا من المسلمين، إلا أنهم يعملون بنشاط على صياغة سردية للإسلام كدين للكراهية والتعصب الديني والعنف. عبر الإنترنت - وفي العالم الحقيقي - يصعب فصل الحقيقة عن الخيال؛ لهذا فإن الاهتمام المفرط الذي يتلقاه المتطرفون من الإعلام جعلهم يظهرون وكأنهم الصوت الغالب في الإسلام. وللأسف، فإن كثيرًا من المسلمين المعتدلين يخشون تحدي المتطرفين[1].

(1) Akbar Ahmad, Journey into America, the Challenge of Islam (Washington DC: Brookings Institution Press, 2010), 5, 254

ونتيجة لذلك، خسرت الأغلبية السائدة صوتها لأقلية شَرِسة تستخدم صيغتها الوحشية من العقيدة الإسلامية أداة للقمع والحرب ولأغراضها السياسية الخاصة.

يُبذل الكثير من الجهد على مستوى القاعدة الشعبية في المجتمعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم لاستعادة صورة الإسلام، كدين مُنْصِف وعادل ومسؤول اجتماعيًّا. والحقيقة أن هذا صراع داخل العالم الإسلامي على روح الإسلام. ومع ذلك، يجب أن ندرك أنه جزء من عملية طويلة ستستغرق أجيالاً. تمامًا كما استغرق الغرب قرونًا للانتقال من عالم مسيحية دانتي Dante إلى عالم مارتن لوثر كينغ Martin Luther King أو ديزموند توتو Desmond Tutu، والأمر نفسه بالنسبة للعالم الإسلامي في خضم التحولات الخاصة به. يجب علينا أن ندرك أنه إذا كان لهذه العملية أن تكون عضوية فعلية، فإن النمو الاجتماعي الحقيقي والتنمية سيستغرقان بعض الوقت.

آمل أنه في غضون ذلك الوقت، فإن الحقيقة الديمقراطية للإسلام التقليدي – كما كانت تُمارس على مدى قرون – ستثبت نفسها، وأن الطريق الوسط سيسود. من المثير للاهتمام ملاحظة أن الشاعر الصوفي الكبير جلال الدين الرومي الشاعر الأكثر قراءة في أمريكا اليوم. لقد كان ولا يزال أفضل مثال للإسلام الذي كنا نشير إليه، وهو إسلام يبدو أنه يجد أصداء متعاطفة في قلوب الكثيرين.

ما العمل، أيها المسلمون؟ فأنا لا أعرف نفسي. لستُ مسيحيًّا، ولا يهوديًّا، ولا مجوسيًّا، ولا مسلمًا. لست من الشرق ولا من الغرب، لست من البر ولا من البحر، لست من أعماق الطبيعة ولا من الأفلاك السماوية، لست من التراب، ولا من الماء، ولا من الهواء، ولا من النار. لستُ من أعلى سماء، ولا من هذه الأرض، ولا من الوجود، ولا من الكينونة. لست من الهند، ولا من الصين، ولا من بلغاريا، ولا من ساقسين، ولستُ من بلاد العراقين، ولا من أرض خراسان. أنا لست من الدنيا، ولا من الآخرة، ولا من الفردوس ولا من الجحيم. لستُ من آدم، ولا من حواء، لا من عدْنٍ، ولا من عند رضوان. مكاني هو اللا مكان، وأثري دون أثر، ليس لي جسد ولا روح، فأنا من روح النفوس. طلَّقت المثنوية، فعشت في العالمين كأنهما عالم واحد. أحد هو من أبحث عنه، من

أعرفه، من أراه، من أناديه. هو الأول، والآخر، والظاهر والباطن. أنا لا أعرف شيئا غير أنه "هو" وأنه "موجود".

مولانا جلال الدين الرومي

الفصل الحادي عشر
الأصول التاريخية والدينية "للشرف"

رنا الحسيني.

ترجمة: رنا الحسيني – إسلام سعد.

صحفية حاصلة على عدة جوائز عالمية ومدافعة عن حقوق الإنسان ومؤلفة كتاب "الجريمة باسم الشرف"[1]. ولقد ركّزت رنا الحسيني على جرائم القتل الوحشية التي ارتكبت ضد نساء أردنيات باسم شرف العائلة. حصلت على تسع جوائز محلية وعالمية، من ضمنها وسام من ملك الأردن عبد الله الثاني في عام 2007 لجهودها في توثيق هذه الجرائم. وقد أدى عملها لتشكيل اللجنة الوطنية الأردنية للقضاء على ما يسمى بجرائم الشرف.

جرائم "الشرف"

عندما بدأت حملة ضد جرائم القتل الوحشي للنساء باسم "الشرف" منذ ما يقرب من سبعة عشر عامًا في الأردن، لم أكن أتصور أن تلك القضية ستُسْتَخْدَم في الغرب من ضمن قضايا أخرى لمهاجمة الدين الإسلامي. بالطبع تزايد استغلال الإسلام وتوظيفه بعد اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة. وفجأة أحسست بكون القضية صراع الغرب ضد الشرق واعتقاد الغرب أن "المسلمين والعرب الأشرار" المسؤولون عن كل ما يحدث من أمور سيئة في العالم وبخاصة في القسم الخاص "بنا" في العالم. وتكمن

(1) صدرت ترجمة لكتاب Murder in The Name of Honor، بعنوان "الجريمة باسم الشرف"، ويشير العنوان بالإنجليزية حصرًا لجرائم القتل، لا الجريمة في معناها العام واحتمالات ارتكابها المتعددة، ولزم التنويه لذلك. وصدرت الترجمة عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، 2010. (المترجم)

إحدى الأمور السيئة في اعتقاد الغرب بأن المسلمين والعرب مسؤولون عما يسمي بجرائم القتل بداعي الدفاع عن "الشرف" التي تستهدف النساء المنتهكات لشرف عائلتهن وسمعتها وقواعد العفة التي يتوقع منهن السير وفقها. كما لاحظت الانحياز في تغطية وسائل الإعلام الغربية لحوادث عنف محددة تتضمن التصنيف العرقي وذكر الديانة والأسماء بوضوح للجاني لو كان مسلمًا– وحقيقة أنني لم أقرأ في الإعلام عن جرائم قتل أو إساءة تستهدف النساء والأطفال تمت بواسطة، لنقل، فاعلين "غير مسلمين أو غير عرب".

اقترح الكثير من الاهتمام العالمي بما يسمى بجرائم الشرف أن الإسلام، أو تفسيرات متشددة للإسلام، هي موضع الاتهام والملامة. وأعتقد أن ذلك يرجع للجهل العام بالإسلام كدين وموقفه مما يسمى بجرائم الشرف والنساء. علاوة على ذلك، تحدث ما تسمى بجرائم الشرف على نحو واسع حول العالم؛ فهي تحدث في بلدان مثل بنجلاديش، البرازيل، والإكوادور، ومصر، وبريطانيا العظمى، والهند، وإسرائيل، وإيطاليا، والمغرب، وباكستان، وفلسطين، والسويد، وتركيا، واليمن، وأوغندا – بعيدًا عن الـ"نادي" المخصَّص حصريًا للدول الإسلامية.

للأسف تتحمل وسائل الإعلام الغربية أغلب اللوم وذلك لمسؤوليتها عن انتشار هذا الاعتقاد الخاطئ الذي هو بالعادة ناتج عن سوء الفهم أكثر منه عن سوء نية لأن وسائل الإعلام هذه تعرض ما يسمي بجرائم الشرف بطريقه تساهم في زيادة التصورات الخاطئة عن الإسلام وتدعم الانفصال بين العالمين عوضًا عن محاولة تدعيم عمليات الفهم بشكل أكبر. وفي الواقع، القوانين الدينية في البلاد الإسلامية واضحة للغاية من حيث عدم الاعتماد على الشائعات كـ "دليل" اتهام، وهي كذلك صارمة للغاية بشأن إثبات الزنا. (وذلك لأنه يستحيل تقريبًا إثبات الزنا في الإسلام، وبالتالي يُعتبر الزنا مسألة شخصية وخاصة).

يقف الإسلام ضد قتل المدنيين ويؤمن المسلمون بأن الروح مِلْك لله ولا يحق للبشر إزهاقها. ومع ذلك تستمر التصورات المغلوطة عن الإسلام وقوانينه، وتُستخْدَم للأسف عالميًا ومحليًا لخدمة المصالح السياسية واستغلال السلطة.

ومع أن الكثير من الباحثين والباحثات الغربيين قد كتبوا دراسات كثيرة عن هذه القضية من وجهة نظرهم، شعرت أنه من الضروري لشخص من هذه المنطقة أن يصف تلك المشكلة من داخل مجتمعاتنا، وفي الوقت نفسه أن يشرح باختصار موقف الديانات المسيحية واليهودية من الزنا وعفة المرأة.

للقراء الذين لا يعرفون تعريف ما يسمى بجرائم الشرف، فهي جريمة تُرتكب في معظم الأحيان ضد النساء اللاتي تلوثن "شرف" عائلتهن وسمعتهن من خلال أن تصبحن ضحية شائعة ما، أو محل شك، أو اغتصاب، أو زنا المحارم. وقد تنشأ "الجرائم" الأخرى التي تُرتكب بدافع الشرف من معتقدات ثقافية وتقليدية والتي تنطوي على انتهاكات لـ"شرف" العائلة مثل: الحمل خارج إطار الزواج، الانخراط في علاقة خارج الزواج، التغيب عن منزل العائلة، واختيار الزوج بعكس رغبات العائلة أو (في بعض الأوقات) اختيار شريك الحياة من دين آخر.

قضية سورجيت أثوال Surjit Athwal

تداول العالم منذ بضع سنوات تقاريرعن قضية سورجيت أثوال ذات السبع وعشرين عامًا، الأم المتزوجة (لها طفلان) والتي تنتمي للمعتقد السيخي بالهند. عملت سورجيت كمفتشة جمارك بمطار هيثرو وعاشت في غرب لندن. في عام 1988 نشأت علاقة بينها وبين زميل لها، وخططت للطلاق بعد زواج دام عشرة سنوات مع زوجها سوخداف أثوال Sukhdave Athwal (34 عامًا). وقد تم ترتيب الزواج من قِبَلِ والديهما.

عندما علمت أم زوجها باتشان أثوال Bachan Athwal بذلك، أقنعت ابنها أن سورجيت تستحق الموت جزاء جلبها العار له وللعائلة. وبالإضافة لعلاقة سورجيت العاطفية، كانت أيضًا تدخن وتشرب الكحوليات وتُقَصِّر شعرها. وفي تلك السنة سافرت سورجيت للهند مع حماتها ظنًّا منها أنهما ذاهبتان لحضور عُرس عائلي (في يوم رحيل سورجيت، سَجَّل زوجها بوليصة

تأمين عليها بمبلغ 100000 جنيه إسترليني) وعندما لم تَعُدْ أخبر زوجها ولديها أن أمهما قد تخلت عنهما.[1]

علم أخو سورجيت، جاقديش سينج Jagdeesh Singh، أثناء زيارته للهند بعض التفاصيل عن مقتلها من اثنين من الأقارب؛ حيث يقول إنهم أخبروه إن سورجيت "اقتيدت في سيارة إلى ضفاف نهر قريب. وتم سحبها خارج السيارة بالقوة وخُنقت حتى الموت، وأُلقيت جثتها في النهر" على أمل أن تختفي للأبد.

شنَّ جاقديش حملة للتقصي عن مصرعها. سافرت الشرطة البريطانية للهند لكنهم لم يجدوا أي معلومات؛ وأخفقت مكافأة بقيمة عشرة آلاف جنيه إسترليني في الخروج بأي معلومة. قال جاقديش "مع كامل الاحترام للشرطة، ولكن كل قوة الشرطة والمحققين كانوا في البداية من الإنجليز أصحاب البشرة البيضاء والذين لم يعطوا اهتمامًا كافيًا للخيوط الدقيقة والخيوط غير المرئية لجرائم الشرف، ومن ضمنها التفاصيل حول "الشرف والعائلة" والممارسات داخل ثقافة العائلة البنجابية". كما انتقد جاقديش وزارة الخارجية البريطانية واتهمها بالتقصير لعدم ممارسة ضغط كافٍ على الحكومة الهندية لتكثيف تحقيقاتها. وقال إنه بنفس الفترة اختفت امرأة بريطانية في اليابان ولاقت اهتمامًا شديدًا من وزير الخارجية روبين كوك Robin Cook (1946 – 2006) (الذي رفض مقابلة جاقديش وعائلته) ورئيس الوزراء توني بلير Tony Blair (1953 - ..). في عام 2003، أي بعد خمس سنوات من مصرعها، تقابل جاقديش أخيرًا مع وزير الخارجية (الجديد) جاك سترو Jack Straw (1946-..) الذي وعد بالتحقيق في القضية بشكل جدّي.[2]

---

(1) "Grandmother jailed for life over honour killing of 'cheating' daughter-in-law," Daily Mail, 19 September 2007,

www.dailymail.co.uk/pages/live/articles/news/news.html?in_article_id=482669&in_page_id=1770, accessed 16 April 2011.

(2) Jane Hutcheon, "In the name of honour," ABC News, 19 September 2007, http://www.abc.net.au/news/stories/2007/09/19/2037201.htm, accessed 16 April 2011.

في عام 2007 تمت محاكمة كلٍ من زوج سورجيت وحماتها في لندن. ادَّعت حماتها (وكان عمرها 70 عامًا وقت المحاكمة) البراءة طوال المحاكمة وبرغم ذلك حُكم عليها بقضاء 20 عامًا في السجن بحد أدنى. بينما حُكم على زوج سورجيت (وكان عمره 43 عامًا وقت المحاكمة) بالسجن مدى الحياة وبحد أدنى سبعة وعشرين عامًا. قال القاضي جيلس فورستر Giles Forrester لهما:

لا أعرف كيف أقدمتما على ارتكاب ذلك الفعل الذي لا يمكن وصفه. لم يكن هناك دافع يستحق ما أقدمتما عليه. لقد ارتكبتماه لأنكما قمتما بتصوُّر أنها جلبت العار لاسم العائلة. في الواقع لقد قتلتماها ليس بسبب مشاكل زوجية من المحتمل أن تجعل الزواج ينهار. لقد قررتما أن ما يسمى بشرف العائلة أكثر قيمة من حياة تلك المرأة الشابة.[1]

لم تعلم ابنة سورجيت الصغيرة بافان Psavan حقيقة ما حدث حتى أغسطس 2008، عندما بلغت السابعة عشر من العمر. كانت ترى أن إدانة أبيها وجدتها أمر خاطئ وأن أمها قد تخلَّت عنها بكل بساطة. قالت بافان: "لسنوات عديدة أخبروني أن أمي لم تعد تحبنا وأنه يجب علينا نسيان أمرها. وكبرنا أنا وأخي على كراهيتها ظنًّا منَّا أنها تركتنا ببساطة؛ فكيف نشكك في كلام أبينا؟"[2]

قضية دعاء خليل أسود Du'a Khalil Aswad

في عام 2007 حاولت دعاء خليل أسود (17 عامًا) من شماليّ العراق إقناع صديقها مهند، وهو مسلم سني، بالفرار قَصْدِ الزَّوَاجِ دُونَ مُوَافَقَةِ والِدَيْها، قائلة إنها ستتحول عن ديانة عائلتها (وهي اليزيدية) إلى الإسلام، بينما تردد صديقها، وأصرَّ على أن تبارك عائلتها زواجهما.

---

(1) Ibid, Daily Mail, Grandmother jailed for life

(2) "Pavan Athwal: Keeping her mother's memory alive," 15 December 2008, Stop Honour Killings website,

http://www.stophonourkillings.com/?q=fr/node/326, accessed 24 March 2011.

إن الديانة اليزيدية فرع صغير من اليزدانية Yazdanism، وهي ديانة قديمة ذات جذور هندو-أوروبية. ومع أن الديانة اليزيدية تستقي عناصر لها من ديانات أخرى من ضمنها المسيحية والإسلام، إلا أنها تعتبر ديانة فريدة حيث يبجل أتباعها طاووسًا أزرق "ملاك" يدعى طاووس مَلَك Malak Taus. ويتعرض معتنقو الديانة اليزيدية للاضطهاد لكونهم أقلية دينية. يتحدث اليزيديون اللغة الكردية كلغة أولى، ويعيش الكثير منهم في الموصل بشماليّ العراق. كما أن الجماعة متماسكة بإحكام، ونادرًا ما تقبل من يتحول لدينهم ويعارضون بشدة الزواج من غير اليزيديين.

كانت دعاء طالبة بالسنة الثانية في معهد الفنون الجميلة ببعشيقة في العراق (مدينة يدين 80% من مواطنيها بالديانة اليزيدية[1])، وعندما أبلغت والديها عن رغبتها بالهرب والزواج، لم يُسروا برغبتها في الزواج من مسلم ولكنهم لم يحاولوا إيقافها. فيما بعد شعروا بالقلق على سلامتها من شباب العائلة، فأخذها والدها لرجل دين من أجل حمايتها حيث عاشت عنده لعدة شهور.

في السابع من إبريل 2007 وصل بعض أفراد عائلة دعاء لمنزل رجل الدين لإخبارها أن عائلتها قد صَفَحَت عنها وأنهم يرحبّون بعودتها للمنزل. صَدَّقَت دعاء أنهم يقولون الحقيقة وتشكك رجل الدين حيالهم. بعد ذلك اقتحم الرجال المنزل وسحبوا دعاء للخارج.

كان بانتظارها دزينة (12 رجلًا) على الأقل من أفراد عائلتها الذين شرعوا في ركلها وضربها. جذبوا شعرها ورموها أرضًا، ومزق الرجال تنورتها وقاموا بتعرية ساقيها – كصورة تُمَثِّل العار الذي جلبته للعائلة في حين ركلها أحد الرجال بين ساقيها.

قام بعض من الحشد المتفرجين بتصوير ذلك الهجوم بواسطة هواتفهم المحمولة. وتُظهر تلك الأفلام دعاء وهي تصرخ طلبًا للنجدة مُحاوِلَةً ستر ساقيها بيديها.

---

(1) Jesse Nunes, "Iraq's sectarian strife engulfs minority Yazidis," The Christian Science Monitor, 24 April 2007,
http://www.csmonitor.com/2007/0424/p99s01-duts.html, accessed 29 Mar. 2011.

كما تُظهر الأفلام عددًا من رجال الشرطة واقفين بالجوار ولا يفعلون أي شيء لإيقاف الهجوم.

وعندما شرع الرجال في قذف دعاء بحجارة أضخم، أخذت تحاول تغطية رأسها بدلًا من ساقيها. وعندما اصطدم حجر بمؤخرة رأسها، توقفت عن الحركة لبضع دقائق. وصرخ المهاجمون "اقتلوها، اقتلوها" طوال ثلاثين دقيقة من الرجم. وأخيرًا التقط أحد أبناء أعمامها حجرًا ضخمًا وهوى به على مقدمة رأسها. واستمر الحشد في ركلها.

وبعد موتها أخذ أبناء أعمامها جثمانها إلى ضواحي بعشيقة حيث قاموا بإحراق رفاتها مع كلبٍ تعبيرًا عن انعدام قيمتها.

وأظهر التشريح أنها ماتت نتيجة كسور في الجمجمة والعمود الفقري.

وبحسب رئيس شرطة الموصل، كان معظم القتلة من أبناء أعمامها وأصدقائهم. وأخبرت الشرطة الصحفيين أنها لم تتدخل لإيقاف الرجم بسبب إيمانهم بأن دعاء مذنبة "بفعل غير أخلاقي ... [لأنها] اقترفت شيئًا من المحرَّمات المنصوص عليها في العُرف الاجتماعي، وليس لأنها قامت بتبديل معتقدها الديني"[1].

فقط عندما علمت الشرطة أن دعاء ربما قُتِلَت جراء تحولها عن اليزيدية قرروا إصدار مذكرات اعتقال بحق قاتليها. وأدان الزعيم الديني اليزيدي تحسين سعيد علي، بشكل علني، رجمها، واصفًا إياه بـ"الجريمة المشينة". وفي محاولة منه لتقليل دور الدافع الديني الذي تولَّى تحفيز قاتليها، قال إنهم انطلقوا في فعلهم هذا من "التقاليد القديمة" مما يفيد بأن دافعهم تأسس بناء على قيم ثقافية وليست دينية.[2]

---

(1) Institute for War and Peace Reporting, "'Honour killing' sparks fears of new Iraqi conflict," 14 May 2007,

http://www.ekurd.net/mismas/articles/misc2007/5/kurdlocal356.htm, accessed 29 March 2011.

(2) Ibid, Institute for War and Peace Reporting.

إذن، هل قُتلت دعاء لمحاولتها اعتناق الإسلام أم لأنها فقدت عذريتها قبل الزواج؟ تدَّعي المصادر القريبة من العائلة أنها لم تتحول للإسلام بالفعل، ولكن رغبتها بالفرار مع مهند استفزت أبناء أعمامها.

أكَّدَ تقرير التشريح الصادر من المستشفى أنها كانت عذراء.

•

تاريخ ما يسمى بجرائم القتل دفاعًا عن الشرف

تُظْهِر إحصائيات الأمم المتحدة لعام 2000 أن هناك ما يقرب من 5000 امرأة حول العالَم يتم قتلهن كل عام لأسباب تتعلق بشرف العائلة. ويعتقد الخبراء أن هذا الرقم ضئيل، بينما الرقم الحقيقي أعلى بكثير مما يتم الإعلان عنه.

ولقد دفعني هذا الوَسْم المنَظَّم وغير العادل لهذه الجرائم كونها تتأسس فقط على ممارسات إسلامية وعادات حياتية لمحاولة السعي وراء فهم أفضل لجذور ما يسمى بجرائم الشرف. لم يتعين عليَّ القراءة كثيرًا لأعلم أن هذه الممارسات كمثيلتها من صور امتهان المرأة لها سوابق في كلٍّ من الشرق والغرب. ليس أصل العنف المؤسَّس على مفهوم الشرف ضد النساء والقضايا مثل عفة النساء والعذرية بـ[قضايا] حصرية تخص عِرقًا محددًا، أو دينًا محددًا، أو جغرافيا محددة عبر التاريخ.

وبدءًا من هذه الحضارات القديمة التي تركت لنا سجلات عن قوانينها وعاداتها الاجتماعية هناك نمط ثابت من إلقاء اللوم على المرأة في الحالات المتعلقة بالأفعال الجنسية الخاطئة والزنا والخيانة، ويلتصق هذا اللوم بالمرأة للأبد. وقد صَوَّرَت ثقافات روما والثقافة الآشورية والهند والثقافة الأمريكية القديمة المرأةَ باستمرار على أنها المصدر الرئيسي للأفعال السيئة بل وحتى مصدر الشر. وقد كتب العديد من علماء التاريخ وعلماء الاجتماع والأنثربولوجيين بإسهاب عن ذلك الموضوع.

وقد نَصَّت إحدى المصادر المبكرة التي تشمل مجموعة من القوانين وُجدت لدى السومريين في بلاد ما بين النهرين وهي قوانين حمورابي (تقريبًا 1800 قبل

الميلاد) على أنه لو أظهرت امرأة سلوكًا غير أخلاقي أو هربت من منزل الزوجية أو أهملت زوجها أو اختلست مالًا، يجب إغراقها.[1] وقد تم إغراق الزوجات المتهمات بالزنا.[2] وكانت هذه الشريعة أساس القوانين لدى البابليين والآشوريين، وأخيرًا العبرانيين. وفي آشور، أعطى القانون السلطة للرجال فيما يتعلق بمعاقبة زوجاتهم حين ارتكابهن للزنا كما يتراءى لهم، سواء بالإعدام أو التشويه أو الغفران.[3] بينما لا يحتوي التشريع السّامري على أي قانون لمعاقبة الرجل حين يخون زوجته.

ولاحظ ماثيو أ. جولدشتاين Matthew A. Goldstein الذي درس جرائم القتل بدافع الشرف في الإمبراطورية الرومانية اعتمادَ وضع المرأة في روما القديمة، غالبًا، على وضع أقاربها من الرجال. فقد مُنِح الآباء السلطة لإحياء أو قتل بناتهم. وفي البداية، أُعطِي الأب السلطة المطلقة على المولود الجديد؛ حيث يمكن له أن يقرر قتل أي مولود ذكر إذا ولد الطفل معاقًا، وقتل أي مولودة أنثى إذا اعتقد أن لديه عددًا كافيًا من البنات.[4] وعندما تتزوج أي إمرأة فإن سلطة الأب تنتقل لزوجها[5]. كما اعتُبر ارتكاب الإناث للزنا جريمة بحسب التشريع الروماني؛ فإذا وجد الزوج زوجته محل شبهة فله الحق في قتلها بدون خشية التعرض للمحاكمة أو العقاب.[6]

---

(1) Paul Frischauer, "Sex in the Ancient World,"

ترجمه للغة العربية: فائق دحدوح، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، 1999، 92. والكتاب بعنوان "الجنس في العالم القديم"، بول فريشاور.

(2) Ibid, Frischauer, 77.

(3) "Crime and Punishment in the Ancient World of the Bible - Unexplained - IN SEARCH FOR TRUTH - RIN_RU.htm," http://istina.rin.ru/eng/ufo/text/299.html, accessed 16 April 2011.

(4) Ibid, Frischauer, 400.

(5) Matthew A. Goldstein, "The Biological Roots of Heat-of-Passion Crimes and Honour Killings, Politics and the Life Sciences," Vol. 21, No. 2, pp28-37, (September 2002), 29.

(6) Ibid, Frischauer, 428.

بالإضافة لذلك، قد يتعرض أعضاء الأسرة للمحاكمة وذلك لعدم اتخاذهم إجراء ضد المرأة المرتكبة للزنا.[1] وقد قُصِد من هذا التشريع حِفظ حقوق الأزواج من الجنود الرومان الذين قضوا سنوات طويلة في الخارج للمساعدة في تمدد الإمبراطورية الرومانية. وبالطبع فإن هؤلاء الجنود لم يكن مُتَوَقَّعًا منهم حفظ عفتهم في هذه الحملات.[2]

أما في الهند، كان القانون الهندوسي القديم قاسيًا للغاية في التعامل مع النساء. فقد تم النظر للنساء باعتبارهن مصدرًا للشر؛ وكان دورهم مقتصرًا على إنجاب الأطفال، ولكن في نفس الوقت كان يُعتقَد في كونهن مصدرًا لا ينضب للعار والخزي وتم اعتبارهن على الدوام جِذر الخلافات الزوجية.[3]

وفي الجانب الآخر من العالم، عاقبت قوانين الأزتيك (نشرت بين 150 قبل الميلاد 1521 ميلادية) النساء اللاتي ارتكبن الزنا بالموت شنقًا أو رجمًا. وفي المقابل، وجب على الزوج، بحسب قانون الأزتيك، تقديم دليل وكان محرمًا عليه قتل زوجته (قد يتعرض لعقوبة الإعدام إن أقدم على قتلها) حتى وإن أمسكها مُتَلَبِّسَة بالفعل.[4]

أما في بيرو بين 1200 قبل الميلاد 532 ميلادية، فقد عاقب شعب الإنكا كلاً من الرجل والمرأة حين ارتكاب الزنا بربط أيديهم وأرجلهم على الحائط وتركهم حتى يموتوا. وكان الادعاء بأن الجريمة تم ارتكابها في "لحظة اندفاع عاطفي [أو غضب]" دفاعًا مقبولًا للرجال الذين يقتلون زوجاتهم بسبب الشك في ارتكابهن للزنا، لكن الزوجات حينما يقتلن أزواجهن يتم تعليقهن من أقدامهن حتى موتهن.[5]

(1) Ibid, Goldstein, 29.

(2) Ibid, Frischauer, 428.

(3) Ibid, Frischauer, 176.

(4) Ibid, Goldstein, 29.

(5) Ibid, Goldstein, 29.

في الحضارة المصرية القديمة تمَّ حرق المرأة التي ارتكبت الزنا حتى الموت، بينما يرمى شريكها [في الفعل] في نهر النيل ليغرق.[1]

وفي نفس الوقت تُركِّز كثيرٌ من التعليقات الراهنة على ما يسمى بجرائم الشرف على الجانب الديني، مما يقتضي القول، في بعض الأحيان، بأن اللوم يقع على الدين ذاته. إن الخطيئة عامل مركزي في كل الأديان الكبرى، وتعتقد بعض التقاليد اليهودية- المسيحية بمسؤولية حواء الكاملة عن الخطيئة الأولى. عندما واجه اللهُ آدم بخطيئته فإنه- في بحثه عن إزاحة الاتهام عنه - أجاب "المَرْأَةُ الَّتِي أعطَيْتَنِي إيّاها لِتَكُونَ مَعِي أعطَتْنِي مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ [التكوين 3 : 12]"[2] وعليه فإن الجنس البشري كله قد لُعن نتيجة خطأها تبعًا لهذه الرؤية.

وعاقبت الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام الزنا بقسوة. في الديانة اليهودية، الزنا مُحرَّم بنَصِّ الوصية السابعة من الوصايا العشر، ولكن اعتبرت واقعة الزنا فقط عندما تنخرط المرأة المتزوجة بعلاقة جنسية مع رجل آخر غير زوجها. وفي هذه الحالة، اعتبر كلًا من الرجل والمرأة مذنبين. ولكن الأمر نفسه لم ينطبق على الرجل المتزوج الذي يرتبط بعلاقة مع امرأة غير متزوجة.

وفي سفر اللاويين في العهد القديم، تم فرض عقوبة الإعدام على رجل ارتكب الزنا مع امرأة متزوجة.

وتم التشديد على مسألة العذرية في سفر التثنية (22 : 21-13)[3] حيث يقول النص إنه في حالة ادعي زوج أن عروسه لم تكن عذراء عند زواجهما،

---

(1) Adel Azzam Al Hait, "Femicide in Defense of Honour in Jordan, Theoretical Analysis and Current Practices," a dissertation for the award of a masters of laws degree in International Economic Law, (UK: University of Warwick, September 2001), 5.

(2) ليس من الواضح تمامًا توجُّه آدم باللوم لحواء أو الله. وفي أيٍّ من الحالتين، لم يقبل الله قوله، ونسب كل المسؤولية لآدم. (المترجم)

(3) إنْ تَزَوَّجَ رَجُلٌ امْرَأةً وَعاشَرَها، ثُمَّ كَرِهَها، 14 وَاتَّهَمَها بِسُوءِ السُّلُوكِ، وَذَمَّها فَقالَ: ‹تَزَوَّجتُ هَذِهِ الفَتاةَ، وَلَكِنْ حِينَ عاشَرْتُها، وَجَدْتُ أنَّها لَيسَتْ عَذراءَ!› 15 فَإنَّ عَلَى أبِيها وَأُمِّها أنْ يُحضِرا دَلِيلاً عَلَى عُذرِيَّتِها إلَى شُيُوخِ المَدِينَةِ عِندَ البَوّابَةِ. 16 وَيَقُولُ أبُو الفَتاةِ لِلشُّيُوخِ: ‹أعطَيتُ ابْنَتِي لِهَذا الرَّجُلِ زَوجَةً لَهُ، لَكِنَّهُ كَرِهَها. 17 وَقَدِ اتَّهَمَها بِسُوءِ السُّلُوكِ فَقالَ: وَجَدتُ أنَّ ابْنَتَكَ لَيسَتْ عَذراءَ. وَلَكِنْ هَذا هُوَ

يتم استدعاء والدي العروس من قِبَلِ قاضٍ ليثبتا عذرية ابنتهما من خلال أغطية فِراش الزواج التي يجب أن تكون ملطخة بالدماء.[1]

إن عقوبة المرأة العزباء التي تفقد عذريتها وهي في بيت أبيها الرجمُ حتى الموت (التثنية 22: 13- 21). وتنص التثنية (22: 29-28)[2] أنه يتوجب على العذراء المغتصبَة الزواج من مغتصبها بصرف النظر عن شعورها تجاهه.

وفي هذه الأثناء، شدد اليهودُ السود الذين فروا من فلسطين لأماكن متفرقة من أفريقيا عام 70 ميلادية بعد هدم هيكل هيرودس على عفة المرأة وإذا "استقبل الزوج بضاعة رديئة يتم جعل زوجته المذنبة عديمة الأنوثة وقطع الثدي الأيسر لها بواسطة كاهن". واحتفظ اليهود السود بكل التقاليد اليهودية بما فيها تعدد الزوجات والختان والترتيب الهرمي للحاخامات.[3]

وأكَّدَ يوحنا ذهبي الفم John Chrysostom (349-407 ميلادية) على أهمية العذرية وحاول إقناع أرملة شابة بعدم الزواج مرة ثانية بقوله، " نحن

دَلِيلُ عُذْرِيَّتِها.، ثُمَّ يَبسُطُ الثَّوبَ أمامَ شُيُوخِ المدِينَةِ. 18 حِينَئِذٍ، يَأخُذُ شُيُوخُ تِلكَ المدِينَةِ ذَلِكَ الرَّجُلَ وَيُؤَدِّبُوهُ. 19 وَيَفرِضُونَ عَلَيهِ غَرامَةً مِقدارُها مِئَةُ مِثْقالٍ مِنَ الفِضَّةِ، يُعطُونَها لِأبِي الفَتاةِ، لِأنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ شَوَّهَ سُمعَةَ عَذراءٍ فِي إسْرائِيلَ. وَسَتَبقَى زَوجَةً لَهُ، وَلَنْ يَستَطِيعَ أنْ يُطَلِّقَها مَدَى حَياتِهِ. 20 وَلَكِنْ إنْ كانَتِ التُّهمَةُ صَحِيحَةً، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ دَلِيلٌ عَلَى عُذْرِيَّةِ الفَتاةِ، 21 فَليُؤتَ بِها إلَى بابِ بَيتِ أبِيها. حَيثُ يَرجُمُها رِجالُ المدِينَةِ حَتَّى الموتِ، لِأنَّها ارتَكَبَتْ عَمَلاً مُشِيناً فِي إسْرائِيلَ، إذْ أقامَتْ عَلاقَةً جِنسِيَّةً قَبلَ الزَّواجِ، وَهِيَ فِي بَيتِ أبِيها. وَهَكَذا تُزِيلُونَ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِ شَعبِكُمْ.

(1) “A History of Women in the West, I From Ancient Goddess to Christian Saints,” Pauline Schmitt Pantel, Editor, Georges Duby and Michelle Perrot, General Editors, (The Belknap Press of Harvard University Press, Seventh Printing, 2002), 304.

(2) وَإنْ وَجَدَ رَجُلٌ فَتاةً عَذراءَ غَيرَ مَخطُوبَةٍ، وَأجبَرَها عَلَى مُعاشَرَتِهِ، ثُمَّ اكتُشِفا، 29 فَإنَّ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي اغْتَصَبَها أنْ يُعطِيَ أبا الفَتاةِ خَمْسِينَ مِثقالاً مِنَ الفِضَّةِ. وَأمّا هِيَ، فَتُصبِحُ زَوجَةً لَهُ. وَلِأنَّهُ أذَلَّها، لَنْ يَستَطِيعَ أنْ يُطَلِّقَها. (المترجم)

(3) Paul Tabori, “History Taken in Adultery, being a short history of woman’s infidelity throughout the ages, its reward and its punishment,” (London W1: Aldus Publications, 1949), 20.

الرجال ... نحب ما لم يستخدمه او استفاد منه أحد قبلنا لكي نكون الأسياد الوحيدين".[1]

وأكدت الديانة المسيحية في القرن الحادي عشر بقوة على عذرية المرأة؛ حيث فاقت قيمةُ العذرية الزواجَ. وأيضًا، تم تعليم أن النساء العذراوات لهن ثوابات أعظم في السماء من ثوابات النساء المتزوجات.[2]

وتمت تربية الإناث وهن أطفال على أن امتلاك العذرية قيمة دينية واجتماعية هامة، وأن شرف العائلة اعتمد عليها. وكان يتم تلقين البنات أن يَحْرُسن "كنزهن بحياتهن"[3]. كما عاملت المجتمعات المسيحية النساء العذراوات على أن الواحدة منهن كائن بريء يحتاج للرعاية والحماية. وبمعنى آخر، كان "ختم البكارة" جوهرَ المرأة.[4]

وفي العصور المبكرة بأوروبا تم تأكيد أهمية العفة والعذرية والسلوك الحسن للمرأة بوضوح. وفي القرن الأول الميلادي جُلِدَت الزانيات الألمانيات وتمَّ دفنهن أحياء.[5] كان من الشائع أيضًا عبر أوروبا قتل الأزواج لزوجاتهم إن شكّوا في خيانتهن أو قتل بناتهن لفرارهن مع من يحبون للزواج دون رضا الأهل، وأن يقتل الأخوة أخواتهم لرفضهن الزواج من الرجال الذين اختارهم العائلة لهن.[6]

وإذا توجهنا لأوروبا في العصور الوسطى، نجد أن حوادث قتل وحرق النساء لارتكاب الزنا أمر معتاد وقد تم توثيق مثل هذه الحالات باستفاضة.

---

(1) Ibid, Pantel, 306.

(2) "A History of Women in the West, II Silences of the Middle Ages," Christiane Klapisch-Zuber, Editor, Georges Duby and Michelle Perrot, General Editors, (The Belknap Press of Harvard University Press, Fourth Printing, 1998), 212.

(3) Ibid, Klapisch-Zuber, 213.

(4) Ibid, Klapisch-Zuber, 213.

(5) Ibid, Klapisch-Zuber, 171.

(6) Jacob Burckhardt, "The Civilisation of the Renaissance in Italy," (Penguin Books, 1990), 48.

وذكرت الكاتبة السوسيولوجية والطبيبة النسوية د. نوال السعداوي في كتابها "الأنثى هي الأصل" أنه تم اعتبار النساء "الذكيات والحكيمات" بمثابة ساحرات في القرن الرابع عشر بأوروبا من قِبَل الكنيسة، في الغالب لاستخدامهن الأعشاب لمداواة الأمراض. وتم قتلهن أو حرقهن او احتجازهن في مستشفيات الأمراض العقلية باسم الدين وكذلك لحفظ قيم المجتمع[1]. لكن السبب الحقيقي بحسب د. السعداوي خوفُ رجال الدين من فقدان سلطتهم لكونهم السلطة الوحيدة فيما يتعلق بشفاء المرضى. واعتُبر أي شيء آخر غير ربَّاني.[2]

وفي عصر النهضة بإيطاليا أُعدِمَت النساء لارتكاب الزنا.[3]

ويقول المؤرخ كيث توماس (1933 - ..) Keith Thomas أنه تم اعتبار العفة في القرن السادس عشر جوهر فضيلة الأنثى وكان من المتوقع أن تكون المرأة عذراء في ليلة زفافها.[4]

وتقول أستاذة اللغة والأدب الإسباني والبرتغالي جورجينا دوبيكو بلاك (1964 - ..) Georgina Dopico Black في كتابها عن الزنا ومحاكم التفتيش في إسبانيا إبان بدايات فترتها الحديثة إنه في القرنين السادس عشر والسابع عشر أصبح جسد وروح المرأة المتزوجة "موضع فحص عدد كبير من النظرات: مفتشو التحقيق واللاهوتيون والمصلحون الدينيون والمعترفون والشعراء وكاتبو المسرحيات، فضلًا عن الأزواج".[5] وتم اعتبار النساء المتزوجات بمثابة كيان لإمداد الرجال بأطفال شرعيين. وتحملت النساء عبء حماية شرف عائلاتهن

(1) دكتورة نوال السعداوي، "الأنثى هي الأصل، دراسات عن النساء والرجال في المجتمع العربي"، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990)، 160، 167.

(2) المرجع السابق، 160، 167.

(3) Ibid, Burckhardt, 48.

(4) Keith Thomas, "The Double Standard," Journal of the History of Ideas 20, (April 1959), 200.

(5) Georgina Dopico Black, "Perfect wives, Other Women, Adultery and Inquisition in Early Modern Spain," (Duke University Press, 2001), XIV.

وكُنَّ مسؤولات عن حماية سمعة عائلاتهن.[1] مرة أخرى، وبتشابه مذهل للحالات التي قمت بدراستها في الأردن، شَرَّع مجرد الاشتباه في الميل للزنا القتل الوحشي للنساء بواسطة أزواجهن.[2]

وصفت الكاتبة والروائية والفيلسوفة الفرنسية سيمون دي بوفوار (1908 — 1986) Simone De Beauvoir في كتابها "الجنس الآخر - The Second Sex" عدة مسرحيات وحفلات أوبرا كُتبت خلال ثمانينات القرن التاسع عشر في أوروبا والتي رسمت صورة للنساء كخطاة ومخلوقات شريرة. وفي هذه المسرحيات كان واضحًا أن عقاب "المرأة الشريرة" لم يكن من واجبات الزوج، وانما كان مسؤولية المجتمع لأن سوء سلوك المرأة يُعْتَبَر إهانة لكل المجتمع. وتحكي قصصٌ من الأدب الإسباني خلال العصور الوسطى غالبًا عن ملك أو بارون قتل نساءً على نَحْوٍ لا مُبَرِّرَ له. وغالبًا أسبغ الفرسان التقدير على جيادهم أكثر من نسائهم اللاتي عوقبن وضُربن وتم جرهن من شعورهن.[3]

وفي فرنسا يتحمل قانون نابليون الذي صيغ على عَجَلٍ بواسطة أربعة قضاة عام 1804 كثيرًا من الأحكام التي تخص النساء. والغريب أنه قانون لا زال مطبقًا في العديد من البلاد العربية اليوم. لقد وضع المرأة المتزوجة تحت وصاية الرجل بالكلية (تترجم عادة بالملكية). ولزم على الزوجة طاعة زوجها، وللزوج السلطة في حبسها انفراديًا وتطليقها في حالة الزنا (وليس لها نفس الحقوق لو انعكست الآية). ولو أمسك بها وهي تزني وقتلها، فالقانون يعفيه من أي عقاب.[4]

---

(1) "A History of Women in the West, III Renaissance and Enlightenment Paradoxes," Natalie Zemon Davis and Arlette Farg, Editors, Georges Duby and Michelle Perrot, General Editors, (The Belknap Press of Harvard University Press, Fifth Printing, 2003), 476.

(2) Ibid, Black, 12.

(3) Simone De Beauvoir, The Second Sex, Translated and Edited by H. M. Parshley, (New York: Vintage Books, a Division of Random House, INC., September 1989), 100, 190.

(4) Ibid, Black, 111.

و بالاقتراب من عصرنا الحاضر يمكن لقارئ أدبيات العصر الفيكتوري رصد أمثلة لا حصر لها تتعلق بنساء تم تصويرهن كمخلوقات ضعيفة وتابعة. فمثلًا في رواية Jane Eyre جين أير[1]، أبقى السيد روتشيستر Rochester زوجته الأولى المخبولة في العلّيّة. كما تزخر قصص توماس هاردي (1840– 1928) Thomas Hardy بمشاهد درامية مفصلة عن "ملكية" النساء فضلًا عن بيعهن. وكتبت جودي مابرو Judy Mabro في كتابها "أنصاف حقائق مُحجَّبة: تصورات رحالة غربيين عن النساء الشرق أوسطيات" – -Veiled Half" "Truths: Western Travelers' Perception of Middle Eastern Women عن بيع الزوجات بإنجلترا في القرن التاسع عشر "في أغلب الأحيان، في سوق الماشية حيث طالب المشترون المعتادون ان يتم اقتياد المرأة برَسن [وهو حبل يوضع حول رقبة الحصان للتحكم في سيره]".[2]

قيمة العذرية

وبالاقتراب من القرن الحادي والعشرين يظل الهوس بالعذرية والفضيلة عاملًا مهمًا لدى الكثيرين. وبحسب دراسة قام بها الباحث محمد عوض Mohamed Awad، تَبَيَّنَ أن نسبة 99.2% من نساء تم إجراء مقابلات معهن بمصر تؤمن بأن شرف المرأة يكمن في عذريتها، في حين قالت نسبة تبلغ 0.8% إن الشرف يتأسس على مبادئ المرأة وقيمها.[3]

تم تدعيم هذه الفكرة عن الشرف خلال مقابلة كتب فيها الصحفي دوجلاس جيل Douglas Jehl بصحيفة النيويورك تايمز: ما هو الشرف؟ وتذكَّرت الصحفية المصرية الشابة عبير علام Abeer Allam كيف فسر مدرس

---

(1) للمؤلفة شارلوت برونت – Charlotte Brontë (1816 – 1855).

(2) Judy Mabro, "Veiled Half-Truth, Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women," I. B. Tauris, (1996), 21-22.

(3) Mariz Tadros, "'Like a match stick'," Al-Ahram Weekly Online, Issue No. 573, 14-20 February 2002,

http://weekly.ahram.org.eg/2002/573/li1.htm, accessed 16 April 2011.

مادة الأحياء في المرحلة الثانوية الجهاز التناسلي للمرأة وأشار إلى مدخل المهبل مُعْلِنًا "هنا يقع شرف العائلة!"[1]

وفي الصين، نشر بليونير صيني إعلانًا في جريدة بشانغهاي، في يناير 2006، باحثًا عن عذراء ليتزوجها.[2] وتلقَّى 600 طلب. وأجرى مقابلات مع عشرين امرأة قبل اختيار العروس "المحظوظة". وأشارت جريدة النيويورك تايمز في تقريرها الصادر في يناير 2006 أن تلك النوعية من الإعلانات أصبحت شائعة منذ عام 2004، وعادة ينشرها الرجال الصينيون الأغنياء الذين يبحثون عن عروس عذراء للزواج.[3] اجتذبت الإعلانات والتقرير في الصحافة الصينية ردود فعل متباينة من المجتمع الصيني حيث قالت إحدى النساء إنها ستحافظ على عذريتها للحصول على مبلغ جيد مقابلها، في حين وصف آخرون ما يحدث باعتبار أن الأمر يتعلق بنساء يبعن أنفسهن كسلع رخيصة. وشَجَّع الهوس بالنساء العذراوات في الصين رجلًا (43 عامًا) على شراء عذرية سبعة عشر فتاة من فتيات المدارس في نانيانج بمقاطعة هينان تبعًا لتقرير في جريدة شنغهاي دايلي بتاريخ مايو، 2006.[4]

وفي لفتة تدل على أن العفة لا تزال موضع اهتمام كبير في إيطاليا، حكمت المحكمة العليا في عام 2006 أن جريمة الاعتداء الجنسي على مراهقة تعتبر أقل خطورة إن لم تَكُن عذراء. وحكمت المحكمة لصالح رجل كان قد استأنف

(1) Douglas Jehl, "For Shame: Arab Honor's Price: A Woman's Blood," a special report, The New York Times, 20 June 1999,

http://www.nytimes.com/1999/06/20/world/for-shame-a-special-report-arab-honor-s-price-a-woman-s-blood.html, accessed 16 April 2011.

(2) Howard W. French, "Rich guy seeks girl, must be virgin: Read this ad," The New York Times, 14 January 2006,

http://www.chinadaily.com.cn/english/doc/2006-01/24/content_515001.htm, accessed 16 April 2011.

(3) Ibid, The New York Times.

(4) Zhang Liuhao, 'Man purchases 17 girls' virginity," Shanghai Daily, 25 May 2006, http://www.chinadaily.com.cn/china/2006-05/25/content 599698.htm, accessed 16 April 2011.

حكمًا بقضاء 40 شهرًا بالسجن بعد إدانته لإجبار ابنة زوجته ذات الأربعة عشر عامًا على ممارسة الجنس معه فمويًا. وتعلقت الظروف المخففة بكون الضحية غير عذراء؛ وانتهت القضية بتخفيف الحكم السابق بحسب تقرير قصير في مجلة Ms. Magazine [وهي مجلة أمريكية ليبرالية نسوية] في صيف 2006[1]. في هذه الأثناء بصقلية، تصل عقوبة القتل بدافع الشرف إلى السجن 3 سنوات بحد أدنى.[2]

تشويه الأعضاء التناسلية للأنثى (ت.أ.أ)[3]

طبقًا لمنظمة الصحة العالمية (WHO)، تم تشويه 130 مليون عضو تناسلي للإناث حول العالم جراء الممارسة التي يشار إليها بختان الإناث، وبمعدل سنوي تتعرض 2 مليون سيدة لهذه الممارسة.[4]

وتُظهر الأمم المتحدة أن 15 دولة أفريقية من أصل 28 دولة يسود فيها (ت.أ.أ) قامت بتشريع قوانين تُجَرِّم الممارسة بينما تأخذ خمس دول أخرى مسودة للتشريع حول (ت.أ.أ) بعين الاعتبار. دولتان من أصل تسع دول في آسيا و10 دول في باقي أنحاء العالم شرَّعت إجراءات قانونية تُحرِّم وتُجَرِّم (ت.أ.أ).[5]

---

(1) Ms. Magazine, Global Section, Short Takes, (Summer 2006), 33.

(2) Germaine Tillion, "The Republic of Cousins, Women's oppression in Mediterranean Society," Translated by Quintin Hoare, (Al Saqi Books, 1983), 34.

ملاحظة المترجم: صدرت ترجمة باللغة العربية لهذا الكتاب من دار الساقي أيضًا. انظر جرمين تيليون: "الحريم وأبناء العم – تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط"، ترجمة عز الدين الخطابي وإدريس كثير، دار الساقي، لبنان، 2000.

(3) تختصر الكاتبة الجملة بالإنجليزية للأحرف (FGM)، ونختصرها في الترجمة (ت.أ.أ).

(4) Anna Karamanou, "Women the Target of Fundamentalists," Al Raida, Volume XIX, Nos. 97-98 (Spring/Summer, 2002), 4.

(5) "UN Secretary-General's study on violence against women as Background documentation for the 61st session of the general assembly Item 60 on advancement of women," October 9, 2006,

وعلى الرغم من شيوع المعلومات التي تأخذ الأمم المتحدة، والحكومة، والناشطون في تكرارها والتي توضح أن (ت.أ.أ) ممارسة وُجِدَت في أفريقيا وبعض دول الشرق الأوسط، أظهر بعض الكُتَّاب بالولايات المتحدة حديثًا أن (ت.أ.أ) مُورِس في المملكة المتحدة خلال العصر الفيكتوري وفي الولايات المتحدة في تسعينات القرن العشرين.[1]

أصاب المملكة المتحدة والولايات المتحدة هوسٌ خلال ذلك العصر بالاستمناء عند النساء.

حاول الأطباء تطبيق طرق عديدة لمنع النساء من الاستمناء بما يتضمن وضع مواد كاوية على البَظْر والفَرْج لإحداث قرحة ملتهبة أو من خلال الاستئصال الكامل للبظر بمقص. وطبقًا لمارثا كوفنتري Martha Coventry، وهي كاتبة من مينيابولس، التي خضعت لعملية استئصال البظر عندما كانت في السادسة من العمر بعد أن لاحظت عائلتها أن بظرها بدا أكبر بمقدار مرتين أو ثلاث مرات عن الحجم الطبيعي.[2]

وتشير كوفنتري إلى طبيب نساء شهير في المملكة المتحدة خلال النصف الثاني من خمسينات القرن التاسع عشر يسمى إسحاق بيكر براون Isaac Baker Brown الذي كوَّن نظرية عن أن "كل أمراض النساء يمكن نسبها إلى التهيُّج [أو الإثارة الزائدة] للجهاز العصبي، وأن العصب الفَرْجِيّ الذي يسري في البظر قوي بشكل بارز. وعندما يتم تنشيط هذا العصب بالتهييج المعتاد، فإنه يخلق إجهادًا بشكل أكبر من اللازم [ينعكس] على صحة المرأة".[3]

---

http://www.un.org/womenwatch/daw/vaw/, 90.

(1) Martha Coventry, "Making the Cut, It's a girl...or is it? When there's doubt, why are surgeons calling the shots?," Illustrated by Edmund Guy, Ms. Magazine, Volume X Number 6, (October/November 2000), 53.

(2) Ibid, Ms. Magazine, 53.

(3) Ibid, Ms. Magazine, 53.

ويقوم [براون] بعمل قائمة بما وصفه بالمراحل الثماني للأمراض المستحكمة التي يُنَشِّطها الاستمناء. وقال إنه في البدء تأتي الهستريا، يتبعها تهييج نُخاعيّ، وصرع هستيري، ونوبات تصلُّبيَّة، ونوبات صرعية، وبلاهة، وجنون، وأخيرًا، الموت". [1]

قالت كوفنتري إن بيكر اعتقد أن استئصال البظر جعل من النساء الشرسات نساءً سعيداتٍ، وعادت الفتيات المتمردات لحضن عائلاتهن بينما أصبحت السيدات النافرات قبل ذلك من أداء الواجبات الزوجية حوامل". [2]

تمكنت نظريات بيكر براون عن استئصال بظر الأنثى، وفق كوفنتري، من التأثير على أطباء الولايات المتحدة الذين ناقشوا ممارسته في الدوريات الطبية عام 1866. وفي عام 1894، أبلغ جراح أمريكي عن استئصاله لبظر طفلة عمرها 30 شهرًا "ليمنعها من الاستمناء والانزلاق إلى [هاوية] الجنون". [3]

كتب دكتور كرستين بِلْ Kirsten Bell، الأنثروبولوجي من جامعة ماكواري، بحثًا يوضح فيه أن عمليات استئصال البظر تم تأييدها من حين لآخر في أستراليا والولايات المتحدة في ستينات القرن العشرين باعتبارها علاجًا للاستمناء المبالَغ فيه. أشار بِلْ إلى الدليل الإرشادي المسيحي المتعلق ببلوغ سن الرشد، أن تصبحي امرأة – On Becoming a Woman، والذي نُشِر لأول مرة عام 1951 وأعيد طبعه عام 1968، والذي كتب فيه دكتور هارولد شيروك :Shyrock Harold

هناك فتيات مراهقات مدفوعات بفضول مؤذٍ أو من خلال الاقتداء بصديقاتهن من الفتيات المجردات من المبادئ الخلقية، وقعن في التلاعب بهذه الأنسجة الحساسة باعتبارها وسيلة من وسائل الإثارة. يتم الحديث عن هذه العادة بوصف الاستمناء ... ثمَّ عامل تشريحي يسبب التهيج أحيانًا في البظر وبالتالي يشجع على تلاعب بالأعضاء التناسلية الحساسة ... وكثيرًا ما يتكون علاج هذا الموقف من عملية جراحية صغيرة يشار لها بالختان. هذه العملية لا

(1) Ibid, Ms. Magazine, 53.

(2) Ibid, Ms. Magazine, 53

(3) Ibid, Ms. Magazine, 53.

تشكل خطرًا ويفضل بشكل كبير إجراؤها ليتم السماح لعملية التهيج بالاستمرار. [38 : 1968].[1]

مواقف دينية إيجابية تجاه النساء

لم يحتفظ الدين، في تطوره، بعدائه للنساء على الدوام. إنها لواحدة من السمات المميَّزة للعهد الجديد؛ أعني معاملة يسوع للنساء بكرامة، حتى النساء اللاتي يعتبرن بمثابة منبوذات: "فبارك أبنائهن، وأحيا أمواتهن، وغفر خطاياهن وأعاد لهن فضيلتهن وشرفهن. وبالتالي، فقد أَجَلَّ موقف الأنوثة ذاته".[2]

وهناك قصة شائعة تُستخدَم غالبًا بوصف الموقف المسيحي من الزنا، وهي عن امرأة زانية أُحضِرَت إلى جبل الزيتون Mount of Olives لتتلقى عقوبتها. كان يسوع بالفعل هناك يعظ، محاطًا بعدد كبير من الناس. وجعلوها (أي الرجال الذين أتوا بالمرأة) تقف أمام الجمع من الناس وقالوا يسوع: "يا معلمنا، لقد قُبض على هذه السيدة وهي تمارس الزنا". وليس ثمَّة ذكر لشريكها الذكر أو شركائها الذكور.

"في القانون، أمرنا موسى برجم نساء مثلها. والآن، ما قولك؟"

ردَّ يسوع: "مَنْ كانَ مِنْكُمْ بِلا خَطِيَّةٍ، فَلْيَكُنِ البادِئَ بِرَمْيِها بِحَجَرٍ".

لم يرغب أحد بفعل ذلك الامر، وغادر الحشد تاركين المرأة وحدها مع يسوع.

سألها، " أَلَمْ يَحكُمْ عَلَيْكِ أحَدٌ؟".

" لا أحَدَ يا سَيِّدُ". ردَّت.

---

(1) Kirsten Bell, "Genital Cutting and Western Discourses on Sexuality," Macquarie University, Medical Anthropology Quarterly, Volume 19, Number 2: Pages 125-148, June 2005,

http://www.cirp.org/library/anthropology/bell1/, accessed 16 April 2011.

(2) John MacArthur, "Twelve Extraordinary Women, How God Shaped Women of the Bible and What He Wants to Do with You," (Nelson Books, 2005), xiv.

فأعلن يسوع، "وَلا أنا أحكُمُ عَلَيْكِ. فَاذْهَبِي وَلا تَعُودِي إلَى الخَطِيَّةِ فِيما بَعْدُ".

شرح ويليام .إي. فيبس William E. Phipps موقف يسوع (كتب ويليام كتابًا عن محمد ويسوع قارن فيه بين النبيين وتعاليمها)، وقال: "كان يسوع مستاءً من قبض الرجال على طرف واحد من هذه العلاقة الجنسية ... وبشكل واضح، غضَّ هؤلاء الرجال المتَّهمون للسيدة الطرف عن الشريك الذكر"[1].

أكد لي ممثل البطريركية الأرثوذكسية اليونانية لشمال الأردن ونائب رئيس المحكمة الكنسية أَرْشِمَنْدريت كريستوفوروس عطالله Archimandrite Christoforos Atallah خلال لقاء له أنه ليس هناك أي قصص في العهد الجديد تذكر الذكر المشترك في فعل الزنا. ويجادل بأن الهدف من هذه القصة هو أن يُظهر عيسى لأتباعه حكمته والمعنى الحقيقي للدين من خلال وجوب التعامل مع أية أخطاء بالحب والتسامح.

هناك قصة موازية تُروى فيما يتعلق بموقف الإسلام من الزنا. أخبرت امرأة زانية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أنها حامل خارج إطار الزواج وأرادت أن تُرجَم للخطيئة التي ارتكبتها. أخبرها النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تعود بعد أن تَلِدَ الطفل. وبعد ولادة الطفل، عادت المرأة للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لكنه طلب منها أن تعود بعد أن تفطم الطفل، وعندما عادت رُجِمَت. لم يرد ذكرٌ لشريكها الذكر. من الواضح في القصتين أنه داخل هاتين الثقافتين لا يتحمل الرجال مسؤولية فعل الزنا.

شرح لي الباحث الإسلامي د. حمدي مراد Hamdi Murad أنه، وفيما يتعلق بالقصة الثانية، أشارت المرأة للرجل المسؤول (بشكل مزعوم) عن الحمل. رغم ذلك، أنكر الرجل ارتكاب أي إثم. وبالتالي، لم يأمر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بأي عقاب له. ومن منظور إسلامي، يقول دكتور مراد إن عقاب الزنا يُنزَل على مرتكبيه فقط لو اعترف الفرد الذي مارسه أو في حالة وجود أربعة شهود يمكنهم الإدلاء بشهادتهم ضد المتَّهَم.

---

(1) William E. Phipps, "Muhammad and Jesus, A Comparison of the Prophets and Their Teachings, Continuum, (New York: 2003), 135.

يتحدث الدكتور مراد Murad كذلك عن قصة أخرى لا يتم اقتباسها كثيرًا كسابقتها، وفيها ذهب رجل يدعى ماعز للنبي (صلى الله عليه وسلم) ليعترف بالزنا. تجاهل النبي (صلى الله عليه وسلم) الاعتراف، لكن الرجل أصر، فأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) برجمه.

في هذه الأثناء، ووفق الدكتور مراد، لم تعترف المرأة التي شاركته الزنا، ولذا لم تتلقَ العقوبة.

في القرآن الكريم، دافع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن النساء، وألح على العائلات بحسن التصرف مع بناتهن. وقال: "مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ –كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

يناشد القرآن الكريم الوالدين كذلك لقبول الفتيات المولودات حديثًا بنفس بهجة استقبال طفل ذكر: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" [النحل : 58-59].[1]

وأكَّدَ المستشار السابق للملك عبد الله في الشؤون الإسلامية، الشيخ عز الدين الخطيب التميمي (1928 – 2008)، أن هذه الآيات لعبت دورًا هامًا في إنقاذ الأطفال (البنات) من قتلهن وقت ميلادهن.[2]

والقرآن صارم للغاية عندما يتعلق الأمر بتهمة تدمير سمعة امرأة من خلال نشر شائعات لا أساس لها من الصحة للزنا أو السلوك السيء. وحرَّم الإسلام تحديدًا التجسس على الناس وكشف أسرارهم بهدف إلحاق الأذى بهم أو التسبب في وقوع عقوبة عليهم. وفي سورة النور:

---

(1) شيخ عز الدين الحايك Izzidin Al Hayek: " ترجمة تقريبية لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية"، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر، 2000.

(2) Sheikh Izzidin Al Khatib Al Tamimi, "Women and Children's Rights between the Islamic Sharia and the International Conventions," paper presented to a two-day conference on merging CEDAW and the Child Conventions in the Law Colleges Curricular, organized by UNICEF, 14 June 2000, 14.

"وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ"[1] [النور 6-7].

وتنص آية أخرى من نفس السورة على التالي:

"إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23)".[2]

بل وأكثر من ذلك، نجد في آية رقم 12 من سورة الحجرات:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ".[3]

وكما يشرح الدكتور مراد، ينص القرآن على التالي:

"وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"[4] [النور : 4].

و:

"إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ" [النور : 11-13].[5]

وعقوبة الزنا موَجَّهَة لكل من الذكر والأنثى بنفس القدر:

(1) Ibid, Izzidin Al Hayek.

(2) Ibid, Izzidin Al Hayek.

(3) Ibid, Izzidin Al Hayek.

(4) Ibid, Izzidin Al Hayek.

(5) Ibid, Izzidin Al Hayek.

"الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" [النور : 2].[1]

وأشار الدكتور مراد كذلك لقصة سأل فيها رجلٌ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) عن نوع العقوبة لو أنه وجد زوجته تزني مع رجل آخر وقتل الاثنين. ردَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه يلزم عليه الإتيان بأربعة شهود ذوي سمعة حسنة، أو أنه هو، الذي ساق الاتهام، يُقْتَل.

خاتمة

لسوء الحظ، توفرت لي مساحة هنا تكفي للشرح بإيجاز؛ وأعني توضيح الحد الأدنى من البذور التاريخية والدينية للعار، لكنني آمل أن يساهم هذا الفصل في توضيح أن جرائم الشرف -كما تُدعى- تنبع من تاريخ سوسيو-سياسي وديني طويل ومعقد، وتمتد لآلاف السنوات الماضية أو أكثر. ويعني هذا الأمر بالطبع أنه وبسبب هذه الجذور التاريخية العميقة، لن تختفي ما يسمى بجرائم الشرف بين عشية وضحاها، بصرف النظر عن كَمِّ الحملات المتواجدة والرغبة في التغيير السياسي. وبذلك، فإنني أعتقد في وجود سبب يدعو للتفاؤل كلما تحدث أناسٌ أكثر في العلن عن ما يسمى بجرائم الشرف.

على سبيل المثال، يتم تعليم أفراد الشرطة البريطانيين الآن كيفية التعرف على علامات عنف "الشرف"، ويتم توجيههم لمعاملة هذه الجرائم بنفس الجدية التي يتعاملون بها تجاه العنف العرقي.[2]

(1) Ibid, Izzidin Al Hayek.

(2) Jerome Taylor, "My people refuse to talk about honour killings," The Independent, 19 December 2009,

http://www.independent.co.uk/news/uk/crime/article1845103.ece, accessed 24 March 2011.

في عام 2002، دشنت ديانا نعمي Diana Nammi منظمة حقوق النساء الإيرانية والكردية (IKWRO) لخدمة السيدات اللاتي يتحدثن الكردية والفارسية والعربية في لندن. وفي عام 2010، تلقت المنظمة 1500 اتصال على خط الاستشارات الخاص بالمنظمة[1]، وحاليًا تشجع المنظمة عمل استراتيجية قومية للعنف بدافع "الشرف" في المملكة المتحدة.[2] وتقول نعمي "يلزم تدريب العاملين بالرعاية (رعاية العجائز أو المعاقين ... إلخ)، والمعلمين، والأطباء الممارسين، والمستشفيات، وموظفي الرعاية على ملاحظة عندما يكون شخص في خطر بحيث يصبح ضحية جريمة قتل بدافع الشرف وتقديم المساعدة"[3].

في عام 2008، تم تقديم القوانين التي تمنع زيجات الإكراه ومساعدة الواقعات في زواج بالإكراه في إنجلترا، وويلز، وشمالِيّ أيرلندا[4].

في تركيا، اعتادوا اعتبار ما يسمى بجرائم القتل بدافع الشرف جرائم "تحرش متطرفة"، وسمح قانون العقوبات التركي بتخفيض المدة التي يقضيها القاتل في السجن "عندما يتم تنفيذ القتل على الفور قبل، أو أثناء، أو على الفور بعد الزنا أو الفسوق المُحتَمَل"[5]. وفي قانون جديد تم تطبيقه عام 2005، يتم اعتبار

(1) "Honour' killings plan does not go far enough," Stop Honour Killings! website, http://www.stophonourkillings.com/?q=node/5301, accessed 29 March 2011.

(2) Iranian and Kurdish Women's Rights Organisation website, http://www.ikwro.org.uk, accessed 29 March 2011.

(3) Dianna Nammi, "Training is needed to recognise dangers," The Independent, 29 June 2007,
http://www.independent.co.uk/opinion/commentators/diana-nammi-training-is-needed-to-recognise-dangers-455141.html, accessed 29 March 2011.

(4) Divya Talwar, "Forced marriage helpline to close," BBC News, 18 November 2009, http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/england/8365066.stm, accessed 29 March 2011.

(5) Zulfu Livaneli, "Honor killings and violence against women in Turkey," summarized from a talk given at New York University, New York City, April 2006, Turkish Cultural Foundation website,

جرائم القتل بدافع الشرف الآن شكلًا من أشكال جريمة القتل المتعمَّدَة، ويمكن الحكم على القاتل بالسجن مدى الحياة بدون تخفيض في العقوبة. بالإضافة لذلك، يمكن لأعضاء العائلة الذين يشجعون على القتل اتهامهم بارتكاب جريمة[1].

وتلح المعالجة والمحامية أرونا باب Aruna Papp على أن جرائم القتل بدافع الشرف ليست حكرًا على المجتمعات المسلمة: "إن العنف ضد النساء الذي لا يواجهه أحد، والذي يتضمن القتل بدافع الشرف، سمة موحشة أيضًا عند السيخ، والهندوس، والمجتمعات المسيحية الجنوب آسيوية"[2]. تربت باب في الهند بمنزل مسيحي؛ ومع ذلك، خضعت القيم المسيحية المركزية المتعلقة بقيمة الفرد للثقافة التي عززت حقارة المرأة: "منذ عصر مبكر، عرفت، كمثيلاتي من الإناث الأخريات، أن النساء غير ضروريات. عانينا من ... تقنيات غسيل وحشية للدماغ تستبطن الفكرة [القارّة داخل] الرجال والنساء بأن النساء كائنات لا قيمة لها"[3]. تعيش باب الآن في كندا وتعمل كمستشارة، ومحامية، وتكتب في مواضيع العنف الثقافي. كتبت تقريرًا عن السياسة العامة يتعلق بالعنف المحفَّز ثقافيًا في المجتمعات المهاجرة لكندا، وتم إصداره عام 2010 بهدف "[الاستمرار في] تقليل أثر التقاليد الثقافية المضرة والمدمرة" وتشجيع المجتمعات المهاجرة على تقدير المساواة بين الجنسين.[4]

---

http://www.turkishculture.org/lifestyles/lifestyle/the-women/honor-killings-426.htm, accessed 27 March 2011.

(1) Ibid.

(2) Aruna Papp, "Canada must come to grips with 'culturally-approved violence' against women," National Post, 14 August 2009,

http://network.nationalpost.com/np/blogs/fullcomment/archive/2009/08/14/aruna-papp-canada-must-come-to-grips-with-culturally-approved-violence-against-women.aspx, accessed 29 March 2011.

(3) Ibid.

(4) Barbara Kay, "Honor killings must be confronted here at home," National Post, 7 July 2010,

يستمر جاديش سينج، أخو سورجيت أثوال التي قتلها زوجها وحماتها في عام 1998 لطلبها الطلاق (والتي وصفت قصتها في بداية هذا المقال)، في التحدث بشكل علني ضد ما يسمى بجرائم القتل بدافع الشرف. ويقول إن الملاحقة القضائية لهذه الجرائم بنجاح سيساعد على إسقاط "البنية العنيدة للسلطة التي تقمع النساء والشباب"[1]. ويضيف أنه يلزم على المجتمعات الدينية والعرقية القيام بعمل إدانة علنية لهذه الأنواع من الجرائم: "من المحتم علينا كأفراد، وعائلات، وجماعات أن نرفع أصواتنا في سبيل هذا الأمر. ولو لم تفعل ذلك، فنحن مذنبون تمامًا كمرتكبي الجريمة"[2].

وأعتقد بأنه ستُقْطَع أشواط كبيرة كلما تحدث عدد أكبر من الناس علانية ضد الجرائم وقاموا بتعليم غيرهم من الناس. والأهم، من خلال إدانة موحدة (ورسمية) لما يسمى بجرائم الشرف حول العالم، سيصبح الناس أكثر وعيًا بالمواقف الدينية تجاه قضايا المرأة بدون أحكام مسبقة أو تمييز بين الأديان النبيلة للعالَم.

---

http://fullcomment.nationalpost.com/2010/07/07/5957/#more-5957, accessed 29 March 2011.

(1) Taylor, "My people refuse to talk about honour killings."

(2) Ibid.

الفصل الثاني عشر

خطَابَة[1] "الإرهاب" و خَطَابَة "الجهاد" تقييم فلسفي ولاهوتي[2].

جانر تسلمان Caner Taslaman

ترجمة: إسلام سعد

وُلِدَ جانر تسلمان Caner Taslaman في مدينة اسطنبول وأنهى فيها مراحل تعليمه الابتدائية والإعداديَّة والثانوية. اهتمَّ بالعلوم الطَّبيعية منذ طفولته وشجَّعه على ذلك كونُ والدته مهندسة كيمياء ووالده طبيبًا. أكمل تعليمه الجامعي في قسم علم الاجتماع في جامعة بوغازجي. اهتمَّ أثناء دراسته الجامعية بعلوم أخرى مثل علم الإنسان "الأنثروبولوجيا "وعلم الاجتماع الديني وعلم الاجتماع المعرفي. حاز على درجة الماجستير من جامعة مرمرة - قسم الفلسفة والعلوم

(1) الخَطَابَة Rhetoric "الخطابة هي علم البلاغة. وليس الغرض منها تعليم الكلام البليغ فحسب، ولكن الغرض منها عرض الأفكار بأسلوب مقنع... أما عند المنطقيين فالخطابة قياس مُرَكَّب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتَقَد فيه، ويسمّى هذا القياس خطابيًّا. والغرض منه ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ... والخطابة عند أرسطو مبنية على المبادئ الكلية، ويُعرّفها بقوله إنها الكلام المقْنِع. وهي نوع من القياس. والأدلة عنده قسمان، الأول خارج عن الفن كالشهادات، والثاني نتيجة الفن كالبراهين وطرق الترغيب وإثارة العواطف... قال ابن طملوس: والأقاويل الخطابية هي التي شأنها أن يلتمس بها إقناع الإنسان من أي رأي كان. وأن يميل ذهنه إلى أن يسكن إلى ما يقال له، ويصدق به تصديقًا ما". انظر جميل صليبا، "المعجم الفلسفي"، مجلد 1، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، لبنان، 1982، ص: 531، 532. وهي مقصودة في هذا البحث بمعناها الإقناعي السياسي، أي فيما يتعلق بالتوظيف السياسي للمقولات والشعارات السياسية الاستقطابية والتعبوية. (المترجم).

(2) أتممت معظم هذا المقال بينما كنت باحثًا زائرًا في جامعة طوكيو، بقسم الدراسات الإسلامية. وإنني لممتنٌ لجامعة طوكيو، قسم الدراسات الإسلامية وللأستاذين ماساتاكا تاكيشيتا Masataka Takeshita وهارون أناي Harun Anay لمساعدتي على إتمام هذه الدراسة.

الدينية عن أطروحته التي تناولت نظرية الانفجار الكبير من منظور فلسفي وديني، كما نال درجة الدكتوراه من نفس الجامعة عن أطروحته التي بحثت في نظرية التطور من منظور ديني وفلسفي. أصبح تسلمان فيما بعد أستاذًا مساعدًا بفضل الكتاب الذي تناول فيه من منظور الدين والفلسفة نظرية الكَمِّ. نال تسلمان درجة الأستاذية بفضل بحثه الذي تناول فيه ثلاثيَّة الدين والعلم والفلسفة. حصل على دكتوراه ثانية من جامعة اسطنبول-قسم العلوم السياسية بفضل بحثه المعنون بـ "الإسلام في تركيا في زمن العولمة". تنقَّل بين جامعتي طوكيو وأوكسفورد كأستاذ محاضر حيثُ تابع أبحاثه في الجامعتين .عمل بعد ذلك كأستاذ زائر في جامعتي هارفارد وكامبريدج. اهتمَّت دراساتُه التي أجراها مؤخراً في جامعات تركيا والجامعات الخارجيَّة بدراسة العلاقة بين العلم الحديث والدين والفلسفة. عضو الهيئة التدريسية في قسم الفلسفة في جامعة يلدز التقنية في اسطنبول. مجالات تخصصه العلاقة بين العلم والفلسفة، العولمة، الإسلام، القرآن والعلم، فلسفة الدين، فلسفة العلوم، فلسفة الفيزياء، البيولوجيا.

هيمن التفاؤل بخصوص العولمة بعد نهاية الحرب الباردة، ومع ذلك، وبحلول الحادي عشر من سبتمبر 11/9، انهار هذا التفاؤل بالتوازي مع انهيار البرجين (التوأم) في قلب الولايات المتحدة الأمريكية. مع هذا الحدث، بدا وكأن هؤلاء المتشائمين بسبب حرب الخليج عام 1991، وهؤلاء الذين دافعوا عن أطروحة "صدام الحضارات"، أقول بدا وكأنهم صاروا أكثر احتكاكًا بحقائق عالمنا القاسية. هل الإرهاب والجهاد، إذًا، متداخلان بشكل معقَّد (مع، فلنقل، الإسلام، والمسلم، والعرب)؟

في هذا المقال، سأستعرض إساءة استخدام واستغلال خَطَابَة الإرهاب والجهاد. وأقصد بـ "خَطَابَة" الاستخدام الإقناعي والاستدراجي للغة، وذلك لتحقيق أغراض سياسية. وسوف أُظْهِرُ، عبر المقال، ما أعنيه بكلٍ من "الإرهاب" و"الجهاد".

أبدأ باقتباس من [جاك] دريدا Derrida بخصوص 11 سبتمبر:

"سيكون الفيلسوف شخصًا يسعى لمعيارية منضبطة *criteriology* للتمييز بين "الاستيعاب/الإحاطة بـ" و"التبرير". وذلك لأن المرء بوسعه أن يصف، ويستوعب، ويشرح سياقًا محددًا من الأحداث أو سلاسل من الارتباطات التي تؤدي للـ "حرب" أو للـ"إرهاب" دون تبريرها على الأقل، بينما يقوم في الحقيقة بإدانتهما، ويحاول جاهدًا أن يخترع ارتباطات جديدة. يمكن للمرء أن يُدينَ، وبشكل غير مشروط، أفعالاً محدَّدة للإرهاب (سواء كانت باسم الدولة أو لا) دون الحاجة لتجاهل الموقف الذي أحدثهم أو حتى أجازهم"[1].

إنني أهدف، وفق مصطلحات دريدا، لاستيعاب وإدانة موقفنا الحالي دون تبرير أهوال الإرهاب و"الحرب على الإرهاب" المزعومة.

الإرهاب بوصفه خَطَابَة:

أوضحت دراسة حديثة وجود 109 تعريف مختلف لـ "الإرهاب"[2]. ولكن، وبوجود هذه التعددية التعريفية، إلا أنه يتم التعامل مع "الإرهاب" كما لو كان فكرة أفلاطونية، توجد في عالم من الأفكار، مما يضمن لها "معناها الحقيقي"[3]. ومع ذلك، وكما حاجج فتجنشتاين Wittgenstein، فإن اللغة عبارة عن مجموعة من الأدوات التي يتم تَعَلُّمها من خلال الاستخدام بواسطة العموم في المجال العام باعتبارها جزءًا من لعبة لغوية مشتركة[4]. وبالأخذ في الاعتبار أن

(1) Jacques Derrida, Autoimmunity: Real and Symbolic Suicides, A Dialogue with Jacques Derrida,

أجرى الحوار Giovanna Borradori, in Philosophy in a Time of Terror, ترجمة Pascale-Anne Brault and Michael Naas, راجعه Jacques Derrida, (The University of Chicago Press, 2003), p. 106-107.

(2) Nezih Tavlas, Teroru Taniımlamak, (Strateji Journal, 2, 1995), p: 125.

(3) على الرغم من أن الكثيرين يستخدمون معنى "الإرهاب" بهذا القصد الدلالي بشكل غير واعٍ، أظن أنه لا أحد سيجادل في وجود "فكرة" عن "الإرهاب" في عالم أفلاطوني.

(4) Ludwig Wittgenstein, Philosophical Investigations, (Blackwell Publishing, 2001).

اللغة مُضَمَّنَة سوسيولوجيًا، فإن كلمة "الإرهاب"، كيفما يتم استخدامها في جمل مثل "الإرهابيون هم..." و"وفقًا لمكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI، فإن الإرهاب هو..."، ليست بريئة في الغالب، وذلك لأن المعاني المتعددة تكون مرتبطة في بعض الأوقات بمصالحهم وإيديولوجياتهم. وكما يقول [ميشيل] فوكو Foucault "إننا مُعَرَّضون لإنتاج الحقيقة من خلال السلطة"[1]. إن إملاء (وبالأحرى فرض) الكيفية التي يتم بها استخدام اللغة تعتبر واحدة من الطرق التي من خلالها يتم ممارسة السلطة.

استُخدِمَت كلمة "إرهاب — terror" لأول مرة في أثناء الثورة الفرنسية عام 1789[2]. على النقيض من أغلب استخداماتنا المعاصرة، تم استخدام الكلمة بواسطة اليعاقبة Jacobins[3] بدلالة إيجابية. اعتُقِدَ أن هذه الأفعال العنيفة ضرورية لتحقيق السلام. في وقتنا، تكتسي كلمة "إرهاب" في الغالب بدلالة سلبية. وبسبب دلالاتها السلبية، يتوق كل شخص إلى أن يُلْصِقَ بخصمه لفظ إرهابي. يثني المرء على صديق له بوصفه "مقاتلًا للحرية" بينما يشوه سمعة أعدائه، بسبب أفعال مطابقة واقعيًا، بلفظ "إرهابي". على سبيل المثال، يقول مؤسس حزب الله، التي يعتبرها البعض جماعة إرهابية، فضل الله "إننا لا نرى أنفسنا كإرهابيين، وذلك لأننا لا نؤمن بالإرهاب. ولأننا نقاتل ضد أناسٍ يغزون أراضينا، فإن ذلك لا يُعَدُّ إرهابًا. إننا نرى أنفسنا كمجاهدين [المجاهد هو

يعكس هذا الكتاب فترة الفلسفة اللاحقة لفتجنشتاين، وهو واحد من أكثر كتب الفلسفة تأثيرًا فيما يتعلق بفلسفة القرن العشرين.

(1) Michel Foucault, Power, Right, Truth, in Contemporary Political Philosophy, ed: Robert E. Goodin and Philip Pettit, (Blackwell Publishers, 2002), p. 543.

(2) Bruce Hoffman, Inside Terrorism, (Columbia University Press, 1998), p: 15.

(3) اليعاقبة: رسميًا في الفترة (1789–1792)، مجتمع أصحاب الدستور، أو مجتمع اليعاقبة (1792–94)، أصحاب الحرية والمساواة، وهي المجموعة السياسية الأشهر في الثورة الفرنسية، وهي نفسها المجموعة التي أصبحت تُعَرَّف بمذهب المساواتية المتطرف والعنيف، والتي قادت لتبلور الحكومة الثورية من منتصف عام 1793 لمنتصف عام 1794. (المترجم).

شخص يناضل ويقاتل في سبيل الله والإسلام] نحارب في سبيل حرب مقدسة"[1]. يجيز فضل الله أفعال تنظيمه باعتبارها "قتالاً في سبيل الحرية".

في الجانب المقابل، يُعَرِّفُ مكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI الإرهاب كما يلي: "الإرهاب هو الاستخدام غير الشرعي للقوة والعنف ضد أشخاص أو ملكية لإخافة وإكراه حكومة، أو سكان مدنيين أو أي شريحة على هذا الوزن، تعزيزًا لأغراض سياسية أو اجتماعية"[2]. إن تأكيد مكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI على "سكان مدنيين" يؤكد وجود أفعال ضد الحكومة. ومع ذلك، تاريخيًا، كان الاستخدام الأول لكلمة "إرهاب" لتعريف أفعال حكومة ما. تنص اتفاقيات لاهاي The [3]Hague Conventions في الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر والعشرين ومعاهدة جينيف Geneva عام 1949 على أنه يمكن للدول أن ترتكب أفعالاً إجرامية. يصبح الإرهاب، بالتالي، مشكلة أخلاقية تنبثق من طبيعة ضحاياه وطرقه، وليس من خلال هوية فاعليه[4]. وبينما يكون من غير الأخلاقي مهاجمة مدنيين، فإنه من المباح للجيوش المسلَّحة بعتاد قوي من الأسلحة والمدافع مهاجمة المدنيين الذين يستطيعون القتال فقط بأيديهم الضعيفة، المجردة من أي سلاح. لكن، على الجانب الآخر، يقع المناضلون أو الجنود الذين يحاربون ضد جيوش تستخدم تقنيات متطورة في الغالب في مأزق مشابه — إنهم في موقف مفعم باليأس، تمامًا مثل المدنيين الذين يواجهون جيوشًا مسلحة (كلاهما عديم القوة ضد القوة العسكرية). يُلِحُّ [يورجن] هابرماس Habermas على المشكلة الأخلاقية لهذا التباين كما يلي "ومع ذلك، فإن هذا التباين بين القوة التدميرية المركَّزة لهذه العناقيد المتَحَكَّم بها إلكترونيًا، والخاصة بالصواريخ المتنوعة والمتطورة في الهواء،

---

(1) Bruce Hoffman, ibid, p: 31.

(2) www.fbi.gov/publications/terror/terror2000_2001.html (28 Code of Federal Regulations, Section 0.85).

(3) اتفاقيتا لاهاي: سلسلة من معاهدات دولية نتجت عن مؤتمرات دولية أقيمت في لاهاي، هولندا، في 1899 و1907 . (المترجم).

(4) Tomis Kapitan, "Terrorism" As A Method Of Terrorism, ed: G. Meggle, in The Ethics of Terrorism and Counter Terrorism, (Ontos-Heusenstamm, 2000), p 23.

والشراسة العتيقة لحشود المحاربين الملتحين، والمجَهَّزين ببنادق الكلاشينكوف على الأرض، يبقى مشهدًا بذيئًا على المستوى الأخلاقي"[1].

أعلنت أمريكا أن المجاهدين الأفغان "محاربون مُقَدّسون" وساعدتهم في قتالهم ضد الغزو السوفييتي[2]. لكن، عندما انقلبت هجمات طالبان ضد أمريكا، فإن هؤلاء "المحاربين المقدسين" أصبحوا "إرهابيين"، والأهداف الأولى في "الحرب على الإرهاب". يَعوق كلُّ فعل عنيف حوارًا بين الجهات؛ ويحرِّضُ كل موت لشخص بريء على انتقامٍ يقوم به الناس أو قبيلة الضحية. إن دريدا مُحِقٌ عندما يقول إن كل "إرهابي" يدَّعي أنه يرد في دفاع عن النفس على "إرهاب" أسبق من جانب العدو، وهي أفعال تمَّت بتسميات أخرى، تختبئ تحت محاولات أخلاقية عديدة للعقلنة[3]. إن القصيدة المقتَبَسة من كودي Coady في مقاله "أخلاقية الإرهاب – The Morality of Terrorism" تسائلُ خَطَابَة الإرهاب:

إن رميَ قنبلة أمر شرير،
وإسقاط قنبلة أمر خَيِّر،
الإرهاب، لا حاجة لأن نضيف أكثر من ذلك
يعتمد على من يرتدي الخوذة[4].

طبقًا لكودي Coady، يعتمد الفارق في "العادات اللغوية" الذي يُعقْلِنُ أفعال المرء العنيفة على إذا ما كانوا "هم" "معنا" أم لا[5]. يُعَلِّقُ الفيلسوف الأمريكي، تومِس كابيتان Tomis Kapitan، على الضرر الذي تسبب به استخدام خَطَابَة

(1) Jurgen Habermas, Fundamentalism and Terror: A Dialogue with Jurgen Habermars, The Interview by Giovanna Borradori, in Philosophy in a Time of Terror, translated by Luis Guzman, revised by Jurgen Habermas, (The University of Chicago Pres), 2003, p.28.

(2) Mehmet Ali Civelek, Kuresellesme ve Teror, Saldirganlik Gercegi, (Utopya Yayinevi), 2001, p. 288.

(3) Jacques Derrida, Ibid, p.103.

(4) C.A.J. Coady, The Morality of Terrorism, (Philosophy 60, 1985), p. 47.

(5) C.A.J. Coady, ibid, S.63-64.

الإرهاب قائلاً: "الخَطَابة تخدم من جهة إسكات النقاش السياسي الهادف. إن هؤلاء الذين يميلون لسؤال "لماذا؟" يمتلئون بالخوف من أن يتم إلصاق صفة "التساهل" مع الإرهاب بهم، بينما هؤلاء الأكثر اشتباكًا وتأييدًا لمقولات الحرب يستخدمون بطاقة "الإرهاب" ليقوموا بتشويه التمييز بين الفحص النقدي والمهادنة. وهؤلاء الذين يذعنون للخَطَابَة يساهمون في دورة الانتقام والقَصاص من خلال تعزيز الأفعال العنيفة التي قامت بها حكومتهم، ليس فقط ضد مرتكبي الأفعال الإرهابية، بل كذلك ضد الشعوب التي منها يخرج الإرهابيون، وذلك للسبب البسيط الذي هو أن الإرهابيين هم أنفسهم مدنيون، يعيشون بين مدنيين آخرين لا ينخرطون في ارتكاب هذه الأفعال الإرهابية. ولقد كانت تَبِعَةُ ذلك الأمر تزايدًا في وتيرة العنف المحفَّز سياسيًّا ضد أهدافٍ مدنية - "الإرهاب" تحت أي مسمى آخر – تحت مبدأ "القَصاص" أو مواجهة الإرهاب". إن خَطَابَة "الإرهاب" تعرف فقط لغة القوة. وطالما أنهم يتصورون أنفسهم ضحايا مظلوميات لا تُطاق ويرون في مضطهديهم أنهم لا يرغبون في الوصول لنقطة تسوية مقبولة، فإنه من المرجح أن يجيبوا على العنف بعنفٍ أشد وطأة"[1]. يُظْهِرُ بحثٌ تم إجراؤه بين من يُفجّرون أنفسهم بالقنابل أن العديد من هؤلاء المفجِّرين قد فقدوا فردًا من العائلة أو شخصًا يحبونه في الحرب[2]. إن هذا الأمر يُوَضِّحُ كيف يكون سلام العالم عرضة للخطر مع كل فعل عنيف، وهو الفعل نفسه الذي يوقد جذوة نار الانتقام.

هناك خطر آخر يكمن في استخدام "الإرهاب" بوصفه خَطَابَة، وهو أنه قد يتسبب في تكوُّن تحالفات بين جماعات مختلفة، بل ومتناحرة (تتميز بالعدائية). وعلى سبيل المثال، لقد استخدم تنظيم القاعدة "الجهاد" ومفاهيم إسلامية أخرى بوصفها خَطَابَة ضد المسلمين الشيعة – مثلما استخدموا هذه

(1) Tomis Kapitan, Ibid, p.28, See also Tomis Kapitan, The Rhetoric of Terrorism and Its Consequences, (Journal of Political and Military Sociology, Summer 2002).

(2) Deniz Ulke Arıbogan, Tarihin Sonundan Barisin Sonuna, (Timas Yayinlari, 2003) p: 78.

المصطلحات بوصفها خَطَابَة ضد أمريكا – وقاموا بعمل مذبحة للشيعة في أفغانستان. إن الجمع بين الشيعة والقاعدة تحت مسمى "إرهابيين إسلاميين" ومسمى "الحرب على الإرهاب" ـ مع قول "نحن" "ضدهم" جميعًا، يمكن أن يسبب كوارث جديدة، بالأخص إذا كانت إيران التي يُظَن أنها تمتلك أسلحة للدمار الشامل تتشارك مع القاعدة في هذه الأسلحة. من غير الشائع للبلدان المسلمة أن تتشارك الرؤى السياسية نفسها، ولكن موضوعًا نادرًا يوحدهم، ألا وهو الصراع الإسرائيلي–الفلسطيني. تعتقد البلدان المسلمة أن الفلسطينيين يُعَامَلون بظلم من الإسرائيليين. أن نضع تنظيم القاعدة في سلة واحدة مع الفلسطينيين تحت مظلة "الإرهابيين"، يمكن لذلك الامر أن يُلهِمَ ردود فعل غربية أكثر قسوة ضد الفلسطينيين وكذلك يُزيد من عدد مؤيدي تنظيم القاعدة والمتعاطفين الذين يرون أن العنف هو الحل الوحيد. من غير المقبول فلسفيًّا أن نجعل فعلاً ما غير قابل للنقاش من خلال وسمه بمصطلح "الحرب على الإرهاب" أو "جهاد". إن الذين يبررون العنف بمثل هذه الادعاءات الخَطَابيَّة يوقنون بأن أفعالهم فوق أي نوع من أنواع المساءلة. من خلال وَسْمِ أو وصف المبادئ طبقًا لفائدتهم الخاصة، فإنهم يحولون دون انعقاد نقاش جاد حول ما إذا كانت أفعالهم عادلة أم ظالمة. يجب أخذ كل فعل عنيف في الاعتبار بعيدًا عن الأفعال العنيفة الأخرى، ومن ثَمَّ يتم فحصه تحليليًّا. إن وضع الأفعال العنيفة كلها تحت العنوان نفسه أمر خاطئ، لأن كل فعلٍ بمثابة تَبِعَة لظروف مختلفة. إن هؤلاء الذين يؤثرون على الرأي العام من خلال وَسْمِ "أعدائهم" بـ "الإرهابيين" يجب أن يدركوا أنهم قد يساهمون في زيادة عدد أعدائهم بغير قصدٍ.

الجهاد بوصفه خَطَابَة

تم استخدام عديد المفاهيم الإسلامية بشكل خَطَابي – بالأخص مفهوم "جهاد"، شأنه شأن "الإرهاب". لكن، بالنسبة للمسلمين، هناك فارق هام بين المكانة الأنطولوجية للمفاهيم القرآنية والمبادئ التي تمت صياغتها بشريًّا. وبينما يمكننا أن نتحرى بشأن معنى كلمة ما سوسيولوجيًّا، فإنه يلزم علينا أن نتبنى أو نقوم بإجراء تحقيق تاريخي ونقوم بتوضيح العلاقات السياسية–الاقتصادية لكي

نفهم الكيفية التي تم بواسطتها استخدام الاصطلاح الإسلامي. للمصطلحات الإسلامية نصٌ أصليٌ – القرآن – ومنه يمكننا أن نتعلم المعنى الحقيقي لمفاهيمه. يمكن لمقاربة هرمنيوطيقية مُحْكَمَة للنص القرآني أن تفك شفرة هذه المصطلحات. ووفق الإسلام، فإنَّ القرآن هو النصُّ الذي من خلاله أسَّسَ اللهُ علاقته مع الناس، وكان الهدف الأساسي للنبي محمد أن ينقل هذه الرسالة. إن مصدر القرآن – الله – متعالٍ لكنه بلغة للبشر. إن بعده المتعالي يضمن "المعنى الحقيقي" لمصطلحاته الدينية. لكن، ليست كل تفاسير البشر مضمونة.

وبالرغم من أن الانتفاع الشخصي، وسوء الفهم، وتأثير التقاليد والسياسة قد تسببت في أن يساء فهم القرآن (أو أن يتم إسكاته كرهًا بواسطة مصادر أخرى (مثل الأحاديث أو الفتاوى)، إلا أن القرآن يوجد باعتباره النص الذي يحمي المعاني الأصلية. ينتقد عديد الباحثين الإسلاميين الأحاديث لأنها تتجاوز سلطة القرآن. سيد أحمد خان، ومحمد عبده، ومحمد عاكف، وأحمد أمين، وتوفيق صدقي، ومحمد أبو ريَّة، ومحمد الغزالي، وفضل الرحمن، كل هؤلاء إن هم إلا قلة من النُقَّاد[1]. كان هذا النقد شائعًا كذلك خلال القرنين الأول والثاني عقب وفاة النبي، وتم وضع عديد الأحاديث [لم يكن الرسول بقائلها] لأسباب سياسية أو سوسيو–سياسية. و تكمن الطريقة الوحيدة لحلِّ هذه المشكلة في تأسيس منظور هرمنيوطيقي مُحْكَم، وإزالة التفاسير القرآنية غير الصائبة والتي تم إنتاجها لأسباب سياسية، مع الأحاديث الموضوعة والفتاوى (الفتاوى هي أحكام السلطات بخصوص أمور شرعية) وتوضيح موقف الإسلام الحقيقي تجاه مواضيع مثل الجهاد والحرب وحرية الاعتقاد.

ولكي نمنع الاستخدام الخَطَابي المحفَّز سياسيًّا للمفاهيم الدينية، يجب علينا أن نقوم بإجلاء المعاني الحقيقية لهذه المفاهيم. على سبيل المثال، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، استخدم كلٌ من حسن الصبَّاح والحشاشون مصطلحات

---

(1) M. Hayri Kırbasoğlu, Islam Dusuncesinde Hadis Metodolojisi, (Ankara Okulu Yayinlari, 1999), p. 14-15.

دينية من أجل انتفاعهم السياسي الخاص[1]. في أثناء حرب الخليج عام 1991، حصل بعض القادة المسلمين على فتاوى تجيز مشاركتهم في التحالف الذي تقوده أمريكا ضد صدام حسين[2]. على الجانب الآخر، أطلق أسامة بن لادن فتاوى تبرر الحرب مع أمريكا بعد حرب الخليج[3]. هذه الأحداث إن هي إلا نذر يسير من عديد الأمثلة للكيفية التي يتم بواسطتها استخدام "الجهاد" ومفاهيم إسلامية أخرى بشكل خَطَابي. في الشرق الأوسط، يصعب إعلان حرب دون تبرير إسلامي. يرجع ذلك الأمر لأنه، ومنذ الأيام الأولى للإسلام، وحتى وقتنا هذا، كان الإسلام هو العامل الأكثر أهمية في الثقافة الإقليمية. حتى هؤلاء الأكثر علمانية من بين الناس استخدموا الدين ليضمنوا التأييد العام في حالة الحرب. يشرح ديفيد رابوبورت David Rapoport كيف قام صدام حسين، الذي كان قائدًا علمانيًا يقاتل ضد الأصوليين، باستخدام "الجهاد" عندما أراد تحريك الشعب العراقي: "لقد دعا إلى جهاد لطرد (الغرب) الكافر ولتحرير المواقع المقدسة في السعودية من الشر، والاحتلال. صورة مُلوَّنة تُصَوِّر الرئيس حسين، دون ملابس للجزء العلوي من جسده، وهو يُقَبِّلُ الحرم في مكة وصورة أخرى له بالزي العسكري الكامل راكعًا في أثناء الصلاة في الحرم الأكثر قداسة تم وضعها في الخلفية، حوله، بينما كانت خطبته تُلقى. منذ أن بدأت الكارثة في أغسطس 1990، أصبحت لغته مُشَبَّعَة بالمرجعيات الدينية. إن السخرية تكثُرُ هنا: حزب حسين المؤسَّس مسيحيًا (حزب البعث العربي الاشتراكي /والإشارة هنا إلى ميشيل عفلق/)، قام هذا الحزب بقطع أشواط كبيرة في تحويل العراق إلى دولة علمانية، وأخيرًا تكبَّد حسين عناء حرب مُكَلِّفَة ضد الأصولية الإسلامية"[4].

---

(1) Abdulkerim Ozaydin, Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Volume 16 (Türkiye Diyanet Vakfi, 1997), p. 348 -350.

(2) John L. Esposito, Unholy War, (Oxford University Pres, 2002), p. 34.

(3) Michael S. Swetham, Yonah Alexander, Bir Terorist Aginin Profili: Osama Bin Laden, (Guncel Yayincilik, 2001) p. 129-130.

(4) David C. Rapoport, Some General Observations on Religion and Violence, (Journal of Terrorism and Political Violence, No: 3, 1991), p.122.

أخذ القرآن على محمل الجَدِّ فيما يتعلق بالجهاد

طبقًا للقرآن، فإن مصطلح "جهاد" يعني "أن تجاهد"[1]. للجهاد أبعاده السيكولوجية، والفكرية، والسوسيولوجية. وكانت الحروب التي تخاض باسم الله تسمى أيضًا "جهادًا" لأنها تضمنت جهادًا في القتال ضد العدو[2]. أورد هنا آية قرآنية تعطي معنى غير مُشَرَّب بالروح الحربية:

"انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"[3]. (التوبة: 41).

وبينما كانت كلمات مثل "قتال" و"حرب" تؤكد على القتال في القرآن، إلا أن كلمة "جهاد" قد أصبحت موضوعًا ذا أهمية أساسية في الكتب التي تناولت هذه القضية؛ ونتيجة لذلك، كل الحروب التي تم خوضها باسم "الإسلام" صارت تسمى "جهادًا". ولكن شخصًا يدرس "الحرب/الجهاد في الإسلام" يتحتم عليه أن يأخذ كل آيات القرآن التي ذُكِرَت فيها هذه الكلمات في اعتباره.

يتفق أغلب الناس على أنه وبالرغم من الاختلاف في الممارسة، فإن المسلمين يجاز لهم أن يخوضوا حربًا فقط باسم الله — إذ لا يمكنهم أن يقاتلوا لمصالحهم الشخصية. ومع ذلك، يحدث الاختلاف الأهم عندما يبزغ هذا السؤال: "هل الجهاد حرب دفاعية للمسلمين أم أنه حرب ضد غير المسلمين (فقط لأنهم غير مسلمين)؟" لو تعاملنا مع القرآن في كُلّيته، يصبح من الواضح، وبشدة، أن آيات الحرب مُوَجَّهَة فقط للأشخاص الذين هاجموا المسلمين. الآيتان اللتان توضحان هذا الموضوع هما:

---

(1) يرجى ملاحظة التباين بين كلمة Jihad و to strive، إذ يظهر الفارق في اللغة الإنجليزية، وهو ما تطلّب توضيحًا من الباحث للقراء. (المترجم).

(2) Bekir Karlıga, Cihad ve Teror, (Karizma, Mart 2002), p. 118-119.

(3) يشير الباحث إلى أنه استخدم هاتين النسختين المترجمتين للقرآن:

The Quran: A Contemporary Translation by Ahmed Ali, (Princeton University Press, 1994), and Translation and Commentary by A. Yusuf Ali, (Islamic Propagation Center International).

"فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ". (البقرة: 194).

"أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ". (الحج: 39).

إذًا، يعطي القرآن الإذن بالقتال فقط للقتال ضد المعتدي. وبينما يتفق الفقهاء الأحناف، وبعض الحنابلة والمالكيين، نجد أن الفقهاء الشافعيين، وآخرين ينتمون للمذهب الحنبلي والمالكي يعتقدون بأن كون المرء غير مسلم يكفي، كسببٍ، للحرب[1]. يبرر الفقهاء الشافعيون، على سبيل المثال، اعتقادهم بالآية رقم 5 من سورة التوبة:

"إِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ". (التوبة: 5).

لكن إن قرأ المرء هذه الآية، ولنهاية السورة بأكملها، فإنه سيرى أن هذا الأمر يشير للناس الذين هاجموا المسلمين أولاً؛ وبما أن غير المسلمين خرقوا المعاهدة، أجيزت الحرب الدفاعية.

دعونا ننظر للآية الأولى من هذه السورة:

"بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ". (التوبة: 1).

وبالاسترسال مع السورة، يُفْهَم أنهم كانوا البادئين بالهجوم:

"إِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ. أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ". (التوبة: 12، 13).

---

(1) Ahmet Ozel, "Cihad" maddesi, Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Volume 7, (Turkiye Diyanet Vakfi Yayınlari, 1993), p. 528-529.

فقط، ومن خلال نزع الآية من سياقها يمكن للفقهاء الشافعيين أن يعتقدوا بأن كون المرء غير مسلم تبرير للحرب[1]. إن مقاربة هرمنيوطيقية مُحْكَمَة للقرآن تتطلب أخذ القرآن، في كليته، بعين الاعتبار؛ الآيات، وهي فرادى، بالتالي، يجب تقييمها مع الآيات السابقة واللاحقة عليها (وفق السياق). الشافعية، على الجانب الآخر، ادعوا أن الآيات التي تجيز القتال فقط عندما يتم الهجوم على المسلمين أولًا تم نسخها، باستخدام بعض الأحاديث التي تدعم وجهة نظرهم[2].

إن الادعاءات القائلة بأن جزءًا من القرآن ينسخ جزءًا آخر وأن الأحاديث تحوز سلطة تتجاوز سلطة القرآن تتطلب تقييمًا نقديًّا. يحاجج أحمد أوزيل Ahmet Ozel بأن الادعاء بوجود نسخ بين الآيات فيما يتعلق بالجهاد لا يمتلك وجهة نظر علمية[3].وفي اعتقادي، يُحَوِّلُ ادعاءُ أن جزءًا من القرآن ينسخ جزءًا آخر اللاهوتَ الإسلامي إلى لعبة في أيدي الفقهاء. وبما أننا لا نملك قائمة بالآيات المنسوخة وغير المنسوخة، فإن مُقَدّمي هذا الادعاء يتركون القرار للفقهاء، تاركين الدين تحت رحمتهم. يجادل محمد أسد Muhammad Asad بأن الادعاء بالنسخ لا يمتلك أساسًا قرآنيًّا؛ وأكثر من ذلك، لا يوجد حديث واحد موثوق يدعم الفكرة[4]. يجب أن نتذكر هنا أن الادعاء الذي يخبرنا بمعاقبة امرأة اقترفت الزنا برجمها يتم اشتقاقه من دعاوى النسخ، على الرغم من أن الحُكْمَ يتعارض مع القرآن بالكلية. يمكننا أن نفهم، وبشكل لائق، كل موضوع فقط من خلال حفظ كليانية القرآن التي تتطلب منا أن نُعارضَ ادعاءات النسخِ. ولكي تقوم بعض آيات القرآن بنسخ آيات أخرى، فإنه يجب أن يوجد تضارب بين آياته. هذا الادعاء مخالف للآيات التي تُقرُّ عدم وجود تضارب في القرآن: "أَفَلَا

---

(1) Hasan Elik, Dini Ozunden Okumak, (Marmara Universitesi Ilahiyat Fakultesi Vakfı Yayinlari, 2004), p.165-182.

(2) Ahmet Ozel, ibid, p. 529; For these hadiths you can look into; Bukhari-Iman-18 and Abu Dawud-Jihad-104.

(3) Ahmet Ozel, ibid, p. 529.

(4) Muhammad Asad, Kuran Mesaji, Translated by Cahit Koytak, Ahmet Erturk, (Isaret Yayinlari, 1996), p.30-31.

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا". (النساء: 82).

وكما ذكرت من قبل، هناك العديد من الأحاديث الموضوعة حتى في أكثر كتب الحديث "موثوقية". هذه القضية مهمة بشكل خاص فيما يتعلق بقضيتنا هنا. إن سلطة الفقهاء، الذين يزعمون أن الآيات التي تُعارض أفكارهم قد تمَّ نسخها، والذين اختاروا الأحاديث فقط لدعم أفكارهم من ضمن أحاديث موضوعة لأهداف سياسية، قد قاموا بتجاوز سلطة القرآن. يلزم علينا فهم تفاسير الفقهاء من خلال أخذ البيئة السياسية التي كانوا يحيون فيها قيد الاعتبار. خلال القرون الأولى من الإسلام، أراد السياسيون توحيد قبائل المسلمين التي كانت تتناحر فيما بينها من خلال جعلهم يقاتلون أعداء من خارج القبائل. أيضًا، أرادوا توحيد الناس لعمل فتوحات جديدة. إن تشكيل الخَطَابة المشربة بالروح الحربية للجهاد، بالتالي، هي بالأساس نتيجة تطور القضايا السياسية. هذه الخَطَابَة كانت تُستخدم، ليس فقط ضد غير المسلمين، وإنما أيضًا بواسطة المسلمين الذين زعموا أن كل مسلم آخر كافر كما يدَّعون. إن دعاوى النسخ والأحاديث الموضوعة قد لعبت دورًا هامًا للغاية في فقد المعنى القرآني للجهاد والمتعلق بالحرب الدفاعية؛ فمن خلال تبرير الحرب ضد كل غير المسلمين، نجدهم يدافعون عن حرب أزلية.

تقوم الأحاديث الموضوعة، والفتاوى، وادعاءات النسخ بتوليد مشكلات تتعلق بحرية الاعتقاد: يزعم البعض أن المسلمين الذين يتحولون لدين آخر أو يرفضون تأدية الصلاة يجب أن يُقتلوا، وأن الناس الذين لا يصومون، يلزم ضربهم. وعلى النقيض من ذلك، نورد آيتين بخصوص حرية الاعتقاد، وهما:

"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ". (البقرة: 256).

"فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ". (الغاشية: 21، 22).

طبقًا للإسلام، لو كان إنسان ما غير مؤمن، فإن ذلك ليس سببًا للحرب، لأنه لا إكراه في الإسلام، ومن ثمَّ فإنه يجب أن يكون، ويمكن أن يكون هناك تواصل أفضل بين الثقافات. إن الدفاع عن القتال مع الكفار، على الجانب

الآخر، سوف يعني حربًا أزلية، مما يجعل التواصل المؤثر ضربًا من ضروب المستحيل. ماذا عن آثار حرية الاعتقاد؟ لو أن مسلمًا يراقب باستمرار رفقائه المسلمين من أجل الإخلاص في الاعتقاد (وقتل هؤلاء الذين يعتقد أنهم غير مخلصين أو منافقون) ويداوم على دعوة غير المسلمين لطريق الله (الدعوة واجب ديني)[1]، سيصبح التواصل المؤثر مستحيلاً. إن هذا الفهم للجهاد بوصفه إكراهًا على الاعتقاد سوف يؤدي، بدلاً عن ما تم ذكره، إلى "باثولوجيا تواصلية"، بوجود جانب يتحدث، وجانب آخر مُجبّر ببساطة على الاستماع والاهتمام. إن عالَمًا بمثل هكذا تواصل باثولوجي/ مَرَضي سوف يكون مليئًا بالعنف.

القرآن وأخلاقيات الحرب

هناك العديد من النقاشات بخصوص إذا ما كانت المقاربة القرآنية للحرب مقبولة أخلاقيًّا. هناك أربعة طرق محتمَلَة لمقاربة "الآخر". والواحدة التي تؤكد أن المقاربة القرآنية غير مقبولة يجب أن تظهر أي البدائل مقبولة. أظن أن اتجاه القرآن — وليس اتجاه كل المسلمين عبر التاريخ — تجاه الحرب مقبول أخلاقيًّا.

(1) أن تقاتل دون تبرير عقلاني:

هذا، كما أوضحنا، يقف في تعارض مع القرآن. يوفر "السفاحون" مثالاً جيدًا لهذا الاتجاه. قتلوا "المتجاوزين" باعتبارهم قرابين للإلهة كالي Kali [2].

(1) Ismail Al-Faruqi, The Nature of Islamic Da'wah, in Christian Mission and Islamic Da'wah, (The Islamic Foundation, 1982), p: 33-38.

(2) Walter Reich, Origins of Terrorism, (Woodrow Wilson Center Press, 1990), p. 121.

والإلهة كالي Goddess Kali (بالسنسكريتية: تعني "التي هي سوداء" أو "التي هي الموت") في الهندوسية، إلهة الزمان، ويوم القيامة، والموت أو الإلهة السوداء (وهي الصيغة الأنثوية من كالا Kala بالسنسكريتية). (المترجم).

يُعتقَد أن السفاحين قد قتلوا حوالي مليون شخص خلال 1200 عام، وهي فترة وجودهم[1].

(2) أن تقاتل بتبرير عقلاني:

تمتلك أغلب الحروب شيئًا من التبرير العقلاني، يتضمن ذلك الأسباب الاقتصادية. وبالتالي، الحفاظ على السلطة وامتلاكها يكونان عادة الهدف؛ فاعتبارات العدالة والظلم تُنحى جانبًا. وعلى الرغم من أن هذه المقاربة تم تطبيقها عبر التاريخ، إلا أن هذا الاتجاه لم يتم اعتماده من منظور فلسفي. إن ما يجعل ميكيافيللي Machiavelli مشهورًا هو دفاعه المفتوح لهذا النوع من المقاربة[2] وبعده كانت هناك عدة مقاربات فلسفية دعمت وجهة النظر هذه. إن الآيات المذكورة بالقرآن والتي تعطي الإذن بالقتال فقط في حالات التعرض لهجوم (مثل سورة الحج: 22) تقف ضد هذه المقاربة. لكن، وعلى وزن المثال الذي رأيناه بالفعل، وبالأخص فيما يتعلق بالسياسيين، والفقهاء، وأهل الفتوى الذين هم واقعون تحت تأثيرهم [أي تحت تأثير السياسيين] من خلال تقديم الأسباب العقلانية باعتبارها أسبابًا مقبولة، فإنهم قد قاموا بتجاوز سلطة القرآن بتفاسيرهم المزيفة، ودعاوى النسخ، والأحاديث الموضوعة.

(3) السلمية في كل حال:

على الرغم من أن القرآن يعارض السلمية (أو حالة اللا عنف)، يظل التسامح ذا أفضلية على العقاب طبقًا للقرآن. يمكننا فهم ذلك الأمر من الآيات التالية:

"وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ". (فصلت: 34).

"وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ". (الشورى:43).

---

(1) Bruce Hoffman, Inside Terrorism, (Columbia University Press, 1998), p. 89.

(2) Niccollo Machiavelli, Discourses, Translated by Leslie J. Walker, (Penguin Books, 1955) p. 135.

طبقًا للقرآن، فإن التسامح أسمى، لكن القرآن لا يُقرُّ السلمية في كل حال. إن سلمية جماعة صغيرة أو فرد ما (مثل سلمية غاندي Ghandi) يجب أن يتم النظر إليها من منظور يختلف عن السلمية في وجه سعي لتدمير مجتمع. فالمسلمون، وفق القرآن، مطالبون بالقتال عندما يكون دينهم أو مجتمعاتهم قيد الهجوم أو عندما يكون هناك هدف لتدميرهم. والسماح، في مثل هذه الأحوال، بقتل الأطفال، والنساء، والعجائز، أمر غير مقبول أخلاقيًا.

(4) أن تقاتل لقضايا معقولة:

تجيز آيات القرآن القتالَ تحت الشروط المتعلقة بالقضية العادلة، وهذه القضية العادلة هي التعرُّض لهجوم. لقد قام الناس الذين يوافقون على القتال ضد غير المسلمين بتدمير فكرة "القضية العادلة"، معتقدين أنفسهم أحرارًا في إعلان الحرب على من يشاؤون. وإننا لنشهد عديد الأحداث في التاريخ والتي فيها أعلن المسلمون أن مسلمين آخرين غير مؤمنين وبدأوا "الجهاد" بين المسلمين.

إن ربط القرآن بين إعلان الحرب مع السبب المعقول (وهو التعرض لهجوم) يعتبر الاختيار الأكثر أخلاقية من الاختيارات المتاحة أعلاه. حتى في القانون الدولي، يُقْبَل الدفاع عن النفس باعتباره "حقًا متأصلاً". وطبقًا للمادة رقم 51 [من الفصل VII السابع] للأمم المتحدة، فإن الناس الذين يواجهون اعتداءً يمتلكون الحق في الدفاع عن النفس[1].

يجب أن يُفهَم، وبشكل واضح، من القرآن ما إذا كان القتل مباحًا في الحرب أم لا. لأن الإسلام يُحرِّمُ القتلَ؛ لو أن الحرب غير مُقدَّمَة باعتبارها موقفًا استثنائيًا حيث يكون القتل مباحًا، فإنه يمكن استنتاج أن الإسلام يدعم سلمية تامة.

طبقًا للقرآن، هناك أمور أخرى مهمة تتعلق بالحرب، والتي أود التأكيد عليها. على سبيل المثال، وحده النبي محمد، هو الشخص الوحيد المؤيَّد بواسطة القرآن، في حياته وبعد موته، ولا يوجد أي شخص قراراته مضمونة. لا يمكن لأي شخص آخر الادعاء بأن قراره بإعلان الحرب فوق المساءلة. عبر التاريخ، ادَّعت

---

(1) Huseyin Pazarci, Uluslararasi Hukuk, (Turhan Kitabevi, 2005), p. 512-513.

عديد السلطات الدينية من مختلف الأديان أنها تعرف الأمور بشكل أفضل من عموم الناس. على سبيل المثال، زعمت الكنيسة أن قراراتها كانت موجَّهَة بالرُوحِ القُدُس the Holy Spirit مما يعطيها بصيرة تعينها على إدراك مُراد الله، وهو الأمر الذي ينقص عموم الناس. وعلى الرغم من أن القرآن يعارض ذلك، فقد كانت هناك تأكيدات مماثلة في الإسلام أيضًا. يؤمن عديد المسلمين أن بعض الأشخاص هم أولياء وأن أي قرار يتخذه وليٌ لا جدال فيه؛ إنهم يوقنون بأن هؤلاء الأشخاص يمتلكون حمايات خاصة وتواصلات [مع الله] تهبهم معرفة خاصة تنقص الأشخاص العاديين. بالإضافة لذلك، لو أن وليًّا ما مهديٌّ، فإن التمسُّك بسلطتهم الدينية يتزايد بشكل ملحوظ. إن هذا الاعتقاد يمكن له أن يسبب، وقد تسبب بالفعل، في تَقَبُّل إعلان بعض الأولياء الحرب دون تردد، متجاوزين أي نقاشات حول ما إذا كانت هذه الحروب عادلة أم ظالمة.

يُعتقد، بشكل موسَّع، في كلٍ من الطائفتين السنية والشيعية أنه في نهاية العالم، يقاتل المهدي ضد غير المؤمنين ويهزمهم. ويعتقد الشيعة أن المهدي يستمر في الاختباء لأكثر من 1100 عام. هذا الاعتقاد بالمهدي هام جدًا عند الشيعة لدرجة أن ثورة آية الله الخميني كانت مُدعَّمَة بالاعتقاد أن الخميني مثَّلَ المهدي لحين عودة الأخير. ولقد أعلن قادة ألف طائفة سنية أنفسهم باعتبارهم المهدي. يكتسب الشخص الذي يُعتقَد في كونه المهدي مزية سياسية هائلة من قِبَلِ أتباعه. ومن منظور فيبري [نسبة لماكس فيبر]، فإن المهديين يُكَوِّنون النمط الأكثر إطلاقية من حيث السلطة الكاريزماتية. ولقد استخدم حسن صبّاح، والذي يتم ذكره دومًا في كل جدال بخصوص جذور الإرهاب، هذا الاعتقاد[1]. ولا توجد، مع ذلك، آيات في القرآن عن المهدي. والأحاديث عن المهدي موضوعة، وتم نحلها لتحقيق أهداف سياسية[2]. ولو أننا نستحضر وجود

---

(1) David C. Rapoport, Fear and Trembling:Terrorism In Three Religous Traditions, (The American Political Science Rewiew,Volume 78,1984), p.665-668; Ali Coskun, Mehdilik Fenomeni , (Iz Yayincilik, 2004),p.343-345.

(2) M. Hayri Kırbasoglu, Alternatif Hadis Metodolojisi , (Kitabiyat, 2004), p.369-370.

همسات دائرة حول كون أسامة بن لادن هو المهدي[1]، فإنه يمكننا أن نفهم أهمية الموقف. ونتيجة لذلك، لا يُقرُّ القرآن بالأفضلية الإبستمولوجية[2] لأي مؤمن بعد النبي محمد. لذا، [وعلى الرغم من] نَسَبِ خواص إبستمولوجية خاصة لبعض الأشخاص، تظل الحرب الظالمة غير مُبَرَّرَة.

بالإضافة لذلك، وبصرف النظر عن الأوضاع الافتتاحية للحرب، يُعْتَبَرُ المسار الذي تسير الحرب وفقه (قانون الحرب — الحق في شَنِّ الحرب jus in bello[3]) هامًا كذلك فيما يتعلق بأخلاقيات الحرب. يمكن للحرب أن تكون ظالمة من البداية ويمكن أن يتم حملها على كونها عادلة؛ ويمكن لحرب أن تبدأ لأسباب عادلة ويتم حملها على كونها ظالمة. إن الآية القرآنية التالية مهمة بخصوص هذا الموضوع:

" وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ". (البقرة: 190).

وبينما يعطي القرآنُ الحقَّ في القتال ضد هؤلاء الذين أشعلوا فتيل الحرب، فإنه عقب الحرب، لا يمكن للمسلمين أن يقاتلوا كيفما يرغبون: على سبيل المثال، لا يمكنهم أن يكونوا مُعْتَدين. إن كل حرب تخلق ظواهر جديدة. إن الاختلاف

---

(1) Timothy R. Furnish, Bin Laden:The Man Who Would Be Mahdi,(The Middle East Quarterly, Spring 2002).

(2) الإبستمولوجي Epistemology: لفظٌ مُرَكَّب من لفظين: أحدهما epistēmē وهو العلم، والآخر لوجوس Logos وهو النظرية أو الدراسة، [ويأتي كذلك بمعنى العقل].: " فمعنى الإبستمولوجيا إذًا نظرية العلوم، أو فلسفة العلوم، [و]دراسة مبادئ العلوم، وفرضياتها، ونتائجها، دراسةً انتقادية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي، وقيمتها الموضوعية. انظر: جميل صليبا: "المعجم الفلسفي"، سبق ذكره، مجلد 1، ص: 33. وبالمعنى الوارد في سياق البحث، يعني وصف الأفضلية الإبستمولوجية، بالمعنى المحَدَّد (أو الأداتي) للوصف، أنه لا توجد أفضلية "معرفية" لأحد من المسلمين تفوق أفضلية النبي المعرفية، لأنه هو وحده المؤيَّد بالوحي. (المترجم).

(3) بحسب موقع اللجنة الدولية للصليب الأحمر ICRC، فإن القانون الدولي الإنساني، أو القانون في الحرب (jus in bello)، هو القانون الذي يحكم طريقة سير الحرب. ويتميز القانون الدولي الإنساني بطابع إنساني محض. فهو يسعى إلى الحد من المعاناة الناجمة عن الحرب، بغض النظر عن المسائل المتعلقة بمبرراتها أو أسبابها، أو منع نشوبها، المشمولة بقانون الحرب (jus ad bellum). (المترجم).

بين الأداوت القديمة للحرب والأداوت التي تتعلق بالحرب الحديثة تجعل من الجدالات حول شن الهجوم في أثناء الحرب أمرًا أصعب. والقرآن، من خلال إعطاء المبادئ، لا التفاصيل عن كيفية شن الحرب، يسمح بالمرونة في تحسين طرق جديدة للتصرُّف في كل عصر. وكما يقول جون كيلسي John Kelsay، الذي درس موضوع "الإسلام والحرب" بوصفه دراسة في الأخلاق المقارَنَة "إن الإسهام الإسلامي فيما يتعلق بالقوانين التي تحكم شن الحرب الحديثة لا يزال في طور التبلور بدرجة كبيرة"[1]. وكما سأحاجج في الصفحات التالية، فإن القرآن يُلِحُّ على أن إبرام الاتفاقات مع "الآخرين" يجب أن يكون مُجتمعًا مع مسألة شنِّ الحرب.

وكما أنه يوجد مبادئ قرآنية بخصوص دخول الحرب وشنّها، بالتالي، أيضًا، يخبر القرآن المسلمين كذلك بالتوقف عن الحرب لو أن الطرفين ينشدان السلام. الآيات التالية مهمة فيما يتعلق بهذه القضية:

"وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا". (الأنفال: 61).

"لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ". (الممتحنة: 8).

يقول جون رولز John Rawls "لا توجد دولة تمتلك حقًّا في الحرب سعيًا وراء مصالحها العقلانية، على النقيض من مصالحها المعقولة"[2] كما أن غالبية الذين يدرسون أخلاقيات الحرب يمتلكون الفكرة نفسها. إن هذا يتسق مع أوامر الإسلام. ولكن، يجب علينا أن نمتلك فصلًا واضحًا بين الإسلام والمسلمين. وحتى لو أن المسلمين من المفترض أنهم تابعون للإسلام، إلا أنه لهم مصالحهم العقلانية والتي تجاوزت واجباتهم الدينية؛ في الواقع، إن هذه المصالح كانت بالأساس مصالح النخبة السياسية. أعلن الفقهاء أو أهل الفتوى أن الحروب كانت ضرورية لأسباب دينية (فتوى). كان يلزم الحصول على هذه الفتاوى، أولًا لأنها أجازت الحرب في أعين الناس الذين كانوا يتهيأون للقتال. ثانيًا، لكي يقوموا بتحفيز الناس، فإنهم مالوا

(1) John Kelsay, Islam and War, (John Knox Press, 1999), p.76.

(2) John Rawls, The Law of Peoples, (Harvard University Press, 2002), p.91.

إلى أنطولوجيا[1] وإسكاتولوجيا[2] الإسلام. ووفق أنطولوجيا وإسكاتولوجيا الإسلام، هناك إله واحد خلق كل شيء، ويمتلك القدرة لفعل أي شيء؛ هذا الإله قام بتجهيز حياة لا-نهائية في الآخرة. وسيتم تحديد موقع كل فرد في الآخرة من خلال أفعاله/أفعالها في هذا العالم. وبعيدًا عن ذلك الأمر، فإن الشهداء الذين يموتون في حرب عادلة باسم الله سيُجْزَون في الآخرة بحياة دائمة ملية بالمتاع (جنات). ونتيجة لذلك، يقدم الإسلام أسبابًا متعالية مرتبطة بأنطولوجيا وإسكاتولوجيا من شأنها أن تفوق الأسباب العقلانية الدنيوية المؤسَّسَة على مصالح دنيوية. وفق هذا الاعتقاد، فإن الشهداء، ومن خلال التضحية بحيواتهم الدنيوية القصيرة الأجل، يمتلكون فرصة ممتازة في الآخرة. إن الأشخاص الذين يشنون الحرب وفق حساباتهم العقلانية للسلطة يستخدمون هذه الأنطولوجيا والإسكاتولوجيا لتحفيز الجماهير. ونتيجة لذلك، فقد أصبح الجهاد بمثابة آلية استدراج وإقناع؛ ولذلك أقول إن الجهاد يستخدم بوصفه خَطَابَة.

التوفيق بين القرآن والفعل التواصلي

يوضح كانط Kant، سائرًا على درب هوبز، أن "حالة السلام الموجودة بين البشر الذين يحيون في تجاور جغرافي /جنبًا إلى جنب/ ليست هي الحالة الطبيعية

---

(1) الأنطولوجي Ontology هي الدراسة الفلسفية للوجود بشكل عام، وكان اسمها "الفلسفة الأولى" عند أرسطو، وذكرها في كتابه الميتافيزيقا أو "ما وراء الطبيعة". و"علم الوجود أو الأنطولوجيا جزء من الفلسفة، وهو يبحث في الموجود ذاته مستقلاً عن أحواله وظواهره، أو هو علم الموجود من حيث هو موجود (أرسطو)... والأنطولوجية (هي) ميل للفكر إلى الأنطولوجيا من حيث إنها تبحث عن صفات الموجود في ذاته". انظر: جميل صليبا: "المعجم الفلسفي"، سبق ذكره، مجلد 2، ص: 560، 561. (المترجم).

(2) الإسكاتولوجي Eschatology هو بالأساس مصطلح غربي، يشير للاعتقادات اليهودية والمسيحية والإسلامية بخصوص نهاية التاريخ، والبعث (القيامة)، والحساب الأخروي. و"يطلق اصطلاح علم الآخرة أيضًا على النظريات التي تبحث في مصير الإنسانية بعد اجتيازها مرحلة الوجود الفعلي، أو على النظريات التي تبحث في الحد النهائي الشرطي لوجود إنساني ليس بعده تاريخ. وعلم الآخرة مرادف لعلم المعاد". انظر: جميل صليبا: سبق ذكره، مجلد 1، ص: 27. (المترجم).

(*status naturalis*)؛ بل الأحرى أن الحالة الطبيعية هي حالة الحرب، والتي لا تنحصر فقط في العداوات المفتوحة، ولكنها توجد كذلك في التهديد الثابت والدائم بهذه العداوات. لذلك يلزم على حالة السلام أن تؤسَّس"[1]. لكن، دون التواصل، يصبح تأسيس السلام، وكذلك التغلب على حالة الحرب من الأمور المستحيلة. لذا، فإنه من الأهمية القصوى أن نفهم رؤية الإسلام بخصوص التواصل مع "الآخرين"، وبالتحديد مع العدو.

وَقَّعَ النبي محمد صلحَ الحديبية مع المشركين، وعلى الرغم من استياء المحيطين به، إلا أنه قام بتطبيق هذا الصلح[2]. وعندما أخفق المشركون في احترام هذا الصلح، توقف المسلمون عن الالتزام به كذلك. لكن المسلمين لم ينبذوا الاتفاق الذي تم مع كل المشركين، واستمروا في التعامل وفق الصلح مع أي مشركين استمروا في الالتزام به[3]. يمكننا أن نشهد ذلك من خلال الآية التالية:

"إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ". (التوبة:4).

إن الآيات القرآنية التي تخبر المسلمين بالولاء لعهودهم مهمة عندما نُفَكِّرُ في هذه الاتفاقيات. الآية التالية مثال لذلك:

"وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ". (النحل:94).

وإنه لمن الأهمية بمكان أن يطيع المسلمين معاهداتهم، لدرجة أنه يجب عليهم أخذ اتفاقياتهم بعين الاعتبار قبل أن يساعدوا مسلمين آخرين. الآيتان المتعلقتان بهذا الموضوع هما:

---

(1) Immanuel Kant, To Perpetual Peace A Philosophical Sketch, Translated by Ted Humphrey, in Perpetual Peace And Other Essays, (Hackett Publishing Company, 1983), p.111.

(2) Muhammed Hamidullah, "Hudeybiye Antlasmasi" maddesi, Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Volume 18, (Turkiye Diyanet Vakfi Yayinlari, 1993) p. 297-299.

(3) Elmalili M. Hamdi Yazir,Hak Dini Kuran Dili,Volume 4, (Zehraveyn), p.278-279.

"إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً". (النساء: 90).

"وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ". (الأنفال: 72).

يندر الإقرار بتأكيد القرآن – بإلحاح – على المعاهدات عندما نفكّرُ في مشكلات عصرنا. طبقًا للقرآن، تم التوصُّل لاتفاق مع أعداء النبي وأطاع المسلمون شروط هذه المعاهدة. بالتالي، يمكن للمسلمين عَقْدُ معاهدة مع أي عدو؛ ليست شخصية العدو غير المرغوب فيها سببًا يحول دون عقد الاتفاقية معه.

ووفق الإسلام، وبما أن الرسول كان تحت حماية الله الخاصة ، فإن عدله مع العدو كان مؤيَّدًا بواسطة وحي القرآن. وبعيدًا عن النبي، سنجد أن الفكرة القائلة بوجود أناس غير النبي مميزين إبستمولوجيًّا غير مبرَّرَة في القرآن. وبالتالي، لا يمكن لكاريزما شخص ما أن تُبْطِلَ ما ينطق به القرآن، والأخير يُفَضِّلُ السلام على الحرب، وأيضًا لن تحول كاريزما شخص ما دون عقد الاتفاقيات التي تُشَيِّدُ السلام وتحفظه. وسواء كان هذا الشخص هو الإمام الشافعي (قائد ذو كاريزما ينتمي للتاريخ الإسلامي) أو بن لادن (شخصية كاريزماتية معاصرة)، فإن هذا الموقف يجب ألا يتغير.

إن كل خصومة تعد بمثابة ظاهرة جديدة: يجب علينا بالطبع أن نأخذ بعين الاعتبار التشابهات بين الخصومات الحالية والأحداث التي تم وصفها في القرآن ونقوم بتقييمها كذلك. ولكن، في الوقت نفسه، يجب أن نضع في حسباننا أن هذه الخصومات لا تتطابق مع تلك الواردة في القرآن. وفي حالة الضرورة، يُعدُّ إعلان الحرب ممكنًا فقط من خلال تطبيق المبادئ الأساسية للقرآن. لكن، يجب أن نعلم أنه، وبما أنهم [أي الأشخاص] لا يملكون وحيًا، فإن دفاع شخص ما عن الحرب لا يمكن اعتباره ممتلكًا لأهمية وقيمة أقوال النبي نفسيهما. ومن حيث إن الوحي للمسلمين قد انتهى، لا يمكن لأيٍ من دعاوى الجهاد الآن أن تكون عادلة مثل

دعاوى النبي للجهاد. وكانت دعاواه موجهة فقط ضد الأشخاص الذين كانوا يحاولون تدمير قومه (وكانت هذه الدعاوى مدعومة بالقرآن). لذلك، يجب أن يكون المسلمون واعين بالتفاسير التي تدَّعي أن الحرب ضرورية. مثل هذا الاستقصاء النقدي مطلوب لتجنُّبِ تقويض الأهداف الدينية لصالح غايات وأهداف سياسية وشخصية.

إن المسلمين يؤمنون بوجود حقائق كونية، وهم في ذلك مختلفون عن مقاربة هابرماس التي ترفض الحقائق المتعالية (الترانسندنتالية). لكن المسلمين يعلمون أن الحقائق الكونية التي يقبلون بها ليست — في بعض الأحيان — حقائق مقبولة. هل من الممكن، في مثل هذه الظروف، أن يتواصل المسلمون مع غير المسلمين؟ توضح الآيات التي اقتبسناها أعلاه أن هذا التواصل ليس فقط ممكنًا مع غير المسلمين، بل إنه حتى ممكن (ومرغوب فيه) مع الأعداء. إن المعاهدة، في التحليل الأخير، نمط من التواصل مع "الآخر" من خلال اللغة؛ ذلك أنها تقبل بأنه قد يظل "الآخر" "آخرًا"، كما أنها توقن بأن الاتفاق ممكن على الرغم من الاعتقادات الأنطولوجية والإبستمولوجية التي يمتلكها "الآخر" - في مثل هذه الظروف، يمكن للمرء أن يكون ذا ولاء للاتفاقية. يحاجج هابرماس، وهو مشهور بفكرته عن الفعل التواصلي، أن لغة الفعل التواصلي يجب أن تُستخدَم باعتبارها وَسَطًا للوصول لحلولٍ، وأنه يلزم على الفاعلين أن يسعوا لتحقيق هذا الاتفاق[1]. الهدف هو الوصول لاتفاق، وهو هدف يُنشَد تحقيقه بنهاية عملية التواصل. وبسبب ذلك، كان التأكيد بواسطة القرآن على عقد الاتفاقات مع "الآخرين" مهمًا بشكل خاص، وبهذه الطريقة، تكون شرعية العملية قبل الاتفاق واضحة.

هل الدين مصدر العنف أم مُحَفِّزٌ له؟

يقول ديفيد س. رابوبورت David C. Rapoport إنه بينما تمتلك الأديان عاملاً مُختَزِلاً للعنف، فإنها كذلك تمتلك بُعْدًا مُنتِجًا له[2]. لكن، من غير العادل

(1) Jurgen Habermas, The Theory of Communicative Action, Translated by Thomas McCarthy, Volume 1(Beacon Pres, 1985).

(2) David Rapoport, ibid, p.118.

أن نعتقد، كما يزعم العديد، أن أغلب الحروب في التاريخ كانت تُخاض بسبب الدين. أولاً، في عديد المرات، قام الدين بمنع الحروب، وهو أمر جدير بالملاحظة؛ هذه المرات نادرًا ما تُذكَر في كتب التاريخ؛ فالحروب التي مُنِعَت [لم يتم خوضها] لا تُدوَّن في التاريخ. ثانيًا، في القرن العشرين، وبينما كان الدين يميل للأفول، هو نفسه القرن الذي مات فيه أكبر عدد من الناس. ثالثًا، وأعتقد أن ذلك هو الأمر الأهم، وللجزء الأكبر من تاريخ الإنسان، كانت الأديان العامل المحَدِّد الأهم في حيواتهم. هذا هو السبب الذي جعل الناس يستخدمون الخَطَابَة الدينية لتعبئة الجمهور وبصرف النظر عن الأسباب الحقيقية لخوض الحروب. دون هذه الخَطَابة، لم يكن للقتال أن يحقق ذلك القدر من النجاح بالفعل. وكما أثبت المؤرخون في عديد الحالات، يُعدُّ السبب الرئيسي وراء الحروب من خلال توظيف الخَطَابَة الدينية هو زيادة القوة الاقتصادية والسياسية. وكما حاجج هانز مورجينتاو Hans Morgenthau في نظريته عن مذهب الواقعية السياسية political realism، تُعدُّ حسابات القوة العقلانية والموضوعية وغير العاطفية بمثابة المصادر النموذجية للحرب[1].

ويميز كانط Kant بين "السياسي الأخلاقي – moral politician" و"الأخلاقي السياسي –political moralist ". والأول هو الشخص الذي يقوم بتفسير مبادئ التفكير السياسي المتعقِّل لكي تنسجم مع الأخلاقية. وعلى الجانب الآخر، فإن الأخلاقي السياسي هو الشخص الذي يُزَيِّفُ أخلاقية ما لتلائم مصلحة رجل الدولة [السياسي[2]]. إن قَصْدَ الأخير هو أن يحمي ويزيد السلطة. يستخدم الأخلاقيون السياسيون مفاهيم الدين بشكل خَطَابي باعتبارها أدوات للواقعية السياسية. ومن ثَمَّ، وبينما كان يبدو أن عديد الحالات للحروب دينية، فإنها في الواقع، كانت حروبًا سياسية استخدمت المفاهيم الدينية خَطَابيًّا لتحفيز الجمهور. لكن يجب على دعاوى الأديان العليا أن تعلو فوق الواقعية السياسية الأدنى التي توضِّحُ أن امتلاك السلطة الدنيوية يفوق كل

(1) Hans J. Morgenthau, Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace, (Alfred A. Knopf, 1978).

(2) Immanuel Kant, ibid, p.128.

القيم الأخلاقية التي تقول إن الحروب غالبًا ما تكون ضرورية لزيادة السلطة والنفوذ. ومن هنا، ولكي تصنع عملية التواصل السلامَ وتحافظ عليه بشكل فعّال، فإنها يجب أن تتضمن الأديان الرئيسية التي يمكنها المساعدة في منع الواقعية السياسية غير المقَيَّدَة، حيث الأخيرة هي المصدر الرئيسي للعنف. من المهم أن نحدد ما إذا كان الإسلام يبرر الأفعال العنيفة المُحَفَّزَة خَطَابيًّا أو يحفزها بالكاد. أغلب الناس، دون إقامة هذا التمييز، يقدمون قائمة بأفعال عنيفة كما لو أن الإسلام يبررها بينما، في الحقيقة، تم استخدام الإسلام فقط باعتباره مُحَفِزًا. لو كان للإسلام أن يُشَرْعِنَ العنف، فإن القرآن بالتالي سيحتاج أن يتطلب العنف أو على الأقل أن يسمح به. إن المصدر الوحيد للمسلمين فيما يتعلق بممارسة الأنشطة الإلزامية وتجنُّب المحَرَّمات هو القرآن. إن السبب الذي يجعل المسلمين يُصلّون، ويصومون، ولا يأكلون لحم الخنزير هو القرآن. لكن، وباستثناء حالة الحرب الدفاعية، لا يُجيز القرآن الحرب لنفع سياسي أو اقتصادي. دون مشكلات سياسية واقتصادية مُحَدَّدَة، لم يكن لعديد الحروب التي تم خوضها باسم الإسلام أن تكون. في هذه الحروب، ليس الإسلام هو المصدر الشرعي للحرب والعنف، ولكن يتم استخدامه باعتباره مُحَفِزًا.

بجانب الحجج اللاهوتية، والأخلاقية، والفلسفية لبناء حالة من التواصل بين الحضارات، يجب علينا كذلك أن نحاول حلَّ القضايا الراسخة في جوهر المشكلات الحقيقية. لو أن المشكلات بين الحضارات ثقافية ودينية، كما يزعم هنتنجتون Huntington، ستكون أديانًا مختلفة هي سبب صدام الحضارات[1]. لكن هذا الزَّعم يغفل الأبعاد الاقتصادية الأساسية للمشكلات بين الغرب والدول المسلمة. هابرماس، من جانبه، يرفض زعم هنتنجتون لأنه يعتقد أن سبب الاعتلالات التواصلية الذي سبَّبَته العولمة ليس ثقافيًا، بل اقتصاديٌ[2]. فعلى الرغم من أن الدول المسلمة تمتلك الاحتياطيات الأغنى من البترول والغاز

---

(1) Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and The Remaking of World Order, (Simon and Schuster, 1997).

(2) Giovanna Borradori, Philosophy in a Time of Terror, (The University of Chicago Press, 2003), p.65.

الطبيعي، إلا أنها تقع ضمن الدول الأفقر في المجمل. وعلى الرغم من أن 22% من سكان العالم مسلمون، فقط 3.8% من إيرادات العالم يتم إنتاجه بواسطة دول مسلمة[1]. يشعر الكثير من المسلمين بأنهم قيد الاستغلال اقتصاديًا وأن الفلسطينيين يُعامَلون بظلم من إسرائيل، مما يسبب كراهية تجاه الغرب. (لن أناقش ما إذا كان المسلمون يتم استغلالهم أو لا، أو إذا ما كان الفلسطينيون يُعامَلون بظلم أم لا. لكن دون فهم هذه المشاعر العامة، لن يكون من الممكن تكوين عملية تواصلية لحلّ المشكلات). تُدمِّرُ الكراهية احتمالية التواصل بين الحضارات، ويتم استخدامها بواسطة الجماعات أو الدول لتعبئة العنف.

وكما يلاحظ هابرماس، فالمشكلة التي تتعلق بالعنف الحالي اقتصادية. ومن منظور الاعتقاد والتراث الثقافي، فإن الحضارتين الغربية والإسلامية المستَخلَصتَين من التقليد الإبراهيمي أقرب لبعضهما البعض من الحضارات الأخرى في العالم. ولو كان لجماعات إسلامية أن تمارس أفعالاً عنيفة بسبب الدين والاختلافات الثقافية، فإنهم سيكونون أكثر ميلاً لمهاجمة اليابان أو الصين حيث تكون الأديان الخاصة بهم مختلفة بشكل جذري عن الإسلام. أو لو أنهم كانوا يمارسون العنف ضد دول مُحَدَّدَة فقط لأنها غربية أو مسيحية، سيكونون على الدرجة نفسها من العنف ضد السويد أو البرازيل.

مرة أخرى، ووفق هنتنجتون، المشكلة الأساسية عند الغرب ليست الأصولية الإسلامية، لكنها الإسلام[2]. يمكن لمن يشاركون هنتنجتون الاعتقاد نفسه أن يحاولوا تغيير ثقافة العالَم المسلم بالقوة، لنقل من خلال فرض ثقافتهم الخاصة، لكن من شأن هذه الجهود أن تُفضي إلى أفعال جديدة من العنف. وكما يشير كلّ من عبد العزيز سعيد Abdul Aziz Said ومينا شريفي فَنك Meena Sharify Funk، فإن "نموذج هنتنجتون يُبَيِّن افتراضات ثقافية رائجة لمتغطرِس والتي تشترط احتياج العالَم للتقيُّد بأصول وقيم الغرب فقط وذلك لضمان عالَم آمن ومنظَّم ومستقر. ولو لم يمتثل الآخرون لذلك الأمر، فإن المشكلات و/أو

(1) Ahmet Sozen, Kuresellesmenin Getirdikleri ve ABD'nin Ikilemi, (Karizma, Ocak-Mart, 2002), p.55.

(2) Samuel P. Huntington, ibid, p.258.

الصدامات ستكون حتمية"[1]. ولو أن هابرماس محقٌّ، يجب علينا أن نحاول حلَّ المشكلات الاقتصادية الأساسية. ولو أننا قمنا بتحديد المشكلات بشكل خاطئ، لن يكون الدواء صحيحًا أيضًا.

حالة الطوارئ الاستثنائية القصوى

لكي نستدرج الجمهور لإقناعهم بشرعية الحروب ولحثّهم على مجابهة العدو، يستخدم قادة الدول "الإرهاب"، وتستخدم الجماعات المتطرفة "الجهاد" بوصفهما خَطَابَة. وبينما يمتلك الغرب سلطة اقتصادية وقوة عسكرية، نجد على الجانب الآخر، أناسًا لا حول لهم ولا قوة يقاتلون ضد هذه الدول نفسها، فقط من خلال حروب الكرّ والفرّ (أو الحروب الفدائية). ومثل هؤلاء الذين يستخدمون "الإرهاب" بوصفه خَطَابَة لكي تُقْبَل أفعالهم دون نقاش، يرفض هؤلاء الذين يستخدمون "الجهاد" بوصفه خَطَابَة أي معارضة باعتبارها تمردًا على الإسلام. وكما لا تريد الدول الغربية لسياساتها أن تُساءَل، لا يريد المتطرفون كذلك أن يُدار نقاش حول تفاسيرهم للإسلام؛ أي أن الطرفين يحاولان قمع أي معارضة من خلال فنون الخَطَابة حول "الإرهاب" و"الجهاد" بالترتيب. بعد 11/9، سعت الولايات المتحدة لاستعادة كبريائها من خلال إعلان الحرب على العراق، مما تسبب في مقتل الكثير من المدنيين هناك. يثأرُ المتطرفون من العدو الذي لا يمكن تحدّيه تكنولوجيًّا من خلال مهاجمة أهداف مدنية، ويقتلون آلاف الأشخاص. الضحايا من الجانبين – بالدرجة الأولى – أبرياء، منهم نساء وأطفال. ولقد تم تقويض القول المأثور لكانط: "لن تسمح أُمَّة في حالة حرب مع أخرى بأفعال حرب من شأنها جعل الثقة المتبادَلَة مستحيلة خلال وقت ما، في المستقبل، وقت السلام"[2]. بالإضافة لذلك، قد

(1) Abdul Aziz Said,Meena Sharify-Funk,Dynamics of Cultural Diversity and Tolerance in Islam, in Cultural Diversity and Islam, ed. Abdul Aziz Said, Meena Sharify-Funk(University Press of America,2003) p.19.

(2) Immanuel Kant, ibid, p109.

تتصاعد أحداث اليوم إلى وقائع أكبر، لا يمكن تجنبها. ولتجنُّب هذا المأزق الخطير للغاية، حريٌ بنا أن نجد تواصلاً مُثمِرًا بين الحضارات.

إن الذين يقتلون المدنيين، من خلال خَطَابَة "الجهاد" أو "الحرب على الإرهاب"، يستخدمون حججًا مختلفة لتبرير أفعالهم. وهي في العادة أنواع الحجج التي يُطلِقُ عليها والزر Walzer "حجج من تم وضعه في موقف دفاعي back-to-the-wall arguments": عندما تكون الوسائل التقليدية للمقاومة معدومة الأمل أو واهية، يحدث أي شيء (أي شيء ضروري للانتصار)[1]. يعرض والزر بريطانيا العظمى في أربعينيات القرن العشرين كمثال: لأن التهديد النازي كان يمكن أن يفنيهم، كانت هناك "طوارئ قصوى" تتطلب تجاوز حقوق الأبرياء وتمزيق اتفاقية الحرب[2]. يقول والزر "إنهم يضعوننا تحت قاعدة الضرورة والضرورة لا قواعد لها"[3]. إن منظور رولز Rawls حول هذه القضية هو أن "هذا الإعفاء يسمح لنا بأن نُنَحّي جانبًا — في أوضاع خاصة مُحَدَّدَة — المكانة الواضحة للمدنيين والتي تحول دون مهاجمتهم في الحرب"[4]. وطبقًا لأندرو فيالا Andrew Fiala، تعد "حالة الطوارئ الاستثنائية القصوى" واحدة من المبادئ الفلسفية المستَخْدَمَة لتبرير "الحرب على الإرهاب"[5]. في موقف "دفاعي" ما، يستخدم مؤيدو "الإرهاب" و"الحرب على الإرهاب" "حالة الطوارئ الاستثنائية القصوى" لتبرير أفعالهم. وعلى الجانب الآخر، لا يقبل مؤيدو الأخلاق الكانطية[6] "الاستثناء"؛ فأن يقتل أيُّ شخص أناسًا أبرياء لأمر خاطئ. سيقودنا هذا الأمر إلى نتائج تحكمية فلسفيًّا. وبينما يتم استخدام استثناء "الطوارئ القصوى" من الجانبين لتبرير عنفهما الخاص، يتم

---

(1) Michael Walzer, Just And Unjust Wars, (BasicBooks, 1992), p.252.

(2) Michael Walzer, ibid, p.259.

(3) Michael Walzer, ibid, p.254.

(4) John Rawls, ibid, p.98.

(5) Andrew Fiala, Terrorism and the Philosophy of History:Liberalism, Realism, and the Supreme Emergency Exemption,(Essays in Philosophy, April 2002).

(6) Immanuel Kant, Critique Of Practical Reason, Translated by James Creed Meredith (Oxford: Clarendon Press, 1978).

استخدام المقاربة الكانطية للوم الآخر. وبما أنه من غير المحتمل الوصول لإجماع للآراء حول إذا ما كانت أفعال العنف مقبولة أم لا، يلزم علينا أولاً أن نعمل لكي نتواصل بين الحضارات، وبعد ذلك يلزم علينا أن نجد مؤسسات قوية تساعدنا على تشييد دعائم السلام والمحافظة عليه.

تحاجج حنة آرندت Hannah Arendt بأن أفضل طريقة لحماية الأفراد من الأذى تكمن في المشاركة بشكل نَشِط في العملية السياسية[1]. وبالتالي، يجب أن يشارك المسلمون، حيث يعيشون كأقليات، في المجال العمومي/السياسي (الأمر نفسه يصحُّ كذلك للأقليات الأخرى الموجودة مع الأمم المسلمة). والأهم من ذلك مشاركة دول ذات أغلبية مسلمة في المنظمات الدولية. يمكن للمسلمين الاستفادة من حمايات المنظمات الدولية، ويمكن لهذه المنظمات أن تكون شرعية في أعين الجمهور المسلم. والإصلاح اللازم بالدرجة القصوى لفيتو مجلس الأمن الدائم للولايات المتحدة أمر هام[2]: يجب على الولايات المتحدة أن تقف بجانب الحق، لا جانب القوة. وبعد أخذ خطوات ثابتة لتحسين شرعيتها، يجب على الأمم المتحدة أن تُجهِّز اتفاقيات عادلة، والتي سوف تتضمن الدول المسلمة – باعتبارها من المتعاقدين النشطاء والمتساوين/ المكافئين –، وهو الأمر الذي سيُجنبنا الحرب ويؤمِّن سلامًا دائمًا.

يجب تشكيل العملية التواصلية على عديد المستويات دون مساعدة الأمم المتحدة أو تحديداتها. هؤلاء الذين يتوقون للسلام من كل جانب عليهم تجاهل هؤلاء الذين [لا يشتركون معهم في الهدف نفسه] وعليهم أن يحاولوا تحسين هذه العملية. يُلفت دريدا الانتباه لهؤلاء الموجودين على الجانب المسلم، والذين يحاولون بناء التواصل بدلًا عن العنف "يجب أن نساعد ما يسمى بالإسلام ومن يسمون بالعرب لتحرير أنفسهم من هذه الدوجمائية العنيفة. يجب أن نساعد هؤلاء الذين يقاتلون بشكل بطولي في هذا الاتجاه من الداخل، سواء كنا

---

(1) Hannah Arendt, The Origins Of Totalitarianism, (Harvest Books, 1973).

(2) Jurgen Habermas, America And The World, Interview with Eduardo Mendieta, www.logosjournal.com/habermas_america.htm

نتكلم عن السياسة بالمعنى الضيق للمصطلح أو عن تفسير للقرآن"[1]. ويجب على المسلمين استخدام المقاربة نفسها، من خلال اختيار هؤلاء الذين يبذلون جهودًا حثيثة للتواصل في الغرب.

يمكننا تحسين العملية التواصلية من خلال النضال ضد أسبابهم الاقتصادية، ومن خلال تشجيع لغة الحوار بدلاً عن لغة العنف. لو أمكننا تحرير أنفسنا من الخَطَّابَة التي يتم استخدامها كأداة تسويق للعنف، سنتمكن من التخلص من عقبة كبيرة على الطريق نحو الحوار والسلام. وسيكون النجاح الفلسفي الأكبر بخصوص هذا الموضوع هو أن نُظْهِرَ حتى عندما يكون "الأخلاقيون السياسيون" في موقع السلطة، أي المؤسسات القوية يجب تشييدها لحفظ السلام العالمي، وما هو مسار العملية التواصلية الذي سيحقق هذا الأمر.

(1) Jacques Derrida, ibid, p.113.

ببليوغرافيا

- Ahmad, Kassim. 1997. *Hadith: A Re-evaluation.* Fremont, CA: Universal Unity.
- Al-Faruqi, Ismail. 1982. *The Nature of Islamic Da'wah, in Christian Mission and Islamic Da'wah.* Leicester: The Islamic Foundation.
- Arendt, Hannah. 1973. *The Origins of Totalitarianism.* New York: Harvest Books.
- Arıboğan, Deniz Ülke. 2003. *Tarihin Sonundan Barışın Sonuna.* İstanbul: Timas Yayınları.
- Asad, Muhammad. 1996. *Kuran Mesajı.* Translated by Cahit Koytak and Ahmet Ertürk. İstanbul: İşaret Yayınları.
- Borradori, Giovanna. 2003. *Philosophy in a Time of Terror.* Chicago; London: The University of Chicago Press.
- Civelek, Mehmet Ali. 2001. *Küreselleşme ve Terör, Saldırganlık Gerçeği.* Ankara: Utopya Yayınevi.
- Coady, C. A. J. 1985. "The Morality of Terrorism." *Philosophy* 60.
- Coşkun, Ali. 2004. *Mehdilik Fenomeni.* İstanbul: İz Yayıncılık.
- Derrida, Jacques. 2003. "Autoimmunity: Real and Symbolic Suicides, a Dialogue with Jacques Derrida." In *Philosophy in a Time of Terror,* interviewed by Giovanna Borradori, translated by Pascale-Anne Brault and Michael Naas. Chicago, Ill.; London: The University of Chicago Press.

- Durmuş, M. Ali. 2003. *Haberlerin Işığında Mehdi.* Ankara: Anlam Yayınları.
- Elik, Hasan. 2004. *Dini Özünden Okumak.* İstanbul: Marmara Universitesi İlahiyat Fakültesi Vakfı Yayınları.
- Esposito, John L. 2002. *Unholy War.* New York: Oxford University Press.
- Fiala, Andrew. 2002. "Terrorism and the Philosophy of History: Liberalism, Realism and the Supreme Emergency Exemptio." *Philosophy* April-2002.
- Foucault, Michel. 2002. "Power, Right, Truth." In *Contemporary Political Philosophy,* ed. by Robert E. Goodin and Philip Pettit. Oxford: Blackwell Publishers.
- Habermas, Jurgen. 1985. *The Theory of Communicative Action,* Volume 1. Translated by Thomas McCarthy. Boston: Beacon Press.
- -------. 2003. "Fundamentalism and Terror: A Dialogue with Jurgen Habermars." In *Philosophy in a Time of Terror,* interviewed by Giovanna Borradori, translated by Luis Guzman and revised by Jurgen Habermas. Chicago, Ill.; London: The University of Chicago Press.
- -------. 2006. "America and the World, Interview with Eduardo Mendieta."

www.logosjournal.com/habermas_america.htm (15 April, 2006).

- Hamidullah, Muhammed. 1993. "Hudeybiye Antlasmasi." In *Türkiye Diyanet Vakfi İslam Ansiklopedisi.* Vol. 18. İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları.
- Hoffman, Bruce. 1998. *Inside Terrorism.* New York: Columbia University Press.
- Huntington, Samuel P. 1997. *The Clash of Civilizations and The Remaking of World Order.* New York: Simon and Schuster.
- Kant, Immanuel. 1978. *Critique of Practical Reason.* Translated by James Creed Meredith. Oxford: Clarendon Press.
- Kant, Immanuel. 1983. "To Perpetual Peace A Philosophical Sketch." In *Perpetual Peace and Other Essays,* translated by Ted Humphrey. Indianapolis: Hackett Publishing Company.
- Kapitan, Tomis. 2004. ""Terrorism" As a Method of Terrorism." In *Ethics of Terrorism and Counter Terrorism,* ed by G. Meggle. Heusenstamm: Ontos. ""
- Kapitan, Tomis. 2002. "The Rhetoric of Terrorism and Its Consequences." *Journal of Political and Military Sociology* Summer-2002.
- Karliga, Bekir. 2002. "Cihad ve Teror." *Karizma* March-2002.
- Kelsay, John. 1999. *Islam and War.* Louisville, Ky.: John Knox Press.
- Kırbaşoğlu, M. Hayri. 1999. *İslam Düşüncesinde Hadis Metodolojisi.* Ankara: Ankara Okulu Yayınları.

- ------. 2004. *Alternatif Hadis Metodolojisi.* Ankara: Kitabiyat.

- Machiavelli, Niccollo. 1955. *Discourses.* Translated by Leslie J. Walker. Baltimore: Penguin Books.

- Morgenthau, Hans J. 1978. *Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace.* New York: Alfred A. Knopf.

- Özaydın, Abdulkerim. 1997. "Hassan Sabbah." In *Türkiye Diyanet Vakfi İslam Ansiklopedisi.* Volume 16. İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı.

- Özel, Ahmet. 1993. "Cihad." In *Türkiye Diyanet Vakfı İslam Ansiklopedisi.* Volume 7. İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı.

- Pazarcı, Huseyin. 2005. *Uluslararaı Hukuk.* Ankara: Turhan Kitabevi.

- Rapoport, David C. 1991. "Some General Observations on Religion and Violence." *Journal of Terrorism and Political Violence* 3.

- Rawls, John. 2002. *The Law of Peoples,* Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

- Reich, Walter. 1990. *Origins of Terrorism.* Washington, D.C.: Woodrow Wilson Center Press.

- Schmidt, Alex & Albert Jongman, et al. 1988. *Political Terrorism.* New Brunswick: Transaction Books.

- Swetham, Michael S. & Yonah Alexander. 2001. *Bir Terorist Ağının Profili:Osama Bin Laden.* İstanbul: Guncel Yayincilik.

- Pennsylvania Commission on Crime and Delinquency. 2006. "Terrorism Definitions (28 Code of Federal Regulations, Section 0.85)." http://www.pa-aware.org/what-is-terrorism/pdfs/B-2.pdf (20 April, 2006).
- *The Quran.* 1994. A Contemporary Translation by Ahmed Ali. Princeton: Princeton University Press.
- *The Quran.* 1946. Translation and Commentary by A. Yusuf Ali. Durban: Islamic Propagation Center International.
- Yazır, Elmalılı M. Hamdi. "Hak Dini Kuran Dili." *Zehraveyn* 4.
- Sözen, Ahmet. 2002. "Küreselleşmenin Getirdikleri ve ABD'nin İkilemi." *Karizma,* Ocak-Subat-Mart.
- Said, Abdul Aziz & Meena Sharify-Funk. 2003. "Dynamics of Cultural Diversity and Tolerance in Islam." In *Cultural Diversity and Islam,* ed. Abdul Aziz Said & Meena Sharify-Funk. Lanham, MD: University Press of America.
- Tavlas, Nezih. 1995. "Teroru Tanımlamak." *Strateji Journal* 2.
- Walzer, Michael Walzer. 1992. *Just and Unjust Wars.* New York: Basic Books.
- Wittgenstein, Ludwig. 2001. *Philosophical Investigations.* Oxford: Blackwell Publishing.
- *The Quran.* 1946. Translation and Commentary by A. Yusuf Ali. Durban: Islamic Propagation Center International.

- Yazır, Elmalılı M. Hamdi. "Hak Dini Kuran Dili." *Zehraveyn* 4.

- Sözen, Ahmet. 2002. "Küreselleşmenin Getirdikleri ve ABD'nin İkilemi." *Karizma,* Ocak-Subat-Mart.

- Said, Abdul Aziz & Meena Sharify-Funk. 2003. "Dynamics of Cultural Diversity and Tolerance in Islam." In *Cultural Diversity and Islam,* ed. Abdul Aziz Said & Meena Sharify-Funk. Lanham, MD: University Press of America.

- Tavlas, Nezih. 1995. "Teroru Tanımlamak." *Strateji Journal* 2.

- Walzer, Michael Walzer. 1992. *Just and Unjust Wars.* New York: Basic Books.

- Wittgenstein, Ludwig. 2001. *Philosophical Investigations.* Oxford: Blackwell Publishing.

الفصل الثالث عشر
الله ليس في حاجة إلى دفاع من أحد

الحاج عبد الرحمن وحيد، رئيس إندونيسيا الأسبق
ترجمة: مؤسسة LibForAll[1]

كان الحاج عبد الرحمن وحيد Abdurrahman Wahid (1940 – 2009) أول رئيس ديمقراطي مُنتَخَب في إندونيسيا، وشغل منصب رئيس أكبر منظمة إسلامية، وهي منظمة "نهضة العلماء"، في الفترة من 1984 حتى 1999. ويتم النظر إليه باعتباره واحدًا من المفكرين المسلمين الروّاد في القرن العشرين، ويذيع صيته بسبب دفاعه عن الأقليات الدينية والعِرقيّة، وحرية الفكر والتعبير والضمير. تسلَّم الرئيس وحيد جائزة أصدقاء الأمم المتحدة للتسامح العالمي في عام 2003 وميدالية مركز سايمون ويزنتال Simon Wiesenthal للشجاعة في 2008. بجانب عديد انتساباته، كان عبد الرحمن وحيد مؤسسًا مشتركًا، ونصيرًا، ومن كبار مستشاري مؤسسة LibForAll والمعهد الدولي للدراسات القرآنية التابع للمؤسسة ذاتها، وقد تفضَّلَ المعهد مشكورًا، وبكل كرم، بمنحنا الإذن لإعادة طباعة هذه المقالة.

(1) يلزم توجيه الشكر لمؤسسة LibForAll لإمدادنا بهذه المادة، ونخص بالشكر الأستاذ هولاند تايلور C. Holland Taylor مؤسس ورئيس للمؤسسة. (المحرر).

كتب مصطفى بصري[1] في قصيدته الله أكبر "لو كَفَرَ سكان الأرض قاطبةً (6 بليون إنسان)؛ وهم الذين لا يَزِنُون مقدار ذرة من الغبار، بالله أو آمنوا به، فإن ذلك لا ينتقص شيئًا من عظمته".

فإن أحدًا (أو شيئًا) لا يمكنه أبدًا أن يضر الله ذا القدرة الكلية والوجود المطلق والحقيقة الأزلية. وانطلاقًا من أن الله هو الرحمن الرحيم، فإنه لا يعادي أحدًا. وهكذا فإن من يزعمون أنهم يدافعون عن الله أو النبي أو الإسلام؛ إما أنهم يخدعون أنفسهم، أو أنهم يتلاعبون بالدين لخدمة أغراضهم الدنيوية السياسية الخاصة، وهو ما ظهر جليًا في موجة الغضب المفْتَعَل التي اجتاحت العالم الإسلامي منذ عدة سنوات، كَرَدٍّ فعلٍ على الصور الكاريكاتورية المسيئة للنبي التي نشرتها إحدى الصحف الدنماركية. والحق أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم الأكثر فهمًا وإحاطة بمشيئة الله وإرادته، ويسعون بجرأة إلى فرض فهمهم المحدود لتلك المشيئة على الآخرين، إنما يقعون في الشرك - ولو دون دراية - لأنهم يضعون أنفسهم في موضع الند المساوي لله.

إن واجبنا كمسلمين أن نسأل أنفسنا: لماذا تنعدم حريات التعبير والاعتقاد في كل ما يُسمى بالعالم الإسلامي؟ وذلك بدلًا عن أن ندين بخشونة معتقدات الآخرين وأقوالهم، أو نروِّعهم بالتهديد والعنف لإكراههم وتقييد حريتهم؛ على نحو ما يفعل مَنْ يسنون القوانين لخدمة مصالحهم الخاصة، مثل المادة C-295 من القانون الجنائي الباكستاني الخاصة بتجريم "تدنيس اسم النبي محمد"، والتي تحكم بالموت على من يقترف تلك الجريمة بوصفه مشركًا. وبحسب تعريف محكمة الشريعة الفيدرالية الباكستانية لهذه المادة، فإنها تتضمن ما يلي:

"سب النبي أو إهانته شفويًا أو كتابة، أو التحدُّث عنه وعن آله على نحو ينطوي على المهانة والازدراء، والتهجُّم على شرفه وكرامته على نحو مُسيء، والحطّ

---

(1) ينحدر من سلالة ممتدة من القادة الدينيين من ذوي النفوذ والتأثير، ويرأس الشيخ الحاج مصطفى بصري Kyai Haji Mustofa Bisri مدرسة روضلاتوث ثوليبان Raudlatuth Tholibin الداخلية الإسلامية في ريمبانج بجاوة الوسطى. ويوقره الجميع كعالم دين وشاعر وروائي ورسام ومثقف مسلم. وقد ترك تأثيرًا قويًا على التطور الاجتماعي والتعليمي والديني لجماعة نهضة العلماء على مدى الثلاثين عامًا الماضية.

من قدره وإظهار عدم التأدب عند ذكر اسمه، وإظهار العداوة والكراهية له أو لأهله وصحابته والمسلمين، أو الافتراء عليه وعلى آله؛ وبما يتضمنه ذلك من نشر ما يسيء إليه وإلى أهله، والاعتراض على ما قرره وحكم به بأي طريقة، وإنكار السنة أو ازدرائها وعدم احترامها، وإنكار حقوق الله ورسوله، والتمرد عليهما"[1].

والحق أن مثل تلك القوانين القمعية ذات الصياغة المبهمة عن عمد تؤدي - بدلًا عن صون الله أو الإسلام أو النبي - إلى تقوية شوكة أصحاب الأجندات السياسية؛ وبحيث تعمل "كسيف ديموقليس Damocles" لا على مجرد تهديد الأقليات الدينية فحسب، بل وحق غالبية المسلمين أنفسهم في الحديث عن دينهم بحرية، دون أن تهددهم ثورات غضب الأصوليين الذين لا يجاوز ما يدعونه من "الدفاع عن الدين" حدود أنه مجرد ذريعة لمبالغتهم في تقدير قيمة أنفسهم، وذلك مع ملاحظة أن قوتهم تظهر من خلال الحكومات وسواد الناس.

وليس بمقدور أي مُلاحِظ موضوعي أن ينكر أن المجتمع الباكستاني - مثل الكثير من المجتمعات الإسلامية - قد غرق في موجة من العنف نتيجة لتلك القوانين التي يؤشر وجودها على حضور التطرُّف الديني وافتقاد الروحانية الحقَّة التي يؤدي غيابها إلى أن يظل المعنى العميق للإسلام وغايته النبيلة محجوبين عن الفهم الإنساني.

فالحق أن ما يقرره الأمر القرآني في الآية الذائعة "لا إكراه في الدين"- والذي سبق المادة 18 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا[2]- ينبغي أن يكون مصدر إلهام وهداية للمجتمعات الإسلامية إلى طريق الحرية والتسامح الديني.

ويُشار هنا إلى أن كلمة "الشريعة" تشير في معناها القرآني الأصلي إلى "الطريق إلى الله"، وليس إلى جملة ما تم سنُّه من قوانين على مدى القرون

(1) Mohammad Asrar Madani, Verdict of Islamic Law on Blasphemy and Apostasy. Lahore, Pakistan: Idara-e-Islamiat, 1994.

(2) لكل إنسان الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويتضمن هذا الحق حرية المرء في تغيير دينه ومعتقده، وحريته سواء كفرد أو بمجتمع مع غيره في الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها.

اللاحقة لوفاة النبي. ومن هنا أنه من الضروري، عند النظر في الأحكام المتعلقة بالرِّدَةِ والزندقة، أن نمايز بين القرآن - الذي يمثل المادة الأولية للكثير من القوانين والأحكام الإسلامية - وبين تلك القوانين والأحكام نفسها. لأنه وبالرغم من إلهية مصدرها وهو القرآن، فإنها تبقى من صنع الإنسان؛ وبما يجعلها موضوعًا للتأويل والمراجعة بالتالي.

وعلى سبيل المثال، فإن عقوبة الردة هي جزءٌ من تراث فرضته الظروف التاريخية والحسابات السياسية التي تعود إلى الحقبة المبكرة لتاريخ الإسلام؛ حينما جرت مطابقة الرِّدَة مع الفرار من جيش الخليفة وعدم الانصياع لسلطته؛ وبما ينطوي عليه ذلك من دلالة الخيانة العظمى والتمرُّد. ومن هنا فإنه ينبغي النظر إلى فرض هذه العقوبة القاسية للردة على أنه نتاج تاريخي وسياسي ثانوي لتلك الظروف التي تحددها حسابات وملاءمات إنسانية؛ وذلك بدلًا عن افتراض أن الإسلام والشريعة يفرضان للأبد هذه العقوبة على من يقوم بتبديل دينه.

وقد أدى التطور التاريخي واستخدام لفظ "الشريعة" للإشارة إلى جملة ما جرى سنّه وفرضه من قوانين وأحكام، بغير العارفين لهذا التاريخ إلى الخلط بين تلك القوانين والأحكام التي صاغها الإنسان، وبين الوحي؛ وبما يعنيه ذلك من التعالي بما هو محض نتاج للفهم الإنساني - الذي هو مشروطٌ دومًا بتحديدات الزمان والمكان - إلى مقام الإلهي.

والحق أن الفهم الصحيح للشريعة يكشف عن أنها تتضمن وتُعَبِّر عن منظومة القيم الإنسانية الخالدة؛ وأما ما يُسمى بالقانون الإسلامي فإنه نتاج الاجتهاد الذي يعتمد على الظروف (حيث الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا)، وهو ما يجعله في حاجة إلى مراجعة دائمة طبقًا للتغيُّر الدائم للظروف والأحوال؛ وذلك لكيلا يصبح هذا القانون جامدًا مصمتًا، وغير مناسب للزمان وللظروف التي يعيشها المسلمون الآن، بل وغير متناسب مع القيم الخالدة للشريعة.

وعلى مدى التاريخ الإسلامي، فإن العديد من الفقهاء المسلمين الكبار قد كانوا على دراية عميقة بتراث التصوُّف، كما أقروا بالحاجة إلى إيجاد نوع من التوازن بين حَرفية القانون من جهة، وبين روحه من جهة أخرى. والحق أن الحسَّ الإنساني العميق والطبيعة الروحية للتصوف الإسلامي قد أتاحت

للإسلام التكيُّف بيسر مع الممارسات الاجتماعية والثقافية المختلفة؛ حيث انتشر الإسلام على رقعة واسعة تمتد من الجزيرة العربية التي شهدت مولده إلى المشرق وشمال أفريقيا والساحل والصحراء الإفريقية وفارس وأسيا الوسطى وجنوبها وأرخبيل الهند الشرقية. وفي تقدير الكثيرين أن غالبية المسلمين في معظم تلك الأقاليم قد اختطوا لأنفسهم شكلًا في ممارسة التقوى الدينية يرجع أصله للتصوُّف سواء على نحو مباشر أو غير مباشر. ولعل عظمة تراث الفن والعمارة الإسلاميين - من عجائب فاس وغرناطة إلى إسطنبول وأصفهان وسمرقند وأجرا- لتشهد طابورًا طويلًا من أقطاب التصوف والطوائف [أو النقابات الحِرَفِيَّة في العصور الوسطى، والتي كانت تتشكل من اتحاد لرجال يشتغلون في تجارة محددة للحفاظ على علو قيمة منتجاتهم ليجنوا أكبر قدر ممكن من الفائدة] والفنانين الذين يعملون منفردين، والذين جاهدوا كأفراد وطوائف "لإضفاء العظمة والجلال على المادة، ليتسنى لهم تحويل البيئة التي صنعها الإنسان بيده إلى مُناظر حقيقي للطبيعة، وفسيفساء من أعاجيب إلهية تكشف في كل مكان عن عمل الإنسان كخليفة لله على الأرض"[1].

والحق أن عظمة الحضارة الإسلامية الكلاسيكية - التي تجسِّد قيم الشمولية الإنسانية والكونية- إنما تنبع من النضج العقلي والروحي الذي نشأ عن صهر المؤثرات العربية والإغريقية واليهودية والمسيحية والفارسية. ولقد كان مما أبكاني في أثناء زيارتي لفاس بالمغرب قبل عدة سنوات هو رؤيتي لشرح ابن رشد للأخلاق النيقوماخية[2]؛ فلم يزل باقيًا ومحفوظًا. وإذا لم يكن ذلك من أجل أرسطو ونَصّه الكبير، فلأنه كان يمكن أن يكون أنا نفسي (دون هذا التراث الغني) مسلمًا أصوليًا متطرفًا.

---

(1) Seyyed Hossein Nasr سيد حسين نصر in Persia, Bridge of Turquoise, 1975, New York Graphic Society.

(2) يعتبر Nicomachian Ethics أو Nicomachean Ethics من أهم أعمال أرسطو في الأخلاق، وفيه ينظم القيم كما تم فهمها بشكل لائق في عصره من خلال تحديد ما يستقيم أخلاقيًا في كل موقف وما يتم اعتباره خاطئاً على المستوى الخلاقي، وقد كتبه أرسطو في 10 كُتب عام 350 ق.م. (المترجم).

ويُشار هنا إلى أنه من العوامل العديدة التي ساهمت في الانحطاط التاريخي المديد لحضارة العرب والمسلمين على العموم ووقف حائلًا دون إسهامهم في تطور العالم الحديث، هو ما تحقق من انتصار الإكراهات الدينية المعيارية (الصورية) على التراث الكلاسيكي للنزعة الإنسانية الإسلامية. فإن امتصاص المؤثرات الأجنبية، وخصوصًا في حقل التفكير التأملي وبناء الفرد والعلوم العقلية المسْتَقِلة التي لا تخضع لإكراهات النزعة المدرسية الدينية، قد تعرض للانسحاق أمام آليات السيطرة الذاتية التي مارستها السلطات الدينية والحكومية؛ على نحو أصاب المجتمعات الإسلامية بالشلل.

ولا تزال تلك الآليات نفسها تعمل في عالمنا المعاصر، ليس فقط في شكل قوانين الردة والزندقة التي تضيق معها حدود الخطاب المقبول في العالم الإسلامي، والتي تمنع المسلمين من التفكير بحرية "خارج الصندوق"، ليس في الدين فقط، بل وفي غيره من مجالات الحياة والأدب والعلم والثقافة على العموم.

فهم الدين هو عملية مفتوحة

يعيش كل من يسعى مخلصًا إلى فهم دينه في عملية تطوير دائمة ومفتوحة لهذا الفهم، لأن خبرته واستبصاراته تؤدي به إلى نوع من الإدراك المتجدد للحقيقة. ومن هنا ما يقوله الله في كتابه العزيز: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" (41 : 53).

فإنه لا شيء في الوجود مُكتفٍ بذاته إلا الله. فكل واحدٍ من الكائنات الحية يعتمد في وجوده على الآخر، وكلها تدين بوجودها لله. ولأنها توجد في الزمان والمكان، فإن إدراك الواحد من مخلوقات الله للحقيقة يختلف عن إدراك الآخر، لأنه يكون مشروطًا بالمعرفة والخبرات الشخصية لكل واحدٍ منهم.

وكما سبقت الإشارة، فإن القرآن يرى أن العالم، وأن كل معرفة يمكن أن نتحصّل عليها منه، هي مجرد آيات ترشدنا إلى معرفة الله. وقد مايز العلماء المسلمون تقليديًا بين ثلاثة أصناف من المعرفة: الأول منها هو "علم اليقين" الذي هو علم استدلالي، وموضوعه المعرفة التي يشيع النظر إليها من العلماء والمثقفين ورجال الدين على أنها معرفة صادقة. وثانيها هو "عين اليقين" الذي

ينطوي على مستوى أعلى من الصدق مقارنة بالنوع الأول؛ حيث يشهد المرء فيه، على نحو مباشر، أن معارفه حول ظاهرة موضوعية ما معارفٌ صادقة ودقيقة. وأما النوع الثالث فهو "حق اليقين" الذي هو المعرفة الكاملة التي تتحقق بالخبرة الشخصية المباشرة؛ وتتمثل في اتصال أولياء الصوفية بالله.

إن الحقيقة المتعلقة بإشارة القرآن إلى الله على أنه "الحق" في غاية الدلالة. وإذا كان على المعرفة الإنسانية - والحال كذلك - أن تبلغ "الحق"، فإن الحرية الدينية تكون أمرًا في غاية الضرورة والحيوية. وهكذا فإن البحث عن "الحق" سواء من خلال العقل أو الذوق أو أي أشكال متنوعة من الممارسة الروحية، لا بد أن يكون مسموحًا به بحرية ودون أي تضييق. ودون الحرية لن تقدر الروح الإنسانية أن تبلغ الحق المطلق الذي هو بطبيعته حرية غير مشروطة.

إن الجهود العقلية والذوقية هي مجرد مقدمات في طريق البحث عن "الحق". وإن هدف المرء كمسلم أن يسلّم أمره لله أو الحق المطلق؛ وليس للمفاهيم العقلية والذوقية الموصلة للحقيقة القصوى. ودون الحرية فإن الإنسان يمكنه فقط أن يحقق إشباعه الذاتي من خلال نوع من المعرفة الظنية بالحق؛ وذلك بدلًا عن معرفة الحق الخالص نفسه.

إن الاستعداد الروحي لكل فرد يلعب بالضرورة دورًا حاسمًا في إمكان بلوغه "الحق"؛ حتى أن التعبير الخاص عن الحق كما يفهمه شخصٌ ما يمكن أن يختلف عن التعبير الذي يخص شخصًا آخر. ويُقَدِّر الإسلام تلك الاختلافات، كما يُقَدِّر الحرية الدينية نفسها؛ حيث يعترف لكل إنسان بالحق في أن يعرف الله بحسب ما تفرضه ممكناته وميوله الخاصة؛ وهو ما يُعَبِّر عنه الحديث القدسي[1] القائل: "أنا عند ظن عبدي بي". وبالطبع فإن مجاهدة المرء (من جذر كلمة جهاد نفسها) لكي يعرف الله لا بد أن تكون أصيلة ومخلصة لكي تقوده إلى حالٍ من السمو الذاتي؛ وهي الحال التي يعاين فيها البشر حضور الله الذي لا يقبل الوصف، كما يعاينون فناءهم في حضرته. وغالبًا ما يرفض

(1) ينظر المسلمون إلى الحديث القدسي على أنه كلمات الله التي أعاد النبي ترديدها، وتم تسجيلها بحسب شروط الإسناد (سلسلة التَّثبُّت المكوَّنة من الشهود الذين سمعوا النبي يقول الحديث).

الأصوليون تلك الأفكار، بسبب معارفهم الضحلة بالدين، وبسبب فقرهم الروحي. فإنه يجب، بالنسبة لهم، معرفة الله على نحو من التنزيه الكامل، وعلى أنه أبعد من أنْ يبلغه أحدٌ من البشر؛ وبكيفية لا يمكن معها لأي إنسان أن يأمل في معاينة الحضرة الإلهية. وتلك الرؤى مغلوطة تمامًا؛ لأن القرآن نفسه يذكر: "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّه" (2 : 115).

لا يمكن لشيء ما أن يمثل قيدًا على الحق المطلق. ويؤكد الصوفية- الذين يسعون إلى أن يبلغوا بالمسلمين النوع الثالث من المعرفة "حق اليقين"- على قيمتي الحرية والتنوع؛ لكونهما انعكاسًا لإرادة الله ومشيئته، ولأنهما يحولان دون الخلط المتعمد بين الفهم الإنساني (الذي هو محدود ويقبل الخطأ) وبين العلم الإلهي. ومن جهة أخرى، فإن الإيمان والإسلام لا يكفيان في مستواهما العقلي فقط، بل لا بد أن يجاهد المسلم على نحو دائم لكي يعاين الحضور الإلهي (الذي هو الإحسان). فإنه دون هذه المعاينة للحضور الإلهي، ستظل الممارسة الدينية للمسلم ذات طابع نظري فقط؛ وبما يعنيه ذلك من أن الإسلام لم يصبح حقيقة مُعاشة ومُخْتَبَرَة بعد.

والملاحظ أن الإكراهات والعقوبات المفروضة على حرية البحث والتعبير الدينيين، تعيق الفاعلية التطورية المتنامية لعملية الفهم الديني وتحكم عليها بالاضمحلال والجمود؛ وذلك عبر الخلط بين ما تقدمه السلطة التي تمارس الإكراه من فهم آنٍ ومحدود للحقيقة وبين الحقيقة نفسها؛ وبحيث ينتهي الأمر بها إلى تحويل الدين من كونه طريقًا (أو وسيلة) إلى الله، إلى أن يصبح هو نفسه الغاية التي تحتل مكان الله؛ وهي غاية تفرض حدودها وتعيِّن ملامحها تلك السلطة التي تستهدف تحقيق القوة الدنيوية.

وبمقدورنا رؤية تلك الإكراهات، وهي قيد العمل، في المحاولات التي تقوم بها منظمة المؤتمر الإسلامي OIC، والجمعية العامة للأمم المتحدة، ومجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، لتقييد حرية التعبير وفرض حظر عالمي ملزم على أي نقد للإسلام، لمنع ما يُسمى بازدراء الأديان. وسواء كان الدافع لهذه الجهود الاهتمام المخلص بأمور الإنسانية، أو الحسابات السياسية، فإنها جهود بائسة مضللة؛ لأنه يتم استغلالها مباشرة من جانب الأصوليين الذين يرغبون في

تفادي أي نقدٍ لمحاولتهم تضييق مجال الخطاب المتعلق بالإسلام، ولمحاولتهم إدخال مليار وثلاثمائة مليون مسلم إلى سجن الدوجماطيقية الضيق الخانق.

وإذا كان الاهتمام بالعداء الموجّه للإسلام والمسلمين أمر حيوي ومشروع، فإنه ينبغي الإقرار بأن السبب الأعظم لذلك العداء يتمثل في سلوك قطاع من المسلمين أنفسهم، وأعني بهم أولئك الذين ينشرون نوعًا من الفهم المتزمت العنيف والرجعي والعنصري للإسلام؛ وهو الفهم الذي يثير ويثبِّت مخاوف غير المسلمين وأحكامهم المسيئة للإسلام والمسلمين على العموم.

إن على الحكومات الغربية- بدلًا عن الكبح القانوني لأعمال النقد والمناظرة؛ الذي يؤدى فحسب إلى تشجيع جهود الأصوليين المسلمين في فرض فهم للإسلام آحادي ومتزمت وخالٍ من الروحانية على العالم بأسره- أن تدافع بحزم عن حرية التعبير على نطاق عالمي، وليس في الدول الغربية فقط، كما تنص على ذلك المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[1].

إن هؤلاء الذين يجاهدون بتواضع من أجل أن يسلّموا أمرهم لله حقًا، لا يزعمون أنهم يفهمون الحق أفضل من غيرهم، بل إنهم يقنعون بالعيش في سلام مع الآخرين، رغم ما قد يكون بينهم وبين هؤلاء الآخرين من اختلاف في الرؤى والسبل.

إن الدفاع عن حرية التعبير لا يعني على الإطلاق الحضّ على عدم احترام معتقدات الآخرين؛ بل إنه يضمر إيمانًا بحكم الله أعظم من الإيمان بحكم البشر. وبعيدًا عن أخبار الاضطرابات والعنف اليومية، فإن الغالبية العظمى من مسلمي العالم يداومون على التعبير عن حبهم للنبي؛ وذلك بالسعي إلى التأسّي بما تعلموه عن حياته المسالمة المتسامحة، ودون أن يمارسوا سلوكًا عنيفًا حتى ضد هؤلاء الذين يستخفون بنبيهم، أو يزعمون امتياز وسمو فهمهم للحق. فمثل هؤلاء المسلمين يعيشون طبقًا لنصِّ الآية القرآنية: " وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (25 :63).

---

(1) "لكل إنسان الحق في حرية الرأي والتعبير، ويتضمن هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل، واستقاء المعلومات والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأي وسيلة، دون التقيُّد بالحدود الجغرافية".

كيـلي حيمـس كـلارك



فـي عصـور الاضطرابـات القصـوى التـي تعصـف بعالمنـا علـى جميـع المسـتويات، ويتزايـد الإقبـال علـى المقـولات التـي تهاجـم الديـن، تبـزغ الحاجـة إلـى مائـدة حـوار يتلاقـى عليهـا جميـع الأطـراف، وأقصـد المؤمنيـن بالديانـات الإبراهيميـة التـي تُوجَّـه إليهـا أصابـع الاتهـام ويتـم تحميلهـا كل شـرور العالـم المعاصـر (وبالأخص الإسلام).

فـي هـذا الكتـاب، يتحـدث كل مؤمـن مـن داخـل نسـقه الاعتقـادي الخـاص، لا يتحـدث أحـد بالنيابـة عـن إيمـان آخـر، ويسـتخرج جـذور وأسـس التعاطـف والتسـامح والسـلام، بـل ويتـم الذهـاب لمـا هـو أبعـد مـن ذلـك عبـر مقاربـات نقدية معرفية للمفاهيم الإنسانية الكونية ومصطلحات الحداثة.

إن كنت راغبًا في الاستماع للآخر، لا إدانته، انضم لأبناء إبراهيم، وناقش.


9 789774 281372

الغـــلاف:
عبـــد الرحمـــن الصـــواف

